

2271
46525
. 317
. 11
v.2

2271.46525.317.11 v.2
Ibn Kathir
al-Bidayah wa-al-nihayah fi
al-tarikh

DATE	ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

JUN 31 '79

DOE JUN 15 1984

DOE JUN 15 1984

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR

32101 025261213

1997 MAR 13
1997 MAR 13

UAR, 3999, Abulfeda.
(vol. 2)

البداية والنهاية في التاريخ

للامام العالم الخافظ عماد الدين أبي الفداء

اسماعيل بن عمر بن كثير السافعي المصنف المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح

محمد عبد العزيز النجد

المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم
باجهورية العربية المتحدة

الجزء الثاني

طبعة جديدة منقحة كاملة

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بميدان الأزهر - تليفون ٩٠٦٥٨٠

البداية والنهاية في التاريخ

للإمام العالم الحافظ عماد الدين أبي الفداء « إسماعيل
ابن عمر بن كثير » السافعي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح

محمد بن العزيز النجد

المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم
بالجمهورية العربية المتحدة

الجزء الثاني

طبعة جديدة منقحة كاملة

إن شاء الله

يطلب من

مكتبة الفلاح

شارع البطحاء بالرياض

مطبعة الفيحاء الجديدة

شارع القويسني بالظاهر - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام

ثم نبعثهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام . قال ابن جرير في تاريخه : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم - أن القائم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع ؛ كالب بن يوفنا - يعنى أحد أصحاب موسى عليه السلام - وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب . وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد : (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قال ابن جرير : ثم من بعده كان القائم بأمر بني إسرائيل - حزقييل بن بوزى ، وهو الذى دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

قصة حزقييل

قال الله تعالى : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون^(١)) . قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حزقييل بن بوزى . وهو ابن العجوز ، وهو الذى دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) ، قال ابن إسحاق : فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض ، فقال لهم الله موتوا فاتوا جميعاً ، فحظروا^(٢) عليهم حظيرة دون السباع ، فضت عليهم دهور طويلة ، فمر بهم حزقييل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً ، فقيل له : أحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال نعم . فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكفى لحماً ، وأن يتصل العصب بعضها ببعض . فناداهم عن أمر الله له بذلك ، فقام القوم أجمعون ، وكبروا تكبيرة رجل واحد .

وقال أسباط عن السدى عن أبي مالك ، وعن أبي مالك عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة في قوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) - قالوا : كانت قرية يقال لها « ذاوردان » قبل واسط ، وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها ، فهلك من بقى في القرية ، وسلم الآخرون فلم يمت منهم

(٢) أى اتخذوا حظيرة .

(١) الآية : ٢٤٣ من سورة البقرة

كثير . فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا ، لو صنعنا كما صنعوا بقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم . فوقع في قابل فهربوا ، وهم بضعة وثلاثون ألفاً ، حتى نزلوا ذلك المكان ، وهو واد أفيج ، فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه : أن موتوا ، فاتوا ، حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم — مر بهم نبي يقال له حزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شذقيه وأصابه ، فأوحى الله إليه : تريد أن أريك كيف أحييهم ؟ قال — نعم . وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد ، فنادى يأيها العظام ! إن الله يأمرك أن تجتمعى ، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض ، حتى كانت أجساداً من عظام ، ثم أوحى الله إليه أن ناد ، فنادى يأيها العظام ! إن الله يأمرك أن تكنسى لحماً ، فاكنتس لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها ، ثم قيل له ناد ، فنادى : أيتها الأجساد ! إن الله يأمرك أن تقوى فقاموا . قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت . فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ؛ سحنة الموت على وجوههم ، لا يلبسون ثوباً إلا عاد رسماً ، حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم . وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه ثمانية آلاف ، وعن أبي صالح تسعة آلاف ، وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً . وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات .

وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مثل — يعنى أنه سيق مثلاً مبيناً ؛ أنه إن يغنى حذر من قدر ، وقول الجمهور أقوى إن هذا وقع . وقد روى الإمام أحمد وصاحبنا الصحيح من طريق الزهرى ، عن عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس : أن عمر ابن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرخ^(١) لقيه أمراء الأجداد : أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام ، فذكر الحديث — يعنى فى مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه ، فجاهد عبد الرحمن بن عوف — وكان متغيباً ببعض حاجته — فقال : إن عندى من هذا علماً ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف . وقال الإمام : حدثنا حجاج ويزيد المفتى قالوا حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة : أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر — وهو فى الشام — عن النبي ﷺ « إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم ، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » . قال فرجع عمر من الشام . وأخرجه من حديث مالك عن الزهرى بنحوه . قال محمد بن إسحاق : ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل فى بنى إسرائيل . ثم إن الله قبضه إليه ، فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم ، وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان . وكان فى جملة ما يعبدونه

(١) قال فى القاموس : سرخ — موضع قرب الغمام بين الغيبة وتبوك .

من الأصنام صنم يقال له « بعل » ، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون ابن عمران . قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر ؛ لأنهما يقرنان في الذكر غالباً ، ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات ، فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم . قال محمد بن إسحاق - فيما ذكر له عن وهب بن منبه - قال : ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام . وهذه :

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله : (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ^(١)) ، وقال تعالى في سورة ص : (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ^(٢)) . قال إسحاق بن بشر - أبو حذيفة : أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ماشاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله ، مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته ، حتى قبضه الله عز وجل إليه . ثم خلف فيهم الخلوف ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ، وكثرت الجبارة وقتلوا الأنبياء . وكان فيهم ملك عنيد طاغ ويقال إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع - دخل الجنة ، فسمى ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب ، وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف الياء من تاريخه : اليسع هو الأسباط بن عدى بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، ويقال هو ابن عم إلياس النبي - عليهما السلام ، ويقال كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده . ذكر ذلك عبد المنعم ابن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه . قال : وقال غيره وكان بيانياس . ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف وبالتشديد ، ومن قرأ واليسع ^(٣) . وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء . قلت قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام ؛ لأنه قد قيل إنه ابن أيوب ، فإله أعلم .

فصل

قال ابن جرير وغيره : ثم مَرَجَ ^(٤) أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا ، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم . وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً . وكانوا إذا قتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان ، كما تقدم ذكره ؛ فكانوا ينصرون ببركته ، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون . فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان - غلبهم

(١) الآية : ٨٦ (٢) الآية : ٨٨ (٣) أي بادخال اللام عليه كما أدخلت في الزيد . وصاحب هذه القراءة : حزة والكسائي . (٤) أي اختلط واضطرب

وقهروهم على أخذه ، فانتزعوه من أيديهم ، فلما علم بذلك ملك بنى إسرائيل في ذلك الزمان ، مالت عنقه فمات كدأ . وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راع ، حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له « شمويل » ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما سئد كره مما قص الله في كتابه . قال ابن جرير : فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل ابن بالى - أربعمائة سنة وستون سنة . ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم ، وسماهم واحداً واحداً ، وقد تركنا ذكرهم قصداً .

قصة شمويل « عليه السلام » ، وفيها بدأ أمر داود « عليه السلام »

هو شمويل ، ويقال له : أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة ابن ماحث بن عموصا بن غزريا . قال مقاتل : وهو من ورثة هارون ، وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلقافا ، ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا ، فالله أعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة ، والثعلبي وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان - على بنى إسرائيل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ، ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى جعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل . ومعناه بالعبرانية « إسماعيل » أى سمع الله دعائى . فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ؛ ليتعلم من خيره وعبادته فكان عنده . فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد ، فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعو ، فسأله : أدعوتنى ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم . ثم ناداه الثانية فكذلك ، ثم الثالثة فإذا جبريل يدعو ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك ، فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه . قال الله تعالى في كتابه العزيز : (ألم تر إلى الملائكة من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين * وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ؟ ولم يؤت سعة من المال ؟ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم * وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ؛ فمن شرب منه فليس

منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى . إلا من اغترف غرفة بيده ، فشرى بها منه إلا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا لا طاقه لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين * فهزمهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين^(١) .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة - هو « شمویل » ، وقيل شمعون ، وقيل هما واحد ، وقيل يوشع وهذا بعيد ؛ لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثة شمویل - أربع مائة سنة وستين سنة ، فإله أعلم .
والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء - سألوا نبي الله في ذلك الزمان ، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكا يكونون تحت طاعته ؛ ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء ، فقال لهم : (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله) أى وأى شيء يمنعنا من القتال ؟ (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) ، يقولون نحن محروبون موتورون ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم . قال تعالى : (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) كما ذكر في آخر القصة : أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل ، والباقيون رجعوا ونكأوا عن القتال . (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) قال الثعلبي : وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدى : كان سقاء ، وقال وهب بن منبه : كان دباغاً . وقيل غير ذلك ، فإله أعلم .
ولهذا : (قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟) وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوى ، وأن الملك كان في سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين - نمرؤ منه ، وطعنوا في إمارته عليهم وقالوا : (نحن أحق بالملك منه) . وذكروا أنه فقير لاسعة من المال معه ، فكيف يكون مثل هذا ملكا ؟ (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) .
قيل كان الله قد أوحى إلى شمویل : أن أى بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا ، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذى فيه من دهن القدس - فهو ملكهم ، فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا ، فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ، ولما حضر عند شمویل فار ذلك القرن فذهنه منه

وعينه الملك عليهم ، وقال لهم : (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم) ؛ قيل في أمر الحروب ، وقيل بل مطلقاً (والجسم) قيل الطول ، وقيل الجمال . والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام . (والله يؤتي ملكه من يشاء) فله الحكم وله الخلق والأمر (والله واسع عليم *) وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم ؛ أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سلب منهم ، وقهرهم الأعداء عليه ، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ، (فيه سكينه من ربكم) قيل طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء ، وقيل السكينه مثل الريح الخجوج^(١) وقيل صورتها مثل الهرة ، إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) ، قيل كان فيه رضاض^(٢) الألواح وشيء من المن الذي كان نزل عليهم بالتيه (تحمله الملائكة) أي تأتيكم به الملائكة يحملونه وأتم ترون ذلك عياناً ؛ ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم ، وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ، ولهذا قال : (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) .

وقيل إنه لما غلب المعاقبة على هذا التابوت - كان مافيه ما ذكر من السكينه والبقية المباركة . وقيل كان فيه التوراة أيضاً ، فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم ، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم ، فوضعوه تحته . فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم . فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى ؛ فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم ، فأخذهم داء في رقابهم . فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوها ، فيقال إن الملائكة ساقتهما حتى جاءوا بهما ملاً بنى إسرائيل وهم ينظرون ، كما أخبرهم نبيهم بذلك ، فإله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة . والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم بالجنود من الآية ، والله أعلم . وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم .

(فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده) . قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هذا النهر هو نهر الأردن وهو المسمى بالشرية ، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر ، عن أمر نبي الله له ، عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً - أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى في هذه الغزوة ، ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه ، إلا غرفة في يده . قال الله تعالى : (فشربوا منه إلا قليلاً منهم) . قال السدي : كان الجيش

(١) هي الريح العديدة المر ، أو الملتوية في هبوبها . (٢) أي فتاتها بعد أن تكسرت ، والرض : الدق والجرش .

ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً ، فبقى معه أربعة آلاف ، كذا قال . وقد روى البخارى في صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى عن ابن إسحاق عن البراء بن عازب قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدّة أصحاب بدر - على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن . وقول السدى : أن عدّة الجيش كانوا ثمانين ألفاً - فيه نظر ؛ لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً ، والله أعلم .

قال الله تعالى : (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم ، بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم ، (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) يعنى بها الفرسان منهم ، والفرسان أهل الإيمان والإيقان ، الصابرون على الجلال والجدال والطعان .

(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) ، طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر - أى يفرمهم به - من فوقهم ، فاستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعتك الأبطال ، وحومة الوغى والدعاء إلى النزال ، فسألوا التثبيت الظاهر والباطن ، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه ؛ من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه . فأجابهم العظيم القدير ، السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا ، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا ، ولهذا قال : (فهزموهم بإذن الله) أى بحول الله لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم ، مع كثرة أعدائهم ، وكال عددهم ؛ كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأتم أذلة فأتقوا الله لعلكم تشكرون) . وقوله تعالى : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) - فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام ، وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسره ، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه ، فيغتم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان . ويدال^(١) لأولياء الله على أعدائه ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه .

وقد ذكر السدى فيما يرويه : أن داود عليه السلام ، وكان أصغر أولاد أبيه - وكانوا ثلاثة عشر ذكراً - كان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يجرى بنى إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوجته بابنتي ، وأشركته في ملكي . وكان داود عليه السلام يرمى بالقذافة - وهى المقلاع - رمياً عظيماً . فبينما هو سائر مع بنى إسرائيل إذ ناداه حجر : أن خذنى فإنى بى تقتل جالوت فأخذه ، ثم حجر آخر كذلك ، ثم آخر كذلك . فأخذ الثلاثة فى مغلته ، فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى

(١) أى يمنحون العلبة والنصر ، والإدالة : العلبة .

نفسه ، فتقدم إليه داود ، فقال له ارجع فإنى أكره قتلك ، فقال لكنى أحب قتلك . وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ، ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً . ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه ، وفر جيشه منهزماً . فوفى له طالوت بما وعده ، فزوجه ابنته ، وأجرى حكمة في ملكه ، وعظم داود عليه السلام عند بنى إسرائيل ، وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت . فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله ، واحتال على ذلك فلم يصل إليه ، وجعل العلماء يبهون طالوت عن قتل داود ، فنسلط عليهم فقتلهم ، حتى لم يبق منهم إلا القليل . ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه ، وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكي حتى يبيل الثرى بدموعه ، فنودى ذات يوم من الجبانة : أن يا طالوت قتلنا ونحن أحياء ، وآذيتنا ونحن أموات ، فازداد لذلك بكاءً وخوفه ، واشتد وجهه . ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره ، وهل له من توبة ؟ فقيل له : وهل أبقيت عالماً ؟ حتى دل على امرأة من العابدات ، فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام ، قالوا : فدعت الله فقام يوشع من قبره ، فقال أقامت القيامة ؟ فقالت - لا . ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال : نعم . ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يقتل ، ثم عاد ميتاً . فترك الملك لداود عليه السلام وذهب معه ثلاثة عشر من أولاده ، فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا . قالوا : فذلك قوله : (وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) . هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السدى بإسفاده . وفي بعض هذا نظر ونكارة ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحق : النبي الذي بعث فأخبر طالوت بتوبته - هو اليسع بن أخطوب ، حكاه ابن جرير أيضاً . وذكر الثعلبي : أنها أتت به إلى قبر أشمويل فمات به على ما صنع بعده من الأمور ، وهذا أنسب . ولعله إنما رآه في النوم - لا أنه قام من القبر حياً ؛ فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي ، وتلك المرأة لم تكن نبيه ، والله أعلم . وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده - أربعون سنة ، فالله أعلم .

قصة داود « عليه السلام » وما كان في أيامه

وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وإعلامه

هو داود بن إيشا^(١) بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عوفاذب بن إرم بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت

(١) الذي في ابن جرير - داود بن ايشى بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى نادب بن رام ... الخ .

المقدس . قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب نقيه . وتقدم أنه لما قتل جالوت — وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر — أحبته بنو إسرائيل ، ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خيري الدنيا والآخرة . وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر ، فاجتمع في داود هذا وهذا ، كما قال تعالى : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى لولا إقامة الملوك حكماً على الناس — لأكل قوى الناس ضعيفهم ؛ ولهذا جاء في بعض الآثار : « السلطان ظل الله في أرضه » . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه : أن جالوت لما بارز طالوت — قال له اخرج إلى وأخرج إليك ، فندب طالوت الناس ، فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه : قال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر ، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود . وقيل إن ذلك عن أمر « شمویل » حتى قال بعضهم : إنه ولاء قبل الواقعة . قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور — أنه إنما ولى ذلك بعد قتل جالوت ، والله أعلم . وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز : أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم ، وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية ، فالله أعلم . وقال تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلاً ، يا جبال أوبي معه والطير ، وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعموا صالحاً إني بما تعملون بصير^(١)) . وقال تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون^(٢)) . أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشدته إلى صنعتهما وكيفيتها فقال : (وقدر في السرد) — أى لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم ، قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده ، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح . قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعاً يبيعهما بستة آلاف درهم ، وقد ثبت في الحديث : « أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه . وإن نبي الله داود كان يأكل من كسبه يده » . وقال تعالى : (واذا كر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطير

(١) الآيات ١٠ ، ١١ من سورة سبأ (٢) الآيات ٧٩ ، ٨٠ من سورة الأنبياء .

محشورة كل له أواب * وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (١) قال ابن عباس ومجاهد : الأيد - القوة في الطاعة ، يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أعطى قوة في العبادة ، وفقهاً في الإسلام ، قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى » وقوله : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطير محشورة كل له أواب) كما قال : (يا جبال أوبي معه والطير) أى سبحى معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ، (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) أى عند آخر النهار وأوله ؛ وذلك أن الله تعالى كان قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأوزاعي : حدثني عبد الله بن عامر قال : أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط ؛ حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً ، وحتى إن الأنهار لتقف . وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيمة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الأذان بمثله ، فيعكف الجرن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً . وقال أبو عوانة الاسفراييني : حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا محمد بن منصور الطوسي ، سمعت صبيحاً أبا تراب قال أبو عوانة : وحدثني أبو العباس المذني ، حدثنا محمد بن صالح العدوي ، حدثنا سيار - هو ابن حاتم - عن جعفر عن مالك قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى ، وهذا غريب . وقال عبد الرزاق عن ابن جريج : سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : وما بأس بذلك ، سمعت عبيد ابن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المعرفة (٢) فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته - يريد بذلك أن يبكي وتبكي . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن عمروة عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : « لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود » ، وهذا على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود » على شرط مسلم . وقد روينا عن أبي عثمان الترمذي أنه قال : لقد سمعت البربط (٣) والمزمار ، فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى

(١) الآيات : ١٧ - ٢٠ من سورة س .

(٢) المعرفة : واحدة المازف ، وهي اللامي ؛ كالعود والطنبور ، والمازف : اللاعب بها والغني .

(٣) البربط كجف - العود .

الأشعري ، وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ؛ كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خفف على داود القراءة ، فكان يأمر بدابته فتسرج ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » وكذلك رواه البخاري منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به . ونظفه : « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يديه » ، ثم قال البخاري : ورواه موسى بن عقبة عن صفوان - هو ابن سليم - عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه ، من طرق ؛ عن إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ، ومن طريق أبي عاصم عن أبي بكر السبري عن صفوان بن سليم به . والمراد بالقرآن ههنا - الزبور الذي أنزل عليه وأوحاه إليه . وذكر رواية أشبه أن تكون محفوظة : أنه كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب . وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه . وقد قال الله تعالى : (وآتينا داود زبوراً) والزبور كتاب مشهور . وذكرنا في التفسير - الحديث الذي رواه أحمد وغيره : أنه أنزل في شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه . وقوله : (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) أي أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقرة ؛ ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه ، فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى . فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إلي أن أقتلك ، فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيتك على هذا ؟ قال : والله يابى الله إنى لحق فيما ادعيتك عليه ، ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا ، فأمر به داود فقتل . فعظم أمر داود في بني إسرائيل جداً ، وخضعوا له خضوعاً عظيماً . قال ابن عباس : وهو قوله تعالى : (وشددنا ملكه) . وقوله تعالى : (وآتيناه الحكمة) أي النبوة (وفصل الخطاب) قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمى وغيرهم : فصل الخطاب - الشهود والأيمان ؛ يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وقال مجاهد والسدي : هو إصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم ، واختاره ابن جرير . وهذا لا ينافي ما روى عن أبي موسى أنه قول : « أما بعد » . وقال وهب بن منبه : لما كثرت الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل - أعطى داود سلسلة لفصل القضاء ، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان في حق ، فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل إليها ، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل لؤلؤة فحجدها منه ، واتخذ عكازة وأودعها فيها ، فلما حضر عند الصخرة تناولها

المدعى ، فلما قيل للآخر خذها بيدك ، عمد إلى العكازة فأعطها المدعى وفيها تلك اللؤلؤة ، وقال : اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فناها ، فأشكل أمرها على بنى إسرائيل ، ثم رفعت سريعاً من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين ، وقد رواه إسحق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

(وهل أتاك نبؤا الخضم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان بنى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخطاء ليبنى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب * ففغرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب^(١)) .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرئيليات ، ومنها ما هو مكذوب لا محالة ، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً ؛ اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد اختلف الأئمة في سجدة « ص » هل هي من عزائم السجود ؟ أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود ؟ على قولين . قال البخارى : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى عن العوام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ص^(٢) فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت ؟ قال أو ما تقرأ : (ومن ذريته داود وسليمان - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ، فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل - هو ابن عليه - عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال في السجود في ص : ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها . وكذا رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث أيوب ، وقال الترمذى هو حسن صحيح . وقال النسائى : أخبرنى إبراهيم ابن الحسن المقسمى ، حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في ص وقال : «سجدها داود توبة ونسجدها شكراً» . تفرد به أحمد ورجاله ثقات ، وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد ابن أبي هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، عن أبي سعيد الخدرى قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر : ص ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس ، فلما كان يوم آخر

(١) الآيات : ٢١ - ٢٥ من سورة ص . (٢) أى كيف مى مع أن اللفظ لفظ الركوع ، (نفر راكعاً)]

قرأها ، فلما بلغ السجدة استشرف^(١) الناس للسجود فقال : « إنما هي توبة نبي ولكن رأيتم
استشرفتم » فنزل وسجد . تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح . وقال الإمام أحمد : حدثنا
عفان ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حميد ، حدثنا بكر - هو ابن عمر وأبو الصديق الناجي : أنه أخبره
أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب ص ، فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء
بمحضرته - انقلب ساجداً . قال فقصها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد ، تفرد به أحمد . وروى
الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد
قال : قال لي ابن جريج : حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي
ﷺ فقال يا رسول الله : إني رأيت فيما يرى النائم ، كأنني أصلي خلف شجرة ، فقرأت السجدة فسجدت
الشجرة بسجودي ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، واجعلها لي عندك
ذخراً ، وضع عنى بها وزراً ، واقبلها منى كما قبلت من عبدك داود » . قال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ
قام فقرأ السجدة ثم سجد ، فسمعه يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثم قال الترمذي
غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين : أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً ، وقاله مجاهد والحسن وغيرهما
وورد في ذلك حديث مرفوع ، لكنه من رواية يزيد الرقاشي وهو ضعيف متروك الرواية . قال الله
تعالى : (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى إن له يوم القيامة لزلفى - وهي القربة التي
يقربه الله بها ، ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت في حديث : « المقسطون على منابر من نور
عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ؛ الذين يقسطون في أهلهم وحكمهم وما ولوا » . وقال الإمام أحمد في
مسنده : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ :
« إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً - إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم
القيامة وأشدهم عذاباً - إمام جائر » . وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به ،
وقال لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي
زياد ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان : سمعت مالك بن دينار في قوله : (وإن له عندنا لزلفى وحسن
مآب) - قال : يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، فيقول الله : يا داود مجدنى اليوم
بذلك الصوت الحسن الرخيم ، الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا ، فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول
لنى أردت عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .
(يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل

الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) . هذا خطاب من الله تعالى مع داود . والمراد ولاية الأمور وحكام الناس ، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله — لا ماسواه من الآراء والأهواء ، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك . وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت ؛ في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات ، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً ؛ كما قال تعالى : (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) . قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام ، حدثنا صالح المزني عن أبي عمران الجوني ، عن أبي الجلد قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك ؟ قال فأناه الوحي : « أن يا داود أأست تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ قال : بلى يا رب ، قال فإني أرضى بذلك منك » . وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه ، حدثنا محمد بن يونس القرشي ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثني عبد الله ابن لاحق عن ابن شهاب قال قال داود : « الحمد لله كما ينبغي لسكروم وجهه وعز جلاله ، فأوحى الله إليه : إنك أتعبت الحفظة يا داود » . ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن علي بن الجعد عن الثوري مثله .

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : أنبأنا سفيان الثوري عن رجل عن وهب بن منبه قال : إن في حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يفعل عن أربع ساعات ؛ ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيونه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ؛ فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وإجمام للقلوب . وحق على العاقل أن يعرف زمانه ، ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه . وحق على العاقل أن لا يظن إلا في إحدى ثلاث : زاد لمعاده ، وصرمة لمعاشه^(١) ، ولذة في غير محرم . وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي بكر بن أبي خيثمة عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره . ورواه أيضاً عن علي بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشي عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره . وأبو الأغر هذا — هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته . قاله ابن عساكر وقال عبد الرزاق : أنبأنا بشر ابن رافع ، حدثنا شيخ من أهلي صنعاء يقال له أبو عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه ، فذكر مثله .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة . منها قوله : كن للثيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد . وروى بسند غريب مرفوع قال داود : يازارع السيئات أنت تحصد شوكتها وحسكها . وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحق في نادي

(١) المرمة بالفتح والكسر : من ذوات الطلف كالغم للانسان . والمرمة: ما على وجه الأرض من فتات الحشيش .

القوم — كمثل المغنى عند رأس الميت . وقال أيضاً : ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى . وقال : انظر ماتكره أن يذكر عنك في نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال : لاتعدن أخاك بما لاتنجزه له ؛ فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه . وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر الواقدي ، حدثني هشام بن سعد عن عمر مولى عفرة قال : قالت يهود — لما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج النساء : انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ، ولا والله ماله همة إلا إلى النساء . حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك ، فقالوا لو كان نبياً مارغب في النساء . وكان أشدهم في ذلك حيي بن أخطب ، فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صوات الله عليه وسلامه فقال : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) يعنى بالناس — رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً) — يعنى ما أتى الله سليمان بن داود ؛ كانت له ألف امرأة : سبعمائة مهريية ، وثلاثمائة سرية . وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة : منهن امرأة «أوريا» أم سليمان ابن داود التي تزوجها بعد الفتنة ، وهذا أكثر مما لحمد صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر السكبي نحو هذا ، وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ، ولسليمان ألف امرأة ، منهن ثلاثمائة سرية .

وروى الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقي ، الذى يروى عن ابن عباس من طريق الفرغ ابن فضالة الحمصي ، عن أبي هريرة الحمصي عن صدقة الدمشقي : أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال : لأحدثنك بحديث كان عندى في البحث^(١) مخزوناً ؛ إن شئت أنبأتك بصوم داود ، فإنه كان صواماً قواماً ، وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أفضل الصيام صيام داود» ، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكون^(٢) فيها ، وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ، ويبكي بيكائه كل شيء ، ويصرف بصوته الهموم والحوموم . وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان ؛ فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ، ومن وسطه ثلاثة أيام ، ومن آخره ثلاثة أيام ، يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختتمه بصيام . وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم ؛ فإنه كان يصوم الدهر ، ويأكل الشعير ، ويلبس الشعر ؛ يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صَفَنَ^(٣) بين قدميه وقام يصلى حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم . وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران ؛ فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين . وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ ؛ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، ويقول إن ذلك صوم الدهر . وقد رواه الإمام أحمد عن أبي النصر عن فرج بن نضالة ، عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً — في صوم داود .

(١) البحث : المعدن يبحث فيه عن الذهب والفضة . (٢) يحدث ويحدث (٣) ضرب بهما الأرض وصفهما

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم : أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال : أي رب ! من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود ، قال أي رب ! كم عمره ؟ قال : ستون عاماً ، قال : أي رب ! زده في عمره . قال لا ، إلا أن أزيد من عمرك . وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال بقي من عمري أربعون سنة ، ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود ، فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة . رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي ، وصححه عن أبي هريرة وابن خزيمة وابن حبان ، وقال الحاكم على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقة ، وألفاظه في قصة آدم . قال ابن جرير : وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة ، قلت هذا غلط مردود عليهم . قالوا : وكان مدة ملكه أربعين سنة ، وهذا قد يقبل نقله ؛ لأنه ليس عندنا ما ينفيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قبيصة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال : فخرج ذات يوم وأغلقت الدار ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لفتضحن بداود . فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ فقال أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب ، فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت ، مرحباً بأمر الله ، ثم مكث حتى قبضت روحه . فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه - طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير : أظلي على داود ؛ فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض فقال سليمان للطير : اقبضى جناحاً جناحاً ، قال : قال أبو هريرة : ففطلق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ؟ وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية . انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوى ، ورجاله ثقات . ومعنى قوله : وغلبت عليه يومئذ المضرحية - أي وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة ، واحدها مَضْرَحِيٌّ . قال الجوهري : وهو الصقر الطويل الجناح . وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة ، وكان بسبت ، وكانت الطير تظله . وقال السدي أيضاً عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة . وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عمرو عن قتادة عن الحسن قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ؛ ومات يوم الأربعاء فجأة .

وقال أبو السكن الهجري : مات إبراهيم الخليل فجأة ، وداود فجأة ، وابنه سليمان فجأة . صلوات الله وسلامه

عليهم أجمعين ، رواه ابن عساكر . وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له دعني أنزل أو أصعد ، فقال يا نبي الله قد نفذت السنون والشهور والآثار والأرزاق ، قال نفر ساجداً على مرقاة من تلك المراتى فقبضه وهو ساجد . وقال إسحاق بن بشر^(١) أنبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام ، فجلسوا في الشمس في يوم صائف ، قال : وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس — سوى غيرهم من الناس . ولم يمض في بني إسرائيل بعد موسى وهرون — أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود . قال فأذاهم الحر ، فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطير : فأجابت ، فأمرها أن تظل الناس ، فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح ، فكاد الناس أن يهلكوا غمًا ، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير : أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحى عن ناحية الريح — ففعلت ، فكان الناس في ظل وتهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع ، حدثني الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر ابن علقمة عن جنبر بن نغير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهدية مائتي سنة » . هذا حديث غريب ، وفي رفعه نظر . والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث ، والله أعلم .

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ بن عساكر : هو سليمان بن داود بن إيشابن عويد بن عابر بن إسمعون بن نحشون بن عمينا داب بن ارم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع ، نبي الله ابن نبي الله . جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق ، قال ابن ماكولا : فارص — بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر . قال الله تعالى : (وورث سليمان داود وقال يأيتها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين^(٢)) أى ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ؛ لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ؛ ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة : أن رسول الله ﷺ قال : « لانورث ما تركنا فهو صدقة » ، وفي لفظ « نحن معاشر الأنبياء لانورث^(٣) » فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج ، لا يخصصون بها أقرباءهم ؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك ، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم . وقال : (يأيتها الناس

(١) طعن فيه وكذبه بعضهم (٢) الآية : ١٦ من سورة النمل . (٣) تامله : ما تركناه فهو صدقة .

علمنا منطق الطير ... الآية) معنى أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ، ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ^(١) أنبأنا علي بن حمشاذ حدثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدثنا علي بن قدامة ، حدثنا أبو جعفر الأستوائى يعنى محمد بن عبد الرحمن عن أبي يعقوب القمى ، حدثني أبو مالك قال : مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة ، فقال لأصحابه : أندرون ما يقول ؟ قالوا وما يقول يا نبي الله ؟ قال يخطفها إلى نفسه ويقول : زوجيني أسكنك أى غرف دمشق شئت . قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر ، لا يقدر أن يسكنها أحد ، ولكن كل خاطب كذاب . رواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر عن البيهقي به ، وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات . والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : (وأوتينا من كل شيء) أى من كل ما يحتاج الملك إليه ؛ من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات ؛ من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات ؛ من الناطقات والصامتات . ثم قال : (إن هذا هو الفضل المبين) أى من بارى البريات وخالق الأرض والسموات ، كما قال تعالى : (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين^(٢)) .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام : أنه ركب يوماً فى جيشه جميعه من الجن والإنس والطيور ؛ فالجن والإنس يسرون معه ، والطيور سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من الجيوش الثلاثة وزعة - أى تقباء - يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذى يسير فيه ولا يتأخر عنه . قال الله تعالى : (حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور . وقد ذكر وهب : أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها « جرسا » ، وكانت من قبيلة يقال لهم « بنو الشيصان » ، وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب ، وفى هذا كله نظر . بل فى هذا السياق دليل على أنه كان فى موكبه راكباً فى خيوله وفرسانه - لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط ؛ لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء ؛ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه ؛ من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام ، والطيور من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

(١) هو المعروف بالنيسابورى صاحب المستدرک (٢) الآيات : ١٧ - ١٩ من سورة النمل

والمقصود أن سليمان عليه السلام - فهم ما خاطبت به تلك النملة لامتها^(١)، من الرأى السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره . وليس كما يقوله بعض الجهملة : من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان ، وتخطب الناس ، حتى أخذ عليها سليمان ابن داود العهد ، وألجها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك ؛ فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون . ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره ؛ إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك . ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها - لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعول عليها ، ولهذا قال : (رب أوزعني) أى ألهمني وأرشدني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) ، فطلب من الله أن يقضيه للشكر على ما أنعم به عليه ، وعلى ما خصه به من المزية على غيره ، وأن ييسر عليه العمل الصالح ، وأن يحشره - إذا توفاه - مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له . والمراد بالديه : داود عليه السلام وأمه . وكانت من العابدات الصالحات ، كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال : « قالت أم سليمان بن داود : يا بني لا تكثر النوم بالليل ؛ فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة » . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه .

[وقال^(٢) عبد الرزاق عن معمر عن الزهري : إن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون ، فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي ، فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم ؛ إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها . قال ابن عساكر : وقد روى مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان ، ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب ، حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله ، فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء ، فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة » ، وقال السدي : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام ، فأمر الناس بفرجوا ، فإذا بنملة قائمة على رجلها ، باسطة يديها وهي تقول : « اللهم إنا خلق من خلقك ، ولا غناء بنا عن فضلك » قال فصب الله عليهم المطر . قال تعالى : (وتفقذ الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين * فكش غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم * قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ، ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون *

(١) اللامة : الهول والشدة . (٢) ما بين هذين القوسين : [ليس فى بعض النسخ

قالت يا أيها الملاء إني ألقى إلى كتاب كريم * إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلموا عليّ وأتوني مسلمين * قالت يا أيها الملاء أفتنوني في أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون * قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين * قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون * وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان قال أتمدون ببال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ^(١) .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ؛ وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون ؛ يقومون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة ، كما هي عادة الجنود مع الملوك . وكانت وظيفة الهدهد - على ما ذكره ابن عباس وغيره : أنهم كانوا إذا أعوزهم الماء في القفار في حال الأسفار - يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ؟ وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه - أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلم عليه ، حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه ، واستعملوه لحاجتهم . فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم - فقده ، ولم يجده في موضعه من محل خدمته (فقال مالى لأرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى ماله مفقود من ههنا ؟ أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى ؟ (لأعذبه عذاباً شديداً) ، توعد به بنوع من العذاب ؛ اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على كل تقدير (أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين) أى بحجة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى : (فكث غير بعيد) أى فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها (فقال) لسليمان : (أحطت بما لم تحط به) أى اطلعت على ما لم تطلع عليه (وجئتك من سبأ نبأ يقين) أى بنخب صادق ، (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) . يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن ؛ من المملكة العظيمة والتبابعة ^(٢) المتوجين ، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم ، لم يخلف غيرها فلكوها عليهم .

وذكر الثعلبي وغيره : أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلا فعم به الفساد ، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها ، فلما دخلت عليه سقته خراً ثم حزت رأسه ونصبتة على بابها ، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم ، وهى : « بلقيس » بنت السيرح وهو الهدهاد ، وقيل شراحيل بن ذى جدن بن السيرح بن الحرث ابن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان أبوها من أكبر الملوك ، وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن . فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها « ريحانة » بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها « تلقيمة » ويقال لها بلقيس . وقد روى الثعلبي من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر

(١) الآيات : ٢٠ - ٣٧ من سورة النمل . (٢) التبابعة : ملوك اليمن ، الواحد تبم - كسكر .

ابن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « كان أحد أبوي بلقيس جنياً » وهذا حديث غريب ، وفي سنده ضعف . وقال الثعلبي : أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة ، حدثنا أبو بكر بن جرجة ، حدثنا ابن أبي الليث ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبي بكرة قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . إسماعيل بن مسلم هذا - هو المكي - ضعيف . وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف عن الحسن عن أبي بكرة : أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة - بن النبي ﷺ ، وقال الترمذي حسن صحيح . وقوله : (وأوتيت من كل شيء) أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ، (ولها عرش عظيم) يعنى سرير مملكتها ، كان مزخرفاً بأنواع الجواهر والآلى والذهب والحلى الباهر .

ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله ، وإضلال الشيطان لهم وصدده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له ، (الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) - أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات واللعنويات ، (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى له العرش العظيم الذى لأعظم منه فى المخلوقات . فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه ؛ يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ، والإجابة والإذعان إلى الدخول فى الخضوع للملك وسلطانه ، ولهذا قال لهم : (ألا تعالوا على) أى لانستكبروا عن طاعتي وامثال أوامري ، (وأنونى مسلمين) أى وأقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة . فلما جاءها الكتاب مع الطير - ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ؟ تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم : أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها - (قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم) ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً : (إنه من سليمان) ثم قرأته : (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعالوا على وأنونى مسلمين) ، ثم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها ، وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون (قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) - تعنى ما كنت لأبت أمراً إلا وأتم حاضران (قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) يعنون : لنا قوة وقدرة على الجلال والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإننا عليه من القادرين (و) مع هذا (الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) فبدلوا لها السمع والطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها فى ذلك

الأمر لترى فيه ما هو الأرشدها ولهم ، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ، ولا يخالف ولا يخادع .

(قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . تقول برأيها السيد : إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلى ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا على (وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً ؛ لأنهم كفرون وهو وجنوده عليهم قادرون . ولهذا : (فلما جاء سليمان قال أتمدون بجال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أتم بهديتكم تفرحون) . هذا : وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون . ثم قال لرسولها إليه ، ووافدها الذي قدم عليه ، والناس حاضرون يسمعون : (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) . يقول : ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قدم بها ، فإن عندي مما قد أنعم الله على وأسدها إلى من الأموال والتحف والرجال — ما هو أضعاف هذا ، وخير من هذا الذي أتم تفرحون به ، وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ، (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) أي فلابعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ، ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم من بلدكم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة (وهم صاغرون) عليهم الصغار والعار والدمار . فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين . فلما سمع بقدمهم عليه ووفودهم إليه — قال لمن بين يديه ؛ ممن هو مسخر له من الجن : ما قصة الله عنه في القرآن ، (قال يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقوى أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلون أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم * قال نسكروا لها عرضها فنظر أتمتدى أم تسكون من الذين لا يهتدون ؟ * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو ، وأوتيناه العلم من قبلها وكنا مسلمين * وصددها ما كانت تعبد من دون الله لئنها كانت من قوم كافرين * قيل لها ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير * قالت رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ^(١)) .

لما طلب سليمان من الجن أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت

حكما قبل قدومها عليه . (قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك) يعنى قبل أن ينقضى مجلس حكمك . وكان — فيما يقال — من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل ، وما لهم من الأشغال (وإني عليه لقوى أمين) أى وإني لذو قدرة على إحضاره إليك ، وأمانة مافيه من الجواهر النفيسة لديك . (قال الذى عنده علم من الكتاب) — المشهور أنه آصف بن برخيا ، وهو ابن خالة سليمان . وقيل هو رجل من مؤمنى الجان كان — فيما يقال — يحفظ الاسم الأعظم . وقيل رجل من بنى إسرائيل من علمائهم . وقيل إنه سليمان وهذا غريب جداً . وضعفه السهيلي بأنه لا يصح فى سياق الكلام . قال : وقد قيل فيه قول رابع ، وهو جبريل (أنا آتيتك به قبل أن يرد إليك طرفك) قيل معناه : قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك ، وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس ، وقيل : قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنتك ، وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته ، وهذا أقرب ما قيل . (فلما رآه مستقراً عنده) أى فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده — فى هذه المدة القريبة — من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين ، (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر) أى هذا من فضل الله علىّ وفضله على عبده ؛ ليختبرهم على الشكر أو خلافه ، (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أى إنما يعود نفع ذلك عليه (ومن كفر فإن ربى غنى كريم) أى غنى عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ؛ ليختبر فهمها وعقلها . ولهذا قال : (نظرت أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو) وهذا من فطنتها وجزارة فهمها ؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها ؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب . قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين * وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) أى ومنعتها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله ؛ اتباعاً لدين آباؤهم وأسلافهم ، لا لدليل فإدم إلى ذلك ولا حدام على ذلك وكان سليمان قد أمر ببناء صرح^(١) من زجاج ، وعمل فى مره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيره من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح بمرد^(٢) من قوارير * قالت ربى إني ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وقد قيل إن الجن أرادوا

(١) الصرح : القصر ، وكل بناء عال (٢) المراد : المطول المبنى بناءً محكماً أُمس .

أن يبشعوا منظرها عند سليمان ، وأن تبدى عن ساقها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها ؛ لأن أمها من الجان فتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة ، وهذا ضعيف ، وفي الأول أيضاً نظر ، والله أعلم . إلا أن سليمان قيل : إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها - سأل الإنس عن زواله ، فذكر وواله للموسى فامتنعت من ذلك ، فسأل الجان فصنعوا له النورة^(١) ووضعوا له الحمام ، فكان أول من دخل الحمام . فلما وجد مسه قال : أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه . رواه الطبراني مرفوعاً ، وفيه نظر .

وقد ذكر الثعلبي وغيره : أن سليمان لما تزوجها أفرها على مملكة اليمن وردها إليه ، وكان يزورها في كل شهر مرة ، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط ، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن : غمدان ، وسلمحين ، وبيتون ، فأنه أعلم . وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : أن سليمان لم يتزوجها ، بل زوجها بملاك همدان وأقرها على ملك اليمن ، وسخر « زوبعة » ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن . والأول أشهر وأظهر ، والله أعلم .

وقال تعالى في سورة ص : (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب * إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق * ولقدفتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب^(٢)) . يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أثنى الله عليه تعالى فقال : (نعم العبد إنه أواب) أي رجاع مطيع لله . ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخليل الصافنات - وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، الجياد - وهي المضمرة^(٣) السراع (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) يعني الشمس . وقيل : الخليل على ما سنده من القولين . (ردها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) قيل : مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف ، وقيل مسح عنها العرق لما أجزاها ، وسابق بينها وبين يديه ، على القول الآخر . والذي عليه أكثر السلف الأول ؛ فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس . روى هذا عن علي ابن أبي طالب وغيره ، والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال إنه كان سائئاً في شريعتهم ، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد ، وعرض الخليل من ذلك .

(١) قيل : هو أول من صنعت له . (٢) الآيات : ٣٠ - ٤٠

(٣) قال في المختار : تضمير الفرس - أن تعلقه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت « وهو ما يقوم به البدن من الطعام »

وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق : أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك ، حتى نسخ بصلاة الخوف . قاله الشافعي وغيره . وقال مكحول والأوزاعي بل هو حكم محكم إلى اليوم : أنه يجوز تأخيرها بعد القتال الشديد ، كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً ، وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا ، والله أعلم . وأما من قال إن الضمير في قوله : (حتى توارت بالحجاب) - عائد على الخليل ، وأنه لم تفتته وقت صلاة ، وأن المراد بقوله : (ردوها على فططق مسحاً بالسوق والأعناق) يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها - فهذا القول اختاره ابن جرير ، ورواه الواجبي عن ابن عباس في مسح العرق . ووجه هذا القول ابن جرير - بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ، ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها . وهذا الذي قاله فيه نظر ؛ لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم . وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها - جاز ذبحها وإهلاكها ؛ لثلاث يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عتر فرسه بموتة^(١) . وقد قيل إنها كانت خيلاً عظيمة ، قيل كانت عشرة آلاف فرس ، وقيل عشرين ألف فرس ، وقيل كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة . وقد روى أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أنبأنا يحيى بن أبي أيوب ، حدثني عمارة بن غزيرة - أن محمد بن إبراهيم ، حدثه عن محمد بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها^(٢) ستر ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب ، فقال : « ما هذا يا عائشة؟ » فقالت بناتي ، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقايع ، فقال : « ما هذا الذي أرى وسطهن؟ » قالت فرس ، قال « وما الذي عليه هذا؟ » قالت جناحان قال : « فرس له جناحان؟ » قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ قالت فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ . وقال بعض العلماء : لما ترك الخليل لله - عوضه الله عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التي كانت غدوها شهراً ورواحها شهراً ، كما سيأتي الكلام عليها . كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالوا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل ، وقال : « إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه » .

وقوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) . ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من

(١) موضع بمشارك الشام حدثت فيه موقعة في السنة الثانية من الهجرة

(٢) السهوة : الصفة ، والمخدع بين بيتين ، والبيت الصغير .

الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وقد نهينا على ذلك في كتابنا التفسير ، واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة . ومضمون ما ذكره : أن سليمان عليه السلام - غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس ، فبناه بناءً محكماً . وقد قدّمنا أنه جدده ، وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » ، قلت ثم أي ؟ قال : « مسجد بيت المقدس » . قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » ، ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام ، وبين سليمان بن داود عليهما السلام - أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة . وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده - بعد إكمال البيت المقدس ؛ كما قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالات ثلاثاً . فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياها » .

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى - فقد أتى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً^(١)) وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف : أن هؤلاء القوم كان لهم كرم ، فنفشت فيه غم قوم آخرين - أي رعته بالليل ، فأكلت شجره بالكلية . فتحا كموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته . فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا بكذا وكذا فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم ؛ فيستغلونها نتاجاً ودرأً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ، ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به . وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما ، فتنازعتا في الآخر ؛ فقالت الكبرى إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى بل إنما ذهب بابنك ، فتحا كتما إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان ، فقال اتنوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منك نصفه ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ، فقضى به لها^(٢) ، ولعل كلا من الحكيم كان سائفاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أتى الله عليه بما ألهه إياه ، ومدح بعد ذلك أباه فقال : (وكلا آتينا

(١) الإتيان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة الأنبياء . (٢) أي للصغرى لما رأى من شفقتها عليه .

حكماً وعلماً ، وسخرنا مع داود الجبال بسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون .

ثم قال : (ولسليمان الريح عاصفة) أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة (تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا فيها بكل شيء عالمين * ومن الشياطين من يفوضون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين) وقال في سورة ص : (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزاني وحسن مآب^(١)) . لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله - عوضه الله منها الريح ، التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ، ولا كلفة عليه لها ، تجري بأمره رخاء (حيث أصاب) أى حيث أراد من أى البلاد . كان له بساط مركب من أخشاب ، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام ، والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال ؛ من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات والطيور . فإذا أراد سفراً أو تنزهاً ، أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط - أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض - أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك - أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعت في أى مكان شاء ، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس ، فتغدو به الريح فتضعه باصطخر مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار ، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس ، كما قال تعالى : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور^(٢)) . قال الحسن البصرى : كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغذى بها ، ويذهب راحماً منها فيبيت بكابل ، وبين دمشق وبين اصطخر - مسيرة شهر ، وبين اصطخر وكابل - مسيرة شهر . قلت قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان : أن اصطخر بنتها الجان لسليمان ، وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً . وكذلك غيرها من بلدان شتى ؛ كتدمر ، وبيت المقدس ، وباب جيرون وباب البريد - اللذين بدمشق على أحد الأقوال .

وأما القطر : فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس ، قال قتادة ، وكانت باليمن ، أنبعها الله له - قال السدى - ثلاثة أيام فقط ، أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبناءات وغيرها . وقوله : (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير)

أى وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء ؛ لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به . (يعملون له ما يشاء من محاريب) وهى الأماكن الحسنه وصدور المجالس ، (وتمائيل) وهى الصور فى الجدران ، وكان هذا سائغاً فى شر يعتهم وملتهم ، (وجفاف كالجواب) قال ابن عباس : الجفنة - كالجوبة من الأرض ، وعنه - كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وعلى هذه الرواية تكون الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجي فيه الماء كما قال الأعشى :

تروح على آل الملقى جفنة كجابية الشيخ العراقى - تفهق^(١)

وأما القدور الراسيات ؛ فقال عكرمة : أتا فيها منها - يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أما كنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد . ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق ؛ من إنسان وجان - قال تعالى : (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) ، وقال تعالى : (والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد) يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ، ومنهم من يأمره بالفوس فى الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر والآلى ، وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله : (وآخرين مقرنين فى الأصفاد) أى قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد - وهى القيود . هذا كله من جملة ما هياه الله وسخر له من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن عفر يتأ من الجن تفلت^(٢) على البارحة ليقطع على صلاتى ، فأمكننى الله منه فأخذته ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فرددته خاسئاً . وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة . وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادى ، حدثنا عبد الله ابن وهب عن معاوية بن صالح ، حدثنى ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك ثم قال - ألعنك بلعنة الله - ثلاثاً » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ! سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال ﷺ : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات . ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر -

(١) فهق الإناء - كفرح : امتلاء ، وأفقه : ملاء (٢) أى توثب فجأة ، والفلات : المفاجأة .

ثلاث مرات ، ثم أردت أن آخذه ، والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة . وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا ميسرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهبت أسمر بين يديه فردني ، ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لورأيتموني وإبليس ، فأهويت بيدي ، فمازلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وقد روى أبو داود منه : « فمن استطاع . . . إلى آخره » - عن أبي أحمد بن سريج عن أحمد الزبيري به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة ؛ سبعائة بمهور وثلثائة سراري ، وقيل بالعكس : ثلثائة حرائر وسبعائة من الإماء . وقد كان يطبق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً ، قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد ، عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه إن شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه » ، فقال النبي ﷺ : « لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » ، وقال شعيب وابن أبي الزناد : تسعين ، وهو أصح . تفرد به البخاري من هذا الوجه . وقال أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا يزيد ، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله . فطاف تلك الليلة على مائة امرأة ، فلم تلد منهن امرأة - إلا امرأة ولدت نصف إنسان » ، فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله - ولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل » . إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن ، فما ولدت إلا واحدة منهن شق إنسان » . قال : قال رسول الله ﷺ : « لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل » . تفرد به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة بمائة امرأة ، تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، - قال - ونسى أن يقول إن شاء الله ، فأطاف بهن - قال - فلم تلد منهن امرأة

إلا واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحث وكان دركا لحاجته » وهكذا أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد ، وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هريرة : أن سليمان بن داود كان له أربعائة امرأة وستائة سرية ، فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة ، فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يستثن ، فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان ، فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لو استثنى - فقال إن شاء الله - لولد له ما قال فرسان ، ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل » وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر ؛ فإنه منكر الحديث - ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح . وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها - ما لم يكن لأحد قبله ، ولا يمطيه الله أحداً بعده ؛ كما قال : (وأوتينا من كل شيء) ، وقال : (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب^(١)) وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق . ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه ، وأسدها من النعم الكاملة العظيمة إليه ، قال : (هذا عطاؤنا فاقم وجهك للدين الحنيف الذي فطرنا وما ننسئ إلا وجهه) .

أو أمسك بغير حساب) أى أعط من شئت واحرم من شئت ، فلا حساب عليك - أى تصرف في المال كيف شئت ؛ فإن الله قد سوغ لك كلما فعله من ذلك ، ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبي الملك ، بخلاف العبد الرسول ؛ فإن من شأنه لا يعطى أحداً ولا يمنع أحداً إلا بإذن الله له في ذلك . وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين ، فاختر أن يكون عبداً رسولاً . وفي بعض الروايات : أنه استشار جبريل في ذلك ، فأشار إليه أن تواضع ، فاختر أن يكون عبداً رسولاً - صلوات الله وسلامه عليه . وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة ، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة ، فله الحمد والمنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه الله لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا - نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل ، والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه ، وذلك يوم المعاد والحساب ؛ حيث يقول تعالى : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

ذكر وفاته ، وكم كانت مدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى : (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين^(٢)) . روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما - من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس

(٢) الآية : ١٤ من سورة سبأ .

(١) الآية : ٣٥ من سورة م

عن النبي ﷺ قال : « كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه ، يقول لها ما اسمك ؟ فتقول كذا ، فيقول : لأى شىء أنت ؟ فإن كانت للفرس غرست ، وإن كانت لدواء أنبتت . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها ما اسمك ؟ قالت الخروب . قال لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت ، فقال سليمان : اللهم عمّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ، ففتحها عصا فتوكلأ عليها حولاً ميتاً ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً فى العذاب المهين » . قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ، قال فشكرت الجن للأرضة ، فكانت تأتئها بالماء . لفظ ابن جرير ، وعطاء الخراسانى فى حديثه نكارة . وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جببر عن ابن عباس موقوفاً ، وهو أشبه بالصواب ، والله أعلم .

وقال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة : كان سليمان عليه السلام يتجرد فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل فيه ومعه طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتئها فيسألها ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ؛ فإن كانت لفرس غرسها ، وإن كانت نبتت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا ، فيجعلها كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة ، فسألها ما اسمك ؟ فقالت أنا الخروبة ، فقال ولأى شىء نبت ؟ فقالت : نبت لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليخرجه وأنا حى ، أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فزرعها وعرسها فى حائط له . ثم دخل الخراب فقام يصلى متكئاً على عصاه فمات ، ولم تعلم به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول الخراب ، وكان الخراب له كوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : أأست جلدأ إن دخلت نخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر . فدخل شيطان من أولئك ، فر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو فى الخراب إلا احترق . فر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق ، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، نخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عنه فأخرجوه ، ووجدوا منسأته - وهى العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فشكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملاً فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون . ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ، ولم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون له

(٥ - بداية ثان)

وذلك قول الله عز وجل : (مادلم على موته إلابة الأرض تأ كل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) . يقول : تبين أمرهم للناس ، أنهم كانوا يكذبونهم . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كفت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكننا سننقل إليك الماء والطين . قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ، قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ماياتها به الشيطان تشكراً لها . وهذا فيه من الإسرائيليات التى لا اصدق ولا تكذب .

وقال أبو داود فى كتاب القدر : حدثنا عثمان بن أبى شينة ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن خزيمة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام ملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحى فأعلمنى ، قال : ماأنا أعلم بذاك منك ، إنما هى كتب يلقى إلى فيها تسمية من يموت . وقال أصبغ ابن الفرج ، وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - قال - قال سليمان ملك الموت : إذا أمرت بى فأعلمنى ، فأنا ه فقال : ياسليمان ؟ قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويرة ، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلى فاتسكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكى على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث الله دابة الأرض إلى منسأته فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فجر ميتاً ، فلما رأأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : (مادلم على موته إلابة الأرض تأ كل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) . قال أصبغ : وبلغنى عن غيره : أنها مكثت سنة تأ كل فى منسأته حتى خر ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم ، والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره : أن سليمان عليه السلام ، عاش ثنتين وخمسين سنة ، وكان ملكه أربعين سنة . وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس : أن ملكه كان عشرين سنة ، والله أعلم . وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان ابن داود عليهما السلام - نيفاً وخمسين سنة .

وفى سنة أربع من ملكه ابتداء ببناء بيت المقدس فيما ذكر ، ثم ملك بعده ابنه «رحبعام» مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير ، وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل .

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام

(لا يعلم وقت زمانهم ، إلا أنهم بعد داود وسليمان ، وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام)

فمنهم : شعيا بن أمصيا ، قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى ، وهو ممن بشر بهيسى ومحمد عليهما السلام . وكان في زمانه ملك اسمه « حزقيا » على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل ، فرض الملك وخرجت في رجله قرحة ، وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو « سنحاريب » قال ابن إسحاق - في ستائة ألف راية ، وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً ، فقال الملك للنبي شعيا : ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوح إليّ فيهم شيء بعد . ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك « حزقيا » بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء ؛ فإنه قد اقترب أجله ، فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : « اللهم رب الأرباب وإله الآلهة ، يارحمنا يارحمي ، يا من لا تأخذه سمة ولا نوم ، اذكرني بعلمي وفعلتي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي ، سرى وإعلائي لك » قال : فاستجاب الله له ورحمه ، وأوحى الله إلى شعيا : أن يبشره بأنه قد رحم بكاه ، وقد أخرج في أجله خمس عشرة سنة ، وأنجاه من عدوه « سنحاريب » . فلما قال له ذلك - ذهب منه الوجع ، وانقطع عنه الشر والحزن ، وخر ساجداً وقال في سجوده : « اللهم أنت الذي تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخِر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين » . فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا : أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ، ويصبح وقد برى . ففعل ذلك فشفي ، وأرسل الله على جيش « سنحاريب » الموت ، فأصبحوا وقد هلكوا كلهم - سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه ، منهم بُحْتُ نُصر . فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال ، وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً . وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ؛ ثم أودعهم السجن . وأوحى الله تعالى إلى شعيا : أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم . فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم ، فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به ، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين . قال ابن إسحاق : ثم لما مات « حزقيا » ملك بني إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم ، وكثر شرهم . فأوحى الله

تعالى إلى شعيا : فقام فيهم فوعظهم وذكرهم ، وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم . فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاؤا بالمنشار فوضعوه على الشجرة ، فنشروها ونشروه معها . فإنا لله وإنا إليه راجعون

ومنهم إرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

وقد قيل : إنه الخضر ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو غريب وليس بصحيح . قال ابن عساكر : جاء في بعض الآثار : أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق ، فقال : أيها الدم فتنت الناس فاسكن فسكن ، ورسب حتى غاب . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثني علي بن أبي مریم عن أحمد بن حباب عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال إرميا : أي رب ! أي عبادك أحب إليك ؟ قال : أكرهم لي ذكراً ، الذين يشغلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ، ولا يتحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه ، وإذا زوى عنهم سروا بذلك . أولئك أنحلهم^(١) محبتي ، وأعطيتهم فوق غاياتهم .

ذكرى خراب بيت المقدس

قال تعالى : (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلاً * ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً * وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعان علواً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ، فنجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ولا يبتغوا ماعلوا تنبيها * عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً)^(٢) قال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له : « إرميا » حين ظهرت فيهم المعاصي : أن قم بين ظهرائي قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون ، وآذاناً ولا يسمعون . وأنى تذكرت صلاح آبائهم فمطفتني ذلك على أبنائهم ، فسأهم كيف وجدوا غب طاعتي ؟ وهل سعد أحد من عصائي بمصيتي ؟ وهل شقي أحد من أطاعني بطاعتي ؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتزعم إليها ، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه

(١) أى أعطيتهم وأمنحهم ، والتعليل بوزن الجبلى : العطية . (٢) الآيات : ٢ - ٨ من سورة الإسراء

آبائهم ، و التمسوا الكرامة من غير وجهها ؛ أما أحبارهم فأنكروا حتى ، وأما قراؤهم فعبدوا غيري ،
وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علّموا ، وأما ولائهم فكذبوا عليّ وعلى رسلي ؛ خزنوا المكر في قلوبهم ،
وعدوا الكذب ألسنتهم .

وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجنّ عليهم جُيولاً^(١) لا يفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم
ولا يرجون بكاءهم ، ولأبعثنّ فيهم ملكاً جباراً قاسياً ؛ له عساكر كقطع السحاب ، ومواكب كأمثال
الفجاج ، كأن خفقان راياته طيران النسور ، وكأن حمل فرسانه كرم القمبان . يعيدون العمران خراباً ،
ويتركون القرى وحشة . فيأويل «إيليا» وسكانها ! كيف أذلّهم للقتل ، وأسلط عليهم السباء ، وأعيد بعد
لجب الأعراس صراخاً ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد شرفات القصور مساكن السباع ، وبعد
ضوء السرج وهج العجاج ، وأبدلهم بالعز ذلاً وبالنعمة العبودية ، ولأبدلنّ نساءهم بعد الطيب التراب وبالمشى
على الزرابي^(٢) الخلب ، ولأجعلنّ أجسادهم زبلاً للأرض ، وعظامهم ضاحية للشمس ، ولأدوسنهم
بالوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتسكون طبقاً من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت
لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحتي للبهائم . ثم أحبسهم في زمان الزرع وأرسله في
زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعته منه
البركة ، فإن دعوني لم أجبههم ، وإن سألوهم أعطتهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا صرفت
وجهي عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس عن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى لما بعث إرميا إلى بني
إسرائيل - وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء - طمع بُحْتُ نصرٍ فيهم
وقذف الله في قلبه وحدث نفسه بالمسير إليهم ، لما أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى إرميا :
إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم ، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمرى ووحى ، فقام إرميا
فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً ، وقال : يارب ! وددت أن أمي لم تلدني حين جعلتني آخر
أنبياء بني إسرائيل ، فيكون خراب بيت المقدس و بوار بني إسرائيل من أجلي . فقال له : ارفع رأسك ،
فرفع رأسه فبكى ، ثم قال : يارب ! من تسلط عليهم ؟ فقال عبدة النيران لا يخافون عقابي ولا يرجون
ثوابي . قم يا إرميا فاستمع وحي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل ؛ من قبل أن أخلقك اخترتك ،
ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل

(١) جمع جيل . وهو الصنف من الناس .

(٢) أي البسط - جمع زربي . والخب : السرعة في المشى ، وضرب من العدو .

أن تبلغ نباتك ، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ، ولأمر عظيم اجتبتك ؛ فقم مع الملك تسدده وترشده . فكان مع الملك يسده ويأتيه الوحي من الله ، حتى عظمت الأحداث ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى إرميا : قم فأفصص عليهم ما أمرك به ، وذكرهم نعمتي عليهم وعرفهم أحدثهم ، فقال إرميا : يارب ! إني ضعيف إن لم تقويني ، عاجز إن لم تبلغني ، مخطيء إن لم تسددي ، مخذول إن لم تنصرنني ، ذليل إن لم تعزني .

فقال الله تعالى : [أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي ؟ وأن الخلق والأمر كله لي ؟ وأن القلوب والألسنة كلها بيدي ، فأقبلها كيف شئت فتطيعني ؟ فأنا الله الذي ليس شيء مثلي . قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي . وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لي ، ولا يعلم ما عندي غيري . وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي ، وأمرتها فقبلت أمري ، وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدي ، وتأتي بأمواج كالجبال فإذا بلغت حدي ألبتها مذلة لطاعتي ، وخوفاً واعترافاً لأمرى . وإني معك ولن يصل إليك شيء معي ، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتي ، فستوجب لذلك أجر من اتبعك ، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم ، فلذلك استبقاكم يامعشر أبناء الأنبياء ، وكيف وجد آبائكم مغيبة طاعتي ؟ وكيف وجدتم مغيبة معصيتي ؟ وهل وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي ؟ وهل علموا أحداً أطاعني فشق بطاعتي ؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزلت إليها ، وإن هؤلاء القوم رجعوا في مروج الهلكة ، وتركوا الأمر الذي به أكرمت آبائهم ، وابتغوا الكرامة من غير وجهها .

أما أحبارهم ورهبانهم : فاتخذوا عبادي خولاً^(١) يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابي ؛ حتى أجهلهم أمرى وأنسوم ذكري وسنتي ، وعزوم عني فدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي ؛ فهم بطيعونهم في معصيتي . وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا نعمتي وأمنوا مكري ، وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي ؛ فهم يحرفون كتابي ، ويفترون على رسلي ؛ جرأة منهم على وغرة بي ، فسبحان جلالي وعلو مكاني وعظمة شأني . هل ينبغي أن يسكون لي شريك في ملكي ؟ وهل ينبغي لبشر أن يطاع في معصيتي ؟ وهل ينبغي لي أن أخلق عبداً أجعلهم أرباباً من دوني ؟ أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي ؟ وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون ، فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني ، ويطيعونهم في معصيتي ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ؛ فهم جهلة بما يعملون ، لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي .

وأما أولاد النبين : فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنون مثل نصري آبائهم

(١) الحول محركة : ما أعطاك الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، للواحد والذكر والأنثى .

والكرامة التي أكرمتم بها ، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم ، بغير صدق منهم ولا تفكير . ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم ؟ وكيف كان جهدهم في أمرى حين اغتر المعترون ؟ وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عن أمرى وظهر دينى ؟ فتأملت^(١) هؤلاء القوم لعلمهم يستحيون منى ويرجعون ، فتطولت^(٢) عليهم وصفحنت عنهم ، فأكثرت ومددت لهم في العمر ، وأعدت لهم لعلمهم يتذكرون . وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأبنت لهم الأرض ، وألبسهم العافية ، وأظهرهم على العدو ، ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً منى . فحتى متى هذا ؟ أبى يسخرون أم بى يتحرشون ؟ أم إياى يخادعون أم على يبحرثون ؟ فإنى أقسم بزنى لأتيجنّ عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ، ويضل فيها رأى ذوى الرأى وحكمة الحكيم . ثم لأسلطنّ عليهم جباراً قاسياً عاتياً ؛ ألبسه الهمة وأززع من قلبه الرأفة والرحمة . وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ، ومواكب مثل العجاج^(٣) ، وكأن حفيف راياته طيران النسور ، وحمل فرسانه كسرب العقبان ؛ يعيدون العمران خراباً ، والقرى وحشاً ، ويعثون في الأرض فساداً ، ويتبرون ماعلوا نديراً . قاسية قلوبهم ، لا يكثرثون ولا يرقبون ، ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون . يحولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد ، تقشعر من هيبتها الجلود ، وتطيش من سمعها الأحلام ، بألسنة لا يفقهونها ، ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها .

فوعزنى لأعطانّ بيوتهم من كتبى وقدى ، ولأخاينّ مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأوحشنّ مساجدهم من عمارها وزوارها ؛ الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيرى ، ويتجددون فيها ويتبدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير الدين ويتعلمون فيها لغير العمل . لأبدانّ ملوكها بالعز الذل ، وبالآمن الخوف وبالغنى الفقر ، وبالنعمة الجوع ، وبطول العافية والرخاء - أنواع البلاء ، ولبلباس الديباج والحزير - مدارع الوبر والعباء ، وبالأرواح الطيبة والأدهان - جيف القتل ، ولبلباس التيجان ، أطواق الحديد والسلاسل والأغلال . ثم لأعيدنّ فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة - الخراب ، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع ، وبعد سهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار ، ثم لأبدانّ نساءها بالأسورة الأغلال ، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد ، وبألوان الطيب والأدهان - النقع والغبار ، وبالمشى على الزرابى - عبور الأسواق والأنهار ، والخبب إلى الليل في بطون الأسواق ، وبالخدور والستور - الحسور عن الوجوه والسوق^(٤) والأسفار والأرواح السموم . ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب ، حتى لو كان الكائن منهم فى حالق^(٥) لوصل ذلك إليه . إنى إنما أكرم منى ، وإنما أهين من هان عليه أمرى .

(١) ترفقت بهم وانتظرت عليهم . (٢) أى امتننت عليهم (٣) العجاج : الغبار والدخان .

(٤) جمع ساق ، وهو ما بين السكب والركبة . (٥) الخالق : الجبل المرتفع المشؤم .

ثم لأمرن السماء خلال ذلك فلتسكون عليهم طبقاً من حديد ، ولأمرن الأرض فلتسكون سبيكة من نحاس ، فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت ، وإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلطت عليهم الآفة ، فإن خاص منه شيء نزلت منه البركة ، إن دعوني لم أجبهم ، وإن سألتني لم أعطيهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا إلى صرفت وجهي عنهم . وإن قالوا اللهم أنت الذى ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ، ثم مكنت لنا فى البلاد واستخلفتنا فيها ، وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً ، وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً ، فأنت أوفى المنعمين وإن غيرنا ، ولا تبدل وإن بدلنا ، وإن تم بففضلك ومنك وطولك وإحسانك . فإن قالوا ذلك - قلت لهم : إنى أبتدىء عبادى برحمتى ونعمتى ، فإن قبلوا أتممت ، وإن استزادوا زدت ، وإن شكروا ضاعفت ، وإن غيروا غيرت ، وإذا غيروا غضبت ، وإذا غضبت عذبت ، وليس يقوم شيء بفضي [١] .

قال كعب : فقال إرميا : برحمتك أصبحت أنعلم بين يديك ، وهل ينبغى ذلك لى وأنا أذل وأضعف من أن ينبغى لى أن أتكلم بين يديك ؟ ولكن برحمتك أبقيتنى لهذا اليوم ، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد منى ؛ بما رضيت به منى ، من طول الإقامة فى دار الخاطئين وهم يعصونك حولى ، بغير نكر ولا تغيير منى ، فإن تعذبني فبذني وإن ترحمني فذلك ظني بك . ثم قال : يارب ! سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أتهلك هذه القرية وما حولها وهى مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يارب ! سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أتخرّب هذا المسجد وما حوله من المساجد ، ومن البيوت التى رفعت لك كرك ؟ يارب ! سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، لم قتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك ، وأمة موسى نجيك ، وقوم داود صفيك ؟ يارب ! أى القرى تأمن عقوبتك بعد ؟ وأى العباد يأمنون سطوتك بعد ؟ ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى ، وقوم خليلتك داود - تسلط عليهم عبدة النيران . قال الله تعالى : [يا إرميا ! من عصانى فلا يستنكر نعمتى ، فإنى إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين - إلا أن أئداركهم برحمتى] .

قال إرميا : يارب اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به ، وموسى قر بته نجياً ؛ فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا ، فأوحى الله إليه : [يا إرميا إني قدستك فى بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل - لمكنت الداعم لهم ، وكانوا عندى بمنزلة جنة ؛ ناعم شجرها ، طاهر ماؤها ، ولا يفسد ماؤها ، ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ، ولكن

(١) لى هنا ينتهى قول الله لإرميا صفحة ٣٨ ، حين لجأ إليه راجياً عدم إنزال نعمته على بنى إسرائيل لعظيائهم

سأشكو إليك بني إسرائيل ؛ إني كنت لهم بمنزلة الداعي الشفيق ، أجنبهم كل قحط وكل عسرة ، وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً ، فيأوي إليهم ثم يأوي إليهم ، إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمرى . إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعاً ، فيظهرونها في المساجد والأسواق ، وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عجت السماء إلى منهم ، وعجت الأرض والجبال ، ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب] .

قال فلما بلغهم إرميا رسالة ربهم ، وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب - عصوه وكذبوه ، واتهموه وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية ، فترجم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده ، فمن يعنده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ؟ لقد أعظمت الفرية على الله ، واعتراك الجنون . فأخذوه وقيدوه وسجنوه ، فعند ذلك بعث الله عليهم نحت نصر . فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم حتى حاصروهم ، فكان كما قال تعالى : (نجسوا خلال الديار) . قال فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ، ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة ، وذلك قوله : (نجسوا خلال الديار) وحكم فيهم حكم الجاهلية و بطش الجبارين ؛ فقتل منهم الثالث وسبي الثالث ، وترك الزمى والشيخوخ والعجائز . ثم وطئهم بالخليل وهدم بيت المقدس ، وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق حاسرات ، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب - فوجدوه قد مات . وأخرج أهل بيته الكتاب إليه ، وكان فيهم دانيال بن حزقييل الأصغر ، وميشائيل وعزرائيل وميخائيل ، فأمضى لهم ذلك الكتاب . وكان دانيال بن حزقييل خلفاً من دانيال الأكبر ، ودخل نحت نصر بجنوده بيت المقدس ووطئ الشام كلها ، وقتل بني إسرائيل حتى أفانم .

فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها ، وساق السبايا ، فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك - تسعين ألف غلام . وقذف الكناسات في بيت المقدس ، وذبح فيه الخنازير . وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود ، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط إيشي بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون وفتالي ابني يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب ، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب وألفين من سبط زبالون بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبييل ولاوى ، واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل . وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر ، قال وهب بن منبه ، فما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم

مأصابهم ، وبصفتك وخبرك لهم ، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسي ذرارهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذبوه واتهموه ، وضربوه وقيدوه وحبسوه . فأمر بخت نصر فأخرج « إرميا » من السجن ، فقال له : أ كنت تحذر هؤلاء القوم مأصابهم ؟ قال نعم ، قال : فأتى علمت ذلك ؟ قال أرسلني الله إليهم فكذبوني ، قال كذبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال نعم ، قال : بئس القوم قوم كذبوا نبينهم وكذبوا رسالة ربهم ، فهل لك أن تلحقني فأكرمك وأواسيك ؟ وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك . قال له إرميا : إنى لم أزل في أمان الله منذ كنت ، لم أخرج منه ساءة قط ، ولو أن بنى إسرائيل لم يخرجوا أمنه لم يخافوك ولا غيرك ، ولم يكن لك عليهم سلطان . فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه ، فأقام إرميا مكانه بأرض إيليا . وهذا سياق غريب ، وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة ، وفيه من جهة التعريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كان بخت نصر « أصفهيدا » لما بين الأهواز إلى الروم ، للملك على الفرس وهو « لهراسب » ، وكان قد بنى مدينة « باخ » التي تلب بالحناء^(١) ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيح الأماكن ، وبعث بخت نصر لقتال بنى إسرائيل بالشام ، فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق . وقد قيل إن الذى بعث بخت نصر إنما هو « بهمن » ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب ، وذلك لتعدى بنى إسرائيل على رسله إليهم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب : أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دماً بقل على كبا^(٢) يعنى القمامة ، فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما ظهر عليه السكبا ظهر . قال فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد ابن المسيب ، وقد تقدم من كلام الحافظ بن عساكر ما يدل على أن أهذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لا يصح ؛ لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدة . والظاهر أن هذا دم نبي مقدم ، أو دم لبعض الصالحين ، أو لمن شاء الله ، ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبي : ثم قدم بخت نصر بيت المقدس فصالحه ملكها ، وكان من آل داود ، وصانعه عن بنى إسرائيل ، وأخذ منه بخت نصر رهائن ورجع . فلما بلغ « طبرية » بلغه أن بنى إسرائيل ناروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه ، فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية . قال : وبلغنا أنه وجد في السجن « إرميا » النبي فأخرجه ، وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه ، فقال بخت نصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله ، وخلقى سبيله وأحسن إليه . واجتمع إليه من بقى من ضعفاء بنى إسرائيل فقالوا إنا قد

(١) لأنها أحسن مدن خراسان ١٠ (٢) في القاموس - السكبا كالي : الكناسة : وتنتبها كبوان والجم أكبا .

أسأنا وظلمنا ، ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا ، فادع الله أن يقبل توبتنا ، فدعاربه فأوحى إليه أنهم غير فاعلين ؛ فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة . فأخبرهم بما أمره الله تعالى به ، فقالوا كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها ؟ فأبوا أن يقيموا .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد ؛ فنزلت طائفة منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادي القرى . وذهبت شردمة منهم إلى مصر ، فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه ، فأبى عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبي ذرارهم . ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس ، وأرض فلسطين والأردن ، وفي السبي دانيال . قلت والظاهر أنه دانيال بن حزقيال الأصغر لا الأكبر ، على ما ذكره وهب بن منبه ، والله أعلم .

ذكر شيء من خبر دانيال « عليه السلام »

قال ابن الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني — قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه — عن الأجلح السكندی عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : ضرا^(١) بخت نصر أسدين فألقاهما في جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه^(٢) ، فكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى إرميا — وهو بالشام — أن أعد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يارب أنا بالأرض المقدسة ، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحى الله إليه : أن أعد ما أمرناك به ، فإننا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت ، ففعل . وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعدده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا إرميا . فقال ما جاء بك ؟ فقال أرسلني إليك ربك . قال : أو قد ذكرني ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذي يجيب من رجاه ، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة ، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذي يقيننا حين يسوء ظفنا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحق عن أبي خلد بن دينار : حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحننا « تستر » وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب ، فدعاه له كعباً فنسخه بالعربية . فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا ، فقلت لأبي العالية ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم والحون^(٣) كلامكم ، وما هو

(١) أي عود وضرب . (٢) أي لم يثيره ولم يقناله . (٣) جمع حن ، من الأصوات المصنوعة الموضوعة .

كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ؟ قال كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له «دانيال» ، قلت منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال منذ ثلثمائة سنة ، قلت أمانغير منه شيء ؟ قال لا - إلا شعرات من قفاه . إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع . وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من

رسول الله ﷺ نبي بنه

وقيل ستمائة وعشرون .

كونه دانيال هو المطابق صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه قربت الظنون أنه دانيال عليه على الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ؟ قال كانت السماء إذا حبست وقد روى بإسناد بطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له «دانيال» ، قلت طول أنفه ذراع ، فيحتد ، ؟ قال منذ ثلثمائة سنة ، قلت أمانغير منه شيء ؟ قال لا - إلا شعرات من قفاه . وقد قال أبو بكر الأرض ولا تأكلها السباع . وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان ابن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن أبي الأشعث الأحرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » ، فلما افتتح أبو موسى الأشعري « تستر » وجدته في تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشروه بالجنة » فكان الذي دل عليه رجل يقال له «حرقوص» ، فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره ، فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إلى حرقوص ، فإن النبي ﷺ بشره بالجنة . وهذا مرسل من هذا الوجه ، وفي كونه محفوظاً نظر ، والله أعلم .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو بلال ، حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد - وكان عالماً - قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجرة فيها ودك^(١) ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أما المصحف فابث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ، ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه^(٢) . وروى عن ابن أبي الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجدته وذكروا له أنه دانيال - التزمه وعانقه وقبسه ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالا موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم - وكان

(٢) أى أعطيناه لك نقلاً ، والنقل : الغنيمة والهبة .

(١) الودك محركة : الدسم

من جاء اقترض منها؛ فإن ردها وإلا مرض - وأن عنده ربعة . فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ، ويخفي قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال ، وبالربعة فتحمل إليه ، ونقله خاتمه . وروى عن أبي موسى : أنه أمر أربعة من الأسراء فكروا نهراً وحفروا في وسطه قبراً فدفنوه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضى الله عنه .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : رأيت في يد ابن بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فسه - أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه ، جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده ، فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد ، فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضره ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه ، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ . قال أبو بردة : قال أبو موسى قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه ؛ لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك . إسناد حسن .

ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها

[واجتماع الملائ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها]

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين : (أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأمانه الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير^(١)) قال هشام بن الكلبي : ثم أوحى الله تعالى إلى « إرميا » عليه السلام - فيما بلغني : إنى عامر بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها ، فخرج حتى قدمها وهي خراب ، فقال في نفسه : سبحان الله ! أمرنى الله أن أنزل هذه البلدة ، وأخبرنى أنه عامرها فتى يعمرها ؟ ومتى يحييها الله بعد موتها ؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلّة من طعام ، فسكث في نومه سبعين سنة ، حتى هلك بخت نصر والملك الذي فوقه وهو « لهراسب » . وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب . وكان موت بخت نصر في دولته ، فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين

فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنأدى في أرض بابل في بني إسرائيل : إن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملك عليهم رجلا من آل دلود، وأمره أن يعمر بيت المقدس ، ويبني مسجدها ، فرجعوا فعمروها ، وفتح الله لإرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبني وكيف تعمر ، ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة . ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة ، وقد عهد المدينة خراباً . فلما نظر إليها عامرة أهلة (قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) . فأقام بنو إسرائيل بها ، ورد الله عليهم أمرهم ، فكثروا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف . ثم لم يسكن لهم جماعة ولا سلطان -
يعنى بعد ظهور النصراني عليهم . هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه .

وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته ، قد دانت له العباد والبلاد والملك والمواد ، وأنه كان ذا رأى جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعامل . ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف . نزل عن الملك لولده بشتاسب ، فكان في زمانه ظهور دين المجوسية . وذلك أن رجلاً كان اسمه «زردشت» ، كان قد صحب إرميا عليه السلام فأغضبه ، فدعا عليه إرميا فبرص زردشت ، فذهب فلحق بأرض آذربيجان ، وصحب بشتاسب فلغنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه ، فقبله منه بشتاسب ، وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أباه منهم^(١) ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب ، وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين ، وقد ناب بخت نصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ، وعمر دهرراً طويلاً قبجه الله . والمقصود أن هذا الرأى ذكره ابن جرير ؛ من أن هذا المار على هذه القرية - هو إرميا عليه السلام . قال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد ابن عمير وغيرهما : وهو قوى من حيث السباق المتقدم ، وقد روى عن علي وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة وغيرهم : أنه عزيز ، وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف ، والله أعلم .

قصة العزيز

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عزيز بن جروة ، ويقال ابن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عري بن تقي بن اسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ، ويقال عزيز بن سروخا . جاء في بعض الآثار : أن قبره بدمشق ، ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود بن عمرو عن حبان بن علي عن محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً : لا أدري ألعين تبع أم لا ؟ ولا أدري أكان عزيز نبياً أم لا ؟ ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السجزي

(١) ذكر بعض الباحثين : أن زردشت هو إبراهيم الزردشت أحد الأنبياء الذين ظهروا في بلاد النفقاز ، وله كتاب باللغة الفارسية القديمة يشتمل على مبادئ وتعاليم وأحكام على نهج سائر الكتب ، ولا يزال أتباعه إلى اليوم بيران والهند ، وقد بشر بالنبى محمد .

عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه . ثم روى من طريق إسحاق بن بشر - وهو متروك - عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس : أن عزيزاً كان ممن سباه بخت نصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة ، قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه ، قال : وكان يذكر مع الأنبياء حتى سمي الله اسمه من ذلك - حين سأل ربه عن القدر . وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر ، والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد عن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام : أن عزيز هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن بشر عن قتادة عن كعب وسعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدي عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن جده وهب بن منبه . قال إسحاق : كل هؤلاء حدثوني عن حديث عزيز ، وزاد بعضهم على بعض ، قالوا بإسنادهم : إن عزيزاً كان عبداً صالحاً حكيماً . خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتماهداها ، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، ودخل الخربة وهو على حماره ، فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب ، فنزل في ظل تلك الخربة ، وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها ، وقد باد أهلها ، ورأى عظاماً بالية فقال : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها؟) ، فلم يشك أن الله يحييها ، ولكن قالها تعجباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام .

فلما أتت عليه مائة عام - وكانت فيما بين ذلك في بنى إسرائيل أمور وأحداث - قال : فبعث الله إلى عزيز ملكاً فخلق قلبه ليعقل قلبه ، وعينه لينظر بهما فيعقل كيف يحيى الله الموتى . ثم ركب خلقه وهو ينظر ، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ، ثم نفخ فيه الروح . كل ذلك وهو يرى ويعقل ، فاستوى جالساً ، فقال له الملك كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة ، وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ولم يتم لي يوم . فقال له الملك : بل لبثت مائة عام ؛ فانظر إلى طعامك وشرابك - يعني الطعام الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة ، فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس ، فذلك قوله : (لم يتسنه) يعني لم يتغير . وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما ، فكأنه أنكر في قلبه . فقال له الملك : أنكرت ما قلت لك ؟ انظر إلى حمارك ، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة ، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبها الملك وعزير ينظر إليه ، ثم ألبسها العروق والعصب

ثم كساها اللحم ، ثم أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن أن القيامة قد قامت . فذلك قوله : (وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً) يعنى وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً فى أوصالها ، حتى إذا صارت عظاماً مصورة حماراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً . (فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) من إحياء الموتى وغيره .

قال فركب حماره حتى أتى محلته ، فأنكره الناس وأنكر الناس ، وأنكر منزله . فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة وكانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة . فقال لها عزير يا هذه ! أهذا منزل عزير ؟ قالت نعم ، هذا منزل عزير ، فبكت وقالت : مارأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس ، قال : فإنى أنا عزير ، كان الله أمانى مائة سنة ثم بعثنى . قالت : سبحان الله ! فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر ، قال فإنى أنا عزير . قالت فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة ؛ يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد على بصرى حتى أراك ، فإن كنت عزيراً عرفتك . قال فدعا ربه ومسح بيده على عينها فصحتا ، وأخذ بيدها وقال قومى بإذن الله ، فأطلق الله رجلها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عمال : فنظرت فقالت أشهد أنك عزير . وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشر سنة ، وبنو بنيه شيوخ فى المجلس . فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم ، فكذبوها فقالت : أنا فلانة مولاتكم ؛ دعالى ربه فرد على بصرى وأطلق رجله ، وزعم أن الله أمانه مائة سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه ، فنظروا إليه ، فقال ابنه : كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير .

فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فىنا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا - غير عزير ، وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شىء إلا ما حفظت الرجال ، فاكتبها لنا ، وكان أبوه « سروخا » قد دفن التوراة أيام بخت نصر فى موضع لم يعرفه أحد غير عزير ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فخره فاستخرج التوراة ، وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب . قال : وجلس فى ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه ، فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل . فمن ثم قالت اليهود عزير بن الله ؛ للذى كان من أمر الشهابين ، وتجديده التوراة ، وقيامه بأمر بنى إسرائيل . وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقييل ، والقريه التى مات فيها يقال لها « ساراباذ » . قال ابن عباس

فكان كما قال الله تعالى : (ولنجعلك آية للناس) يعنى لبني إسرائيل . وذلك أنه كان يجلس مع بنييه وهم شيوخ وهو شاب ؛ لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شاباً كهيئة يوم مات . قال ابن عباس : بعث بعد بخت نصر ، وكذلك قال الحسن . وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس :

وأسود رأس شاب من قبله ابنه	ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى لابنه شيخاً يدب على عصاً	ولحيته سوداء والرأس أشقر
وما لابنه حيل ^(١) ولا فضل قوة	يقوم كما يمشى الصبي فيعثر
يعد ابنه في الناس تسعين حجة	وعشرين لا يجرى ولا يقبخر
وعمر أبيه أربعون أمرها	لأن ابنه تسعون في الناس عبر
فما هو في المعقول إن كنت دارياً	وإن كنت لا تدري فبالجهل تعذر

فصل

المشهور أن عزيزاً نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان ، وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق في بنى إسرائيل من يحفظ التوراة - ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل ، كما قال وهب بن منبه : أمر الله ملكاً فنزل بمغرافية من نور فمذفها في عزيز ، فنسخ التوراة حرفاً بحرف حتى فرغ منها . وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبدالله بن سلام عن قول الله تعالى : (وقالت اليهود عزيز بن الله) لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه ، وقول بنى إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب ، وإن عزيزاً قد جاءنا بها من غير كتاب ، فرماه طوائف منهم وقالوا عزيز ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع من زمن العزيز . وهذا متجه جداً إذا كان العزيز غير نبى ؛ كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصرى ، وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان عن عطاء وعن عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه ، ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال : كان في الفترة تسعة أشياء : بخت نصر ، وجنة صنعاء ، وجنة سبأ ، وأصحاب الأخدود ، وأمر حاصور^(٢) ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، ومدينة أنطاكية ، وأمر تبع . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان أمر عزيز وبخت نصر في الفترة . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن أولى الناس بابن مريم لأنا ؛ لأنه ليس بيني وبينه نبى » . وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام ، وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب : أن عزيزاً كان في زمن موسى بن عمران ، وأنه

(١) الحيل والحول : الخدق وجودة النظر والندرة على التصرف . (٢) في نسخة : وأمر جاصور . (٥ - بداية نان)

استأذن عليه فلم يأذن له - يعنى لما كان من سؤاله عن القدر ، وأنه انصرف وهو يقول مائة مائة موتة أهون من ذل ساعة . وفى معنى قول عزيز مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء :

قد يصبر الحر على السيف ويأنف الصبر على الحيف
ويؤثر الموت على حالة يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ماروى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالى وسفيان الثورى وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمضى اسمه من ذكر الأنبياء - فهو منكر ، وفى صحته نظر . وكأنه مأخوذ عن الإسرائيليات . وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوفى عن نوف البكالى قال : قال عزيز فيما يناجى به ربه : « يارب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدى من تشاء » . فقيل له : أعرض عن هذا ، فعاد ، فقيل له : لتعرض عن هذا أو لأحون اسمك من الأنبياء ؛ إني لأسأل عما أفعل وهم يسألون . وهذا لا يقتضى وقوع ما توعد عليه لو عاد ، فما حى اسمه ، والله أعلم .

وقد روى الجماعة - سوى الترمذى - من حديث يونس بن يزيد عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه^(١) فأخرج من تحتها ، ثم أمر بها فأحرق بالنار ، فأوحى الله إليه : مهلا نملة واحدة » فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه - أنه عزيز . وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصرى أنه عزيز ، والله أعلم .

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (بسم الله الرحمن الرحيم كهيمعص - ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفياً * قال رب إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب شقياً * وإني خفت الموالي من ورائى ، وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ * قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً * قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً * نفخ على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً * وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً)^(٢) وقال تعالى : (وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها

زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب * هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحورا ونبيا من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار^(١) وقال تعالى فى سورة الأنباء : (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)^(٢) وقال تعالى : (وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين)^(٣) قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ، ويقال زكريا بن دان ، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن دواد بن سليمان ابن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن اينامن بن رحبعام بن سليمان ابن داود - أبو يحيى النبى عليه السلام من بنى إسرائيل . دخل البثينة من أعمال دمشق فى طلب ابنه يحيى ، وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى ، والله أعلم . وقد قيل غير ذلك فى نسبه ، ويقال فيه - زكريا بالمد وبالقصر ، ويقال زكري أيضا .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام ، وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر ، وكانت امرأته عاقراً فى حال شبيبتها ، وقد أسنت أيضاً حتى لا يبأس أحد من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس ، فقال تعالى : (ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً) . قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقى ، ويسمع الصوت الخفى . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عن كان حاضراً عنده مخافته ؛ فقال : يارب ! يارب ! يارب ! فقال الله : لبيك لبيك (قال رب إني وهن العظم منى) أى ضعف وخار من الكبر (واشتعل الرأس شيباً) استعارة ؛ من اشتعال النار فى الخطب - أى غلب على سواد الشعور شيبه ، كما قال ابن دريد فى مقصورته^(٤) .

أما ترى رأسى حاكى لونه طرّة صبح تحت أذيال الدجا

(١) الآيات : ٣٧ - ٤١ من سورة آل عمران (٢) الآيتان ٨٩ ، ٩٠ (٣) الآية : ٨٥ من سورة الأنعام .
(٤) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد اللغوى البصرى المتوفى سنة ٣٢١ هـ . وقد كان إمام عصره فى اللغة والأدب والشعر ، وقيل إنه أورد أشياء فى اللغة لم ترد فى كتب المتقدمين . ومنصورته هذه يمدح بها الشاه بن ميكال وولديه وقد أحاط فيها بأكثر المقصور ، وشرحها كثير من المتأخرين . ومن تلاميذه أبو على الفالى صاحب الأمالى .

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا
وأض^(١) عود اللهب ببساً ذاوياً من بعد ما قد كان تجاج^(٢) الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً ، وهكذا قال زكريا عليه السلام : (إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً) . وقوله : (ولم أكن بدعائك رب شقياً) أى ما عودتى فيما أسألك إلا الإجابة . وكان الباعث له على هذه المسئلة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن مائان ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها^(٣) ولا في آيتها ، وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه - قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه . (هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . وقوله : (وإني خفت الموالى من ورأى وكانت امرأتى عاقراً) قيل : المراد بالموالى العصبه ، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بنى إسرائيل ؛ بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً ، ولهذا قال : (فهب لى من لدنك) أى من عندك بحولك وقوتك : (ولياً يرثنى) أى فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل ، (ويرث من آل يعقوب واجله رب رضىاً) يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء ، فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمهم بها من النبوة والوحى . وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ، ووافقهم ابن جرير ههنا ، وحكاه عن أبى صالح من السلف لوجوه : أحدها : ما قدمنا عند قوله تعالى : (وورث سليمان داود) أى فى النبوة والملك كما ذكرنا فى الحديث المتفق عليه بين العلماء ، المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ماتركنا فهو صدقة » فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به فى حياته إلى أحد من ورثه ، الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم : ابنته فاطمة ، وأزواجه التسع ، وعمه العباس رضى الله عنهم . واحتج عليهم الصديق فى منعه إيهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطاحه والزبير وأبو هريرة وآخرون رضى الله عنهم . الثانى : أن الترمذى رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء « نحن معاشر الأنبياء لانورث » وصححه . الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكتزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهتمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بدمهم ؛ فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم فى الزهادة - لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها . الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل

(١) آض : صار (٢) مجع الشراب من فيه : رماه (٣) الأون بالفتح وقد يكسر : الحين ، والآنية جمع لئاء .

من كسبها ؛ كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب - ولا سيما من مثل حال الأنبياء - أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه مالاً ليكون ذخيرة له يخلفه من بعده . وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره ، وتفهم إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد - يعني ابن هرون - أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به . وقوله : (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجمل له من قبل سمياً^(١)) هذا مفسر بقوله : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين^(٢)) فلما بشر بالولد وتحقق البشارة - شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً؟) أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير؟ قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبهه - والله أعلم - أنه كان أسن من ذلك (وكانت امرأتى عاقراً) يعنى وقد كانت امرأتى - فى حال شببيتها - عاقراً لانلد والله أعلم ؛ كما قال الخليل : (أبشرتونى على أن مسنى الكبر فىم تبشرون^(٣)) وقالت سارة : (يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً؟ إن هذا لشيء عجيب : قالوا أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد^(٤)) ، وهكذا أجيب زكريا عليه السلام ؛ قال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه : (كذلك قال ربك هو على هين) أى هذا سهل يسير عليه (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) أى قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ أفلا يوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً؟ وقال تعالى : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصبحنا له زوجة : إلهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا النافخاشعين^(٥)) ومعنى إصلاح زوجة : أنها كانت لآتحيض فحاضت . وقيل كان فى لسانها شيء - أى بذاءة (قال رب اجعل لى آية) أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوا) يقول علامة ذلك - أن يعتربك سكنت لا تنطلق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وأنت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية . وأمره بكثرة الذكر فى هذه الحال ؛ بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار . فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) ، والوحى ههنا : هو الأمر الخفى ؛ إما بكتابة كما قاله مجاهد والسدى ، أو بإشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة . قال مجاهد

(١) الآية : ٧ من سورة مريم (٢) الآية : ٣٩ من سورة آل عمران (٣) الآية . ٥٤ من سورة الحجر .

(٤) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة هود (٥) الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .

وعكرمة ووهب والسدى وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض ، وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) ، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه . قال عبد الله بن المبارك قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : مالمعب خلقنا . قال وذلك قوله : (وآتيناه الحكم صبيا) . وأما قوله : (وحناناً من لدنا) فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الحنان ؟ وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : (وحناناً من لدنا) : أى رحمة من عندنا رحمتنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة (وحناناً) : أى محبة عليه . ويحتمل أن يكون ذلك صفة ليحنن يحيى على الناس ، ولا سيما على أبويه ؛ وهو محبتهم والشفقة عليهما وبره بهما . وأما الزكاة : فهى طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى : طاعة الله بامتنال أو امره وترك زواجه . ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لها أمراً ونهياً ، وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال : (وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً) ، ثم قال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ؛ فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه . ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابدهمومها وغمها . وكذلك إذا فارق هذه الدار ، وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور . وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور ؛ فمن مسرور ومحبور ، ومن محزون ومشبور ، وما بين جبير وكسير ، وفريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولدتك أمك با كياً مستصرخاً والناس حولك يضحكون سرورا

فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم ، سلم الله على يحيى فى كل موطن منها فقال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التميا ، فقال له عيسى : استغفر لى أنت خير منى ، فقال له الآخر : استغفر لى أنت خير منى ، فقال له عيسى : أنت خير منى ؛ سلمت على نفسى وسلم الله عليك ، فعرف والله فضلهما . وأما قوله فى الآية الأخرى : (وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) فقيل المراد بالحضور : الذى لا يأتى النساء

وقيل غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : (هب لي من لدنك ذرية طيبة) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى » . علي بن زيد بن جدعان - تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، وهو منكر الحديث . وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العباداني عن علي بن زيد بن جدعان به معطولا ، ثم قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

وقال ابن وهب : حدثني ابن لميعة عن عقيل عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء ، فقال قائل : موسى كليم الله ، وقال قائل : عيسى روح الله وكنته ، وقال قائل : إبراهيم خليل الله . فقال : « أين الشهيد ابن الشهيد ، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب ؟ » . قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا . وقد روى محمد بن إسحاق - وهو مدلس - عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب : حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا » ، فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ههنا . ثم قال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلًا ، ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، ثم رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق : حدثنا محمد بن الأصبهاني ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبدالله بن عمرو قال : « ما أحد إلا يلقى الله بذنب ، إلا يحيى بن زكريا ، ثم تلا : (وسيداً وحصوراً) ثم رفع شيئاً من الأرض فقال : ما كان معه إلا مثل هذا ، ثم ذبح ذبحاً » وهذا موقوف من هذه الطريق ، وكونه موقوفاً أصح من رفعه ، والله أعلم .

وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر ؛ من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر - وهو ضعيف - عن عثمان بن سباح عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه . وروى من طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبيه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام » .

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني : حدثنا إسحاق بن أحمد ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا أحمد بن أبي الخوارى سمعت أبا سليمان يقول : خرج عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان ، فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسى : يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبداً ، قال : وما هي يا ابن خالة ؟ قال امرأة صدمتها ، قال : والله ما شعرت بها ، قال : سبحان الله ! بدنتك معي

فأين روحك؟ قال معلق بالعرش . ولو أن قباي اطمأن إلى جبريل لظننت أني ما عرفت الله طرفة عين .
فيه غرابة وهو من الإسرائيليات .

وقال إسرائيل عن أبي حصين عن خيشمة قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة ،
وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الور . ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ، ولا عبد ولا
أمة ، ولا مأوى يأويان إليه ، أين ماجنهما الليل أويا . فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى أوصني ، قال :
لا تغضب . قال لا أستطيع إلا أن أغضب ، قال لا تقتن مالا ، قال : أما هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه : هل مات زكريا عليه السلام موتاً ؟ أو قتل قتلاً ؟ على
روايتين ؛ فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال هرب من قومه فدخل
شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعهم ، فأوحى الله إليهم : إنهم لم يسكن
أينك لأفابن الأرض ومن عليها ، فسكن أينهم حتى قطع بائنتين . وقد روى هذا في حديث مرفوع
سنورده بعد إن شاء الله . وروى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال : الذي
انصدعت له الشجرة هو شعيا ، فأما زكريا فمات موتاً ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف - وكان يعد من البدلاء - حدثنا
يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن
الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ؛ أن يعمل بهن ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن
يبطىء ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات ؛ أن تعمل بهن ، وتأمر بني إسرائيل
أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن . فقال يا أختي : إني أخشى إن سبقتنني أنت أعذب
أو يخسف بي ، قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، فقعده على الشرف
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات ؛ أن أعمل بهن ، وأمركم
أن تعملوا بهن .

وأولهن : أن تعبدوا الله لا تشرکوا به شيئاً ؛ فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله
بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأبكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟
وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً . وأمركم بالصلاة ؛ فإن الله ينصب وجهه قبل
عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وأمركم بالصيام ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من
مسك في عصابة ، كلهم يحد ریح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم
بالصدقة ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال :
هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وأمركم

بذكر الله عز وجل كثيراً؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان - إذا كان في ذكر الله عز وجل .

قال : **وقل ﷺ** : « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ؛ فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة^(١) الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حنث^(٢) جهنم » قال يارسول الله وإن صام وصلى ، قال : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هذبة بن خالد عن أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير به . وكذلك رواه الترمذى من حديث أبي داود الطيالسى وموسى بن إسماعيل ، كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به . ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سبور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري به . ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطرى عن معاوية بن سلام عن أخيه به . ثم قال : تفرد به مروان الطاطرى عن معاوية بن سلام . قلت : وليس كما قال ، ورواه عن محمد بن عبدة عن أبي نوبة الربيع بن يافع عن معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري ، فذكر نحوه ، فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري ، فذكر نحوه هذه الرواية . ثم روى الحافظ بن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازى عن أبيه عن الربيع بن أنس قال : ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بنى إسرائيل : أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات ، وذكر نحوه ماتقدم . وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأس إلى البرارى ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد فى بعض الأحيان ويقول : من أنعم منك يا يحيى ؟ وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا فى طلبه فوجداه عند بحيرة الأردن ، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل . وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإنه كان ليبكى من خشية الله ، حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلى : حدثنا أبو صالح ، حدثنا الليث ، حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : جلست يوماً إلى أبي إدريس الخولانى وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيّب الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيّب الناس طعاماً ، إنما كان يأكل مع

(١) الربقة بالكسر : جبل فيه عدة عمراً تشد به البهم ، كل عروة ربة بالفتح والكسر ، والجهم ربة كغيب .

(٢) الحنث : التراب المحسوس .

الوحش كراهة أن يخالط الناس في معاشهم . وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام ، فخرج يلتمسه في البرية ، فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال يا بني ! أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه ؟ فقال يا أبت أأنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكاين ؟ فقال له ابك يا بني ، فبكيا جميعاً . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنجوه ، وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين ألا يناموا ؛ لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل . ثم قال : كم بين النعيمين ؟ وكم بينهما ؟ وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسباباً من أشهرها : أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق ، كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يخل له تزوجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك ، فبقي في نفسها منه . فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها ، استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها ، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها . وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما بدت منه تحيلت في أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ، ثم أجابها إلى ذلك ، فبعثت من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طشت . وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق ابن بشر في كتابه [المبتدا] حيث قال : أنبأنا يعقوب الكوفي عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا في السماء فسلم عليه ، وقال له : « يا أبا يحيى خبرني عن قتلك كيف كان ؟ ولم قتلك بنو إسرائيل ؟ » . قال : يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصحبهم وجهاً ، وكان كما قال الله تعالى : (وسيداً وحسوراً) ، وكان لا يحتاج إلى النساء ، فهوته امرأة ملك بني إسرائيل ، وكانت بغيّة ، فأرسلت إليه وعصمه الله ، وامتنع يحيى وأبى عليها ، فأجمعت على قتل يحيى . وكان لهم عيد يحتممون فيه في كل عام ، وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب . قال فخرج الملك إلى العيد ، فقامت امرأته فشيعة وكان بها معجباً ، ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعة قال الملك : سليني فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك ، قالت : أريد دم يحيى ابن زكريا ، قال لها : سليني غيره ، قالت هو ذاك ، قال : هو لك . قال فبعثت جلاوزتها^(١) إلى يحيى وهو في محرابه يصلي ، وأنا إلى جانبه أصلي ، قال : فذبح في طشت وحمل رأسه ودمه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فما بلغ من صبرك ؟ » قال : ما انفتلت^(٢) من صلاتي . قال : فلما حمل رأسه إليها وضع

(١) جم جلاوز بالسكسر ، وهو الشرطي وتابعه (٢) أي ما انصرفت ولا خرجت .

بين يديها ، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إله زكريا لذكرها ، فتمالوا حتى نفضب لملكنا فنقتل زكريا ، قال فخرجوا في طابى ليقتلوني ، وجاءني النذير فهربت منهم ، وإبليس أمامهم يدلهم على ، فلما تخوفت أن لا أعجزهم - عرضت لى شجرة ، فنادتني وقالت : إلى - إلى ، وانصدعت لى ، فدخلت فيها . قال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائى والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائى خارجاً من الشجرة ، وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ؟ هذا طرف ردائه دخاها بسحره ، فقالوا نحرق هذه الشجرة ، فقال إبليس شقوه بالمنشار شقاً ، قال فشققت مع الشجرة بالمنشار . قال له النبي ﷺ : « هل وجدت له مساً أو وجعاً ؟ قال : لا . إنما وجدت ذلك الشجرة التى جعل الله روحى فيها » . هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب ، ورفعه منكر ، وفيه ما ينكر على كل حال ، ولم ير فى شىء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام - إلا فى هذا الحديث . وإنما المحفوظ فى بعض ألفاظ الصحيح : فى حديث الإسراء « ففررت بابنى الخالة يحيى وعيسى » ، وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ؛ فإن أم يحيى « أشياح » بنت عمران أخت مريم بنت عمران . وقيل : بل أشياح - وهى امرأة زكريا أم يحيى - هى أخت حنة امرأة عمران أم مريم ، فيكون يحيى ابن خالة مريم ، والله أعلم .

ثم اختلف فى مقتل يحيى بن زكريا : هل كان فى المسجد الأقصى أم بغيره ؟ على قولين : فقال الثورى عن الأعمش عن شمر بن عطية قال : قتل على الصخرة التى بببيت المقدس سبعون نبياً ، منهم يحيى بن زكريا عليه السلام . وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : قدم بخت نصر دمشق ، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى ، فسأل عنه فأخبروه ، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وهو يقتضى أنه قتل بدمشق ، وأن قصة بخت نصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصرى ، والله أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا - حين أرادوا بناء مسجد دمشق - أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى الحراب مما يلى الشرق ، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير - وفى رواية - كأنما قتل الساعة وذكر فى بناء مسجد دمشق : أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة ، والله أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى [المستقصى فى فضائل الأقصى] من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة - يعنى دمشق - هداد بن هدار ، وكان قد زوجه أبوه بابنة أخيه « أرييل » ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق ، وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً . ثم إنه أراد مراجعتها

فاستفتى يحيى بن زكريا ، فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك ، فحقدت عليه ، وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ، وذلك إشارة أمها ، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك . وبعث إليه - وهو قائم بصلى بمسجد حبرون - من أناه برأسه في صينية ، فجعل الرأس يقول له : لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحمله على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمتل بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها ، وجعلت أمها تولول والجوارى بصرخن ويلطنن وجوههن ، ثم خسف بها إلى منكبها ، فأمرت أمها السيف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ، ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ، ووقعوا في الذل والفناء . ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً . قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دم كل نبي ، ولم يزل يفور حتى وقف عنده « إرميا » عليه السلام ، فقال : أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل ، فاسكن بإذن الله - فسكن ، فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس ، فتبعهم إليها ، فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة ، وسبا منهم ثم رجع عنهم .

قصة عيسى بن مريم « عليه السلام »

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها - وهو ثلاث وثمانون آية منها - في الرد على النصارى ، عليهم لعائن الله ، الذين زعموا أن الله ولدا ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل ، من التثليث في الأقانيم ^(١) ويدعون بزعمهم - أن الله ثالث ثلاثة ، وهم : الذات المقدسة ، وعيسى ، ومريم ، على اختلاف فرقهم . فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة ؛ بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله ، خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات ، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ، وقال له : « كُنْ » فكان سبحانه وتعالى . وبين أصل ميلاد أمه مريم ، وكيف كان من أمرها ؟ وكيف حملت بولدها عيسى ؟ وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته . فقال تعالى وهو أصدق القائلين : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محرراً ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيدتها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربهما بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ^(٢)) .

(١) أى الأصول - جم أقنوم بضم الهزة وهو: الأصل . (٢) الآيات : ٣٢ - ٣٧ .

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام ، واخلف من ذريته ، المتبعين شرعه ، الملازمين طاعته .
ثم خصص فقال : (وآل إبراهيم) فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق . ثم ذكر فضل هذا البيت
الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا - والد مريم عليها السلام . قال محمد بن إسحاق : هو
عمران بن باشم بن أمون بن ميثا بن حزقيا بن إحق بن مؤثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن احريهو
ابن يازم بن يهفاساط بن إيشا بن ايان بن رحبعام بن سليمان بن داود . وقال أبو القاسم بن عساكر :
مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليهود بن اخنوخ بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن ايوب بن
زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميثا بن حزقا بن احاز بن مؤثم بن عزريا بن يورام
ابن يوشافاط بن ايشا بن ايبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام . وفيه مخالفة كما ذكره محمد بن
إسحاق ، ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل
في زمانه ، وكانت أمها وهي « حنة » بنت فاقود بن قبيل - من العابدات ، وكان زكريا نبي ذلك الزمان
زوج أخت مريم « أشياع » في قول الجمهور ، وقيل زوج خالتها « أشياع » ، والله أعلم .
وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره : أن أم مريم كانت لا تحبل ، فرأت يوماً طائراً يزق^(١) فرخاله
فاشتهت الولد ، فنذرت لله إن حمات لتجمعان ولدها محرراً - أي حبيساً - في خدمة بيت المقدس ، قالوا
فحاضت من فورها ، فلما طهرت واقعها بعلمها فحملت بمريم عليها السلام (فلما وضعتها قالت رب إنى
وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) وقرئ بضم التاء (وليس الذكر كالأثى) أى في خدمة بيت المقدس ،
وكانوا في ذلك الزمان ينفذون لبيت المقدس خداماً من أولادهم . وقولها : (وإنى سميتها مريم) - استدل
به على تسمية المولود يوم يولد . وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ
« فحنك^(٢) أخاه وسماه عبد الله » . وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً : « كل غلام رهينة ببقية^(٣)
تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه » . رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى ، وجاء في بعض
ألفاظه ، ويدعى - بدل ويسمى ، وصححه بعضهم ، والله أعلم وقولها : (وإنى أعيدنها بك وذريتها من
الشیطان الرجيم) قد استجيب لها في هذا ، كما تقبل منها نذرهما ؛ فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ،
حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود
إلا والشیطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه - إلا مريم وابنها » ، ثم يقول
أبو هريرة : واقراءوا إن شئتم : (وإنى أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أخرجه من حديث
عبد الرزاق ، ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية عن عبد الله بن الزبيدي عن الزهري عن
أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

(١) أى يطعم . (٢) قال في القاموس : حنك الصبي - مضغ تمرأ أو غيره فدللكه بحنكه .

(٣) العقبة : الشاة التي تنزع عن المولود يوم أسبوعه .

وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذؤيب عن مجلان مولى المشعل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل مولود من بني آدم يمسسه الشيطان بإصبعه - إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى » . تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وقال أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا حفص بن ميسرة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كل إنسان تلداه أمه يلكزهُ ^(١) الشيطان في حضنه إلا ما كان من مريم وابنها ، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ ؟ » قالوا بلى يا رسول الله . قال : « ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنه » ، وهذا على شرط مسلم ولم يخرج من هذا الوجه . ورواه قيس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين - إلا عيسى بن مريم ومريم » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) . وكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بأصل الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك ، حدثنا المغيرة - هو ابن عبد الله الحزامي - عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد - إلا عيسى بن مريم ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب » . وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقوله : (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتاً حساناً وكفلها زكريا) ذكر كثير من المفسرين : أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقتها ، ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها ، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها . ثم لما دفعها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبهم في ذلك الزمان ، وقد أراد أن يستبد بها دونهم ؛ من أجل أن زوجته أختها أو خالتها - على القولين . فشاحوه ^(٢) في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم ، فساعده المقادير فخرجت قرعته غالبية لهم ؛ وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى : (وكفلها زكريا) أي بسبب غلبه لهم في القرعة ، كما قال تعالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ^(٣)) . قالوا وذلك أن كلامهم ألقى قلمه معروفاً به ، ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث ^(٤) فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام . فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر ، فأیهم جرى قلمه على خلاف جريه في الماء فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان قلم زكريا هو

(١) اللكز والوكز : الضرب بالجمع على الصدر أو في جميع الجسد . (٢) المشاحة : الضنة والحرس ، وتشاح القوم في الأمر : شح بعضهم على بعض حذر فوته (٣) الآية : ٤٤ من سورة آل عمران (٤) أي الإثم والذنب .

الذي جرى على خلاف جرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء . ثم طلبوا منه أن يقتروا ثالثة ، فأبهم جري قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدا فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان زكريا هو الغالب لهم فكفاهما ؛ إذ كان أحق بها شرعاً وقدرأ لوجوه عديدة .

قال الله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا صريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ؛ فكانت تعبد الله فيه ، وتقوم بما يجب عليها من سداة البيت إذا جاءت نوبتها ، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ؛ حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة . حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه ؛ فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف فيـألها : (أنى لك هذا ؟) فتقول : (هو من عند الله) أى رزق رزقنيه الله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) . فعند ذلك وهنالك - طمع زكريا في وجود ولد من صلبه ، وإن كان قد أسن وكبر (قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . قال بعضهم - قال : يا من يرزق صريم الثمر في غير أوانه ، هب لي ولداً وإن كان في غير أوانه ، فكان من خبره وقصيته ما قدمنا ذكره في قصته .

(وإذ قالت الملائكة يا صريم إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين * يا صريم اقمتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قالت الملائكة يا صريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرى الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصداقاً لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ^(١) .

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمى زمانها ؛ بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب ، وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً (يكلم الناس فى المهد) أى فى صغره ؛ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وكذلك فى حال كهولته ، فدل على أنه يبلغ الكهولة

ويدعو إلى الله فيها . وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع ؛ لتكون أهلاً لهذه المكرمة ، ولتقوم بشكر هذه النعمة . فيقال إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفتطرت قدماها ، رضى الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها . فقول الملائكة : (يا مريم إن الله اصطفاك) أى اختارك واجتباك (وطهرتك) أى من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة (واصطفاك على نساء العالمين) ؛ يحتمل أن يكون المراد على زمانها ؛ كقوله لموسى : (إني اصطفتك على الناس) وكقوله عن بنى إسرائيل : (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما . وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبائها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بنى إسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله : (واصطفاك على نساء العالمين) محفوظ العموم ، فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها ؛ لأنها إن كانت نبيهة على قول من يقول بنبوتها ، ونبوة سارة أم إسحاق ، ونبوة أم موسى ، محتجاً بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره . فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى ؛ لعموم قوله : (واصطفاك على نساء العالمين) إذ لم يعارضه غيره ، والله أعلم . وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة ، من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس في النساء نبيهة ، فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) - فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ؛ ممن كان قبلها وممن يكون بعدها ، والله أعلم .

وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد - رضى الله عنهن وأرضاهن . وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عديدة عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر عن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساءها^(١) مريم بنت عمران ، وخير نساءها خديجة بنت خويلد » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » . ورواه الترمذى عن أبى بكر بن زانجويه عن عبد الرزاق به وصححه ، ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى ، وابن عساكر من طريق تميم بن زياد كلاهما عن أبى جعفر الرازى ، عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله » .

(١) أى نساء أهل الدنيا في زمانها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خير نساء ركن الإبل صالح نساء قریش ، أحناه^(١) على ولد في صغره ، وأرعاه لزوج في ذات يده » ، قال أبو هريرة : « ولم تركب مريم بعيراً قط » . وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد - كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني موسى بن علي : سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : « خير نساء ركن الإبل نساء قریش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه بزواج على قلة ذات يده » ، قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل . تفرد به وهو على شرط الصحيح . ولهذا الحديث طرق آخر عن أبي هريرة .

وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا زهير ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن علياء ابن أحمز ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط ، فقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » . ورواه النسائي من طرق عن داود أبي هند . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث : حدثنا يحيى بن حاتم العسكري ، أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان ، حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبي هند عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك منهن أربع ، سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » . وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا وهب بن منبه ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن عائشة أنها قالت لفاطمة : رأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فيكيت ثم ضحكت ؟ قالت : أخبرني أنه ميت من وجهه هذا فيكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به ، وأنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران - فضحكت ، وأصل هذا الحديث في الصحيح . وهذا إسناد على شرط مسلم ، وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات . وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير عن يزيد - هو ابن أبي زياد - عن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران » . إسناد حسن ، وصححه الترمذي ولم يخرجوه . وقد روى نحوه من حديث علي بن أبي طالب ، ولكن في إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هؤلاء الأربع . ثم يحتمل الاستثناء أن تكون

(١) كان القياس أن يقول : أحناهن وأرعاهن ، لكن جرى لسان العرب بالإفراد .

مريم أفضل من فاطمة ، ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة . لكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول ؛ فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو الحسن بن الفرا وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا ، قالوا أنبأنا أبو جعفر بن المسلة ، أنبأنا أبو طاهر الخالص ، حدثنا أحمد بن سايان ، حدثنا الزبير - هو ابن بكار - حدثنا محمد بن الحسن بن عبد العزيز بن محمد عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنة : مريم بنت عمران ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » . فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بتم التي للترتيب - فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء ، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه ، والله أعلم . وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن داود الجعفرى عن عبد العزيز ابن محمد - وهو الداروردي - عن إبراهيم بن عقبة عن كريب عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره بواو العطف لابن الترتيبية ، بخالفه إسناداً وامتناً ، والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قررة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » ، وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة - إلا أبا داود ، من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمداني عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » - فإنه حديث صحيح كما ترى ، اتفق الشيخان على إخراجهم . ولفظه يقتضى حصر الكمال في النساء ؛ في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانهما ؛ فإن كلا منهما كفلت نبياً في حال صغره ؛ وآسية كفلت موسى السكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرها في هذه الأمة ؛ وخديجة وفاطمة ؛ فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة ، وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها وما لها رضى الله عنها وأرضاها . وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها ؛ لأنها أصيبت برسول الله ﷺ ، وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ . وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ، ولم يتزوج بكاراً غيرها ، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها - أعلم منها ولا أفهم . وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات . وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة ، تبلغ عنه القرآن والسنة ، وتفقت المسلمين ، وتصلح بين المختلفين ، وهى أشرف أمهات المؤمنين - حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين - في قول طائفة من العلماء السابقين

واللاحقين . والأحسن الوقف فيهما رضى الله عنهما ، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » - يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات ، والله أعلم .

والمقصود ههنا ذكر ما يتعلق بمریم بنت عمران عليها السلام ؛ فإن الله طهرها واصطفها على نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا . وقد ورد في حديث : أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك ، واستأنس بقوله : (ثيبات وأبكاراً) . قال : فالثيب آسية ، ومن الأبكار مریم بنت عمران . وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم ، فإله أعلم .

قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العوفي ، حدثنا أبي ، أنبأنا عمي الحسين حدثنا يونس بن نعيم عن سعد بن جنادة - هو العوفي - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوجني في الجنة مریم بنت عمران ، وامرأة فرعون ، وأخت موسى » . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن عريرة ، حدثنا عبد النور بن عبد الله ، حدثنا يونس بن شعيب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « أشعرت أن الله زوجني مریم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وكلمت أخت موسى ؟ » رواه ابن جعفر العقيلي وليس بمحفوظ . وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن الحسن ، عن يعلى بن المغيرة ، عن ابن أبي داود قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه ، فقال لها . « بالكره مني ما أرى منك يا خديجة ، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً ، أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة : مریم بنت عمران ، وكلمت أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون ؟ » قالت : وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله ؟ قال نعم . قالت : بالرفاء والبنين . وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابي : حدثنا العباس بن بكار ، حدثنا أبو بكر الهزلي عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت ، فقال : « يا خديجة إذا قميت ضرائك فأقرئين مني السلام » . قالت يا رسول الله وهل تزوجت قبلي ؟ قال : « لا .. ولكن الله زوجني مریم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ، وكلمت أخت موسى » وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد : حدثنا محمد بن صالح بن عمر عن الضحاک ومجاهد عن ابن عمر ، قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة ، فقال جبريل من هذه يا محمد ؟ قال هذه صديقة أمتي ، قال جبريل : معنى إليها رسالة من الرب عز وجل ؛ يقرمها السلام ويبشرها ببیت في الجنة من قصب ، بعيد ، من الذهب ، لانصب فيه ولا صخب . قالت : الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ، ما ذلك البيت الذي من قصب ؟ قال لؤلؤة جوفاء بين بيت مریم بنت عمران وبيت آسية بنت

مزاحم ، وهما من أزواج يوم القيامة . وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وضرب - في الصحيح ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً . وكل من هذه الأحاديث في أسانيدنا نظر . وروى ابن عساكر من حديث أبي زرعة الدمشقي : حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية عن صفوان بن عمرو عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار : أن معاوية سأله عن الصخرة - يعني صخرة بيت المقدس - فقال : الصخرة على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار الجنة ، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط^(١) أهل الجنة حتى تقوم الساعة . ثم رواه من طريق إسماعيل عن عياش عن ثعلبة بن مسلم عن مسعود ، عن عبد الرحمن بن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ بمثله . وهذا منكر من هذا الوجه ، بل هو موضوع ، وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح ، عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن ابن عابد : أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره . قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه . قلت وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل ، وضعه بعض زنادقهم أو جهالمهم وهذا منه ، والله أعلم .

ذكر ميلاد العبد الرسول « عيسى بن مريم البتول »

قال الله تعالى : (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ؟ * قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريباً * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلى واشربى وقربى عينا ، فإما ترين من البشر أحداً ، فقولى إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً * فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً * يا أخت هارون ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً * قال إني عبدالله أتانى الكتاب وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركاً أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبرأ بوالدتي ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما

(١) جمع سمط ، وهو الحيط فيه الحرز ، وقلادة أطول من الخنقة .

يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم^(١) .

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها ، كما ذكر في سورة آل عمران ، وقرن بينهما في سياق واحد ، وكما قال في سورة الأنبياء : (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدننى فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين *) والى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين^(٢) .

وقد تقدم أن مريم جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخذها محرراً - وهو المكان الشريف من المسجد - لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام . وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها ، وبأنه سيهب لها ولداً زكياً ، يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات . فتمعجت من وجود ولد من غير والد ؛ لأنها لازوج لها ولا هى ممن تزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ، (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) ، فاستكانت لذلك وأنابت ، وسامت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ؛ فإن الناس سيتكلمون فيها بسبه ؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تمقل . وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها ، أو لحاجة ضرورية لا بد منها ؛ من استقاء ماء أو تحصيل غذاء . فبينما هى يوماً قد خرجت لبعض شئونها ، و (انتبذت) أى انفردت وحدها شرق المسجد الأقصى ، إذ بعث إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام (فتمثل لها بشراً سوياً) ، فلما رآته (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) . قال أبو العالية : علمت أن التقي ذو شهية^(٣) ، وهذا يرد قول من زعم أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه « تقي » ؛ فإن هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الأقوال (قال إنما أنا رسول ربك) أى خاطبها الملك قائلاً : إنما أنا رسول ربك لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إليك (لأهب لك غلاماً زكياً) أى ولداً زكياً ، (قالت أنى يكون لى غلام) أى كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد ؟ (ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً) أى ولست ذات زوج ، وما أنا ممن يفعل الفاحشة (قال كذلك قال ربك هو على

(١) الآيات : ١٦ - ٣٧ من سورة مريم .

(٢) الآيات : ٨٩ - ٩١ .

(٣) النهاية بالضم - واحدة التهى : وهى العقول ؛ لأنها تنهى عن الفحيع .

هين) أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً : (كذلك قال ربك) أى وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ، ولا تسكونين ممن تبغين (هو على هين) أى هذا سهل عليه وبسير لديه ، فإنه على ما يشاء قدير . وقوله : (ولنجعله آية للناس) أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ؛ فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله : (ورحمة منا) أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله ، فى صغره وكبره ، فى طفولته وكمولته - بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصحابة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد . وقوله : (وكان أمراً مقضياً) يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ؛ يعنى أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره . وهذا معنى قول محمد بن إسحاق ، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه ، والله أعلم . ويحتمل أن يسكون قوله : (وكان أمراً مقضياً) - كناية عن نفخ جبريل فيها ؛ كما قال تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا^(١)) . فذكر غير واحد من السلف : أن جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها ، كما تحمل المرأة عند جماع بها . ومن قال : إنه نفخ فى فيها ، أو أن الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولى فيها من فيها - فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن ؛ فإن هذا السياق يدل على أن الذى أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج ، بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها ، فانسكبت فيه ، كما قال تعالى : (فنفخنا فيه من روحنا) ، يدل على أن النفخة ولجت فيه ؛ لافى فيها كما روى عن أبى بن كعب ، ولا فى صدرها كما رواه السدى بإسناده عن بعض الصحابة . ولهذا قال تعالى : (فحملته) أى حملت ولدها (فانقبذت به مكاناً قصياً) . وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقها ، فذكر غير واحد من السلف - منهم وهب بن منبه - أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل ، كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها - فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج . فعرض لها ذات يوم فى الكلام ، فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت نعم . فمن خلق الزرع الأول ؟ ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ؟ قالت نعم . فمن خلق الشجر الأول ؟ ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت نعم . إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى . قال لها : فأخبرنى خبرك ، فقالت : إن الله بشرنى (بكلمة منه

اسمه المسيح عيسى ابن مريم وحيها في الدنيا والآخرة ومن المقر بين * وبكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين^(١) . و يروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام : أنه سأها فأجابته بمثل هذا ، والله أعلم .
وذكر السدي بإسناده عن الصحابة : أن مريم دخلت يوماً على أختها ، فقالت لها أختها :
أشعرت أنى حبلي ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أنى حبلي ؟ فاعتنقتها ، وقالت لها أم يحيى : إنى أرى
مافى بطنى يسجد لما فى بطنك . وذلك قوله : (مصداقاً بكلمة من الله) . ومعنى السجود ههنا الخضوع
والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام ؛ كما كان فى شرع من قبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود
لآدم . وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغنى أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة ، وكان حملها
جميعاً معاً ، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم : إنى أرى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك ، قال مالك :
أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ؛ لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص ،
رواه ابن أبى حاتم . وروى عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدثنى وكلنى ، وإذا كنت
بين الناس سبىح فى بطنى .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر ، كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ؛ إذ لو كان
خلاف ذلك لذكر . وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر ، وعن ابن عباس
ماهو إلا أن حملت به فوضعتة . قال بعضهم : حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله تعالى :
(حملته فانبتت به مكاناً قصياً ؛ فأجاءها الخاض إلى جذع النخلة) . والصحيح أن تعقيب كل شىء
بحسبه ، كقوله : (فتصبح الأرض مخضرة) . وكقوله : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا
المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين^(٢)) . ومعلوم
أن بين كل حالين أربعين يوماً ، كما ثبت فى الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر فى بنى إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت مادخل
على آل بيت زكريا . قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد ، وتوارت
عنهم مريم واعتزلتهم ، وانتبذت مكاناً قصياً . وقوله : (فأجاءها الخاض إلى جذع النخلة) أى فالجأها
واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو - بنص الحديث الذى رواه النسائى بإسناد لا بأس به عن أنس
مرفوعاً والبيهقى بإسناد ، وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً - بيت لحم ؛ الذى بنى عليه بعض
ملوك الروم فيما بعد على ماسنذكره - هذا البناء للمشاهد الهائل . (قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت
نسياً منسياً) . فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا
يصدقونها ، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الفاسكات

(١) الأيتان : ٤٤ ، ٤٥ من سورة آل عمران . (٢) الآية : ١٤ من سورة المؤمنون .

المجاورات^(١) في المسجد ، المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة ، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال ، أو كانت (نسيماً منسياً) أى لم تخلق بالسكلية . وقوله : (فناداها من تحتها) وقرى من تحتها على الخفض ، وفي المضر قولان : أحدهما أنه جبريل ، قاله العوفي عن ابن عباس ، قال ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم ، وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدى وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية : هو ابنها عيسى ، واختاره ابن جرير . وقوله : (ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريراً) قيل النهر ، وإليه ذهب الجمهور ، وجاء فيه حديث رواه الطبرانى لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح . وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم : أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) فذكر الطعام والشراب . ولهذا قال : (فكلى واشربى وقرى عيناً) . ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً ، وقيل كانت نخلة مثمرة فأنه أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ؛ لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر . وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان : (تساقط عليك رطباً جنياً) . قال عمرو بن ميمون ليس شيء أجود لنفساء من الثمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأنصارى عن عمرو بن رويم عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : «أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم ، وليس من الشجر شيء يلقح غيرها» ، وقال رسول الله ﷺ : «أطعموا نساءكم الولد^(٢) الرطب ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» . وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن شيبان بن فروخ عن مسروق بن سعيد ، وفي رواية مسرور بن سعد . والصحيح مسرور بن سعيد التميمي ، أورد له ابن عدى هذا الحديث عن الأوزاعي به . ثم قال : وهو مفكر الحديث ، ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث . وقال ابن حبان : يروى عن الأوزاعي المناكير الكثيرة ، التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها .

وقوله : (فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) . هذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها ، قال : (فكلى واشربى وقرى عيناً فيما ترين من البشر أحداً) أى فإن رأيت أحداً من الناس (فقولى) له - أى بلسان الحال والإشارة : (إني نذرت للرحمن صوماً) أى صمتاً ، وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الكلام والطعام . قاله قتادة والسدى وابن أسلم ، ويدل على ذلك قوله : (فلن أكلم اليوم إنسياً) . فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل .

(١) أى المعتكفات فيه . (٢) جمع والدة ، وولود ، ووالد .

وقوله تعالى : (فأتت به قومه تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) ، ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب : أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم - ذهبوا في طلبها ، ففروا على محلتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها ، فقالوا لها : (يا مريم لقد جئت شيئا فريا) أى أمراً عظيماً منسكراً . وفى هذا الذى قاله نظر - مع أنه ينقض أوله آخره - وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت بنفسها ، وأنت به قومه وهى تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعد ما تعلت (١) من نفاسها بعد أر بعين يوماً .

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها (قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) ، والفريه : هى الفعله المنكرة العظيمة من الفعالم والمقال . ثم قالوا لها : (يا أخت هرون) . قيل شبهوها بعباد من عباد زمانهم كانت تساميه فى العبادة ، وكان اسمه هرون . وقيل شبهوها برجل فاجر فى زمانهم اسمه هرون ، قاله سعيد ابن جبير . وقيل أرادوا بهرون أخا موسى ، شبهوها به فى العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القرظى فى زعمه أنها أخت موسى وهرون نسباً ؛ فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يردده عن هذا القول الفظيع . وكأنه غره أن فى التوراة أن مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم أن نجا الله موسى وقومه ، وأغرق فرعون وملاه . فاعتقد أن هذه هى هذه ، وهذا فى غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن ، كما قررناه فى التفسير مطولاً ، والله الحمد والمنة .

وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هرون ، وليس فى ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها - ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها ، والله أعلم . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن إدريس سمعت أبا يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران ، فقالوا أ رأيت ما تقرءون : (يا أخت هرون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ » وكذا رواه مسلم والنسائى والترمذى من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وفى رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحهم وأنبياءهم ؟ » . وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثر من التسمية بهرون ، حتى قيل إنه حضر بعض جنازتهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهرون - أربعون ألفاً ، والله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : (يا أخت هرون) ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هرون ، وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ، ولهذا قالوا : (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً)

(١) أى خرجت . يقال : تعلت المرأة من نفاسها كتعلت - خرجت .

أى لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيّتهم ؛ لا أخوك ولا أمك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء . فذكر ابن جرير في تاريخه : أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ، ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخاها ، وأمسك إبليس بطرف رداءه فنشروه فيها كما قدمنا . ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار ، فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال - عظم التوكل على ذى الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال . (فأشارت إليه) أى خاطبوه وكلوه ، فإن جوابكم عليه ، وما تبغون من الكلام لديه . فمندها (قالوا) من كان منهم جباراً شقيماً : (كيف نكلم من كان في المهدي صبيماً ؟) أى كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ؟ وهو مع ذلك رضيع في مهده ، ولا يميز بين محض^(١) وزبده ، وما هذا منك إلا على سبيل التهمك بنا والاستهزاء والتنقيص لنا والازدراء ؛ إذ لا تردين علينا قولاً نطقياً ، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهدي صبيماً ، فمندها : (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بالديني ولم يجعلني جباراً شقيماً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) .

هذا أول كلام تفوه به عيسى بن مريم ، فكان أول ماتكلم به أن (قال إني عبد الله) ، اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربه ، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته . ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون ، وقذفوها به ورموها بسببه ، بقوله : (آتاني الكتاب وجعلني نبياً) فإن الله لا يعطى النبوة من هو كما زعموا - لعنهم الله وقبحهم ، كما قال تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً^(٢)) . وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان ، قالوا إنها حملت به من زنا في زمن الحيض ، لعنهم الله . فبرأها الله من ذلك ، وأخبر عنها أنها صديقة ، واتخذ ولدها نبياً مرسلًا ، أحد أولى العزم الخمسة الكبار . ولهذا قال : (وجعلني مباركاً أينما كنت) وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونزه جنابه عن النقص والعيب ؛ من اتخاذ الولد والصحابة ، تعالى وتقدس . (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً) وهذه وظيفة العبيد ، في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلى الخليفة بالزكاة ، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة ، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاييج ، على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف ، والنفقات على الزوجات والأرقاء والقربات ، وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات . ثم قال : (وبراً بالديني ولم يجعلني جباراً شقيماً) أى وجعلني برأ بالديني . وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له

(١) المحض : اللبن الخالص ، وجمعة محض . ويحذف اللين بالخاء : أخذ زبده .

(٢) الآية : ١٥٦ من سورة النساء . وفيه - عذبة - أي العذبة ، أي العذبة ، أي العذبة .

سواها ، فسبحان من خلق الخليفة وبرأها ، وأعطى كل نفس هداها . (ولم يجعلني جباراً شقياً) أى لست بفظ ولا غليظ ، ولا يصدر منى قول ولا فعل ينافى أمر الله وطاعته . (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) ، وهذه الأما كن الثلاثة التى تقدم الكلام عليها فى قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية ، وبين أمره ووضعه وشرحه ، قال : (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره - فى آل عمران : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تسكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين * إن هذا لهُوَ القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهُوَ العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالفسدين ^(١)) . ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرفهم وساداتهم وهم : العاقب ^(٢) والسيد ^(٣) ، وأبو حارثة بن عاقمة ^(٤) فجعلوا يناظرون فى أمر المسيح ، فأنزل صدر سورة آل عمران فى ذلك ، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه ، وخلق أمه من قبله ، وأمر رسوله بأن يباهلهم ^(٥) إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة ، وعدلوا إلى المسالمة والمواذعة ، وقال قائلهم - وهو العاقب عبد المسيح : يا معشر النصارى ! لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه مالا عن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد آيتمت إلا لى دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم - فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية ، وأن يبعث معهم رجلاً أميناً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح . وقد بينا ذلك فى تفسير آل عمران ، وسيأتى بسط هذه القصة فى السيرة النبوية إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح ، فقال لرسوله : (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) يعنى أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال : (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى لا يعجزه شىء ولا يكثره ولا يئوده . بل هو القدير الفعال

(١) الآيات : ٥٩ - ٦٣ (٢) اسمه عبد المسيح ، وكان أمير القوم وصاحب مشورتهم
(٣) هو السيد الأيهم وكان عالماً (٤) أخو بكر بن وائل وكان أستفهم (٥) أى بلاعهم ، والمباهلة : الملاءمة .

لما يشاء (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون). وقوله: (وإن الله ربى وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم) هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد. أخبرهم أن الله ربه وربهم، وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم. قال الله تعالى: (فاختلف الأحزاب من بينهم، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه؛ فن قائل من اليهود إنه ولد زنية، واستمروا على كفرهم وعنادهم. وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا هو الله، وقال آخرون هو ابن الله، وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون الثابون المؤيدون المنصورون. ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون. وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم).

قال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل، أنبأنا الوليد، حدثنا الأوزاعي، حدثني عمير بن هانىء حدثني جنادة بن أبي أمية، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق - أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة، وزاد: «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء». وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن جابر به، ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به.

«باب» بيان أن الله تعالى منزه عن الولد

تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً

قال تعالى في آخر هذه السورة: (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً) أى شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً^(١)) فبين أنه تعالى لا ينبغى له الولد؛ لأنه خالق كل شيء ومالكه، وكل شيء فقير إليه، خاضع ذليل لديه. وجميع سكان السموات والأرض عبيده، وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه، كما قال تعالى: (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السموات والأرض، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فأعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير^(٢)) فبين

(١) الآيات: ٨٨ - ٩٥ من سورة ص. (٢) الآيات: ١٠٠ - ١٠٣ من سورة الأنعام.

أنه خالق كل ، شيء فكيف يكون له ولد ؛ والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لانظير له ، ولاشبيه له ولا عدل له ، فلا صاحبة له ، فلا صاحب له ، فلا يكون له ولد . كما قال تعالى : (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) . يقرر أنه الأحد الذي لانظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، (الصمد) وهو السيد الذي كمل في علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ، (لم يلد) أى لم يوجد منه ولد ، (ولم يولد) أى ولم يتولد عن شيء قبله (ولم يكن له كفواً أحد) . أى وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو ، فقطع النظير المدانى الأعلى والمساوى ، فاتفق أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقال تبارك وتعالى وتقدس : (يا أهل الكتاب لانفوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فمعبذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً^(١)) .

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم ، عن الغلو والإطراء في الدين - وهو مجاوزة الحد ؛ فالنصارى - لعنهم الله - غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد ، فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول ، التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها ، فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشریف وتكریم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ، كما يقال بيت الله وناقته الله وعبد الله ، وكذا روح الله أضيفت إليه تشریفاً لها وتكرماً . وسعى عيسى بها ؛ لأنه كان بها من غير أب ، وهي الكلمة أيضاً التي عنها خلق وبسببها وجد ، كما قال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون^(٢)) . وقال تعالى : (وقالوا آتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل له مافي السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون^(٣)) . وقال تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون^(٤)) . فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى - عليهم لعائن الله - كل من الفريقين ادعوا على الله شططاً ، وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون

(١) الآيات : ١٧١ - ١٧٣ من سورة النساء

(٢) الآية : ٣٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية : ٣٠ من سورة التوبة .

(٤) الآية : ٣٠ من سورة التوبة .

علواً كبيراً . وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ، ولا فيما اتفكروه . إلا مجرد القول ، ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة ، تشابهت قلوبهم . وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود ، الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثانٍ ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثاني كذلك ، حتى تناهت العقول إلى عشرة ، والنفوس إلى تسعة ، والأفلاك إلى تسعة ، باعتبارات فاسدة ذكرها ، واختبارات باردة أوردوها . ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركي العرب ، زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله ، وأنه صاهر سروات^(١) الجن فتولد منهما الملائكة تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون . كما قال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناناً أشهدوا خلقهم ؟ مستكتب شهداتهم ويسألون^(٢)) وقال تعالى : (فاستفتهم أربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناناً وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابتكم إن كنتم صادقين * وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون * إلا عباد الله المخلصين^(٣)) . وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين^(٤)) . وقال تعالى في سورة الكهف وهي مكية : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * فيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ما كُتبت فيهم أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً^(٥)) . وقال تعالى : (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون^(٦)) فهذه الآيات المسكيات الكريهات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة ؛ من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى ، الذين ادعوا وزعموا بلا علم - أن لله ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

(١) أي شرفاءهم وعظماؤهم - جمع سراة .
 (٢) الآيات : ١٤٩ - ١٦٠ من سورة الصافات
 (٣) الآية : ١٩ من سورة الزخرف .
 (٤) الآيات : ٢٦ - ٢٩ من سورة الأنبياء .
 (٥) الآيات : ٦٨ - ٧٠ من سورة يونس .
 (٦) الآيات : ١ - ٥ .

ولما كانت النصارى - عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة - من أشهر من قال بهذه المقالة ، ذكروا في القرآن كثيراً للرد عليهم ، وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم . وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم . وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض ، وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً^(١)) . فدل على أن الحق يتحد ويتفق ، والباطل يختلف ويضطرب . فطائفة من ضلالهم وجهلهم : زعموا أن المسيح هو الله تعالى ، وطائفة قالوا : هو ابن الله عز وجل ، وطائفة قالوا : هو ثالث ثلاثة جل الله . قال الله تعالى في سورة المائدة : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟ والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير^(٢)) . فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم ، وبين أنه القادر على كل شيء ، المتصرف في كل شيء ، وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه . وقال في أواخرها : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون^(٣)) . حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدرأً ، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم - وهو عيسى بن مريم - قد بين لهم أنه عبد مهربوب مخلوق مصور في الرحم ، داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار ، والخزى في الدار الآخرة والهوان والعار . ولهذا قال : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) ثم قال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد) . قال ابن جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكامة المنبثقة من الأب إلى الابن ، على اختلافهم في ذلك ما بين المليكية واليعقوبية والنسطورية ، عليهم لعائن الله . كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطنس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة ، وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة ، ولهذا قال الله تعالى : (وما من إله إلا إله واحد) أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا نظير له ولا كفو له ، ولا صاحبة له ولا ولد . ثم توعدهم وتهتددهم فقال : (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) . ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة

والاستغفار من هذه الأمور السكبار ، والعظائم التي توجب النار فقال : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) .
ثم بين حال المسيح وأمه ، وأنه عبد رسول ، (وأمه صديقة) أى ليست بفاجرة كما يقوله اليهود لعنهم الله . وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمته طائفة من عاماننا . وقوله : (كانا يا كلان الطمام) كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرها ، أى ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً ؟ تعالى الله عن قولهم وجعلهم علواً كبيراً . وقال السدى وغيره : المراد بقوله : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) - زعمهم فى عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله . يعنى كما بين تعالى كفرهم فى ذلك بقوله فى آخر هذه السورة السكرية : (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ^(١)) . يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة - على سبيل الإكرام له ، والنقرىع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه ، وافترى وزعم أنه ابن الله ، أو أنه الله ، أو أنه شريكه - تعالى الله عما يقولون ، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ، ولكن لتوبيخ من كذب عليه ، فيقول له : (أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك) أى تعاليت أن يكون معك شريك ، (ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) أى ليس هذا يستحقه أحد سواك ، (إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب) . وهذا تأدب عظيم فى الخطاب والجواب . (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) حين أرسلتنى إليهم وأنزلت على الكتاب الذى كان يتلى عليهم . ثم فسر ما قال لهم بقوله : (أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى خالقي وخالقكم ورازقى ورازقكم . (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى) أى رفعتنى إليك حين أردوا قتلى وصلبى ، فرحمتنى وخلصتنى منهم ، وألقيت شبعى على أحدهم حتى انتقموا منه - فلما كان ذلك : (كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) . ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل ، والتبرى من أهل النصرانية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك) أى وهم يستحقون ذلك ، (وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) . وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط - لا يقتضى وقوع ذلك . ولهذا قال : (فإنك أنت العزيز الحكيم) - ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في التفسير مارواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح^(١) (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وقال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً». وقال: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولسلكم الويل مما تصفون * وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون^(٢)) وقال تعالى: (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء، سبحانه هو الله الواحد القهار * خلق السموات والأرض بالحق، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار^(٣)). وقال تعالى: (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدین * سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون^(٤)) وقال تعالى: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً^(٥)). وقال تعالى: (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألد، ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد».

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يحملون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»، ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد^(٦)) وكذا قوله تعالى: (وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير^(٧)) وقال تعالى: (نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ^(٨)) وقال تعالى: (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون^(٩)) وقال تعالى: (فهل الكافرين أمهلهم رويداً^(١٠)) .

(١) يعني أنه عليه السلام صلى ذات ليلة فقرأ هذه الآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها .
 (٢) الآيات : ١٦ - ٢٠ من سورة الأنبياء . (٣) الآيات : ٤ ، ٥ من سورة الزمر .
 (٤) الآيات : ٨١ ، ٨٢ من سورة الزخرف . (٥) آخر سورة الإسراء .
 (٦) الآية : ١٠٢ من سورة هود . (٧) الآية : ٤٧ من سورة الحج . (٨) الآية : ٢٤ من سورة لقمان .
 (٩) الآيات : ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس . (١٠) آخر سورة الطارق .

ذكر منشا عيسى بن مريم عليهما السلام

ومر بابه في صغره وصباه ، وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببیت لحم قريباً من بيت المقدس ، وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر ، وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار ، وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف^(١) شيء ، وهذا لا يصح . والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببیت لحم كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطل . وذكر وهب بن منبه : أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك ، حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى ، فوجدوه في حجر أمه والملائكة محذقة به ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء ، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره ؛ فسأل الكهنة عن ذلك ، فقالوا : هذا المولد عظيم في الأرض . فبعث رسله ومعهم ذهب وصر ولبان هدية إلى عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببیت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسلهم إليه بما معهم ، وأرسل معهم من يعرفه لهم ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه . فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا - قيل لها إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك ، فاحتملته فذهبت به إلى مصر ، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره .

فذكر منها : أن الدهقان^(٢) الذي نزلوا عنده افتقد مالا من داره ، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمخاويج ؛ فلم يدر من أخذ ، وعز على مريم عليها السلام ، وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعيانهم أمرها ، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك ، عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه ، فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به ؛ فقال إني لأستطيع ذلك ، فقال : بلى - كما فعلت أنت وهو ، حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار ، فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال ؛ فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً .

ومن ذلك : أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب ظهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ، ثم أراد أن يسقيهم شراباً - يعني خمرأ - كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان ، لم يجد في جواره شيئاً ، فشق ذلك عليه . فلما رأى عيسى ذلك منه ، قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها ، فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب ، فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه ، وعرضوا عليه وعلى أمه مالا جزيلاً فلم يقبله ، وارتحلا قاصدين بيت المقدس ، والله أعلم .

(١) الإكاف كتاب وغراب : بردعة الحمار .

(٢) الدهقان بالكسر والضم : التاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم .

وقال إسحق بن بشر : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان ، عن أبي نضرة عن أبي سعيد وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل - مجد الله تعجيداً لم نسمع الأذان بمثله ؛ لم يدع شمساً ولا قرماً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً - إلا ذكره في تمجيده ، فقال : « اللهم أنت القريب في علوك ، المتعالى في دنوك ، الرفيع على كل شيء من خلقك ، أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً ، أجبن وهن دخان من فرقك ، فأتين طائعات لأمرك ؛ فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام ، وضياء من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسيح بالحمد ، فبعزتلك يجلو ضوء ظلمتك ، وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن في الظلمات الجيران ، فتباركت اللهم في مفضول سمواتك ، وفيما دحوت من أرضك ، دحوتها على الماء فسكنتها على تيار الموج الغامر ، فأذلتها إذلال التظاهر ، فذل لطاعتك صعبها ، واستحيا لأمرك أمرها ، وخضعت لعزتكم أمواجها ، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ، ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار . ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ، ثم جعلت على ظهرها الجبال ، فودتها أوتاداً على ظهر الماء ، فأطاعت أطوادها وجمودها . فتباركت اللهم ! فمن يبلغ بفضله نعتك ؟ أمن يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب ، وتقضى الحق وأنت خير الفاصلين . لا إله إلا أنت سبحانك ؛ أمرت أن نستغفرك من كل ذنب . لا إله إلا أنت سبحانك ؛ سترت السموات عن الناس . لا إله إلا أنت سبحانك ؛ إنما يخشاك من عبادك الأكياس . نشهد أنك لست بإله استحدثناك ، ولا رب يبيد ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذكرك ، ولا أعاننا على خلقنا أحد فنشك فيك . نشهد أنك أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وقال إسحق بن بشر عن جوبير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس : إن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً - حتى بلغ ما يبلغ العلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان ، فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية ، وذلك قوله تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً^(١)) قال فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب ، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه ، فعلمه : أبا جا . فقال عيسى : ما أبا جا ؟ فقال المعلم : لأدرى ، فقال عيسى : كيف تعلمنى مالا تدرى ؟ فقال المعلم : إذا فعلنى ، فقال له عيسى فقم من مجلسك ، فقام فجلس عيسى مجلسه فقال سلمنى ، فقال المعلم : ما أبا جا ؟ فقال عيسى : الألف - آلاء الله ، والباء - بهاء الله ، والجيم - بهجة الله وجماله . فعجب المعلم من ذلك . فكان أول من فسر أبا جا .

ثم ذكر : أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأجابته على كل كلمة بحديث طويل موضوع

لايسأل ولايتادى . وهكذا روى ابن عدى من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مايكة عن حدثه عن ابن مسعود ، وعن مسعد بن كدام عن عطية عن أبي سعيد ، رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب ، وتعليمه المعلم معنى حروف : أبا جأ ، وهو مطول لا يفرح به .

ثم قال ابن عدى : وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير إسماعيل . وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسى بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان ؛ فكان يقول لأحدهم : أتريد أن أخبرك ماخبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم ، فيقول خبأت لك كذا وكذا ؛ فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها أطمعيني ماخبأت لي ، فتقول وأي شيء خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا ، فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى بن مريم . فقالوا : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم ؛ فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم ، فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم ، فقالوا إنما هؤلاء قردة وخنازير ، فقال : اللهم كذلك فكانوا كذلك ، رواه ابن عساكر . وقال إسحق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ؛ ففشا ذلك في اليهود ، وترعرع عيسى فتممته^(١) بنو إسرائيل ، تخافت أمه عليه ، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر . فذلك قوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين^(٢)) .

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها : أنها ذات قرار ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل ؛ وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض ، الذي أعلاه مستو يقر عليه ، وارتفاعه متسع ؛ ومع علوه فيه عيون الماء ، معين - وهو الجارى السارح على وجه الأرض . فقيل : المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح - وهو نخلة بيت المقدس . ولهذا : (ناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف . وعن ابن عباس بإسناد جيد : أنها أنهار دمشق ، فأمله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم ، والله أعلم . وقيل هي الرملة من فلسطين . وقال إسحق بن بشر : قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه قال : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة ، أمر الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا ، قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمه ، فحملها على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا ، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل ، وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب ؛ مما يدخرون في بيوتهم ، وتحدث الناس بقدمه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب ؛ فجعلوا يعجبون منه ، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره .

(١) أى طلبته وتمسسته (٢) الآية : ٥٠ من سورة المؤمنون .

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقبتها

قال أبو زرعة الدمشقي: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح عن حدثه قال: أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان، وأنزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة. وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثمانى عشرة ليلة خلت من رمضان، بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما. وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان^(١)، وقد ذكرنا في التفسير عند قوله: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) - الأحاديث الواردة في ذلك؛ وفيها: أن الإنجيل أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام في ثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

وذكر ابن جرير في تاريخه: أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة؛ كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى. وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ومقاتل عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة قال: أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم: يا عيسى جد في أمرى ولا تهين واسمع وأطع، يا ابن الطاهرة البكر البتول إنك من غير خل، وأنا خلقتك آية للعالمين، إياى فاعبد وعلى فتوكل. خذ الكتاب بقوة، فسر لأهل السريانية، بلغ من بين يديك أنى أنا الحق الحى القائم، الذى لا أزول. صدقوا النبى الأمى العربى صاحب الجمل والتاج - وهى العامة - والمدرعة والنملين، والهرابة - وهى القضيبة - الأنجل العينين، الصلت الجبين، الواضح الخدين الجمد الرأس، السكت اللحية المقرون الحاجبين، الأقفى الأنف المفاج الثنايا، البادى العنقفة، الذى كأن عنقه إبريق فضة، وكان الذهب يجرى فى تراقيه. له شعرات من لبتة إلى سرتة، تجرى كالقضيبة لبس على بطنه ولا على صدره شعر غيره، شين^(٢) الكف والقدم، إذا التفت التفت جميعاً، وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صلب، عرقه فى وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك تنفح منه، ولم ير قبله ولا بعده مثله. الحسن القامة الطيب الريح، نكاح النساء، ذا النسل القليل، إنما نسله من مباركة لها بيت - يعنى فى الجنة - من قصب، لانصب فيه ولا صخب، تسكفه يا عيسى فى آخر الزمان كما كفل زكريا أمك. له منها فرخان يستشهدان، وله عندى منزلة ليست لأحد من البشر. كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام. طوبى لمن أدرك زمانه، وشهد أيامه، وسمع كلامه.

(١) الوارد: أنه أنزل فى ليلة القدر، وهى على المشهور - ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان.

(٢) شئت كفه كفرح وكرم: خشت وغازت.

بيان شجرة طوبى ، ماهى ؟

قال عيسى : يارب وما طوبى ؟ قال : « غرس شجرة أنا غرستها بيدي ، فهى للجنان كلها ، أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم ، وبردتها برد الكافور ، وطعمها طعم الزنجبيل ، وريحها ريح المسك ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً » . قال عيسى : يارب اسقنى منها ، قال : « حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي » ، قال : « يا عيسى أرفعك إلى ؟ » قال : رب ولم ترفعنى ؟ قال : « أرفعك ثم أهبطك فى آخر الزمان ، لترى من أمة ذلك النبي العجائب ، ولتعينهم على قتال اللعين الدجال . أهبطك فى وقت صلاة ثم لاتصلى بهم ؛ لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم » . وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه : إن عيسى قال : يارب أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة ، قال : « أمة أحمد ، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء ؛ يرضون منى بالقليل من العطاء ، وأرضى منهم باليسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . يا عيسى هم أكثر سكان الجنة ؛ لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم » . رواه ابن عساكر .

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي عن عبد الله بن عوسجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : « أنزلنى من نفسك كهملك ، واجعلنى ذخراً لك فى معادك ، وتقرب إلى بالنوافل أحببك ، ولا تول غيرى فأخذك . اصبر على البلاء وارض بالقضاء ، وكن لمسرتى فيك ؛ فإن مسرتى أن أطاع فلا أعصى . وكن منى قريباً وأحى ذكرى بلسانك ، ولتكن مودتى فى صدرك . تيقظ من ساعات الغفلة ، واحكم فى لطيف الفتنة ، وكن لى راغباً راهباً ، وأمت قلبك فى الخشية لى ، وراع الليل لحق مسرتى ، وأظم نهارك ليوم الرى عندى . نafs فى الخيرات جهدك ، واعترف بالخير حيث توجهت ، وقم فى الخلائق بنصيحتى ، واحكم فى عبادى بعدلى ؛ فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان ، وجلاء الأبصار من غشاء الكلال . ولا تكن حاسماً^(١) كأنك مقبوض وأنت حى تنفس .

يا عيسى بن مريم ! ما آمنت بى خليفة إلا خشعت ، ولا خشعت لى إلا رجت ثوابى ، فأشهدك أنها آمنة من عقابى ، مالم تغير أو تبدل سنتى . يا عيسى ابن مريم البكر البتول ! ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها ، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه ، وكن فى ذلك تلين الكلام وتفشى السلام ، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار . حذار ماهوآت من أمر المعاد ، وزلازل شدايد الأحوال ، قبل ألا ينفع أهل ولا مال . وأكل عينك بدمول^(٢) الحزن إذا ضحك البطالون^(٣)

(١) يقال هو جلس بينه : إذا لم يرح مكانه .

(٢) الممول : المكحال يكتحل به .

(٣) الذين يروجون الباطل والمزل .

كون في ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن ذلك ما وعدت الصابرين . رج من الدنيا بالله يوماً بيوم ، وذق مذاقة ما قد حارب^(١) منك أين طعمه ؟ وما لم يأتك كيف لذته ؟ فرح من الدنيا بالبلغة^(٢) ، وليكفك منها الخشن الخبيث^(٣) ، قد رأيت إلى ما يصير . اعمل على حساب فإنك مسئول ، لو رأيت عينك ما أعددت لأولياي الصالحين - ذاب قلبك وزهقت نفسك » .

وقال أبو داود في كتاب القدر : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن ابن طاووس عن أبيه قال : لقي عيسى بن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟ قال إبليس : فارق بذروة هذا الجبل فتردى منه ، فانظر هل تعيش أم لا ؟ فقال ابن طاووس عن أبيه . فقال عيسى : أما علمت أن الله قال : « لا يجربني عبدى فإنى أفعال ما شئت ؟ » .

وقال الزهري : إن العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الله يبتلى عبده . قال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبده ، أنبأنا سفيان عن عمرو عن طاووس قال : أتى الشيطان عيسى بن مريم فقال : أليس تزعم أنك صادق ؟ فأت هوة فألق نفسك . قال : ويحك ، أليس قال : « يا ابن آدم لا تسألني هلاك نفسك فإنى أفعال ما أشاء » . وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا حسين بن طلحة ، سمعت خالد بن يزيد قال : تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين ، فقام يوماً على شفير جبل ، فقال الشيطان : أرايت إن ألقيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي ؟ قال : إني لست بالذى أبتلى ربي ، ولكن ربي إذا شاء ابتلاني ، وعرفه أنه الشيطان ففارقه .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا شريح بن يونس ، حدثنا علي بن ثابت عن الخطاب بن القاسم عن أبي عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يصلى على رأس جبل ، فأناه إبليس فقال : أنت الذى تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر ، قال : نعم . قال ألقى نفسك من هذا الجبل وقل قدر على . فقال : يالعين الله يختبر العباد ، وليس العباد يختبرون الله عز وجل . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الفضل ابن موسى البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشار ، سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقي عيسى بن مريم إبليس ، فقال له إبليس : يا عيسى بن مريم ! الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت فى المهدي صبيهاً ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك . قال : بل الربوبية لآله الذى أنطقنى ثم يميننى ثم يمينى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى . قال : بل الربوبية لله الذى يحيى ويميت من أحييت ثم يحييه . قال :

(١) أى سلب وأخذ (٢) البلغة : ما يبلغ به من العيش .

(٣) اليأس والغليظ : الخشن من كل شيء .

والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض . قال : فصكه جبريل صكة بجناحيه ، فما نباها دون قرون الشمس ، ثم صكه أخرى بجناحيه ، فما نباها دون العين الحامية ، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه . وفي رواية - فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحماة ، فخرج منها وهو يقول : مالتى أحد من أحد مالمقيت منك يا ابن مريم .

وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرني أبو الحسن ابن رزقويه ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن سبدي ، حدثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان ، حدثنا إسماعيل ابن عيسى العطار ، أنبأنا علي بن عاصم ، حدثني أبو سالمه سويد عن بعض أصحابه قال : صلى عيسى بيت المقدس فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه ، فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له : إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً ، فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه ، فجعل لا يتخلص منه ، فقال له فيما يقول : لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبداً ، قال فاستغاث عيسى بربه ، فأقبل جبريل وميكائيل ، فلما رأها إبليس كف ، فلما استقر معه على العقبة اكتبنا عيسى ، وضرب جبريل إبليس بجناحه فقفذه في بطن الوادي ، قال : فعاد إبليس معه ، وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك . فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً ؛ إن غضبك ليس بفضب عبد ، وقد رأيت مالمقيت منك حين غضبت ، ولكن أدعوك لأمر هو لك ؛ أمر الشياطين فليطيعوك ، فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك - عبدوك . أما إني لأقول أن تكون إلهاً ليس معه إله ، ولكن الله يكون إلهاً في السماء وتكون أنت إلهاً في الأرض . فلما سمع عيسى ذلك منه - استغاث بربه ، وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط ، فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس . فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس ، ثم ضرب به ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوى ، وصر عيسى وهو بمكانه ، فقال : يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تبعاً شديداً ، فرمى به في عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية ، قال : فغطوه ، فجعل كلما صرخ غطوه في تلك الحماة ، قال والله ما عاد إليه بعد . قال : وحدثنا إسماعيل العطار ، حدثنا أبو حذيفة قال : واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدنا قد لقيت تبعاً ، قال إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل ، وسأضل به بشراً كثيراً ، وأبث فيهم أهواء مختلفة ، وأجعلهم شيعاً ، ويجعلونه وأمه لاهنين من دون الله ، قال : وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس - قرآنًا ناطقًا يذكر نعمته على عيسى فقال : (يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) يعني إذ قويتك بروح القدس - يعني جبريل ، (تكلم الناس في المهدي وكهلا ، وإذ علمت الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير^(١) . . . الآية) ، وإذ جعلت للمساكين لك بطانة

وصحابة وأعواناً ترضى بهم ، وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة ، فذلك - فاعلم - خلاقان عظيمان ، من لقيني بها فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي . وسيقول لك بنو إسرائيل : صمنا فلم يقبل صيامنا ، وصلينا فلم يقبل صلاتنا ، وتصدقنا فلم يقبل صدقاتنا ، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاءنا . فقال لهم : ولم ذلك ؟ وما الذى يمنعنى إن زلت يدي ؟ قلت أو ليست خزائن السموات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء ؟ وإن البخل لا يعتربنى . أو لست أجود من سأل وأوسع من أعطى ؟ أو إن رحمتى ضاقت ؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتى . ولو أن هؤلاء القوم يا عيسى بن مريم غدوا أنفسهم بالحكمة التى تورث فى قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثره على الآخرة ، ولعرفوا من أين أتوا . وإذا لا يقنوا أن أنفسهم هى أعدى الأعداء لهم . وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام ؟ وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركز إلى الذين يجارونى ويستحلون محارمى ؟ وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها ؟ يا عيسى إنما أجزى عليها أهلها . وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ؟ ازددت عليهم غضباً .

يا عيسى : وقضيت يوم خلقت السموات والأرض : أنه من عبدنى وقال فيكما بقولى - أن أجعلهم جيرانك فى الدار ، ورفقاءك فى المنازل وشركاءك فى الكرامة . وقضيت يوم خلقت السموات والأرض : أنه من اتخذك وأملك إلهين من دون الله ، أن أجعلهم فى الدرك الأسفل من النار . وقضيت يوم خلقت السموات والأرض : أنى مثبت هذا الأمر على يدي عبدى محمد ، وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ، ومهاجرته بطيبة ، وملكه بالشام . ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب^(١) فى الأسواق ، ولا بزر بالفحش ولا قوال بالخفا . أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل التقوى ضميره والحكم معقوله ، والوفاء طبيعته والعدل سيرته ، والحق شريعته والإسلام ملته . اسمه أحمد أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأغنى به بعد العائلة ، وأرفع به بعد الضعة . أهدى به وأفتح به بين آذان صم ، وقلوب غلف ، وأهواء مختلفة متفرقة . أجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؛ إخلاصاً لاسمى ، وتصديقاً لما جاءت به الرسل . ألهمهم التسبيح والتقديس والتهايل فى مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومشواهم ، يصلون لى قياماً وقعوداً ، وركعاً وسجوداً ، ويقاتلون فى سبيلى صفوفاً وزحوفاً ، قرباتهم دماؤهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، وقربانهم فى بطونهم . رهبان بالليل ، ليوث فى النهار ؛ ذلك فضلى أوتيته من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسندكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق ، مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة .

(١) السخب : الصخب ، وهو شدة الصوت .

وقد روى أبو حذيفة إسحق بن بشر بأسانيدِهِ ، عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي - دخل حديث بعضهم في بعض ، قالوا : لما بعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات ، جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون منه ويستهمزون به ، فيقولون : ما أكل فلان البارحة ؟ وما ادخر في منزله ؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيماناً ، والكافرون والمنافقون شكاً وكفراناً . وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه ؛ إنما يسمح في الأرض ، ليس له قرار ولا موضع يعرف به . فكان أول ما أحيأ من الموتى : أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي ، فقال لها مالك أيتها المرأة ؟ فقالت ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها ، وإني عاهدت ربّي ألا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ماذاقت من الموت ، أو يحييها الله لي ، فانظر إليها . فقال لها عيسى : رأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم ، قالوا : فصلي ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر ، فنأدى : يا فلانة قومي بإذن الرحمن فأخرجني . قال فتحرك القبر . ثم نادى الثانية ، فأنصدع القبر بإذن الله ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب . فقال لها عيسى : ما أبطأ بك عني ؟ فقالت : لما جاءتنى الصيحة الأولى - بعث الله لي ملكاً فركب خلقي ، ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إليّ روحى ، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجبائي وأشفا عيني من مخافة القيامة . ثم أقبلت على أمها فقالت : يأمامه ! ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين ؟ يأمامه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا . ياروح الله وكنته ! سل ربّي أن يردني إلى الآخرة ، وأن يهون عليّ كرب الموت ، فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض ، فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً .

وقدمنا في عقيب قصة نوح : أن بنى إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح ، فدعا الله عز وجل وصلى الله - فأحيأه الله لهم ، فحدثهم عن السفينة وأمرها ، ثم دعا فعاد تراباً . وقد روى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس في خبر ذكره ، وفيه : أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام ، فدعا الله عز وجل فأحيأه الله عز وجل ، فرأى الناس أمراً هائلاً ومنظر عجيبياً : قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكري نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهدي وكهلا ، وإذ علمت الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين *) وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون^(١) . يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه ؛ في خلقه إياه من غير أب ، بل من أم بلا ذكر .

وجعله له آية للفاس ، ودلالة على كمال قدرته تعالى ، ثم إرساله بعد هذا كله . (وعلى والدتك) في اصطفاؤها واختيارها لهذه النعمة العظيمة ، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال : (إذ أيدتك بروح القدس) وهو جبريل ؛ بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ، ومدافعته عنه لمن كفر به . (تكلم الناس في المهد وكهلا) أى تدعو الناس إلى الله في حال صغرك ؛ في مهديك وفي كهولتك (وإذ علمت الكتاب والحكمة) أى الخط والفهم . نص عليه بعض السلف ، (والتوراة والإنجيل)

وقوله : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى) أى تصويره وتشكيله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك ، (فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذنى) أى بأمرى ، يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك ؛ لرفع التوهم . وقوله : (وتبرئ الأكمة) قال بعض السلف : وهو الذى يولد أعمى ، ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ، (والأبرص) هو الذى لا طب فيه ، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ، (وإذ تخرج الموتى) أى من قبورهم أحياء بإذنى . وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة مما فيه كفاية . وقوله : (وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) ، وذلك حين أرادوا صلبه ، فرفعه الله إليه ، وأنقذه من بين أظهرهم ، صيانة لجنازة الكريم عن الأذى ، وسلامة له من الردى .

وقوله : (وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بى ورسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) قيل : المراد بهذا الوحي - وحي إلهام ؛ أى أرشدهم الله إليه ودلهم عليه ؛ كما قال : (وأوحى ربك إلى النحل^(١) - وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه فى اليم^(٢)) وقيل : المراد وحي بواسطة الرسول ، وتوفيق فى قلوبهم لقبول الحق . ولهذا استجابوا قائلين : (آمنا واشهد بأننا مسلمون) .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم : أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ، ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى لعبدته محمد ﷺ : (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولسكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)^(٣) وقال تعالى : (وبعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم

(١) الآية : ٦٨ من سورة النحل (٢) الآية : ٧ من سورة العنكبوت .

(٣) الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ من سورة الأأنفال .

وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين (١) .

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ؛ فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب . ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه ، وعابنوا ما عابنوا من الأمر الباهر الهائل ، الذي لا يمكن صدوره إلا عن أيده الله وأجرى الخارق على يديه ، تصديقاً له - أساموا سرعاً ولم يتلعثوا . وهكذا عيسى بن مريم ؛ بعث في زمن الطباعية (٢) الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إراء الأكمة الذي هو أسوأ حالا من الأعمى ؟ والأبرص والمجذوم ؟ ومن به مرض مزمن ؟ وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله . وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين ؛ بعث في زمن الفصحاء البلقاء ، فأرسل الله عليه القرآن العظيم ؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزلاً من حكيم حميد . فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله أو بسورة . وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لافي الحال ولا في الاستقبال ، فلم يفعلوا وإن يفعلوا ، وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء ؛ لافي ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين ، استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطفيتانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة سالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا ؛ بتمايمته ونصرتة ومناصحته ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ؛ فعزموا على قتله وصلبه فأقذه الله منهم ، ورفع إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ؛ وهم يعتقدونه عيسى . وهم في ذلك غالطون ، ولحق مكابرون . وسلم لهم كثير من النصاري ما ادعوه ، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون . قال تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (٣) ، وقال تعالى : (وإذا قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم ، بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين *

(١) الآيات : ٤٨ - ٥٤ من سورة آل عمران (٢) نسه إلى الطباع ، وهي السجدة التي يجبل عليها الإنسان .

(٣) الآية : ٥٤ من سورة آل عمران .

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون^(١) إلى أن قال - بعد ذلك :
 (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ، نال
 الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم
 فأصبحوا ظاهرين^(٢)) . فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم
 بخاتم الأنبياء الآتى بعده ، ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ، ويتابعوه إذا شاهدوه ؛ إقامة للحجة
 عليهم ، وإحساناً من الله إليهم . كما قال تعالى : (الذين يقبعون الرسول النبى الأمى الذى يحدونه
 مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم
 الخبائث ، عليهم ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه
 واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون^(٣)) .

قال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم
 قالوا : يارسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى حين
 حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » . وقد روى عن العرياض
 ابن سارية وأبى أمامة عن النبى ﷺ نحو هذا . وفيه : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى » وذلك
 أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم . . . الآية^(٤)) . ولما انتهت النبوة فى
 بنى إسرائيل إلى عيسى - قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعسده فى النبى
 العربى الأمى خاتم الأنبياء على الإطلاق . أحمد . وهو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم ، الذى هو
 من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام . قال الله تعالى : (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا
 سحر مبين^(٥)) . يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ .

ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصره الإسلام وأهله ، ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على
 إقامة الدين ونشر الدعوة ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين
 من أنصارى إلى الله ؟) أى من يساعدنى فى الدعوة إلى الله ؟ (قال الحواريون نحن أنصار الله) ، وكان
 ذلك فى قرية يقال لها الناصرة ، فسموا بذلك النصارى . قال الله تعالى : (فأمنت طائفة من بنى إسرائيل
 وكفرت طائفة) ، يعنى لما دعا عيسى بنى إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ؛ منهم من آمن ومنهم من كفر ،
 وكان ممن آمن به أهل « أنطاكية » بكالهم ؛ فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير ،
 بعث إليهم رسلا ثلاثة : أحدهم « شمعون الصفا » ، فآمنوا واستجابوا ، وليس هؤلاء هم المذكورون فى
 سورة يس ؛ لما تقدم تقريره فى قصة أصحاب القرية ، وكفروا آخرون من بنى إسرائيل وهم جمهور اليهود ،

(١) آخر سورة الصف (٢) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف (٣) الآية : ١٢٩ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ٧ من سورة الصف . (٥) الآيات : ٦ - ٨ من سورة الصف .

فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد ، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم ، كما قال تعالى : (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلی ، ومطهرک من الذین کفروا ، وجاعل الذین اتبعوک فوق الذین کفروا إلی یوم القیامة . . . الآیة^(١)) ، فکل من کان إلیه أقرب - کان عالیاً فن دونه . ولما کان قول المسلمین فیہ هو الحق الذی لاشک فیہ ؛ من أنه عبد الله ورسوله - كانوا ظاهرين على النصاری الذین غلوا فیہ وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به . ولما کان النصاری أقرب فی الجملة مما ذهب إلیه اليهود علیهم لعائن الله - کان النصاری قاهرين لليهود فی أزمان الفترة إلی زمن الإسلام وأهله .

ذکر خیر المائدة

قال الله تعالى : (إذ قال الخواریون یاعیسی بن مریم هل یستطیع ربک أن ینزل علینا مائدة من السماء ؟ قال اتقوا الله إن کنتم مؤمنین * قالوا نرید أن نأکل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونسکون علیها من الشاهدین * قال عیسی بن مریم اللهم ربنا أنزل علینا مائدة من السماء تسکون لنا عیداً لأولنا وآخرنا وآیة منك وارزقنا وأنت خیر الرازقین * قال الله إنی منزلها علیکم ، فمن یکفر بعد منکم فإنی أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمین^(٢)) . قد ذکرنا فی التفسیر الآثار الواردة فی نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسی وعمار بن یاسر ، وغیرهم من السلف . ومضمون ذلك : أن عیسی علیه السلام - أمر الخواریین بصیام ثلاثین يوماً ، فلما آتموها سألوا من عیسی إنزال مائدة من السماء علیهم لیأکلوا منها ، وطمئن بذلك قلوبهم - أن الله قد تقبل صیامهم وأجابهم إلی طلبتهم ، وتكون لهم عیداً یفطرون علیها یوم فطرم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ؛ لغنیهم وفقیرهم . فوعظهم عیسی فی ذلك وخاف علیهم ألا یقوموا بشکرها ولا یؤدوا حق شروطها . فأبوا علیه إلا أن یسأل لهم ذلك من ربه عز وجل ، فلما لم یقلعوا عن ذلك قام إلی مصلاه ولبس مسحاً^(٣) من شعر ، وصف بین قدمیه وأطرق رأسه وأسبل عینیه بالبكاء ، وتضرع إلی الله فی الدعاء والسؤال - أن یجابوا إلی ما طلبوا . فأنزل الله تعالی المائدة من السماء ، والناس یفطرون إلیها تنجدر بین غمامتین ، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً ، وكما دنت سأل عیسی ربه عز وجل أن یجعلها رحمة لانهمة ، وأن یجعلها بركة وسلامة . فلم تزل تدنو حتی استقرت بین یدي عیسی علیه السلام ، وهی مغطاة بمنديل ، فقام عیسی یکشف عنها وهو یقول : بسم الله خیر الرازقین . فإذا علیها سبعة من الحیتان وسبعة أرغفة ، ویقال : وخیل ، ویقال : ورمان وثمار ، ولها رائحة عظيمة جداً . قال الله لها : کونی - فكانت . ثم أمرهم بالأکل منها ، فقالوا لا نأکل حتى تأکل ، فقال : إنکم الذین

(١) الآیة : ٥٥ من سورة آل عمران .

(٢) الآیات : ١١٢ - ١١٥ من سورة المائدة .

(٣) المسح بوزن الملح : ثوب من الشعر غلیظ ، وجمعه : أمساح ومسوح .

ابتدأتم السؤال لها . فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء ، فأمر الفقراء والحاويج والمرضى والزمنى ، وكانوا قريباً من ألف وثلثمائة ، فأكلوا منها ، فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن . فندم الناس على ترك الأكل منها ؛ لما رأوا من إصلاح حال أولئك . ثم قيل : إنها كانت تنزل كل يوم مرة ، فبدأ كل الناس منها ؛ يأكل آخرهم كما يأكل أولهم ، حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف . ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم ، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو الحاويج دون الأغنياء ، فشق ذلك على كثير من الناس ، وتكلم منافقوهم في ذلك ، فرفعت بالسكينة ، ومسح الذين تكلموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا الحسن بن قرعة الباهلي ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا يخنونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا الغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فسخوا قردة وخنازير » .

ثم رواه ابن جرير عن بندار ، عن ابن أبي عدي عن سعيد ، عن قتادة عن خلاس عن عمار موقوفاً وهذا أصح . وكذا رواه من طريق سماك عن رجل من بني عجل عن عمار موقوفاً وهو الصواب ، والله أعلم . وخلاس عن عمار منقطع ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصة ؛ فإن العلماء اختلفوا في المائدة : هل نزلت أم لا ؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ، ولا سيما قوله : (إني منزلها عليكم) كما قرره ابن جرير ، والله أعلم .

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصرى - أنهما قالوا : لم تنزل ، وإنهم أبوا نزولها حين قال : (فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) ولهذا قيل : إن النصراني لا يعرفون خبر المائدة ، وليس مذكوراً في كتابهم ، مع أن خبرها مما تتوفر الدواعي على نقله ، والله أعلم . وقد تفصينا الكلام على ذلك في التفسير فيكتب من هناك ، ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم ، والله الحمد والمنة .

فصل

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا رجل سقط اسمه ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان ، عن بكر بن عبد الله المزني قال : فقد الحواريون نبهم عيسى ، فقيل لهم توجه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه . فلما اتهموا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء ، يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤنزر بنصفه ، حتى انتهى إليهم . فقال له بعضهم - قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم - ألا أجيء إليك يا نبي الله ؟ قال : بلى . قال فوضع إحدى رجله على الماء ، ثم ذهب ليضع الأخرى ، فقال

أوه ، غرقت يا نبي الله ، فقال : « أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء » . ورواه أبو سعيد ابن الأعرابي عن إبراهيم بن أبي الجحيم عن سليمان بن حرب عن أبي هلال عن بكر بنحوه .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن علي بن سفيان ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث عن الفضيل بن عياض قال : قيل لعيسى بن مريم : يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء ؟ قال بالإيمان واليقين . قالوا : فإننا آمننا كما آمنت ، وأيقنا كما أيقنت قال فامشوا إذا ، قال فمشوا معه في الموج ففرقوا ، فقال لهم عيسى : مالكم ؟ فقالوا خفنا الموج ، قال : ألا خفتم رب الموج ؟ قال فأخرجهم ، ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها ، فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر أو حصي ، فقال : أيهما أحلى في قلوبكم ؟ قالوا هذا الذهب ، قال فإنهما عندي سواء . وقد منا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ، ولا يأوى إلى منزل ، ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكرت عنده الساعة صاح ويقول : « لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت » ، وعن عبد الملك بن سعيد بن بجر ، أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الشكلى . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، حدثنا جعفر بن بلقان : أن عيسى كان يقول : « اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتهنًا بعملي ؛ فلا فقير أفقر مني . اللهم لا تشمت بي عدوى ، ولا تؤذي صديقي ، ولا تجعل مصيبتى في ديني ، ولا تساط على من لا يرحنى » .

وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد كان عيسى يقول : « لانصيب حقيقة الإيمان حتى لا نبالي من أكل الدنيا » . قال الفضيل : وكان عيسى يقول : « فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق » . وقال إسحاق بن بشر عن هشام بن حسان عن الحسن قال : إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة . قال : وإن الفرار بن بذونهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى . قال : وبيننا عيسى يوماً نأثم على حجر قد توسده ، وقد وجد لذة النوم ، إذ مر به إبليس ، فقال يا عيسى : ألسنت تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا ، فقام فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا .

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان^(١) حافياً باكياً شعماً مصفر اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش . فقال ، السلام عليكم يا بني إسرائيل . أنا الذي

(١) التبان كرمان : سراويل صغير يستر العورة المغالطة .

أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ، ولا عجب ولا نخر أندرون أين بيتي ؟ قالوا أين بيتك يا روح الله ؟ قال بيتي المساجد ، وطيبى الماء ، وإدامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوت ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الزمنى والمساكين . أصبح وايس لى شىء ، وأمسى وايس لى شىء ، وأنا طيب النفس غير مكترث ، فمن أغنى منى وأريح ؟ رواه ابن عساكر .

[وروى فى ترجمة محمد بن الوليد بن ابان بن حبان أبى الحسن العقيلى المصرى حدثنا هانىء بن المتوكل الاسكندانى عن حيوة بن شريح ، حدثنى الوليد بن أبى الوليد عن سفي بن نافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أوحى الله تعالى إلى عيسى : أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان ، لئلا تعرف فتؤذى ، فوعزتى وجلالى لأزوجنك ألف حوراء ، ولأولن عليك أربعمائة عام » . وهذا حديث غريب رفعه ، وقد يكون موقوفاً من رواية سفي بن نافع عن كعب الأخبار أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم ^(١) .

وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة ، عن خلف بن حوشب قال : قال عيسى للحواريين : « كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا » . وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : « سلونى فإنى لين القلب ، وإنى صفيير عند نفسى » . وقال إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال عيسى للحواريين : « كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين . بحق ما أقول لكم ؛ إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين . بحق ما أقول لكم ؛ إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه ، يود أن الناس كلهم مثله » ، وروى نحوه عن أبى هريرة . وقال أبو مصعب عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول : « يا بنى إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرير ^(٢) وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره » . وقال ابن وهب عن سايان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى يقول : « اعبروا الدنيا ولا نعمروها » . وكان يقول : « حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع فى القلب الشهوة » . وحكى وهيب بن الورد مثله ، وزاد : « ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً » . وعن عيسى عليه السلام : « يا بن آدم الضعيف ! اتق الله حيث ما كنت ، وكن فى الدنيا ضيقاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلم عينك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة » . وعنه عليه السلام أنه قال : « كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً ، فلا يتخذ الدنيا قراراً » .

(١) ما بين هذين القوسين [] غير موجود فى بعض النسخ .

(٢) البرير : أول ما يظهر من ثمر الأراك ، وقيل الثمر إذا اسود وبلغ .

وفي هذا يقول سابق البربري^(١) :

لكم بيوت بمستن السيوف وهل يُبنى على الماء بيت أسه مدرُّ؟
وقال سفیان الثوري قال عيسى بن مريم : « لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن ،
كما لا يستقيم الماء والنار في إناء » . وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد ، عن أبي عبد الله الصوفي
قال قال عيسى : « طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله » .
وعن عيسى عليه السلام : « إن الشيطان مع الدنيا ، وفكره مع المال ، وتزيينه مع الهوى ، واستمكانه
عند الشهوات » ، وقال الأعمش عن خيشمة : كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول :
هكذا فاصنعوا بالقرى . وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحجر حملك ، ولئدى أرضك ،
فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه . وعنه : طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه
بيته ، وعنه : طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية ، وانتهت إلى غير إثم . وعن مالك بن دينار
قال : مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا ما أنتن ريحها ! فقال ما أبيض أسنانها ! لينهاهم عن الغيبة . وقال
أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن زكريا بن عدى قال : قال عيسى بن مريم :
« يامعشر الحوار بين ! ارضوا بدنى الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة
الدنيا » . قال زكريا وفي ذلك يقول الشاعر :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك ، قال عيسى بن مريم عليه السلام : « لاتكثروا الحديث بغير ذكر
الله فتفسد قلوبكم ؛ فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لاتعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد
كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ؛ فإنما الناس رجلان : معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء
واحمدوا الله على العافية » وقال الثوري : سمعت أبي يقول عن إبراهيم التيمي قال : قال عيسى لأصحابه :
« بحق أقول لكم : من طلب الفردوس نجذب الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير » . وقال
مالك بن دينار قال عيسى : « إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب
الفردوس » . وقال عبد الله بن المبارك أنبأنا سفیان عن منصور عن سالم بن أبي الجعد قال ، قال عيسى :
« اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلى هذه الطير ؛ تغدو وتروح لاتحتر ولا تحصد والله يرزقها ،
فإن قلت نحن أعظم بطوناً من الطير - فانظروا إلى هذه الأبقار من الوحوش والحمر ؛ فإنها تغدو وتروح

(١) هو أبو سعيد سابق بن عبدالله ، من الشعراء الجيدين في الزهد والحكم ، ومن شعره وقد ذهب مذهب المثل :

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل وليس ينفع عند الكبرة الأدب
لأن الفصون إذا قومتها اعتدت ولن تلين إذا قومتها الخشب

لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها . وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبد الله عن يزيد بن مسيرة قال : قال الحواريون للمسيح : يا مسيح الله ! انظر إلى مسجد الله ما أحسنه ! قال : « آمين آمين . بحق ما أقول لكم ؛ لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله . إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً ؛ إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة ، وبها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض ، إذا كانت على غير ذلك . »

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه : أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفي ، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية قالت : حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم إملاء ، حدثنا الوليد بن إبان إملاء ، حدثنا أحمد بن جعفر الرازي ، حدثنا سهل بن إبراهيم الحنظلي ، حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز عن المعتمر عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة فأعجبه البنيان ، فقال أي رب ! مر هذه المدينة أن تجيبني ، فأوحى الله إلى المدينة : أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى ، قال فنادت المدينة : عيسى حبيبي وما تريد مني ؟ قال : ما فعل أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك ؟ قالت : حبيبي جاء وعد ربك الحق ، فيستأشجارى ، ونشفت أنهارى ، وخربت قصورى ، ومات سكانى . قال فأين أموالهم ؟ فقالت جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني ، لله ميراث السموات والأرض قال فنادى عيسى عليه السلام : عجبت من ثلاث أناس ؛ طالب الدنيا والموت يطلبه ، وباني القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه . ابن آدم : لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمذك ، وتقدم على رب لا يعذرك . إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك ، وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك . » هذا حديث غريب جداً ، وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثوري عن أبيه عن إبراهيم التيمي قال : قال عيسى عليه السلام : « يامعشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء ؛ فإن قلب الرجل حيث كنزه . » وقال ثور بن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال عيسى بن مريم : « من تعلم وعلم وعمل ، دعى عظيماً في ملكوت السماء . » وقال أبو كريب روى أن عيسى عليه السلام قال : « لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي . » وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعاً : أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال : « يامعشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم . والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل . » وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن رجل عن عكرمة قال : قال عيسى : « لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير ؛ فإن

الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً . ولا تعطوا الحكمة من لا يريد لها ؛ فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريد لها شر من الخنزير . وكذا حكى وهب وغيره عنه ، وعنه أنه قال لأصحابه : « أتم ملح الأرض فإذا فسدت م فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين : من الجهل : الضحك من غير عجب ، والصبحة^(١) من غير سهر . وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلة العالم ؛ فإن العالم إذا زل يزل بزلة عالم كثير . وعنه أنه قال : « يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم ؛ قولكم شفاء وعملكم دواء ، مثلكم مثل شجرة الدفلى^(٢) تعجب من رآها وتقتل من أكلها » . وقال وهب قال عيسى : « يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة ، فلا تدخلوها ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه » . وقال مكحول : التقي يحيى وعيسى فصاحه عيسى وهو يضحك ، فقال له يحيى : يا ابن خالة ! مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟ فقال له عيسى : مالي أراك عابساً كأنك قد يؤست ؟ فأوحى الله إليهما : « إن أحبكما إلى أبشكما بصاحبه » . وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيعته فقال : « قد كنتم فيما هو أضيع منه من أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع » . وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً ، والآثار في مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر ، والله موفق للصواب .

ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء في حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعتك إلی ، ومطهرتك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون^(٣)) . وقال الله تعالى : (فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وكفروهم وقولهم على صريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً^(٤)) فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ماتوفاه بالنوم ، على الصحيح المقطوع به ، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان .

(١) الصبحة بالضم والفتح : نوم الغداة . (٢) ثبت مر قتال ، زهره كالورد الأحمر وحمله كالخنزير .
(٣) الآيات : ٥٤ ، ٥٥ من سورة آل عمران . (٤) الآيات : ١٥٥ - ١٥٩ من سورة النساء .

قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق : كان اسمه - داود بن نورا ، فأمر بقتله وصلبه ، فخصروه في دار بيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت . فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورفع عيسى من روزنة^(١) ذلك البيت إلى السماء ، وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهه ، فأخذوه ظانين أنه عيسى ، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى - أنه صلب ، وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً . وأخبر تعالى بقوله : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ؛ فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ؛ كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، وكما سنورد ذلك مستقصى في كتاب الفتن والملامح ؛ عند أخبار المسيح الدجال . فنذكر ماورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذى الجلال ، لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال .

وهذا ذكر ماورد في الآثار في صفة رفته إلى السماء . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء - خرج على أصحابه ، وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم - من الحواريين ، يعنى نخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، ثم قال : أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا ، فقال له اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال له اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا ، فقال : نعم ، أنت هو ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به . وافترقوا ثلاث فرق . فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء - وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه - وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه - وهؤلاء الكافرتان على المسامة فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . قال ابن عباس وذلك قوله تعالى : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين^(٢)) . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية به نحوه ، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية ، وهكذا ذكر غير واحد من السلف .

ومن ذكر ذلك مطولا - محمد بن إسحاق بن بشار قال : وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله - يعنى ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ، ويكثر الناس الدخول في دين الله . قيل وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلا : بطرس ، ويعقوب بن زبدا ، ويحنس أخو يعقوب ، وأندراوس ، وفليس ، وابن تلما ، ومتى ، وتوماس ، ويعقوب بن حلقيا ، وتداوس ، وفتاتيا ، ويوذس زكريا يوطا . وهذا هو الذى دل اليهود على عيسى . قال ابن إسحاق : وكان فيهم رجل آخر اسمه : سرجس - كتمته النصارى ، وهو الذى ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه . قال وبعض النصارى : يزعم أن الذى صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه - هو يوذس بن زكريا يوطا ، والله أعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون ، وقتلت اليهود يوذس الذى ألقى عليه الشبه ، وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم قال : سمعت الفراء يقول في قوله : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) قال : إن عيسى غاب عن خالته زمانا فأتاها ، فقام رأس الجالوت اليهودى فضرب على عيسى ، حتى اجتمعوا على باب داره ، فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى ، فطمس الله عينيه عن عيسى . ثم خرج إلى أصحابه فقال لم أراه ، ومعه سيف مسلول . فقالوا أنت عيسى ، وألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فقال جل ذكره : (وما قتله وما صلبوه ولكن شبه لهم) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب التميمي عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى ، فقالوا لهم : سحرتونا ؛ لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعا ، فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة ؟ فقال رجل أنا ، فخرج إليهم فقال أنا عيسى ، وقد صوره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه . فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، فظلت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المتني ، حدثنا إسحاق ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثني عبد الصمد ابن معقل أنه سمع وهبا يقول : إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما ، فقال : احضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة ، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشام وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بتيابه ، فتعاضموا ذلك وتكأروه ، فقال : ألا من رد على شيئا الليلة مما أصنع فليس منى ولا أنا منه ؛ فأقروه . حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة ؛ مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي - فليكن لكم بي أسوة ؛ فإنكم ترون أنى خيركم ، فلا يتعظم بعضهم

على بعض ، وليبذل بعضهم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسى لكم . وأما حاجتى التى أستعينكم عليها ، فتدعون الله لى ، وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى . فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ! أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها ؟ فقالوا : والله ما ندرى مالنا ؛ والله لقد كنا نسمُرُ فنسكُرُ السمر ، وما نطيق الليلة سمرا ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه . فقال : يذْهَبُ بالرأى وتفرق الغنم . وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينغى به نفسه . ثم قال : الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعتنى أحدكم بدراهم بسيرة ، وليأكلن ثمنى ، نخرجوا وتفرقوا .

وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من أصحابه ، فجدد وقال ما أنا بصاحبه فتركوه . ثم أخذه آخرون فجدد كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ماتجملون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلم عليه . وكان شبه عليهم قبل ذلك - فأخذوه واستوثقوا منه ، وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحي الموتى ، وتذهب الشيطان ، وتبرى الجنون ، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل ! ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك ، حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم ، فكث سبعا .

ثم إن أمه والمرأة - التى كان يدايرها عيسى فأبرأها الله من الجنون - جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاها عيسى فقال : علام تبكيان ؟ قالتا عليك ، فقال لى قدر فعنى الله لى ولم يصبى إلا خير ، وإن هذا شئ شبة لهم ، فأمر الحواريين أن يلقونى إلى مكان كذا وكذا ، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر ، وفقد الذى كان باعه ودل عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه ، فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألم عن غلام يتبعهم يقال له يحيى ، فقال : هو معكم ، فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث باقة قوم فليندرهم وليدعهم^(١) . وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصح مما ذكره النصارى : من أن المسيح جاء إلى مريم وهى جالسة تبكى عند جذعة ، فأراها مكان المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب ، وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل ، وزيادة باطلة فى الإنجيل ، على خلاف الحق ومقتضى النقل .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه : أن مريم سألت من بيت الملك بعدما صلب المصلوب بسبعة أيام وهى تحسب أنه ابنها - أن ينزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك ، فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبنا . فلما دتنا من القبر قالت مريم لأم يحيى :

(١) ذكر هذا الحديث ابن جرير الطبري فى تاريخه جزء أول صفحة ٦٠١ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠ .

الاستترين؟ فقالت: ومن أستتر؟ فقالت: من هذا الرجل الذي هو عند القبر، فقالت أم يحيى: إني لأرى أحداً، فرجت مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهداً به، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر، فلما دنت من القبر قال لها جبريل - وعرفته: يا مريم أين ترين؟ فقالت أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به، فقال: يا مريم إن هذا ليس المسيح؛ إن الله رفع المسيح وطهره من الذين كفروا، واسكن هذا الفتى الذي أتى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه. وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به، فهم يبكون عليه، فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح. قال: فرجعت إلى أختها وصعدت جبريل، فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة. فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة، فلما رآها أسرع إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال يا أمه! إن القوم لم يقتلوني، ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك، والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً. ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت.

قال: وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين، وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة، رضى الله عنها وأرضاها. وقال الحسن البصرى: كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع - أربعاً وثلاثين سنة، وفي الحديث: «إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين». وفي الحديث الآخر على ميلاد عيسى وحسن يوسف. وكذا قال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه، ويعقوب بن سفيان الفسوى في تاريخه، عن سعيد بن أبي مسريم عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان: أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول: أخبرتنى فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبى كان بعده نبى إلا عاش الذى بعده نصف عمر الذى كان قبله، وأنه أخبرنى أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومائة سنة، فلا أراى إلا ذاهب على رأس ستين، هذا لفظ الفسوى - فهو حديث غريب (١).

قال الحافظ ابن عساكر: والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: قالت فاطمة قال لى رسول الله ﷺ: «إن عيسى بن مريم مكث في بنى إسرائيل أربعين سنة»، وهذا منقطع. وقال جرير والثورى عن الأعمش: إن عيسى مكث في قومه أربعين عاماً. ويروى عن أمير المؤمنين على: أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان، وتلك الليلة في مثلها توفى على بعد طعنه بخمسة أيام. وقد

(١) قوله: فهو حديث غريب - جواب قوله: فأما الحديث الذى رواه الحاكم.

روى الضحاك عن ابن عباس : أن عيسى لما رفع إلى السماء ، جاءتته سحابة فدنت منه حتى جالس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت ، ثم رفع وهي تنظر ، وألقى إليها عيسى برداً له وقال : هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة ، وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تردعه بأصبعها تشير بها إليه ، حتى غاب عنها . وكانت تحبه حباً شديداً ؛ لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين ، إذ لا أب له ، وكانت لا تفارقه سراً ولا حضراً . قال بعض الشعراء .

وكنت أرى كالموت من بين ساعة فكيف بيّين كان موعده الحشر

وذكر إسحاق بن بشر عن مجاهد بن جبير : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذي شبه لهم وهم - بحسبونه المسيح ، وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك - تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس ، فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم ، وهو ملك دمشق في ذلك الزمان ، فقيل له إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله ، وكان يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويفعل العجائب ، فعدوا عليه فقتلوه ، وأهانوا أصحابه وحبسوه ، فبعث نجى بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه ، فبايعهم في دينهم وأعلى كلمتهم . وظهر الحق على اليهود ، وعلت كلمة النصارى عليهم ، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه ، وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه . فمن ثم عظمت النصارى الصليب ، ومن ها هنا دخل دين النصرانية في الروم ، وفي هذا نظر من وجوه :

أحدها : أن يحيى بن زكريا نبي لا يقر على أن المصلوب عيسى فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق .
الثاني : أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنة ، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطنطين باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره .

الثالث : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم أقوه بمحشبهته - جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور ، فعمدت أمه هيلانة الحراية الفنقدانية ، فاستخرجته من هنالك ، معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه مامسها ذوعاهة إلا عوفى ، فالله أعلم ؛ أكان هذا أم لا . وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحاً ؟ أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم ، حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللاآء ؟ ومن ثم اتخذوا الصليبات وتبركوا بشكلها وقبلوها ، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة . فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس - التي يقال لها القمامة ، باعتبار ما كان عندها ، ويسمونها القيامة - يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكفاسه وقاذورات

على الصخرة التي هي قبلة اليهود ، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، فكس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخبث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها ، حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء - وهو الأقصى .

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة^(١)) . قيل سمي المسيح لمسحه الأرض ؛ وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان ؛ لشدة تكذيب اليهود له ، وافتراءهم عليه وعلى أمه عليهما السلام . وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين . وقال تعالى : (وقفينا على آثارهم برسلمانا ووقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) وقال تعالى : (وآتيناه عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس^(٢)) والآيات في ذلك كثيرة جداً ، وقد تقدم ما ثبت في الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً ، إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن في الحجاب » . وتقدم حديث عمير بن هانيء عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكتبته التي ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق - أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » ، رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم .

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها . ثم أعتقها فزوجهما - كان له أجران وإذا آمن بعيسى بن مريم تم آمن بي فله أجران . والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » ، هذا لفظ البخاري . وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا هشام عن معمر « ح » وحدثني محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن الزهري ، أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أسرى بي لقيت موسى - قال - فنعته ، فإذا رجل - حسبته قال مضطرب - رجل الرأس . كأنه من رجال شنوءة^(٣) » . قال : ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال : ربعة أحر ؛ كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به . . . الحديث » ، وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى . ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ : « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ؛ فأما عيسى فأحر جعد عربض الصدر ، وأما موسى فأدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط^(٤) » ، تفرد به البخاري .

(١) الآية : ٧٥ من سورة المائدة (٢) الآية : ٨٧ من سورة البقرة .

(٣) أزد شنوءة : قبيلة من قبائل اليمن ، سميت بذلك لشأن بينهم (٤) جيل من السند أو الهند .

وحدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا أبو ضمرة ، حدثنا موسى بن عقبة عن نافع قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهري الناس المسيح الدجال . فقال : « إن الله ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طائفة^(١) » وأرأى الليلة عند الكعبة في المنام ؛ فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال ، تضرب لفته بين منكبيه ، رجل الشعر يقطر رأسه ماء ، واضعاً يديه على منكبي رجلين ، وهو يطوف بالبيت ، فقلت من هذا ؟ فقالوا المسيح بن مريم . ثم رأيت رجلاً وراءه جمع قطط^(٢) أعور عين اليمنى ، كأشبهه من رأيت بأبن قطن ، واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت ، فقلت من هذا ؟ فقالوا المسيح الدجال . ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع ، ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر قال الزهري : وابن قطن - رجل من خزاعة هلك في الجاهلية ، فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح المهدي ومسيح الضلالة ؛ ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ، ويعرف الآخر فيحذره الموحدون .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر بن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق ، فقال له أسرقت ؟ قال كلا والذي لا إله إلا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني . » وكذا رواه محمد بن رافع عن عبد الرزاق ، وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبي هريرة قال ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رجلاً يسرق ، فقال يا فلان أسرقت ؟ فقال لا . والله ما سرقت ، فقال آمنت بالله وكذبت بصرى . » وهذا يدل على سجية طاهرة ، حيث قدم حلف ذلك الرجل ، فظن أن أحداً لا يخلف بمظمة الله كاذباً على ما شاهده منه عياناً ، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله - أي صدقتك وكذبت بصرى لأجل حلفك .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان بن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غرلاً^(٣) » . ثم قرأ : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) فأول الخلق يكسى إبراهيم ، ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول أصحابي : فيقال : إنهم لن يزوالوا ستردين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى بن مريم : (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم^(٤)) . تفرد به

(١) روى بالهمز وتركه ، فالمهموز : هي التي ذهب نورها ، وغير المهموز التي تتأت وطفت مرتفعة وفيها ضوء .

(٢) شديد جموعة الشعر (٣) أي قلفاً ، والغرلة : الفلقة ، والأغرل : الألقف الذي لم يختن .

(٤) الآيتان : ١١٧ ، ١١٨ من سورة المائدة .

دون مسلم من هذا الوجه . وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي ، حدثنا سفيان سمعت الزهري يقول : أخبرني عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه سمع عمر يقول على المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ؛ فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المود إلا ثلاثة : عيسى . وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي فجاءته أمه فدعته ، فقال أجيها أو أصلي ، فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج في صومعة ، فعرضت له امرأة وكلته فأبى ، فأنت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً ، فقيل لها من ؟ قالت من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلان الراعي . قالوا أنبني صومعتك من ذهب ؟ قال لا - إلا من طين . وكانت امرأة ترضع ابناً لها في بني إسرائيل ، فمر بها رجل راكب ذو شارة^(١) فقالت : اللهم اجعل ابني مثله ، فترك نديها وأقبل على الراكب ، فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على نديها يمصه - قال أبو هريرة : كأنني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمص أصبعه . ثم مرُّ بأمة فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه ، فترك نديها ، فقال : اللهم اجعلني مثلها ، فقالت لم ذلك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ولم تفعل » .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليان ، حدثنا شعيب عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة - أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات^(٢) ليس بيني وبينه نبي » تفرد به البخاري من هذا الوجه . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي داود الحفري عن الثوري عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن أبي هريرة . وقال أحمد : حدثنا وكيع . حدثنا سفيان - هو الثوري - عن أبي الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام ، والأنبياء إخوة أولاد علات ، وليس بيني وبين عيسى نبي » ، وهذا إسناد صحيح على شرطهما ، ولم يخرجه من هذا الوجه . وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن هام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه .

وقال أحمد : حدثنا يحيى عن ابن أبي عمير ، حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلات ، دينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ؛ فإنه رجل مربوع إلى الحجرة

(١) أي ذو هيئة حسنة (٢) هم الإخوة لأب من أمهات شتى ، والمراد : أن أصولهم واحدة وفروعهم مختلفة .

والبياض ، سبط كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، بين مخصرتين ؛ فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويعطل الممل حتى يهلك في زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمانة في الأرض ، حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنور مع البقر ، والذئب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكث ماشاء الله أن يمكث ، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفونونه .

ثم رواه أحمد عن عفان عن هام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة فذكر نحوه ، وقال : فيمكث أربعين سنة . ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون . ورواه أبو داود عن هذبة بن خالد عن هام بن يحيى به نحوه . وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبي هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » ، وسيأتي بيان نزوله عليه السلام في آخر الزمان في كتاب الملاحم ، كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً^(١)) وقوله : (وإنه لعلم للساعة ... الآية^(٢)) وإنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح ، فيقول له إمام المسلمين : تقدم يا روح الله فصل ، فيقول : لا - بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة . وفي رواية فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك فيصلي خلفه ، ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال ، فيلاحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة . وذكرنا أنه أقوى الرجال حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض ، وقد بنيت أيضاً من أموال النصراني حين حرقوا التي هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم ، عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . وأنه يحج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لثنتيهما ، ويقم أربعين سنة ، ثم يموت فيدفن - فيما قيل - في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه . وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساکر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه ، عن عائشة مرفوعاً : أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ، ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسى الترمذی : حدثنا زيد بن أخزم الطائفي ، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة ، حدثني أبو مودود المدني ، حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب في التوراة صفة محمد ، وعيسى بن مريم عليه السلام يدفن معه . قال أبو مودود : وقد بقي من البيت موضع قبر . ثم قال الترمذی هذا حديث حسن كذا قال ، والصواب - الضحاك بن عثمان المدني ، وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه .

وروى البخارى عن يحيى بن حماد عن ابن عوانة عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستائة سنة ، وعن قتادة خمسائة وستون سنة ، وقيل خمسائة وأربعون سنة ، وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستائة سنة ، ومنهم من يقول ستائة وعشرون سنة بالقمرية ، لتكون ستائة بالشمسية ، والله أعلم .

وقال ابن حبان في صحيحه : [ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه] حدثنا أبو يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة » ، وهذا حديث غريب جداً وإن صححه ابن حبان . وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق : أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع - وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم ؛ من الشام والشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم . وذكر غير واحد : أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتى ومرقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة - تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى . وهؤلاء الأربعة ؛ منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه هما : متى ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه^(١) هما : مرقس ولوقا . وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنييسة للصلبة ؛ خوفاً من بولص اليهودي ، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح . ولما عرف جاء به - وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ، ثم رجمه حتى مات رحمه الله . ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق - جهز بغاله وخرج ليقتله . فالتقاه عند « كوكبا » ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه : فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح ، فجاء إليه واعتذر عما صنع وآمن به ، فقبل منه ، وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره . فقال اذهب إلى « ضينا » عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من للشرق فهو يدعوك ، فجاء إليه فدعا ، فرد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله ، وبنيت له كنييسة

(١) لبعضهم : يرد على النصارى في قولهم بصلب المسيح وتسايمه لليهود ، ودعواهم أنه ابن الله :

عجباً للمسيح بين النصارى * وللى الله ولداً نسبه أسلموه إلى اليهود وقالوا * لأنهم بعد قتله صلوه فإن كان ما تقولون حقاً * وصحیحاً فأين كان أبوه ؟ حين خلى ابنه رهين الأعدى * أترام أرضوه أم أغضبوه ؟ فلئن كان راضياً بأذيهم * فاعذروهم لأنهم وافقوه ولئن كان ساخطاً فاتركوه * واعبدوهم لأنهم غلبوه

باسمه فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق ، من زمن فتحها الصحابة رضى الله عنهم ، حتى خربت في الزمان الذى سنورده إن شاء الله تعالى .

فصل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال ، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف ، كما أوردناه عند قوله : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء ، وقال آخرون : هو الله ، وقال آخرون : هو ابن الله . فالأول هو الحق ، والقولان الآخران كفر عظيم كما قال : (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ^(١)) .

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل : ما بين زيادة ونقصان ، وتحريف وتبديل ، ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة — حدثت فيها الطامة العظمى والبلية الكبرى — اختلف البتاركة الأربعة ، وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين في المسيح ، على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضب . واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بنى القسطنطينية ، وهم الجمع الأول . فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات ، فسموا الملائكة ، ودحض من عداهم وأبعدهم . وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذى ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ، ورسول من رسله ، فسكنوا البرارى والبوادي ، وبنوا الصوامع والديارات والقلايات ، وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل . وبنى الملائكة الكنائس الهائلة ، وعمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق ، وقد كانت إلى الشمال إلى الجدى .

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح ، وبنى أمه هيلانة القمامة — يعنى على قبر لمصلوب — وهم يسمون لليهود أنه المسيح . وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام ، ومنها ما هو مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ، ومن ذلك الخنزير ، وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى ، ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة — ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل . وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونسائهم ورجالهم — التي يسمونها بالأمانة ، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة ،

وجميع الملكية والنسبورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعي أصحاب المجمع الثالث - يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها . وها أنا أحكيها - وحاكي الكفر ليس بكافر ؛ لأبث^(١) على ما فيها من ركة الألفاظ ، وكثرة الكفر والخيال المغضى بصاحبه إلى النار ذات الشواظ ، فيقولون : نؤمن بإله واحد ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وكل ما لا يرى ، ورب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطي ، وتآلم وقبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب . وأيضاً فسيأتي بجسده ليدير الأحياء والأموات الذي لافناء للمسك ، وروح القدس الرب الحي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجوده ، ويمجد الناطق في الأنبياء كنسبة واحدة جامعة مقدسة يهولية ، واعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه أمين .

كتاب أخبار الماضين

من بني إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمنة الفتر سوى أيام العرب وجاهليتهم
سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى . قال الله تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء الرسل ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً^(٢)) ؛ وقال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين^(٣)) .

خبر ذى القرنين

قال الله تعالى : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً * إنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً * قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً * وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً * ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً * كذلك وقد أحننا بما لديه خيراً * ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ * قال ما مكنتي فيه ربي خير ، فأعينوني بقوة أجعل بينكم

(١) أى لأنفسر وأظهر هذا الخلط . (٢) الآية : ٩٩ من سورة طه . (٣) الآية : ٣ من سورة يوسف .

وینهم ردماً * آتونی زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال آتونی أفرغ عليه قطراً * فما استطاعوا أن يظفروه وما استطاعوا له نقباً * قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً (١) .

ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا ، وأثنى عليه بالعدل ، وأنه بلغ المشارق والمغرب ، وملك الأقاليم وقهر أهلها ، وسار فيهم بالمدلة التامة ، والسلطان المؤيد المظفر المنصور الفاهر المقسط . والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العاديين ، وقيل كان نبياً ، وقيل رسولا . وأغرب من قال : كان ملكاً من الملائكة ، وقد حكى هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ فإنه سمع رجلاً يقول لآخر : يا ذا القرنين ، فقال : مه ، ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ، ذكره السهلي . وقد روى وكيع عن إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : كان ذو القرنين نبياً . وروى الحافظ ابن عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر عن أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبي ذؤيب : حدثنا محمد بن حماد ، أنبأنا عبد الرزاق عن معمر ، عن ابن أبي ذؤيب عن المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أدري أتبع كان لعيناً أم لا ؟ ولا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ ولا أدري أذو القرنين كان نبياً أم لا ؟ » . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضى الله عمله ، وأثنى عليه في كتابه ، وكان منصوراً ، وكان الخضر وزيره .

وذكر أن الخضر - عليه السلام - كان على مقدمة جيشه ، وكان عنده بمنزلة المشاور الذى هو من الملك بمنزلة الوزير فى إصلاح الناس اليوم . وقد ذكر الأزرقى وغيره : أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل ، وطاف معه بالكعبة المسكومة هو وإسماعيل عليه السلام . وروى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما : أن ذا القرنين حج ماشياً ، وأن إبراهيم لما سمع بقدمه تلقاه ودعاه ووصاه ، وأن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمل له حيث أراد ، والله أعلم .

واختلفوا فى السبب الذى سمي به ذا القرنين ؛ فقيل : لأنه كان له فى رأسه شبه القرنين ، قال وهب ابن منبه : كان له قرنان من نحاس فى رأسه ، وهذا ضعيف . وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك فارس والروم ، وقيل لأنه بلغ قرنى الشمس غرباً وشرقاً ، وملك ما بينهما من الأرض ، وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهرى . وقال الحسن البصرى : كانت له غديران من شعر يضيفهما فسمى ذا القرنين ، وقال إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : دعا ملكاً جبّاراً إلى الله فضر به على قرنه فكسره ورضه ، ثم دعاه فذق قرنه الثانى

فكسره فسمى ذا القرنين وروى الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال : كان عبداً ناصحاً لله فناصره ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فسمى ذا القرنين . وهكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن عليّ به . وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل عن علي قال : لم يكن نبياً ولا رسولا ولا ملكا ، ولكن كان عبداً صالحاً .

وقد اختلف في اسمه ؛ فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس : كان اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد ، وقيل مصعب بن عبد الله بن قذان بن منصور بن عبد الله بن الأزرد بن غوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن حطان . وقد جاء في حديث : أنه كان من حمير وأمه رومية ، وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله . وقد أنشد بعض الحميريين^(١) في ذلك شعراً يفتخر بكونه أحد أجداده فقال :

قد كان ذو القرنين جدي^(٢) مسلماً ملكا تدين له الملوك وتحشد^(٣)
بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب ونأط حرمد^(٤)
من بعده بلقيس كانت عمتي ملكتهم حتى أتاها الهدهد

قال السهيلي : وقيل كان اسمه مرزبان بن مرزبة ، ذكره ابن هشام ، وذكر في موضع آخر : أن اسمه الصعب بن ذي مراد وهو أول التبابعة ، وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع . وقيل إنه أفريدون ابن أسفيان الذي قتل الضحاك . وفي خطبة قس : يا معشر إياد أبن الصعب ذو القرنين ، ملك الخلفقين ، وأذل الثقلين . وعمر ألفين ، ثم كان ذلك كاحظنة عين ؟ ثم أنشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويماً بالجنو في جدث ، أشم مقبياً

وذكر الدارقطني وابن مأكولا : أن اسمه هرمس ، ويقال هرويس بن قبطون بن رومي بن لنطى بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح ، فأن الله أعلم .

(١) هو تبع اليماني كما في تفسير الألوسي . (٢) في رواية : قبلي .

(٣) في رواية : وتسجد . وعلى كلتا الروايتين ففي القصيدة عيب من عيوب القافية يسميه العروضيون - الإقواء ؛ وهو اختلاف التواقي بالضم والكسر . وقد ذكر الألوسي البيت الأول هكذا :

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكا علا في الأرض غير مقند

واقصر على الأبيات الثلاثة وعليه فلا إقواء .

(٤) الخلب كما في اللسان : الطين الأسود ، وقيل طين الحمأة ، وقيل الطين عامة . والنأط : الحمأة والطين ، والجمع نأط ، والحرمد : المتغير اللون والرائحة وقال ابن عباس : الخاب : الحمأة ، والنأط : ما تحتها من الطين ، والحرمد : ما تحتها من الحصى والحجر .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : اسكندر - هو ذو القرنين ، وأبوه أول القياصرة . وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام . فأما ذو القرنين الثاني ، فهو اسكندر بن فيليس ابن مصرم بن هرمس بن ميظون بن رومي بن لنطى بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون ابن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصغر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في تاريخه . المقدوني اليوناني المصري باني الإسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل ؛ كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان إرطاطاليس الفيلسوف وزيره . وهو الذي قتل دارا بن دارا ، وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم .

وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان إرطاطاليس وزيره ، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير ، وفساد عريض طويل كثير ؛ فإن الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً ، وملكاً عادلاً ، وكان وزيره الخضر ، وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا . وأما الثاني فكان مشركاً ، وكان وزيره فيلسوفاً ، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة ، فأين هذا من هذا ؟ لا يستويان ولا يشبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور .

قوله تعالى : (ويسألونك عن ذى القرنين) - كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ ، فقالوا لهم : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية خرجوا لا يدري ما فعلوا ، فأزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين . ولهذا قال : (قل سأتلو عليكم منه) أى من خبره وشأنه (ذكرأ) أى خبراً نافعاً كافياً في تعريف أمره وشرح حاله ، فقال : (إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً) أى وسعنا مملكته في البلاد ، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة . قال قتيبة عن أبي عوانة عن سماك عن حميد بن حماد قال : كنت عند علي بن أبي طالب ، وسأله رجل عن ذى القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال له : سخر له السحاب ، ومدت له الأسباب ، وبسط له في النور . وقال : أزيدك ؟ فسكت الرجل وسكت على رضى الله عنه .

وعن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن عبد الله الوادعي ، سمعت معاوية يقول : ملك الأرض أربعة : سليمان بن داود النبي عليهما السلام ، وذو القرنين ، ورجل من أهل حلوان ، ورجل آخر . فقيل له : الخضر ؟ قال - لا . وقال الزبير بن بكار : حدثني إبراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك عن أبيه عن سفيان الثوري قال : بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة : مؤمنان وكافران ؛ سليمان النبي وذو القرنين ، ومروود وبخت نصر . وهكذا قال سعيد بن بشير سواء .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : كان ذو القرنين ملك بعد النمرود . وكان من قصته : أنه كان رجلاً مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب ، مد الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد ، واحتوى على الأموال وفتح المدائن ، وقتل الرجال وجال في البلاد والقلاع ، فسار حتى أتى المشرق والمغرب ، فذلك قول الله : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أى خبراً ، (إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً) أى علماً بطلب أسباب المنازل .

قال إسحاق : وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز ، فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه - وإلا قتله . وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلى والسدى وقتادة والضحاك : (وآتيناه من كل شيء سبباً) - يعنى علماً ، وقال قتادة ومطر الوراق : معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى تعليم الألسنة . وكان لا يفزق قوماً إلا حدثهم بلغتهم ، والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها ؛ فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر . وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة يحوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي كل هذه المدة نظر ، والله أعلم .

وقد روى البيهقي وابن عساكر حديثاً متعلقاً بقوله : (وآتيناه من كل شيء سبباً) - مطولاً جداً وهو منكر جداً . وفي إسناد محمد بن يونس السكدي وهو متهم ؛ فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا ، والله أعلم . وقوله : (فأتبع سبباً) أى طريقاً (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) يعنى من الأرض ، انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس ، الذي فيه الجزائر السماء بالخالدات ، التي هي مبدأ الأطوال على أحد قولى أرباب الهيئة ، والثانى من ساحل هذا البحر كما قدمنا . وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته (تغرب في عين حمئة) والمراد بها البحر في نظره ؛ فإن من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ولهذا قال : (وجدها) أى في نظره ، ولم يقل فإذا هي تغرب في عين حمئة - أى ذات حمأة ، قال كعب الأحبار : وهو الطين الأسود . وقرأ بعضهم حامية ؛ فقيل يرجع إلى الأول ، وقيل من الحرارة ، وذلك من شدة المقابلة لوهيج ضوء الشمس وشعاعها .

وقد روى الإمام أحمد عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب ، حدثنى مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله ، قال : نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال : « في نار الله الحامية لولا ما يزرعها من أمر الله لأحرق ما على الأرض » فيه غرابة ، وفيه رجل مبهم لم بسم ، ورفع فيه نظر ،

وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو ؛ فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين ، فكان يحدث منهما ، والله أعلم .

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس ، وصار يمشى بجيوشه في ظلمات مدداً طويلة - فقد أخطأ وأبعد النجمة ، وقال ما يخالف العقل والنقل .

بيان طلب ذى القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر من طريق وكيع عن أبيه عن معتمر بن سليمان عن أبي جعفر الباقر عن أبيه زين العابدين - خبراً مطولاً جداً ؛ فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل ، فسأله ذو القرنين : هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة ؟ فذكر له صفة مكانها ، فذهب ذو القرنين في طلبها وجعل الخضر على مقدمته ، فاتته الخضر إليها في واد في أرض الظلمات فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها . وذكر اجتماع ذى القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك ، وأنه أعطاه حجراً فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه ؛ فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزنها ، حتى سأل الخضر فوضع قبالة حجراً ، وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به . وقال : هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب ، فسجد له العلماء تسكريماً له وإعظاماً ، والله أعلم .

ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية : (قلنا إذا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً) أى فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة ، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزر عند الكافر ، (وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً) فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة ، وعطف عليه الإحسان منه إليه - وهذا هو العدل والعلم والإيمان . قال الله تعالى : (ثم أتبع سبباً) أى سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق ؛ فيقال إنه رجع في ثنتي عشرة سنة ، (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) أى ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس . قال كثير من العلماء : ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور ؛ قال الله تعالى : (كذلك وقد أحننا بما لديه خبراً) أى ونحن نعلم ما هو عليه ، ونحفظه ونكفؤه بحراستنا في مسيره ذلك كله ، من مغارب الأرض إلى مشارقها .

وقد روى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف : أن ذا القرنين حج ماشياً ، فلما سمع إبراهيم الخليل بقدمه - تلقاه ، فلما اجتمعا دعا له الخليل ، ووصاه بوصايا . ويقال إنه جرى بفرس ليركبها فقال : لا أركب في بلد فيه الخليل ، فسخر الله له السحاب ، وبشره إبراهيم بذلك ، فكانت

تحمله إذا أراد . وقوله تعالى : (ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً) يعنى غشماً . يقال إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج . فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا في بلادهم وقطعوا السبل عليهم ، وبذلوا له جعلاً - وهو الخراج - على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم ، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ، (قال ما مكنتي فيه ربي خير) . ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبنى بينهم وبينهم سداً - وهو الردم بين الجبلين - وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما ، وبقية ذلك بحار مفرقة وجبال شاهقة ، فبناه كما قال تعالى س من الحديد والقطر - وهو الفحاس المذاب ، وقيل الرصاص ، والصحيح الأول . فجعل بدل الابن حديداً ، وبدل الطين نحاساً ، ولهذا قال تعالى : (فما استطاعوا أن يظهروه) أى يعملوا عليه بسالم ولا غيرها ، (وما استطاعوا له نقباً) أى بمعاول ولا فتوس ولا غيرها ، فقابل الأسهل بالأسهل ، والأشد بالأشد ^(١) (قال هذا رحمة من ربي) أى قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده - أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة . (فإذا جاء وعد ربي) أى الوقت الذى قدر خروجهم على الناس في آخر الزمان - (جعله دكاء) أى مساوياً للأرض ولا بد من كون هذا ؛ ولهذا قال : (وكان وعد ربي حقاً) كما قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقرب الوعد الحق . . . الآية ^(٢)) ولذا قال ههنا : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) يعنى يوم فتح السد على الصحيح ، (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً) وقد أوردنا الأحاديث المروية في خروج يأجوج ومأجوج في التفسير . وسنوردها إن شاء الله في كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا ؛ إذا اتهمنا إليه بحول الله وقوته ، وحسن توفيقه ومعونته وهدايته .

قال أبو داود الطيالسى عن الثورى : بلغنا أن من أول من صافح ذو القرنين . وروى عن كعب الأبحار أنه قال لمعاوية : إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه ؛ إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن ، وتأذن لهن فيه إلا من كانت تسكلى فلا تأكل منه شيئاً . فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه . فقالت لهن : سبحان الله ! كلكن تسكلى ، فقان : إى والله مامنا إلا من أتمكلت ، فكان ذلك تسلية لأمه . وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب - وصية ذى القرنين ، وموعظة أمه بليمة طويلة ، فيها حكم وأمور نافعة ، وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة وهذا غريب . قال ابن عساکر : وبلغنى من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنة ، وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة . وكان بعد داود بسبعائة سنة وأربعين سنة ، وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثمانين سنة ، وكان ملكه ست عشرة سنة . وهذا الذى ذكره إنما ينطبق على إسكندر

(١) فإن الظهور عليه أسهل من النقب ، فقابل كلاماً يناسبه (٢) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة الأنبياء .

الثاني لا الأول ، وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما ، والصواب التفرقة كما ذكرنا ، اقتداءً بجماعة من الحفاظ ، والله أعلم .

ومن جعلهما واحداً - الإمام عبد الملك بن هشام راوى السيرة ، وقد أنكر ذلك عليه الحفاظ أبو القاسم السهيلي رحمه الله إنكاراً بليغاً ، ورد قوله رداً شنيعاً ، وفرق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا . قال ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذى القرنين تشبهاً بالأول ، والله أعلم^(١) .

ذكر أمتي يأجوج ومأجوج وصفاتهم

وماورد من أخبارهم ، وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ، ثم الدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم قم فابعث بعث^(٢) النار من ذريتك ، فيقول يارب وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ؛ فينثذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . قالوا يا رسول الله أينما ذلك الواحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : أبشروا فإن منكم واحداً ، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً^(٣) ، وفي رواية فقال : « أبشروا فإن فيكم أمتين ما كانتا في شيء ، إلا كثرتاه » أى غلبتاه كثرة ، وهذا يدل على كثرتهم وأنهم أضعاف الناس مزاراً عديدة . ثم هم من ذرية نوح ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً^(٤)) ، وقال تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة^(٥)) ، وقال : (وجعلنا ذريته هم الباقين^(٦)) . وتقدم في الحديث المروى في المسند والسنن أن نوحاً ولد له ثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث . فسام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك . فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل^(٧) المغول ، وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء ، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم . وقد قيل : إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد ، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه ، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم ، فتركوا من ورائه ؛ فلهذا قيل لهم الترك .

(١) ذهب النيسابوري والفخر الرازي والبيضاوي وتبعهم جمهور من المفسرين والمؤرخين - إلى أن ذا القرنين هو الاسكندر الرومي بن فيليبوس المقدوني لأنه هو الذى فتح أكثر ماعرف في الدنيا إذ ذاك ، ولو كان غيره لانتشر خبره ولم يعرف مكانه ، وقد كتب الأستاذ فريد وجدى بحثاً قيمياً في دائرة معارف القرن العشرين في مادة «أسك» معضداً هذا الرأى ووجهها ماورد من الآثار والأحاديث فارجم إليه إن شئت (٢) أى مبعوث النار وهو حزبها (٣) هذا الحديث في البخاري مع زيادة واختلاف في بعض الألفاظ . (٤) سورة نوح . (٥) الآية : ١٥ من سورة العنكبوت . (٦) الآية : ٧٧ من سورة الصافات (٧) المغل : الوسخ الذى يجتمع في العين ، يريد أنهم من مفسدتهم .

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم ، فاختلطت بتراب نخلقوا من ذلك ، وأنهم ليسوا من حواء — فهو قول حكاة الشيخ أبو زكريا النواوى فى شرح مسلم وغيره ، وضعفه . وهو جدىر بذلك ؛ إذ لا دليل عليه ، بل هو مخالف لما ذكرناه : من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن . وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً ؛ فمنهم من هو كالنخلة السحوق^(١) ، ومنهم من هو غاية فى القصر ، ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى ، فكل هذه أقوال بلا دليل ، ورجم بالنيب بغير برهان ، والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم . وقد قال النبى ﷺ : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » ، وهذا فيصل فى هذا الباب وغيره . وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً ؛ فإن صح فى خبر قتنا به ، وإلا فلا نرده ؛ إذ يحتمله العقل ، والنقل أيضاً قد يرشد إليه ، والله أعلم .

وقد ورد حديث مصرح بذلك إن صح . قال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصماني ، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات ، حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا المغيرة عن مسلم عن أبي إسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم ، وإن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتايس ، ومنسك » . وهو حديث غريب جداً وإسناده ضعيف ، وفيه نكارة شديدة وأما الحديث الذى ذكره ابن جرير فى تاريخه : أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته ، وأنه دعا تلك الأمم التى هناك « تاريس و تاويل ومنسك » فأجابوه — فهو حديث موضوع ، اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصباح ، أحد الكذابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث ، والله أعلم .

فإن قيل : فكيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنيين يوم القيامة ؟ وأنهم فى النار ولم يبعث إليهم رسل ؟ وقد قال الله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا^(٢)) — فالجواب : أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم ، والإعذار إليهم ؛ كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، فإن كانوا فى الزمن الذى قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم — فقد قامت على أولئك الحجة ، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلاً فهم فى حكم أهل الفترة ، ومن لم تبلمه الدعوة . وقد دل الحديث المروى من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ : « إن من كان كذلك يمتحن فى عرصات القيامة ، فمن أجاب الداعى دخل الجنة ومن أبى دخل النار » . وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

(٢) من الآية : ١٥ من سورة الإسراء .

(١) أى الطويلة .

وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة ، وامتحنهم لا يقتضى نجاتهم ، ولا ينفى الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار ؛ لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب ، وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء ، وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له ، فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة . فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها ؛ لأن في عرصات القيامة يتقاد خلق من كان مكذباً في الدنيا ، فيبغى الإيمان هناك لما يشاهد من الأحوال - أولى وأحرى منه في الدنيا ، والله أعلم ، كما قال تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فاعمل صالحاً إننا موقنون ^(١)) ، وقال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ^(٢)) وأما الحديث الذى فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا - فإنه حديث منكر بل موضوع ، وضعه عمرو بن الصبح .

وأما السد : فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنفحاس ، وساوى به الجبال الصم الشاحات الطوال ، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ، ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم . قال البخارى : قال رجل للنبي ﷺ رأيت السد ، قال : وكيف رأيت ؟ قال : مثل البرد المحبب فقال رأيت هكذا ، ذكره البخارى معلقاً بصيغة الجزم ، ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه . غير أن ابن جرير رواه في تفسيره مرسلًا فقال : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قدر أبت سد يأجوج ومأجوج ، قال : « انعته لى » ، قال : كالبرد المحبب ؛ طريقة سوداء وطريقة حمراء ، قال : « قدر أيتة » .

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته ، وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد ، حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره ، وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أى صفة ؟ فلما رجعوا أخبروا عن صفته ، وأن فيه باباً عظيماً وعليه أفعال ، وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً ، وأن بقية اللبن - الحديد والآلات - فى برج هناك ، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ، ومحلاته فى شرقى الأرض فى جهة الشمال فى زاوية الأرض الشرقية الشمالية ^(٣) . ويقال إن بلادهم متسعة جداً ، وإنهم يقتاتون بأصناف من المعاش ؛ من حرانة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر . وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم .

فإن قيل فما الجمع بين قوله تعالى : (فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) ، وبين الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : استيقظ رسول الله

(١) الآية : ١٢ من سورة السجدة . (٢) الآية : ٣٨ من سورة مريم .

(٣) قال المفسرون : السدان : هما جبلان بأرمينية وآذربيجان .

ﷺ من نوم محرماً وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، وبل للعرب ، من شر قد اقترب ، ففتح اليوم ، من ردم ^(١) يأجوج ومأجوج مثل هذا » ، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها ، قلت يا رسول الله ! أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، « إذا كثرت الخبث ^(٢) » .

وأخرجه في الصحيحين من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ففتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » ، وعقد بيده تسعين ^(٣) — فالجواب : أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب النور والفتن ، وأن هذا استمارة محضة وضرب مثل — فلا إشكال . وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر — فلا إشكال أيضاً ؛ لأن قوله : (فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً) أى في ذلك الزمان ؛ لأن هذه صيغة خبر ماض ، فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً ، وسليطهم عليه بالتدرج قليلاً قليلاً حتى يتم الأجل ، وينقضي الأمر المقدور فيخرجون ، كما قال الله تعالى : (وهم من كل حذب يسلون) .

ولكن الحديث لآخر أشكل من هذا ، وهو مارواه الإمام أحمد في مسنده قائلًا : حدثنا روح ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس — حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ويستثنى ، فيعودون إليه وهو كهيشته يوم تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشقون المياه ، وتتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيشة الدم ، فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغماً ^(٤) في أقطابهم فيقتلهم بها » . قال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم » ، ورواه أحمد أيضاً عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة به . وهكذا رواه ابن ماجه من حديث سعيد عن قتادة — إلا أنه قال : حدث أبو رافع ، ورواه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة به ، ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . فقد أخبر في هذا الحديث : أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا يفتقرون شعاع الشمس من ورأه لرقته ، فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً — وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم —

(١) أى سد : يقال ردم الباب والثلمة — سد (٢) أى الفسق والفجور (٣) عقد التسعين . أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها ويضمها ضماً محكماً بحيث تنطوى عقداتها حتى تصير مثل الحية المطوقة .
(٤) النغمة : الدود يكون في أنوف الإبل والغنم ، أو في النوى — الواحدة نغمة .

فقد استرحنا من المؤنة ، وإن كان محفوظاً فيكون محمولا على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم ، كما هو المروي عن كعب الأحبار . أو يكون المراد بقوله : (وما استطاعوا له نقباً) - أي نافذاً منه ، فلا ينبغي أن يلحسوه ولا ينفذوه ، والله أعلم .

وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة : « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » ، وعقد تسمين ، أي فتح فتحاً نافذاً فيه ، والله أعلم .

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً * فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزب بين أحصى لما لبثوا أمداً * نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ، فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا * وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً * وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وائياً مرشداً * وتحسبهم أبقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً * وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم بزرق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً * وكذلك أعتزنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً * سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ما يملهم إلا قبيل ، فلا تمار فيهم إلا سراة ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً * ولا تقولن نشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله وإذا ذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً * ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً *

قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ، ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا^(١) .

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين ، ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة وغيره : أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ، ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها ، فقالوا : سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدرى ما صنعوا ، وعن رجل طواف في الأرض ، وعن الروح . فأنزل الله تعالى : (ويسألونك عن الروح - ويسألونك عن ذى القرنين) وقال ههنا : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى ليسوا بعجب عظيم ، بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة . والكهف : هو الغار في الجبل ، قال شعيب الجبائى : واسم كهفهم - « حيزم » . وأما الرقيم ؛ فعن ابن عباس أنه قال : لأدرى ما المراد به . وقيل : هو الكتاب المرقوم فيه أسماءهم وما جرى لهم ، كتب من بعدهم . واختاره ابن جرير وغيره . وقيل هو اسم الجبل الذى فيه كهفهم . قال ابن عباس وشعيب الجبائى : واسمه « بنجلوس » . وقيل هو اسم واد عند كهفهم ، وقيل اسم قرية هنالك ، والله أعلم .

قال شعيب الجبائى : واسم كلهم - « حمران » ، واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم - يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين ؛ من أنهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصارى . والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام . قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم : كانوا في زمن ملك يقال له « دقيانوس » ، وكانوا من أبناء الأكابر ، وقيل من أبناء الملوك ، واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم ، فرأوا ما يعطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان ، فنظروا بعين البصيرة ، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة ، وألهمهم رشدهم ، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء ، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد - انحاز عن الناس ، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد ، كما صح في البخارى : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . فكل منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه - فأخبره بما هو عليه ، واتفقوا على الانحياز عن قومهم ، والتبرى منهم والخروج من بين أظهرهم ، والفرار بدينهم منهم ، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور .

قال الله تعالى : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا

(١) الآيات : ٩ - ٢٦ من سورة الكهف .

على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ان ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهاة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه ، (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً * وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) أى وإذ فارقتموهم في دينهم ، وتبرأتم مما يعبدون من دون الله ، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل : (إننى براء مما يعبدون * إلا الذى فطرني فإنه سيهدين ^(١)) وهكذا هؤلاء الفتية ، قال بعضهم : إذ قد فارقتم قومكم في دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم ، لتسلوهم منهم أن يوصلوا إليكم شراً ، (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً) - أى يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ، كما جاء في الحديث : « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة » .

ثم ذكر تعالى صفة الغار الذى آووا إليه ، وأن بابه موجه إلى نحو الشمال ، وأعمقه إلى جهة القبلة ، وذلك أنفع الأماكن - أن يكون المكان قليلاً وبابه نحو الشمال فقال : (وترى الشمس إذا طلعت تزاور) وقرىء تزور (عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) ، فأخبر أن الشمس - يعنى في زمن الصيف وأشباهه - تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي ، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً ، وهو ازوارها ذات اليمين ، فترتفع في جو السماء وتتقاص عن باب الغار ، ثم إذا تضيفت ^(٢) للغروب - تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً ، إلى حين الغروب . كما هو للمشاهد بمثل هذا المكان .

والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان - أن لا يفسد هواؤه (وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله) أى بقاؤهم على هذه الصفة دهرًا طويلاً من السنين ؛ لا ياكلون ولا يشربون ولا يتفذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة - من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة . (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن نجد له ولياً مرشداً * وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) قال بعضهم : لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض (ونقلهم ذات اليمين وذات الشمال) قبل في كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ، ويحتمل أكثر من ذلك ، فالله أعلم (وكلهم باسط ذراعيه بالصيد) قال شعيب الجبائى : اسم كلهم - « حمران » ، وقال غيره : الصيد - أسكفة ^(٣) الباب والمراد أن كلهم الذى كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم - لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف ، بل ربيض على بابه ، ووضع يديه على الصيد . وهذا من جملة أدبه ، ومن جملة ما أكرموا به ؛ فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولما

(١) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الزخرف . (٢) أى مالت .

(٣) الأسكفة : خشبة الباب التى يوطأ عليها ، وهى العتبة .

كانت التبعية مؤثرة حتى كانت في كلب هؤلاء - صار باقياً معهم ببقائهم ؛ لأن من أحب قومًا سعد بهم ، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام . وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا السكلب نبأ وخبراً طويلاً ، أكثره متاقي من الإسرائيليات ، وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه ؛ كاختلافهم في اسمه ولونه .

وأما اختلاف العلماء في محلة هذا السكيف . فقال كثيرون : هو بأرض أيلة ، وقيل بأرض نينوى ، وقيل بالبلقاء ، وقيل ببلاد الروم وهو أشبه ، والله أعلم . ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم ، والأهم من أمرهم ووصف حالهم ، حتى كأن السامع راء ، والخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم في ذلك السكيف ، وتقلبهم من جنب إلى جنب ، وأن كلهم باسط ذراعيه بالصيد - قال : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) أى لما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذى صاروا إليه ، ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب - لا بخصوصية الرسول ﷺ كقوله : (فما يكذبك بعد بالدين) أى أيها الإنسان ، وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً . ولهذا قال : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة ؛ كما جاء في الحديث ؛ لأن الخبر قد حصل ، ولم يحصل الفرار ولا الرعب .

ثم ذكر تعالى : أنه بعثهم من رقدهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض : (كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى بدراهمكم هذه - يعنى التى معهم - إلى المدينة . ويقال كان اسمها دفسوس (فليتنظر أيها أزكى طعاماً) أى أطيب طعاماً (فليأتكم برزق منه) أى بطعام تأكلونه ، وهذا من زهدهم وورعهم ، (وليتلف) أى فى دخوله إليها (ولا يشعرن بكم أحداً * إنهم إن يظفروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا) أى إن عدتم فى ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها . وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ، ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلاثمائة سنة ، وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة ، وتغيرت البلاد ومن عليها ، وذهب أولئك القوم الذين كانوا فيهم ، وجاء غيرهم وذهبوا ، وجاء غيرهم ، ولهذا لما خرج أحدكم وهو تيزوسيس^(١) فيما قيل ، وجاء إلى المدينة متنكراً لثلاث يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه - تنكرت له البلاد ، واستنكره من يراه من أهلها ، واستغربوا شكله وصفته ودراهمه . فيقال إنهم حملوه إلى متولبيهم ، وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً ، أو تكون له صولة يخشون من مضرتها . فيقال إنه هرب منهم ، ويقال بل أخبرهم خبره ومن معه وما كان

(١) الذى فى ابن جرير والأوسى : أن اسمه يملخا ، وأن تيزوسيس - اسم الملك الذى كان على المدينة حين قيامهم

من أمرهم ، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم . فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا ، فعملوا أن هذا أمر قدره الله . فيقال إنهم استمروا راقدين ، ويقال بل ماتوا بمذلك . وأما أهل البلدة ، فيقال إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار ، وعمى الله عليهم أمرهم . ويقال لم يستطيعوا دخوله جيئنا ، ويقال مهابة لهم .

واختلفوا في أمرهم ؛ فقائلون يقولون : (ابنوا عليهم بدياناً) أى سدوا عليهم باب الكهف اثلاً يخرجوا ، أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم . وآخرون - وهما الغالبون على أمرهم ، قالوا : (لنتخذن عليهم مسجداً) أى معبداً يكون مباركاً لجاورته هؤلاء الصالحين ، وهذا كان شائماً فيمن كان قبلنا . فأما في شرعنا فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما فعلوا . وأما قوله : « وكذلك أعتزنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) - فعنى أعتزنا - أطعنا على أمرهم الناس . قال كثير من المفسرين : ليعلم الناس أن للمعاد حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثمانمائة سنة ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم ؛ فإن من أبقاهم كما هم - قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان ، وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتاً . وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون^(١)) هذا ويحتمل عود الضمير في قوله : (ليعلموا) إلى أصحاب الكهف ؛ إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم ، ويحتمل أن يعود على الجميع ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) فذكر اختلاف الناس في كبيتهم ، فذكر ثلاثة أقوال وضمف الأوابن ، وقرر الثالث ؛ فدل على أنه الحق ؛ إذ لو قيل غير ذلك لحسكاه ، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه ، فدل على ما قلناه . ولما كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ، ولا جدوى عنده - أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب في مثل هذا الحال - إذا اختلف الناس فيه - أن يقول : الله أعلم . ولهذا قال : (قل ربى أعلم بعدتهم) ، وقوله (ما يعلمهم إلا قليل) أى من الناس (فلا تمار فيهم إلا سراة ظاهراً) أى سهلاً ، ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال ، ولا تستفت في أمرهم أحداً من الرجال . ولهذا أبهم الله تعالى عدتهم في أول القصة فقال : (إنهم فتنية آمنوا بربهم) ، ولو كان في تعيين عدتهم كبير فائدة - لذكرها عالم الغيب والشهادة . وقوله تعالى : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت) وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) - أدب عظيم أرشد الله تعالى إليه ، وحث خلقه عليه ؛ وهو ما إذا قال أحدهم إني سأفعل في المستقبل كذا ، فيشرع له أن

يقول : إن شاء الله ؛ ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه ؛ لأن العبد لا يعلم ما في غد ، ولا يدري أهذا الذي عزم عليه مقدر أم لا ؟ وإيس هذا الاستثناء تعليقاً ، وإنما هو الحقيقي . ولهذا قال ابن عباس يصح إلى سنة ، ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا ولهذا ؛ كما تقدم في قصة سليمان عليه السلام حين قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقال في سبيل الله ، فقيل له قل : إن شاء الله فلم يقل ، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان . قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسى بيده لو قال إن شاء الله لم يحدث - وكان دركا لحاجته .»

وقوله : (واذكر ربك إذا نسيت) وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان ، فذكر الله بطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه . وقوله : (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) أى إذا اشتبه أمر وأشكل حال ، والتبست أقوال الناس في شىء - فارغب إلى الله ييسره لك ويسهله عليك . ثم قال : (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) . لما كان في الإخبار بطول مدة ابثهم فائدة عظيمة - ذكرها تعالى ، وهذه التسع المزيطة بالقمرية ، وهى لتكميل ثلثمائة شمسية ؛ فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين ، (قل الله أعلم بما ابثوا) أى إذا سئلت عن مثل هذا ، وليس عندك فى ذلك نقل - فرد الأمر فى ذلك إلى الله عز وجل ، (له غيب السموات والأرض) أى هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه (أبصر به وأسمع) يعنى أنه يضع الأشياء فى محالها لعلمه التام بخلقها وبما يستحقونه . ثم قال : (ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً) أى ربك المفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له .

قصة الرجلين : المؤمن والكافر

قال الله تعالى فى سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف : (واضرب لهم مثلاً رجلين ؛ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وغفرنا لخللها نهراً * وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبديد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة وإنى رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) إلى قوله (هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً^(١)) . قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً ، والجمهور على أنه أمر قد وقع ، وقوله : (واضرب لهم مثلاً) يعنى لكفار قريش فى عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء ، وازدراؤهم بهم وافتخارهم عليهم ، كما قال تعالى : (واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصة موسى عليه السلام .

والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين ، وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً . ويقال إنه كان لكل منهما مال ؛ فأنفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه ، وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين - وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والذمت المذكور - فيهما أعناب ونخيل ، تحف تلك الأعناب الزروع في ذلك ، والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنزه ، وقد استوثقت فيهما الثمار واضطربت فيهما الأنهار ، وابتهجت الزروع والثمار ، وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلاً له : (أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً) أى أوسع جناهاً ، ومراده أنه خير منه . ومعناه : ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كفت تملكه في الوجه الذى صرفته فيه ؟ كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت ؛ لتكون مثلى . فانتخر على صاحبه (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أى وهو على غير طريقة مرضية ، قال : (ما أظن أن تبديد هذه أبداً) وذلك لما رأى من اتساع أرضها ، وكثرة ماؤها ، وحسن نبات أشجارها ، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار - لاستخلف مكانها أحسن منها ، وزروعها دائرة لكثرة مياهها . ثم قال : (وما أظن الساعة قائمة) فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية ، وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة . ثم قال : (واثن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً) أى واثن كان ثم آخرة ومعاد - فلا أجدن هناك خيراً من هذا . وذلك لأنه اغتر بدنياه ، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له وحظوته عنده ، كما قال العاص بن وائل فيما قص الله من خبره وخبر خباب بن الأرت في قوله : (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً^(١)) .

وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم الله عليه : (ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، واثن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى) قال الله تعالى : (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ^(٢)) وقال قارون : (إنما أوتيته على علم عندى) أى لعلم الله بى أى أستحقه . قال الله تعالى : (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون^(٣)) . وقد قدمنا الكلام عن قصته فى أثناء قصة موسى . وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقر بكم عندنا زلنى إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون^(٤)) ، وقال تعالى : (أيمسبون أيمانهم به من مال وبنين * نساوع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون^(٥)) . ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به فى الدنيا فجحد الآخرة ، وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه ، وسمعه صاحبه يقول ذلك - قال له (وهو يحاوره) أى يجادله : (أ كفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟) أى أجدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب

(١) الآياتان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة مريم (٢) الآية : ٥٠ من سورة فصلت (٣) الآية : ٧٨ من سورة القصص (٤) الآية : ٣٧ من سورة سبأ (٥) الآية : ٥٦ من سورة المؤمنون .
(م ١٧ - بداية ج ٢)

ثم من نطفة ، ثم صورك أطواراً حتى صرت رجلاً سوياً سمياً بصيراً ، تعلم وتبطن وتفهم ؟ فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة ؟ (لكننا هو الله ربى) أى لكن أنا أقول بخلاف ما قلت ، وأعتقد خلاف معتقدك (هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً) أى لا أعبد سواه ، وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها ، ويعيد الأموات ويجمع العظام الرفات . وأعلم أن الله لا شريك له فى خلقه ولا فى ملكه ، ولا إله غيره . ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ولهذا يستحب لكل من أعجبه شئ من ماله أو أهله أو حاله - أن يقول كذلك ، وقد ورد فيه حديث مرفوع فى صحته نظر . قال أبو يعلى الموصلى : حدثنا جراح بن مخلد ، حدثنا عمرو بن يونس ، حدثنا عيسى بن عون ، حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » . وكان يتأول هذه الآية : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) قال الحافظ أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس - لا يصح حديثه ، ثم قال المؤمن للكافر : (فعسى ربى أن يؤتى خيراً من جنتك) أى فى الدار الآخرة (ويرسل عليها حسباناً من السماء) قال ابن عباس والضحاك وقتادة : أى عذاباً من السماء . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذى يقتلع زروعها وأشجارها (فتصبح صعيداً زلقاً) وهو التراب الأملس الذى لا نبات فيه ، (أو يصبح ماؤها غوراً) وهو ضد المعين السارح ، (فلن تستطيع له طلباً) يعنى فلا تقدر على استرجاعه . قال الله تعالى : (وأحيط بثمره) أى جاءه أمر أحاط بجميع حواصله ، وخرب جنته ودمرها (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها) أى خربت بالسكينة فلا عودة لها ، وذلك ضد ما كان عليه أمل ، حيث قال : (وما أظن أن تبديد هذه أبداً) وندم على ما كان سلف منه من القول الذى كفر بسببه بالله العظيم ، فهو يقول : (ياليتنى لم أشرك بربى أحداً) . قال الله تعالى : (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك) أى لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره ، وما كان له قدرة فى نفسه على شئ من ذلك ؛ كما قال تعالى : (فما له من قوة ولا ناصر) وقوله : (الولاية لله الحق) . ومنهم من يبتدىء بقوله : (هنالك الولاية لله الحق) وهو حسن أيضاً لقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً^(١)) ، فالحكم الذى لا يرد ولا يمانع ولا يغالب فى تلك الحال وفى كل حال - لله الحق . ومنهم من رفع الحق وجعله صفة للولاية وهما متلازمان ، وقوله : (هو خير ثواباً وخير عقبا) أى معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء ، وخير عقبا وهو العاقبة فى الدنيا والآخرة . وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ،

ولا يغتر بها ولا يثق بها ، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال — نصب عينيه ، وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه . وفيها أن من قدم شيئاً على طاعة الله والإنفاق في سبيله — عذب به ، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده . وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق ، وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة . وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر الحتم ، وبالله الاستعانة وعليه التكلان .

قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى : (إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب والعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ^(١)) . وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش ، فيما أنعم به عليهم ؛ من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ^(٢)) .

قال ابن عباس : هم كفار قريش ؛ ضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة ، المشتملة على أنواع الزروع والثمار ، التي قد انتهت واستحقت أن تُجَدَّ وهو الصَّرام ^(٣) ، ولهذا قال : (إذ أقسموا) فيما بينهم (ليصر منها) أي ليجدنَّها وهو الاستغلال (مصبحين) أي وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج ، فيعطوه شيئاً ، فخلفوا على ذلك ولم يستثنوا في يمينهم ، فمجزهم الله وسلط عليها الآفة التي أحرقتها وهي السفعة ^(٤) التي اجتاحتها ولم تبق بها شيئاً ينتفع به . ولهذا قال : (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم) أي كالليل الأسود المنصرم من الضياء ، وهذه معاملة بنقيض المقصود (فتنادوا مصبحين) أي فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضاً قائلين : (اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويسكثر السؤال ، (فانطلقوا وهم يتخافتون) أي يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين : (أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين) أي اتفقوا على هذا واشتوروا عليه (وغدوا على حرد قادرين) أي انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه ، مضميرين

(١) الآيات : ١٩ - ٣٣ من سورة ن . (٢) الآيات : ٢٨ و ٢٩ من سورة إبراهيم .
(٣) هو جذاذ النخل . (٤) السفعة : سواد مشرب بحمرة . والسوافع : لوانح السموم .

على هذه النية الفاسدة . وقال عكرمة والشعبي : (وغدوا على حرد) أى غضب على المساكين ، وأبعد السدى فى قوله : إن اسم حرهم - « حرد » ، (فلما رأوها) أى وصلوا إليها ونظروا ما حل بها ، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة ، بعد تلك النضرة والحسن والبهجة ، فانقلبت بسبب النية الفاسدة فعند ذلك - (قالوا إنا لضالون) أى قد تمهنا عنها وسلكنا غير طر يقها ، ثم قالوا : (بل نحن محرومون) أى بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا ، وحرماننا بركة حرثنا ، (قال أوسطهم) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد - هو أعدلهم وخيرهم : (ألم أقل لكم لولا تسبحون) قيل : تستثنون ، قاله مجاهد والسدى وابن جرير ، وقيل : تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر ، (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلأومون * قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين) ، فندموا حيث لا ينفع الندم ، واعترفوا بالذنب بعد العقوبة وذلك حيث لا ينجع .

وقد قيل إن هؤلاء كانوا إخوة ، وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم ، وكان يتصدق منها كثيراً ، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم ، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً ، فعاقبهم الله أشد العقوبة . ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار ، وحث على ذلك فى يوم الجداد كما قال تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ^(١)) ثم قيل كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان ، وقيل من أهل الحبشة ، والله أعلم . قال الله تعالى . (كذلك العذاب) أى هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا (ولعذاب الآخرة أكبر) أى أعظم وأحكم من عذاب الدنيا (لو كانوا يعلمون) . وقصة هؤلاء شبيهة بقوله تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ^(٢)) قيل هذا مثل مضروب لأهل مكة ، وقيل هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلاً لأنفسهم ، ولا ينافى ذلك ، والله أعلم

قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا فى سببهم

قال الله تعالى فى سورة الأعراف : (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سببتهم شرعاً ، ويوم لا يسبوتون لأنأتيتهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ^(٣) . وقال تعالى فى سورة البقرة :

(١) الآية : ٤١ من سورة الأنعام (٢) الآيات : ١١٢ ، ١١٣ من سورة النحل .

(٣) الآيات : ١٦٣ - ١٦٦

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين)^(١) . وقال تعالى في سورة النساء : (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا)^(٢) . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وغيرهم : هم أهل أيلة ، زاد ابن عباس - بين مدين والطور . قالوا وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان ، فكانت الحيتان قد ألقت منهم السكينة في مثل هذا اليوم . وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمسكاسب . فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لحلتهم من البحر ، فتأتى من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة ، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ، (ويوم لا يسبوتون لانتأتهم) وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت ، قال الله تعالى : (كذلك نبأهم) أى نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم المتقدم .

فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص ، وحفروا الحفر التى يجرى معها الماء إلى مصانع قد أعدوها ، إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها . ففعلوا ذلك في يوم الجمعة ، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقن بهذه المصايد ، فإذا خرج سبتهم أخذوها ، فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره ، وانتهكوا محارمه بالحيل التى هى ظاهرة للناس وهى فى الباطن مخالفة محضة . فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين : فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتياهم على مخالفة الله وشرعه فى ذلك الزمان ، وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : (لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟) ، يقولون ما للفائدة فى نهيبكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لاحتالهم ؟ فأجابتهم الطائفة المنكرة بأن قالوا : (معذرة إلى ربكم) أى فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فنقوم به خوفاً من عذابه ، (ولعلمهم يتقون) أى ولعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع ، فيقيمهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا . قال الله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به) أى لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع - (أنجيئنا الذين ينهون عن سوء) وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر (وأخذنا الذين ظلموا) وهم المرتكبون بالفاحشة (بعذاب بئيس) وهو الشديد المؤلم الموجه (بما كانوا يفسقون) . ثم فسر العذاب الذى أصابهم بقوله : (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) . وسنذكر ماورد من الآيات فى ذلك .

والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ، ونجى المؤمنين المنكرين ، وسكت عن الساكتين . وقد اختلف فيهم العلماء على قوانين : فقبل إنهم من الناجين ، وقيل إنهم من المهلكين ، والصحيح

الأول عند المحققين ، وهو الذي رجع إليه ابن عباس إمام المفسرين ، وذلك عند مناظرة مولاه عكرمة ، فكساه من أجل ذلك حلة سنية تكريمة .

قلت : وإنما لم يذكروا مع الناجين ؛ لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة - إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به ؛ من الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث ؛ التي أعلاها الإنكار باليد ذات البنان ، وبمدها الإنكار القولي باللسان ، ونالها الإنكار بالحنان . فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين ؛ إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها .

وقد روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس ، وحكى مالك عن ابن رومان وشيبان عن قتادة وعطاء الخرساني مامضمونه : أن الذين ارتكبوا هذا الصنيع اعتزلهم بقية أهل البلد ، ونهاهم من نهاهم منهم فلم يقبلوا ، فكانوا يبيتون وحدهم وبغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزة ؛ لما كانوا يترقبون من هلاكهم . فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها ، وارتفع النهار واشتد الضجاء ، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلم ويشرف عليهم من فوقهم ، فلما أشرف عليهم إذ هم قردة لها أذنان ، يتعاونون ويتعادون ، ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم ، ولا يعرفهم قراباتهم . فجعلوا يلوذون بهم ، ويقول لهم الناهون : ألم تنهكم عن صنيعكم ؟ ففسير القردة برؤوسها - أن نعم . ثم بكى عبد الله بن عباس وقال : إنا نرى منكرات كثيرة ولا نذكرها ، ولا نقول فيها شيئاً . وقال العوفي عن ابن عباس : صار شباب القرية قردة ، وشيوخها خنازير . وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس : أنهم لم يعيشوا إلا قوماً^(١) ثم هلكوا ما كان لهم نسل . وقال الضحاك عن ابن عباس : إنه لم يش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل هؤلاء ، ولم يشربوا ولم ينسلوا . وقد استقصينا الآثار في ذلك في تفسير سورة البقرة والأعراف . والله الحمد والمنة .

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : مسخت قلوبهم ، ولم يسخوا قردة وخنازير . وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) ، وهذا صحيح إليه وغريب منه جداً ، ومخالف لظاهر القرآن ، ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف ، والله أعلم .

[قصة أصحاب القرية] (إذ جاءها المرسلون) - تقدم ذكرها قبل قصة موسى عليه السلام .

[قصة سبأ] - سيأتي ذكرها في أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

[قصة قارون ، وقصة بلعام] تقدمتا في قصة موسى . وهكذا : [قصة الخضر]

و [قصة فرعون والسحرة] كلها في ضمن قصة موسى . و [قصة البقرة] - تقدمت في قصة موسى .

وقصة [الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت] - في قصة حزقيال .
وقصة [الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى] - في قصة شمويل . وقصة [الذي مرّ على قرية]
في قصة عزير .

قصة لقمان

قال تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد *) وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم *
ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنأ على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير *
وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل
من أناب إلىّ ، ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون * يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل
فتسكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير * يا بني أقم الصلاة
وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور * ولا تصعر خدك
للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختار فخور * واقصد في مشيك واغضض
من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحجر ^(١) .

هو لقمان بن عنقاء بن سدون ، ويقال لقمان بن ناران ، حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتبي . قال
السهيلي : وكان نوبياً من أهل أيلة ، قلت : وكان رجلاً صالحاً ذا عبادة وعبرة وحكمة عظيمة . ويقال
كان قاضياً في زمن داود عليه السلام والله أعلم . وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن
عباس قال : كان عبداً حبشياً نجاراً ، وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير ، قلت لجابر بن عبد الله :
ما انتهى إليكم في شأن لقمان ؟ قال كان قصيراً أفتس من النبوة . وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن
سعيد بن المسيب : كان لقمان من سودان مصر ، ذو مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . وقال
الأوزاعي : حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد :
لاتحزن من أجل أنك أسود ؛ فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر ،
ولقمان الحكيم ، كان أسود نوبياً ذا مشافر . وقال الأعمش عن مجاهد : كان لقمان عبداً أسود
عظيم الشفتين مشقق القدمين - وفي رواية مصفح القدمين . وقال عمر بن قيس : كان عبداً أسود
غليظ الشفتين مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يتحدثهم فقال له : أأنت الذي

كنت ترى معي الغنم في مكان كذا كذا؟ قال : نعم قال فما بلغ بك ما أرى؟ قال : صدق الحديث ،
والصمت عما لا يعنيني ، رواه ابن جرير عن ابن حميد عن الحكم عنه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن
أبي يزيد بن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم الحكمة ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال
أأنت عبد بن فلان الذي كنت ترى غنمي بالأمس؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى؟ قال :
قدر الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وترك ما لا يعنيني . وقال ابن وهب : أخبرني عبد الله بن
عياش الفتياني عن عمر مولى عفرة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان؟ أنت
عبد بن النحاس؟ قال نعم : قال فأنت راعي الغنم الأسود؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذي يوجبك
من أمرى؟ قال : وطء الناس بساطك ، وغشيتهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال يا ابن أخي ! إن صنعت
ما أقول لك كنت كذلك ، قال ماهو؟ قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة مطعمى ،
وحفظى فرجى ، وقيامى بعدتى ، ووفائى بعهدى ، وتركى ما لا يعنينى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ،
فذاك الذى صيرنى كما ترى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عمرو بن واقد عن عبدة بن رباح
عن ربيعة عن أبي الدرداء ، أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ولا مال
ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمامة سكيناً ، طويل التفكير عميق النظر . لم ينم نهراً
قط ، ولم يره أحد يبرق ولا يتنحج ، ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان
لا يعيد منطقاً نطقه - إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبق
عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر ، فبذلك أوتى ما أوتى ومنهم
من زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها فاختار الحكمة ، لأنها أسهل عليه ، وفي هذا
نظر والله أعلم . وهذا مهروى عن قتادة كما سنذكره ، وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق وكيع
عن إسرائيل عن جابر الجعفي عن عكرمة أنه قال : كان لقمان نبياً ، وهذا ضعيف لحال الجعفي .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً ، وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه ،
وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذى هو أحب الخلق إليه ، وهو أشفق الناس عليه ، فكان من
أول ما وعظ به أن قال : (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ، فنهاه عنه وحذره منه .

وقد قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم ، عن علقمة عن عبد الله
قال لما نزلت : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) - شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ

وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذلك، ألم تسمع إلى قول لقمان: (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) رواه مسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به. ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين، وبيان حقهما على الولد، وتأكده، وأمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين، ولكن لا يطاعان على الدخول في دينهما، إلى أن قال مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده: (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير).

ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل؛ فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة^(١) الحساب، ويضعها في الميزان؛ كما قال تعالى: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة)، وقال تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين^(٢))، وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة كالخردلة^(٣)، ولو كان في جوف صخرة صماء لا باب لها ولا كوة، أو لو كانت ساقطة في شيء من ظلمات الأرض أو السموات في اتساعهما وامتداد أرجائهما - لعلم الله مكانها (إن الله لطيف خبير) أي علمه دقيق فلا يخفى عليه الذر مما تراعى للنواظر أو توارى؛ كما قال تعالى: (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين^(٤)) وقال: (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين^(٥)) وقال: (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين^(٦)).

وقد زعم السدي في خبره عن الصحابة: أن المراد بهذه الصخرة - الصخرة التي تحت الأرضين السبع، وهكذا حكى عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمر وغيرهم، وفي صحة هذا القول من أصله نظر. ثم في أن هذا هو المراد نظر آخر؛ فإن هذه الآية نسكرة غير معرفة، فلو كان المراد بها ما قالوه - لقال فتكن في الصخرة. وإنما المراد: فتكن في صخرة أي صخرة كانت، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لميعة، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة يخرج عمله للناس كأنما ما كان».

ثم قال: (يا بني أقم الصلاة) أي أدها بجميع واجباتها؛ من حدودها وأوقاتها، وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وما شرع فيها، واجتنب ما ينهى عنه فيها. ثم قال: (وأمر بالمعروف

(١) الحوزة: الناحية. (٢) الآية: ٤٧ من سورة الأنبياء. (٣) الخردل: حب شجر معروف صغير جداً، له فوائد طبية كثيرة ذكرها صاحب الفاموس (٤) الآية: ٥٩ من سورة الأنعام. (٥) الآية: ٧٥ من سورة النمل. (٦) الآية: ٣ من سورة سبأ.

وانه عن المنكر) أى بجهدك وطاقتك ، أى إن استطعت باليد فباليد ، وإلا فبالسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك . ثم أمره بالصبر فقال : (واصبر على ما أصابك) وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فى مظنة أن يعادى وينال منه ، ولكن له العاقبة . ولهذا أمره بالصبر على ذلك ، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج . وقوله : (إن ذلك من عزم الأمور) التى لا بد منها ولا يحيد عنها ، وقوله : (ولا تصعر خدك للناس) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ويزيد بن الأصم وأبو الجوزاء ، وغير واحد : معناه - لا تتكبر على الناس وتمل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك ؛ على وجه التكبر عليهم والازدراء لهم . قال أهل اللغة : وأصل الصعر - داء يأخذ الإبل فى أعناقها فتلتوى رءوسها ، فشبّه به الرجل المتكبر الذى يميل وجهه إذا كلم الناس أو كلموه - على وجه التعظم عليهم .

قال أبو طالب فى شعره :

وكنا قديماً لا نقر ظلامه إذا مائتوا صعر الخلدود نقيماً

وقال عمرو بن حبي التغلبي :

وكنا إذا الجبار صعر خذه أقننا له من ميهله فتقومنا

وقوله : (ولا تمس فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور) ، ينهاه عن التبختر فى المشية على وجه العظمة والفخر على الناس ، كما قال تعالى : (ولا تمس فى الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً^(١)) . يعنى لست بسرعة مشيك تقطع البلاد فى مشيتك هذه ، ولست بدقتك الأرض برجلك تحرق الأرض بوطنك عليها ، ولست بتشاخك وتعاضمك وترفعك تبلغ الجبال طولاً ، فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك . وقد ثبت فى الحديث : « بينما رجل يمشى فى برديه يتبختر فيهما ، إذ خسف الله به الأرض فهو يتجالجل فيها إلى يوم القيامة » ، وفى الحديث الآخر : « إياك وإسبال الإزار فإنها من الخيلة لا يحبها الله » ، كما قال فى هذه الآية : (إن الله لا يحب كل مختال فخور) .

ولما نهاه عن الاختيال فى المشى - أمره بالقصد فيه ، فإنه لا بد له أن يمشى ؛ فنهاه عن الشر وأمره بالخير فقال : (واقصد فى مشيك) أى لا تتباطأ مفراطاً ، ولا تسرع إسراعاً مفراطاً ، ولكن بين ذلك قواماً ، كما قال تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً^(٢)) . ثم قال : (واغضض من صوتك) يعنى إذا تكلمت لاتسكف رفع صوتك ؛ فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير .

وقد ثبت فى الصحيحين الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل ؛ فإنها رأت شيطاناً ، ولهذا

(٢) الآية : ٦٣ من سورة الفرقان .

(١) الآية : ٣٧ من سورة الإسراء .

بهى عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه ، ولا سيما عند العطاس ، فيستحب خفض الصوت وتخميم الوجه^(١) ، كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ فأما رفع الصوت بالأذان ، وعند الدعاء إلى الغنّة للقتال ، وعند الإهلاك ونحو ذلك - فذلك مشروع . فهذا مما قصه الله تعالى عن لقمان عليه السلام في القرآن ؛ من الحكمة والوصايا النافعة الجامعة للخير ، المانعة من الشر ، وقد وردت آثار كثيرة في أخباره ومواعظه ، وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بحكمة لقمان ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى .

قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا سفيان ، أخبرني نهشل بن مجمع الضبي عن قزعة عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة : أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني ! إياك والتقنع^(٢) فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار » ، وقال أيضاً : حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عثمان بن ضمرة ، حدثنا السري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : « يا بني إن الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك » . وحدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا عبد الرحمن المسعودي عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : « يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس بناحياتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم » .

وحدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا ضمرة عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفذ الخردل ، فقال : « يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر ، قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الخزازي حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، عن ابن سفيان المقدسي عن خليفة بن سلام عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « آخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن » . قال الطبراني - يعني الحبش ، وهذا حديث غريب مفكر . وقد ذكر له الإمام أحمد في كتاب الزهد ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة . فقال : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن رجل عن مجاهد : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال : الفقه والإصابة في غير نبوة ، وكذا روى عن وهب بن منبه . وحدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن أشعث عن عكرمة عن ابن عباس

(١) أي تعظيته . (٢) تقنع الرجل : تعشى بشوب .

قال : كان لقمان عبداً حبشياً . وحدثنا أسود ، وحدثنا حماد عن علي بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب : أن لقمان كان خياطاً . وحدثنا سياد ، وحدثنا جعفر ، وحدثنا مالك - يعني ابن دينار - قال : قال لقمان لابنه : « يا بني اتخذ طاعة الله تجارة ، تأتلك الأرباح من غير بضاعة » . وحدثنا يزيد ، وحدثنا أبو الأشهب عن محمد بن واسع قال : كان لقمان يقول لابنه : « يا بني اتق الله ولا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر » . وحدثنا يزيد بن هرون ووكيعة قالوا : حدثنا أبو الأشهب عن خالد الرابي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، فقال له سيده : اذبح لي شاة فذبح له شاة ، فقال ائتني بأطيب مضغتين فيها ، فأناه باللسان والقلب ، فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال لا . قال فسكت عنه ما سكت ثم قال له : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال له : وألقت أحبها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب . فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي أحبها مضغتين فألقت اللسان والقلب . فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أحبث منهما إذا خبثا .

وحدثنا داود بن رشيد ، وحدثنا ابن المبارك ، وحدثنا معمر عن أبي عثمان - رجل من أهل البصرة - يقال له الجعد أبو عثمان - قال : قال لقمان لابنه : « لا ترغب في رد الجاهل فيرى أنك ترضى عن عمله ، ولا تهانوا بمقت الحكيم فيزهده فيك » .

وحدثنا داود بن أسيد ، وحدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد الحضرمي عن عبد الله بن زيد قال : قال لقمان : « ألا إن يد الله على أفواه الحكماء ، لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له » . وحدثنا عبد الرزاق قال سمعت بن جريج قال : كنت أفتع رأسي بالليل ، فقال لي عمر : أما علمت أن لقمان قال : القناع بالهمار مذلة معذرة - أو قال - معجزة بالليل ، فلم تقنع رأسك بالليل ؟ قال : قلت له : إن لقمان لم يكن عليه دين . وحدثني حسن بن الجنيد ، وحدثنا سفيان قال : قال لقمان لابنه : « يا بني ما ندمت على السكوت قط ، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » وحدثنا عبد الصمد ووكيعة قالوا : حدثنا أبو الأشهب عن قتادة أن لقمان قال لابنه : « يا بني اعتزل الشر يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق » . وحدثنا أبو معاوية ، وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة يا بني إياك والرغب ؛ فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ، ويزيل الحكم كما يزيل الطرب . يا بني إياك وشدة الغضب ، فإن شدة الغضب محقة لغواد الحكيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، وحدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة ، عن عبيد ابن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يهظه : « يا بني اختر المجالس على عينك ، فإذا رأيت المجالس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم ؛ فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك ، وإن تك غيباً يهلكوك ، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم . يا بني لا تجلس في المجالس الذي لا يذكر الله فيه ؛ فإنك إن تك عالماً

لا ينفعلك علمك ، وإن تك غيباً يزيدوك غباء ، وإن يطالع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصيبك معهم .
يا بني لا تعبطوا اسراً رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين ؛ فإن له عند الله قاتلاً لا يموت .

وحدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة : بنى لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء . وقال : مكتوب في الحكمة أو في التوراة : الرفق رأس الحكمة . وقال مكتوب في التوراة : كما ترجمون ترجمون . وقال مكتوب في الحكمة : كما تزرعون تحصدون وقال مكتوب في الحكمة : أحب خليلك و خليل أبيك . وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال : قيل للقيان أى الناس أصبر ؟ قال صبر لا يتبعه أذى ، قيل فأى الناس أعلم ؟ قال من ازداد من علم الناس إلى علمه ، قيل فأى الناس خير ؟ قال الغنى ، قيل الغنى من المال ؟ قال لا . ولكن الغنى الذى إذا التمس عنده خير وجد ، وإلا أغنى نفسه عن الناس .

وحدثنا سفيان - هو ابن عيينة - قال : قيل للقيان أى الناس شر ؟ قال : الذى لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً . وحدثنا أبو الصمد عن مالك بن دينار قال : وجدت في بعض الحكمة : يبدد الله عظام الذين يتكلمون بأهواء الناس . ووجدت فيها : لا خير لك فى أن تعلم ما لم تعلم ، ولما تعمل بما قد علمت ؛ فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فخرم حزمة ، ثم ذهب يحمها فمجز عنها ، فضم إليه أخرى .

وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا الحكم بن أبي زهير - وهو الحكم بن موسى - حدثنا الفرج بن فضالة عن أبي سعيد قال : قال لقيان لابنه : « يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور فى أمرك العلماء . » وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد فى هذه المواضع ، وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها ، كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى ، حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة قال : خير الله لقيان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختر الحكمة على النبوة ، قال : فاتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة ، قال : فأصبح ينطق بها . قال سعد سمعت قتادة يقول : قيل للقيان كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزيمة لرجوت فيه الفوز منه ، ولكن أرجو أن أقوم بها . ولكن خيرنى تخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلى . وهذا فيه نظر ؛ لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه . والذى رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة فى قوله : (ولقد آتينا لقيان الحكمة) قال : يعنى الفقه والإسلام ، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه . وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف ، منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس ، والله أعلم .

قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى : (والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شئ شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ^(١)) . قد تكلمنا على ذلك مستقصى فى تفسير هذه السورة والله الحمد . وقد زعم محمد بن إسحاق : أنهم كانوا بعد مبعث المسيح ، وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله . وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر فى العالم سراً فى حق المؤمنين من الجبارين الكافرين ، ولكن هؤلاء المذكورون فى القرآن قد ورد فيهم حديث صريح ، وأثر أورده ابن إسحاق وهما متعارضان . وهما نحن نوردهما لتقف عليهما .

قال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبرت سنى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاماً لأعلمه السحر ، فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر . وكان بين الملك وبين الساحر راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسنى أهلى ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك ، فقل حبسنى الساحر . قال فيينا هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم ؛ أمر الساحر أحب إلى الله - أم أمر الراهب ؟ قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر - فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أى بنى ! أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم الله على يديه . وكان للملك جليس فعمى ، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفى ولك ما همنا أجمع ، فقال : ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله عز وجل ؛ فإن آمنت به ودعوت الله شفاك ، فأمن فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من رد عليك بصرك ؟ فقال ربي . قال : أنا ؟ قال لا - ربي وربك الله . قال أولك رب غيرى ؟ قال : نعم - ربي وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فأتى به فقال : أى بنى ! بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله عز وجل . قال : أنا ؟ قال لا . قال : أولك رب غيرى ؟

قال : ربى وربك الله . قال فأخذه أيضاً بالعذاب ، ولم يزل به حتى دل على الراهب . فأتى بالراهب فقال ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه . وقال للأعمى : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه . وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال إذا بلغت ذروته ؛ فإن رجعت عن دينه وإلا فدهدهوه^(١) . فذهبوا به فلما علوا الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون .

وجاء الغلام يتامس حتى دخل على الملك ، فقال ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله ، فبعث به مع نفر فى قرقر^(٢) فقال إذا لجمت به البحر ؛ فإن رجعت عن دينه وإلا فأغرقوه فى البحر ، فلجوا به البحر فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فغرقوا أجمعون . وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به ؛ فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا نستطيع قتلى . قال وما هو ؟ قال تجمع الناس فى صعيد واحد ، ثم نصلبى على جذع وتأخذ سهماً من كفانتي . ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . ففعل ووضع السهم فى كبد القوس ، ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ، فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ؛ آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرايت ما كنت تحذر ؟ فقد والله نزل بك ؛ قد آمن الناس كلهم . فأمر بأفواه السكك تخفر فيها الأخاديد وأضمرت فيها النيران ، وقال : من رجعت عن دينه فدعوه ، وإلا فأخموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون ، فجاءت امرأة بائن لها ترضعه ، فكانها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبي : اصبرى يا أمه فإنك على الحق . كذا رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم والنسائى من حديث حماد بن سلمة . زاد النسائى وحماد بن زيد كلاهما عن ثابت به . ورواه الترمذى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ثابت بإسناده نحوه . وجرى إرادته كما بسطنا ذلك فى التفسير .

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر فقال : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب ، وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان . وكان فى قرية من قرأها قريباً من نجران - ونجران هى القرية العظمى التى إليها جماع أهل تلك البلاد - ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر . فلما نزلها « فيمون » ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه - قالوا : رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر . فبعث التامر ابنه عبد الله بن التامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم .

(١) دده الحجر - دحرجه ، والمراد : ارموه من ذروة الجبل (٢) القرقر كعصفور : السفينة العظيمة .

فوحده الله وعبدته ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم - وكان يعلمه - فكتمه إياه وقال له : يا ابن أخي إنك إن تحمله وأخشى ضعفك عنه . والتامر لا يظن إلا أن ابنه عبد الله يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان .

فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه - عمد إلى أقذاح فجتمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه في قدح لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ، ثم جعل يقذفها قدحاً قدحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً فأخذه ، ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي قد كتبه ، فقال وما هو ؟ قال كذا وكذا ، قال وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أي ابن أخي ! قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل ، فجعل عبد الله بن التامر إذا دخل بنجران لم يلق أحداً به ضرراً إلا قال له : يا عبد الله ! أتوحد الله وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم فيدعو الله له فيشفي ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضرراً إلا أنه فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رفع شأنه إلى ملك بنجران فدعاه ، فقال له : أفسدت على أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك . قال : لا تقدر على ذلك ، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض مابه بأس . وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك ، فيلقى به فيها فيخرج أيسر به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر : إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلطت على قتلتي ، قال : فوحد الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن التامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجبه شجرة غير كبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه . واجتمع أهل بنجران على دين عبد الله بن التامر ، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه ، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم ، من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل بنجران عن عبد الله بن التامر ، فإله أعلم أي ذلك كان . قال فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك أو القتل - فاختروا القتل فخذوا الأخدود ، وحرق بالنار وقتل بالسيف ، ومثل بهم ، فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً . ففي ذى نواس وجنده أنزل الله على رسوله : (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ... الآيات) . وهذا يقتضى أن هذه القصة غير ما وقع في سياق مسلم . وقد زعم بعضهم : أن الأخدود وقع في العالم كثيراً ؛ كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا صفوان عن عبد الرحمن بن جبير . قال : كانت الأخدود في اليمن زمان تبع ، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فأخذ أتونا وأتى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد .

وفي العراق في أرض بابل في زمان بخت نصر؛ حين صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباؤه عنزياريا وميشائيل، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيه الخطب والنار، ثم ألقاهم فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً، وأنقذهم منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط، فأكلتهم النار. وقال أسباط عن السدي في قوله: (قتل أصحاب الأخدود) قال: كانت الأخدود ثلاثة: خد بالشام، وخذ بالعراق، وخذ باليمن، رواه ابن أبي حاتم. وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في سورة البروج، والله الحمد والمنة.

باب بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بني إسرائيل

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام، حدثنا زيد عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «حدثوا عني ولا تكذبوا علي»، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». وقال أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لا تكذبوا عني شيئاً غير القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه»، وقال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج حدثوا عني ولا تكذبوا علي»، قال: «ومن كذب علي - قال همام أحسبه قال - متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، وهكذا رواه مسلم والنسائي من حديث همام، ورواه أبو عوانة الإسفراييني عن أبي داود السجستاني عن هدية عن همام عن زيد بن أسلم به. ثم قال: قال أبو داود: أخطأ فيه همام، وهو من قول أبي سعيد كذا قال. وقد رواه الترمذي عن سفيان بن عيينة عن سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً، قاله أعلم. قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، أنبأنا الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية، حدثني أبو كبشة السلولي: أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ورواه أحمد أيضاً عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق - كلاهما عن الأوزاعي به. وكذا رواه الترمذي عن بندار عن أبي عاصم، ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن يوسف العرياني عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية، وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى أبو موسى، حدثنا هشام بن معاوية، حدثنا أبي عن قتادة عن أبي حسان عن عبد الله بن عمرو قال: كان نبي الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني إسرائيل حتى نصبح، ما نقوم فيها إلا لمعظم صلاة، ورواه أبو داود عن محمد بن المثنى ثم قال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أبي حسان عن عمران بن حصين قال: كان رسول

الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بنى إسرائيل ، لا يقوم إلا لمعظم صلاة ، قال البزار : وهشام أحفظ من أبي هلال ، يعنى أن الصواب عن عبد الله بن عمرو - لا عن عمران بن حصين ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى - هو القطان - عن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » ، إسناد صحيح ولم يخرجوه . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا وكيع ، حدثنا ربيع بن سعد الجمعي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « حدثوا عن بنى إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب » . ثم أنشأ يحدث ﷺ قال : « خرجت طائفة من بنى إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم ، فقالوا : لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل ، فيخرج لنا رجلا قد مات نسائه يحدثنا عن الموت ، ففعلوا . فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور ، بين عينيه أثر السجود ، فقال : يا هؤلاء ! ما أردتم إلى ، فقدمت منذ مائة عام ، فما سكنت عنى حرارة الموت حتى الآن ، فادعوا الله أن يعيدنى كما كنت » . وهذا حديث غريب ، إذا تقرر جواز الرواية عنهم - فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً . فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذى بأيدينا عن المعصوم - فذاك متروك مردود ، لا يعرج عايمه . ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته - أن تعتقد صحته ؛ لما رواه البخارى قائلاً : حدثنا محمد بن يسار ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا على بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » : تفرد به البخارى من هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد من طريق الزهرى عن أبي نملة الأنصارى عن أبيه ، أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ فقال إذ جاء رجل من اليهود فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجفازة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » ، فقال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلاً لم تصدقوهم » ، تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ ، قال فغضب وقال : « أمتهو كون^(١) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى به لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لانسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فيكذبوا به ، أو بباطل فيصدقوا به . والذى نفسى بيده ، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى » . تفرد به أحمد

(١) المتهوك : المنجبر ، والساقط فى هوة الردى . والتهوك : التهور ، والوقوع فى الشئ بدون مبالاة .

وإسناده على شرط مسلم ، فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية ، وحرّفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً وهي بلغتهم ، فكيف يعبرون عنها بغيرها ؟ ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير ووهم كثير ، مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم ، وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير ، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه ، فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير ؛ يعلم ذلك من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه ، وكيف يصوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب ، باطلة من حيث معناها وألفاظها . وهذا كعب الأخبار من أجود من ينقل عنهم ، وقد أسلم في زمن عمر وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب ، فكان عمر رضى الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق ، وتأليفاً لقلبه ، فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده ، وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها لا يساوى مداده ، ومنها ما هو باطل للاحتمال ، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا . وقد قال البخارى : وقال أبو اليمان : حدثنا شعيب عن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ، وذُكر كعب الأخبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب - يعنى من غير قصد منه . وروى البخارى من حديث الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله ؟ تقرءونه محضاً لم يُشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيره وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . ألا إنها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم . وروى ابن جرير عن عبد الله ابن مسعود أنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، والله أعلم .

قصة جريج أحد عباد بنى إسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير ، حدثني أبي ، سمعت محمد بن سيرين يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ^(١) : عيسى بن مريم . قال : وكان في بنى

(١) ذكر الثلاثة قبل أن يعلم الزائد عليها ، وإلا فقد تكلم من الأطفال سبعة : منهم شاهد يوسف . وابن ماشطة آل فرعون ، والرضيع في قصة أصحاب الأخدود ، ويحي عليه السلام .

إسرائيل رجل عابد يقال له جريج ، فابتنى صومعة وتعبد فيها ، قال : فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج ، فقالت بنى منهم : أين شتم لأتفنه ، فقالوا قد شتمنا ذلك ، قال : فأتته فتمرضت له فلم يلتفت إليها ، فأمكنف نفسها من راع كان يؤوى غنمه إلى أصل صومعة جريج ، فحملت فولدت غلاماً ، فقالوا : بمن ؟ قالت من جريج ، فأتوه فاستنزروه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته ، فقال ماشأناكم ؟ قالوا إنك زينت بهذه البغى فولدت غلاماً ، فقال وأين هو ؟ قالوا هو هذا . قال : فصلى ودعا ، ثم انصرف إلى الغلام فطعمه بإصبعه ، فقال : بالله يا غلام من أبوك ؟ فقال أنا ابن الراعى ، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه ، وقالوا بنى صومعتك من ذهب ، قال : لا حاجة لى فى ذلك ، ابنوها من طين كما كانت .

قال : وبينما امرأة فى حجرها ابن لها ترضعه - إذ مر بها راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، قال فترك نديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلى مثله . قال : ثم عاد إلى نديها فقصه - قال أبو هريرة : فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى صنيع الصبي ووضع إصبعه فى فيه يمصها . ثم صرت بأمة تضرب فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، قال فترك نديها وأقبل على الأمة فقال : اللهم اجعلنى مثلها . قال : فذاك حين تراجع الحديث فقالت : حلتى مر الراكب ذو الشارة فقلت اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلى مثله ، وصررت بهذه الأمة فقلت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فقلت : اللهم اجعانى مثلها . فقال يأماه ! إن الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة ، وإن هذه الأمة يقولون زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق ، وهى تقول حسبى الله » وهكذا رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ، وفى المظالم عن مسلم بن إبراهيم ، ومسلم فى كتاب الأدب عن زهير بن حرب عن يزيد بن هرون - كلاهما عن جرير بن حازم به .

طريق أخرى ، وسياق آخر - قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، حدثنا حميد بن هلال عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان جريج يتعبد فى صومعته قال : فأتته أمه فقالت يا جريج ! أنا أمك فكلمنى - قال : وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن - قال : وصادفته يصلى ، فقال : يا رب أمى وصلاتى ، فاختر صلواته فرجعت . ثم أتته فصادفته يصلى فقالت يا جريج ! أنا أمك فكلمنى ، فقال يا رب أمى وصلاتى ، فاختر صلواته . فقالت : اللهم هذا جريج وإنه ابنى ، وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى . اللهم فلا تمته حتى تريبه المومسات . ولو دعت عليه أن يفتن لافتن . قال : وكان راع بأرى إلى ديره ، فخرجت امرأة فوقع عليها الراعى فولدت غلاماً ، فقيل لمن هذا ؟ فقالت : هو من صاحب الدير ، فأقبلوا بفؤسهم ومساحيهم ، وأقبلوا إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم ، فأقبلوا يهدمون ديره فنزل إليهم . فقالوا : سل هذه المرأة ، قال أراه تبسم ، قال ثم مسح رأس الصبي فقال من أبوك ؟ قال راعى الضأن . قالوا يا جريج بنى ما هدمنا

من ديرك بالذهب والفضة ، قال : لا ، ولكن أعيدوه كما كان ففعلوا » ورواه مسلم في الاستئذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة به .

سياق آخر - قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أنبأنا ثابت عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج ، كان يتعبد في صومعته ، فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت أي جريج ! أي بني ! أشرف على أكلك ، أنا أمك أشرف على ، فقال : أي ربي ! صلاتي وأمي ، فأقبل على صلاته . ثم عادت فنادته سراها فقالت : أي جريج ! أي بني ! أشرف على ، فقال أي رب ! صلاتي وأمي ، فأقبل على صلاته . فقالت : اللهم لا تمته حتى تريبه المومسة ، وكانت راعية ترعى غنما لأهلها ثم تأوى إلى ظل صومعته ، فأصابته فاحشة فحملت فأخذت ، وكان من زنى منهم قتل ، فقالوا بمن ؟ قالت : من جريج صاحب الصومعة ، فجاءوا بالفؤس والمرور ، فقالوا أي جريج ! أي سرائي ! انزل ، فأبى وأقبل على صلاته يصلي ، فأخذوا في هدم صومعته ، فلما رأى ذلك نزل ، فجعلوا في عنقه وعنقها حبلا ، فجعلوا يطوفون بهما في الناس ، فوضع لإصبعه على بطنها فقال : أي غلام ! من أبوك ؟ فقال أبي فلان راعي الضأن ، فقبلوه ، وقالوا إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة ، قال أعيدوها كما كانت . وهذا سياق غريب وإسناده على شرط مسلم ، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه .

فهؤلاء ثلاثة تكلموا في المهدي : عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد تقدم الكلام على قصته . وصاحب جريج ابن البقي من الراعي كما سمعت ، واسمه أبايوس كما ورد مصرحاً به في صحيح البخاري . والثالث ابن المرأة التي كانت ترضعه فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة ، فتمنى أن يكون كملك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه ، وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل ؛ كما تقدم في رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً . وقد رواه الإمام أحمد عن هوزة عن عوف الأعرابي عن خلاس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع ، وهو إسناد حسن .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن عبد الرحمن الأعرج ، حدثه أنه سمع أبا هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « بينما امرأة ترضع ابنها إذ سر بها راكب وهي ترضعه ، فقالت : اللهم لا تمت ابني حتى يكون مثل هذا ، فقال : اللهم لا تجعلني مثله ؛ ثم رجع في الثدي ومرُ بامرأة تُجرر ويلعب بها ، فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه ، فقال : اللهم اجعلني مثلها ، فقال : أما الراكب فإنه كافر ، وأما المرأة فإنهم يقولون إنها تزني وتقول حسبي الله ، ويقولون تسرق وتقول حسبي الله . وقد ورد في من تسكلم في المهدي أيضاً : شاهد يوسف كما تقدم ، وابن ماشطة آل فرعون ، والله أعلم .

قصة برصيصا

وهي عكس قصة جريج؛ فإن جريجاً عصم، وذلك فتن. قال ابن جرير: حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، أنبأنا أبي عن أبيه عن جده عن الأعمش، عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) فكان عاقبتهمما أنهما في النار خالدن فيها وذلك جزاء الظالمين^(١).

قال ابن مسعود: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها إخوة أربعة، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب قال: فنزل الراهب ففجر بها، فحملت، فأناه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها؛ فإنك رجل مصدق ويسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قال: فأنى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا. فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: لا - بل قصها علينا، قال: فقصها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك. قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء، فاطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزروه. ثم انطلقوا به. فأناه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه، قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل: وهكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقد روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه بسياق آخر؛ فقال ابن جرير: حدثنا خالد بن أسلم، حدثنا النضر بن شميل، أنبأنا شعبة عن أبي إسحاق: سمعت عبد الله بن نهيك، سمعت علياً يقول: إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراه فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنها. ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها قال: فجاءوا بها إليه فداواها، وكانت عنده. فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبتته، فأناها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان الراهب: أنا صاحبك، إنك أعيتتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، فاسجد لي سجدة، فسجد له، فلما سجد له قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فذلك قوله: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين).

قصة الثلاثة الذين آووا إلى الغار فانطبق عليهم

فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم

قال الإمام البخارى : حدثنا إسماعيل بن خليل ، أخبرنا على بن مسهر ، عن عبيد الله بن عمر عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، يمشون إذ أصابهم مطر ، فأووا إلى غار فانطبق عليهم . فقال بعضهم لبعض : إنه والله ياهؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه . فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على قرق^(١) من أرز ، فذهب وتركه ، وأنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقرأ ، وأنه أنانى يطلب أجره فقلت : اعمد إلى تلك البقر فسقمها ، فقال لى : إنما لى عندك فرق من أرز ، فقلت له اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق ، فساقها . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساحت^(٢) عنهم الصخرة . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة بآبن غنم لى ، فأبطأت عليهما ليلة فحُتت وقد رقدا ، وأهلى وعيالى يتضاغون^(٣) من الجوع ، وكنت لأسقيهم حتى يشرب أبواى ، فكهرت أن أوقظهما وكهرت أن أدعها فيستكينا لشربتها^(٤) ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك - ففرج عنا . فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لى ابنة عم من أحب الناس لى ، وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطابتها حتى قدّرت فأتيها بها فدفعتها إليها ، فأمسكتنى من نفسها . فلما قعدت بين رجلها ، قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقممت وتركتم المائة الدينار . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، ففرج الله عنهم فخرجوا .

رواه مسلم عن سويد بن سعيد عن على بن مسهر به ، وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به - عن مروان ابن معاوية عن عمرو بن حمزة بن عبد الله بن عمر عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ بنحوه . ورواه الإمام أحمد من حديث وهب بن منبه عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ بنحوه من هذا السياق ، وفيه زيادات . ورواه البزار من طريق أبي إسحاق عن رجل عن بحيلة عن النعمان بن بشير مرفوعاً مثله ، ورواه البزار فى مسنده من حديث أبي حنث عن على بن أبى طالب عن النبي ﷺ بنحوه .

(١) الفرق - يسكون الراء وقد تحرك : مكيال معروف بالمدينة يسع ستة عشر رطلا ، والجمع فرقان .
(٢) أى اتسعت ، ومنه ساحة الدار (٣) يتضاغون ، والضغاء : الصباح . (٤) أى يضعف لعدم شربتها .

خبر الثلاثة: الأعمى، والأبرص، والأقرع

روى البخارى ومسلم من غير وجه ، عن همام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة : حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة : أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل ؛ أبرص وأعمى وأقرع ، بدأ الله أن يبتليهم ، فبعث الله إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال له : أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، قد قدّرني^(١) الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه ، فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال الإبل ، أو قال البقر - هوشك فى ذلك ، إن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر - فأعطى ناقة عسراء فقال يبارك لك فيها . قال : وأتى الأقرع فقال له : أى شىء أحب إليك ؟ قال شعر حسن ، ويذهب عنى هذا ، قد قدّرني الناس ، قال فمسحه فذهب وأعطى شعرا حسنا ، قال : فأنى المال أحب إليك ؟ قال البقر ، فأعطاه بقرة حاملا ، وقال يبارك لك فيها . قال وأتى الأعمى فقال له : أى شىء أحب إليك ؟ قال يرد الله إلىّ بصرى ، فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأنى المال أحب إليك ؟ قال الغنم ، فأعطاه شاة والدا فأنتج هذان ورآه هذا^(٢) فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيبته ، فقال : رجل مسكين تقطعت بي الجبال^(٣) فى سفرى ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيراً أتبلغ^(٤) عليه فى سفرى ، فقال له : إن الحقوق كثيرة ، فقال له كأتى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرا فأعطاك الله عز وجل ؟ فقال : لقد ورثت أسكابرا عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . وأنى الأقرع فى صورته وهيبته فقال له مثل ما قال لهذا ، فرد عليه . مثل ما رد عليه هذا ، فقال إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . وأنى الأعمى فى صورته فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، وتقطعت بي الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذى ردّ عليك بصرى - شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، وفقيرا فقد أغفانى . فخذ ماشئت ، فوالله لأجهدك^(٥) اليوم بشىء أخذته الله عز وجل . فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخّط على صاحبيك ، ، هذا لفظ البخارى فى أحاديث بنى إسرائيل .

(١) استفذرونى وكرهونى . (٢) أنتج صاحبا الإبل والبقر، وولد صاحب الشاة . (٣) أسباب الرزق .

(٤) من البلغة بضم الباء - ومعى الكفاية . (٥) أى لأشقى عليك فى رد شىء تطلبه منى .

حديث الذي استسلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : أنه ذكر : أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار . فقل : انتمى بشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيداً . قال : فانتفى بكفيل قال : كفى بالله كفيلاً ، قال صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج في البحر ففضى حاجته ، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبه ، ثم زجج^(١) موضعها ثم أتى بها إلى البحر . ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استسلفت من فلان ألف دينار ، فسألني كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً ، فرضى بك . وسألني شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً ، فرضى بك . وأنى قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً . وإنى أستودعكها . فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه . ثم انصرف ، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده . فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرهما وجد المال والصحيفة . ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب سرك لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ قال ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه ؟ قال فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة ، فانصرف بالألف الدينار راشداً^(٢) . هكذا رواه الإمام أحمد مسنداً . وقد علقه البخاري في غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن الليث بن سعد ، وأسنده في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه . والعجب من الحافظ أبي بكر البزار كيف رواه في مسنده عن الحسن بن مدرك ، عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن عمر بن سلمة عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . ثم قال : لا يروى إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

قصة أخرى شبيهة بهذه القصة في الصدق والأمانة

قال البخاري : حدثنا إسحاق بن نصر ، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر بن همام بن منبه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذي اشترى العقار - في عقاره جرة^(٣) فيها ذهب ، فقال له الذي اشترى العقار : خذ ذهبك مني ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب . وقال الذي له الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها . فتحاكما إلى رجل ، فقال

(١) أي جعل لها زججاً ، والزجج : الحديدية في أسفل الرمح . (٢) ذكر البخاري هذا الحديث في باب الكفالة .

(٣) هي الإناء الذي يصنع من الفخار ، وهو معروف .

الذي تحاكما إليه : ألكما ولد؟ قال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية . قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا ، هكذا روى البخارى هذا الحديث فى أخبار بنى إسرائيل ، وأخرجه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به . وقد روى أن هذه القصة وقعت فى زمن ذى القرنين وقد كان قبل بنى إسرائيل بدهور متطاولة ، والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر فى كتابه - [المبتدأ] : عن سعد بن أبى عروبة ، عن قتادة عن الحسن : إن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملكه وعماله بنفسه ، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه ، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه . قال : فبينما هو يسير متكرراً فى بعض المدائن ، فجلس إلى قاض من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد فى خصومة ، فلما أن طال ذلك بذى القرنين ، ولم يطلع على شىء من أمر ذلك القاضى ، وهم بالانصراف - إذا هو برجلين قد اختصما إليه ، فادعى أحدهما فقال : أيها القاضى ! إني اشتريت من هذا داراً عمرتها ووجدت فيها كنزاً ، وإني دعوته إلى أخذه فأبى على . فقال له القاضى : ما تقول؟ قال ما دفنت وما علمت به فليس هو لى ولا أقبضه منه . قال المدعى : أيها القاضى ! مر من يقبضه فتضعه حيث أحببت . فقال القاضى : تفر من الشر وتدخلنى فيه؟ ما أنصفتنى ، وما أظن هذا فى قضاء الملك . فقال القاضى : هل لكما أمر أنصف مما دعوتانى إليه؟ قالوا - نعم . قال للمدعى : ألك ابن؟ قال - نعم . وقال للآخر : ألك ابنة؟ قال - نعم . قال اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا ، وجهزاهما من هذا المال ، وادفعا فضل ما بقى إليهما يعيدشان به ملياً ، فتكونا بخيره وشره . فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ، ثم قال للقاضى : ما ظننت أن فى الأرض أحداً يفعل مثل هذا ، أو قاضٍ يقضى بمثل هذا . فقال القاضى - وهو لا يعرفه : وهل أحد يفعل غير هذا؟ قال ذو القرنين : نعم . قال القاضى : فهل يمطرون فى بلادهم؟ فعجب ذو القرنين من ذلك وقال : بمثل هذا قامت السموات والأرض .

قصة أخرى

قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن شعبة عن قتادة عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ، ثم خرج يسأل . فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة؟ قال : لا - فقتله ، فجعل يسأل فقال له رجل : أنت قربة كذا وكذا ، فأدركه الموت فناءً بصدرة نحوها ، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه أن تقربى ، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجد إلى هذه أقرب بشبر ففقر له » ، هكذا رواه ههنا مختصراً ، وقد رواه مسلم عن بندار به ، ومن حديث شعبة ومن وجه آخر عن قتادة به مطولاً .

[هريث أضر] - قال البخارى : حدثنا على بن عبدالله ، حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثم أقبل على الناس فقال : « بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضر بها فقالت إنا لم نخلق لهذا - إنما خلقنا للحرث . فقال الناس : سبحان الله ! بقرة تسكلم ؟ فقال فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وماهما ثم^(١) قال : وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة ، فطلب حتى كانه استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا^(٢) استنقذتها منى ، فمن لها يوم السبت يوم لاراعى لها غيرى ؟ فقال الناس : سبحان الله ! ذئب يتسكلم ؟ قال فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر - وماهما ثم . قال : وحدثنا على قال : حدثنا سفيان عن مسعر عن سعد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثله وقد أسفده البخارى في المزارعة عن علي بن المدينى ، ومسلم عن محمد بن عباد - كلاهما عن سفيان بن عيينة . وأخرجاه من طريق شعبة - كلاهما عن مسعر به . وقال الترمذى حسن صحيح ، وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة وسفيان الثورى - كلاهما عن أبي الزناد .

[هريث أضر] - قال البخارى : حدثنا عبدالعزیز بن عبدالله ، حدثنا إبراهيم عن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون^(٣) وإنه إن كان في أمتي هذه منهم - فإنه عمر بن الخطاب » ، لم يخرجهم مسلم من هذا الوجه ، وقدرى عن إبراهيم بن سعد عن أبي سلمة عن عائشة رضی الله عنها .

[هريث أضر] - قال البخارى : حدثنا عبد الله بن مسleme عن مالك ، عن ابن شهاب عن حميد ابن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج على المنبر ، فتناول قصة^(٤) من شعر كانت في يدى حرسى^(٥) ، فقال يا أهل المدينة ! أين علمواكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه ويقول : إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم . وهكذا رواه مسلم وأبو داود من حديث مالك ، وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهرى بنحوه ، وقال الترمذى حديث صحيح . وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرة ، قال سمعت سعيد بن المسيب ، قال : قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة ، آخر قدمة قدمها ، نخطبنا فأخرج من كفه كبة من شعر وقال : ما كنت أرى أن أحداً يفعل هذا غير اليهود ، وإن النبي ﷺ سماه الزور - يعنى الوصال فى الشعر . تابعه غندر عن شعبة ، والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غندر عن شعبة ، ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب به .

(١) أى لم يكن أبو بكر وعمر حاضرين هناك (٢) هذا : أى ياهذا (٣) الحدث : الملم الذى يلقى الشيء فى روعه . (٤) القصة : شعر الناصية من الرأس ، والمراد - القطعة (٥) نسبة إلى الحرس وهو واحد الحراس .

[هريث آفر] - قال البخارى : حدثنا سعيد بن تليد ، حدثنا ابن وهب قال : أخبرني جرير بن حازم عن أبوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بيننا كلب يُطيف^(١) بركية كاد يقتله العطش ، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت موقها^(٢) فسقته فغفر لها به » . ورواه مسلم عن أبي الطاهر بن السرح عن وهب به .

[هريث آفر] - قال البخارى : حدثنا عبد الله بن أسماء ، حدثنا جويرية ، عن نافع عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، فلا هي أطمعتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض » . وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء به .

[هريث آفر] - قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا المستمير بن الريان ، حدثنا أبو نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل امرأة قصيرة فصنعت رجلين من خشب ، فكانت تمشي بين امرأتين قصيرتين ، واتخذت خاتماً من ذهب ، وحشت تحت فسه أطيب الطيب والمسك ، فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفخ ريحه » . رواه مسلم من حديث المستمير وخليد بن جعفر - كلاهما عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً قريباً منه ، وقال الترمذى حديث صحيح .

[هريث آفر] - قال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة عن منصور سمعت ربيعي بن حراش يحدث عن ابن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى - إن لم تستح فاصنع ما شئت » . تفرد به البخارى دون مسلم ، وقد رواه بعضهم عن ربيعي بن حراش عن حذيفة مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، والله أعلم .

[هريث آفر] - قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا عبد الحميد - يعني ابن بهرام - حدثنا شهر بن حوشب قال : قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « بيننا رجل وامرأة له في السلف الخالى لا يندران على شيء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته سغبة شديدة ، فقال لامرأته : أعندك شيء ؟ قالت - نعم . أبشر أنك رزق الله ، فاستحشها فقال : ويحك ابتغى إن كان عندك شيء ، قالت - نعم . هنية^(٣) ترجو رحمة الله . حتى إذا طال عليه المطال ، قال : ويحك ! قومي فابتغى إن كان عندك شيء فأتيتني به ، فإني قد بلغت الجهد وجهدت . فقالت : نعم ؛ الآن ينضج التنور

(١) يطيف ويطوف : أى يدور (٢) الموق : خف غليظ يلبس فوق الخف .

(٣) هو تصغير هنة ، وأصلها هنة : أى شيء يسير .

فلا تعجل . فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أيضاً أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمت فنظرت إلى تنورى ! فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم ، ورحاها تطحن . فقامت إلى الرحي فنفضتها واستخرجت مافي تنورها من جنوب الغنم . قال أبو هريرة : فولذى نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ لو أخذت مافي رحيها ولم تنفضها لطحنت إلى يوم القيامة » . وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا أبو بكر عن هشام عن محمد عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته مالتى - قامت إلى الرحي فوضعتها ، وإلى التنور فسجرتة^(١) ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج فقال أصبتم بعد شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم من ربنا ، ثم قامت إلى الرحي فرفعتها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » . قال شهدت النبي ﷺ وهو يقول : « والله لأن يأتى أحدكم بحزمة حطب ثم يحمله في يديه فيستمتع منه - خير له من أن يأتى رجلاً فيسأله » .

قصة المملكين التائبين

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا المسعودي عن سماك بن حرب عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته ، ففكر فعمل أن ذلك منقطع عنه ، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه . فانساب ذات ليلة من قصره وأصبح في مملكة غيره ، وأتى ساحل البحر فكان به ؛ يضرب اللبن بالأجر فيأكل ويتصدق بالفضل ، ولم يزل كذلك حتى رقى أمره إلى ملكهم ، فأرسل إليه فأبى أن يأتيه ، فركب إليه الملك فلما رآه ولى هارباً ، فركض في أثره فلم يدركه . فناداه يا عبد الله ! إنه ليس عليك منى بأس ، فقام حتى أدركه فقال له : من أنت رحمك الله ؟ فقال أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا ؛ فكثرت في أمرى فملت أن ما أنا فيه منقطع ، وأنه قد شغلنى عن عبادة ربي عز وجل ، فتركته وجئت ههنا أعبد ربي . فقال له : ما أنت بأحوج لما صنعت منى . قال : فنزل عن دابته فسيبها وتبعه ، فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل ، فدعوا الله أن يميتهما جميعاً فأتانا . قال عبد الله : فلو كنت برملة مصر لأربيتكم قبورهما بالنعمة الذي نعت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[هديت آضر] - قال البخارى : حدثنا أبو الوليد حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ : أن رجلاً كان قبلكم رغبه الله^(٢) مالا ، فقال لبنيه لما حضر : أى أب

(١) سجر التنور : أحماه وأوقده . (٢) أى أكثره وبارك له فيه ، والرغس : النعمة والخير والبركة .

كنت لكم؟ قالوا خير أب . قال : فإنني لم أعمل خيراً قط ، فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف ، ففعلوا . فجمعهم الله عز وجل ، فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتك ، فتلقاه برحمته . »

ورواه في مواضع آخر ، ومسلم من طرق عن قتادة به . ثم رواه البخاري ومسلم من حديث ربيع بن حراش عن حذيفة عن النبي ﷺ بنحوه . ومن حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم - بنحوه .

[حديث آخر] - قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال : فلقى الله فتجاوز عنه » ، وقد رواه في مواضع آخر ، ومسلم من طريق الزهري به .

[حديث آخر] - قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني مالك عن محمد بن المنكدر عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه : أنه سمعه يسأل أسامة ابن زيد : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون ؟ قال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجس ^(١) أرسل على طائفة من بني إسرائيل وعلى من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه » . قال أبو النضر : لا يخرجكم إلا فراراً منه . ورواه مسلم من حديث مالك ومن طرق آخر عن عامر بن سعد به : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، حدثنا عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر ، عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرني أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده ، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين ، ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً ، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له - إلا كان له مثل أجر شهيد » . تفرد به البخاري عن مسلم من هذا الوجه .

[حديث آخر] - قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة : أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : أنشف في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأم ^(٢) الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به .

(١) أي عذاب وغضب . (٢) اسم وضع للقسمة ، والتقدير : أم الله قسماً . ومثله : أيمن الله . وهيم الله .

[هربت آخر] - وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عبد الملك بن ميسرة قال :

سمعت النزال بن سبرة الهلالي ، عن ابن مسعود قال : سمعت رجلاً قرأ^(١) ، وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلفها ، فحُتُّ به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فعرفتُ في وجهه الكراهية وقال : « كلا كما محسن ، ولا تختلفوا ؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » . تفرد به البخارى دون مسلم .

[هربت آخر] : قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم عن صالح عن ابن

شهاب قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن إن أبا هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون بخالقوم » . تفرد به دون مسلم ، وفي سنن أبي داود : صلوا في نعالكم خالفوا اليهود .

[هربت آخر] - قال البخارى . حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن عمرو عن طاووس عن

ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : قاتل الله فلاناً ، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فحملوها^(٢) فباعوها » . رواه مسلم من حديث ابن عينة . ومن حديث عمرو بن دينار به . ثم قال البخارى تابعه جابر وأبو هريرة عن النبي ﷺ . ولهذا الحديث طرق كثيرة ، وسيأتى في باب الخيل من كتاب الأحكام إن شاء الله ، وبه الثقة .

[هربت آخر] قال البخارى : حدثنا عمران بن ميسرة ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا خالد عن

أبي قلابة عن أنس بن مالك قال : ذكروا النار والناقوس ، فذكروا اليهود والنصارى ، فأمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة ، وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي به . والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم ؛ فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كانت المسلمون يتحيمون^(٣) وقت الصلاة بغير دعوة إليها . ثم أمر من ينادى فيهم وقت الصلاة : « الصلاة جامعة » ، ثم أرادوا أن يدعوا إليها بشيء يعرفه الناس ، فقال قائلون : نضرب بالناقوس ، وقال آخر : نوري ناراً^(٤) ، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتاب . فأرى عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى في منامه الأذان ، فقصها على رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فنادى . كما هو مبسوط في موضعه من باب الأذان . في كتاب الأحكام .

[هربت آخر] - قال البخارى : حدثنا بشر بن محمد ، أنبأنا عبد الله ، أنبأنا معمر ويونس عن

الزهري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله : أن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طرقت يطرح خيصة^(٥) على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما صنعوا .

وهكذا رواه في غير موضع ، ومسلم من طرق عن الزهري به .

(١) عند أبي ذر : آية (٢) أى أذابوها (٣) يتقدرون حينها ليدركوها في وقتها التمرعى

(٤) أى نوقد ونشعل . (٥) الخيصة : كساء أسود مربع له علمان .

[هربت أقر] - قال البخارى : حدثنا سعيد بن أبي مریم ، حدثنا أبو غسان ، قال : حدثني زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « لَتَتَّبِعَن سَنَنَ من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه » . فقلنا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال النبي ﷺ فن ؟^(١) » وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به . والمقصود من هذا الإخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهى عنها شرعاً ، مما يشابه أهل الكتاب قبلنا . إن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم ، حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً ، ولكنه تشبه فعله في الظاهر فعلهم ، كما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ؛ لثلاث نسايبه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذ ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالسكينة .

وهكذا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم^(٢)) . فكان الكفار يقولون للنبي ﷺ في كلامهم معه : راعنا - أى انظر إلينا ببصرك واسمع كلامنا ، ويقصدون بقولهم راعنا من الرعونة ، فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك ، وإن كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً . فقد روى الإمام أحمد والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزق تحت ظل رحى ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ، فليس للمسلم أن يتشبه بهم لافى أعيادهم ولا مواسمهم ولا فى عباداتهم ؛ لأن الله تعالى شرف هذه الأمة بخاتم الأنبياء ، الذى شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل ؛ الذى لو كان موسى بن عمران الذى أنزلت عليه التوراة ، وعيسى بن مريم الذى أنزل عليه الإنجيل - حين لم يكن لها شرع متبوع ، بل لو كانا موجودين ، بل وكل الأنبياء - لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهرة المشرفة المكرمة المعظمة . فإذا كان الله تعالى قد منّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يليق بنا أن نتشبه بقوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ؟ قد بدلوا دينهم وحرفوه وأولوه ، حتى صار كأنه غير ما شرع لهم أولاً . ثم هو بعد ذلك كله منسوخ ، والتمسك بالمنسوخ حرام ؛ لا يقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً ، ولا فرق بينه وبين الذى لم يشرع بالسكينة ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

[هربت أقر] - قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجلكم فى أجل من خلا من قبلكم من الأمم - كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى - كرجل استعمل عمالاً ، فقال : من يعمل لى إلى نصف

(١) هو استفهام إنكارى ، أى فن هم غير أولئك ؟ (٢) الآية : ١٠٤ من سورة البقرة .

النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فاتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى المغرب على قيراطين قيراطين. ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء. قال الله تعالى: هل ظلمتكم من حكم شيئاً؟ فقالوا - لا. قال: فإنه فضلى أوتيه من أشاء.»

وهذا الحديث فيه دليل على أن مدة هذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى ماضى من مدد الأمم قبلها، لقوله: إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس؛ فالماضى لا يعلمه إلا الله، كما أن الآتى لا يعلمه إلا هو، ولكنه قصير بالنسبة إلى ماسبق، ولا اطلاع لأحد على تحديد مابقى إلا الله عز وجل، كما قال الله تعالى: (لا يجليها لوقتها إلا هو^(١))، وقال: (يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها^(٢)) .

وما يذكره بعض الناس - من الحديث المشهور عند العامة - من أنه عليه السلام: لا يؤلف تحت الأرض - فليس له أصل في كتب الحديث. وورد فيه حديث: أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة، وفي صحته نظر. والمراد من هذا التشبيه بالعمال - تفاوت أجورهم، وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل وقتله، بل بأمور آخر معتبرة عند الله تعالى، وكَم من عمل قليل أجدى مالا يجديه العمل الكثير؛ هذه ليلة القدر - العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها. وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا في أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد - ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه من تمر. وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور. وقد برز في هذه المدة التي هي ثلاث وعشرون سنة في العلوم النافعة والأعمال الصالحة - على سائر الأنبياء قبله، حتى على نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويعمل بطاعة الله ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً. صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها - ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمتها؛ كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويفغر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم^(٣)) .

(١) الآية: ١٨٧ من سورة الأعراف (٢) الآيات: ٤٢ - ٤٤ من آخر سورة التازعات.

(٣) الآيات: آخر سورة الحديد.

فصل

وأخبار بني إسرائيل كثيرة جداً في الكتاب والسنة النبوية . ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ، ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبدالله البخاري في هذا الكتاب ، ففيه مقنع وكفاية وهو تذكرة وأنموذج لهذا الباب والله أعلم . وأما الأخبار الإسرائيلية فيما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين - فكثيرة جداً ، ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع ، وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصاص - مكذوب مفترى ، وضعه زنادقتهم وضلالهم ، وهي ثلاثة أقسام : منها ما هو صحيح لموافقته ما قصه الله في كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ ، ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله ، ومنها ما يتمل الصدق والكذب . فهذا الذي أمرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه ؛ كما ثبت في الصحيح : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » . وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » .

ذكر تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام . وكانت كما قال الله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ^(١)) ، وقال تعالى : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً ^(٢)) وقال تعالى : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياءً وذكرى للمتقين ^(٣)) ، وقال تعالى : (وآتيناها الكتاب المستبين * وهديناها الصراط المستقيم ^(٤)) ، وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ^(٥)) فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان ، ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها ؛ كما قال الله تعالى : (وإن منهم لفرقة بلعون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ^(٦)) فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها ، وهذا مالا خلاف فيه بين العلماء ؛ وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد ، كما بدلوا حكم

(٢) الآية : ٩١ من سورة الأنعام

(١) الآية : ١٥٤ من سورة الأنعام

(٤) الآيات : ١١٧ ، ١١٨ من سورة الصافات

(٣) الآية : ٤٨ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية : ٧٨ من سورة آل عمران .

(٥) الآية : ٤٤ من سورة المائدة

الرجم بالجلد والتجميم^(١) مع بقاء لفظ الرجم فيها . وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والضعيف .

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون بأنها جميعها بدلت ، وقال آخرون لم تبدل واحتجوا بقوله تعالى : (وكيف يحكونك وعندم التوراة فيها حكم الله) ، وقوله : (الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات . . . الآية) ، وبقوله : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) ، وبقصة الرجم ؛ فإنهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر ، وفي صحيح مسلم عن البراء بن عازب وجابر بن عبد الله ، وفي السنن عن أبي هريرة وغيره ، لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في قصة اليهودى واليهودية اللذين زنيا فقال لهم : « ماتجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا فنضحهم ويجلدون . فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة ، فلما جاؤا بها جعلوا يقرءونها ويكتمون آية الرجم التي فيها ، ووضع عبد الله بن صور يايده على آية الرجم ، وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له رسول الله ﷺ : « ارفع يدك يا أعور » ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فأمر رسول الله ﷺ برجمها وقال : « اللهم إني أول من أحيأ أمرك إذ أماتوه » . وعند أبي داود أنهم لما جاؤا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك . وذكر بعضهم : أنه قام لها ، ولم أقف على إسناده والله أعلم .

وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم : أن التوراة انقطع تواترها في زمن بخت نصر ولم يبق من يحفظها إلا العزيز . ثم العزيز إن كان نبياً فهو معصوم ، والتواتر إلى المعصوم يكفي ، اللهم إلا أن يقال إنها لم تتواتر إليه . لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى ، وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة . فلو تكن صحيحة معمولا بها - لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون . ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء ، منكرأ على اليهود في قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يمتقدون صحته عندهم ، وأنهم مأمورون به حتما - إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ وهم يعاندون ما جاء به ، لكن لما كان في زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتجميم المصادم لما أمر الله به حتما ، وقالوا إن حكمكم بالجلد والتجميم فاقبلوه ، وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عند الله يوم القيامة ، وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم - فاحذروا أن تقبلوا منه ، فأنكر الله تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد ، الذي إنما حملهم عليه الغرض الفاسد وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال : (وكيف يحكونك وعندم التوراة فيها حكم الله ثم يقولون من بعد ذلك وماؤانك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادرا والرابانيون والأحبار بما استحفظوا

(١) هو تسويد الوجوه باللحم بضم الحاء وفتح الميم - وهو النجم ، قيل كانا يحملان على دابة بالتخالف في الركوبه ،

من كتاب الله . . . الآية^(١) . ولهذا حكم بالرجم ، وقال : « اللهم إني أول من أحيأ أمرك إذ أماتوه » . وسألهم : ما حملهم على هذا ، ولم تركوا أمر الله الذي بأيديهم ؟ فقالوا : إن الزنا قد كثرت في أشرافنا ، ولم يمكننا أن نقيمه عليهم ، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا ، فقلنا تعالوا إلى أمر نصف نفعله مع الشريف والوضيع ، فاهطلحننا على الجلد والتعميم . فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل . وهذا إنما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم ، كما دل عليه الحديث المتفق عليه . فلهذا قال من قال هذا من الناس - إنه لم يقع تبديلهم إلا في المعاني ، وإن الألفاظ باقية وهي حجة عليهم ؛ إذ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه - لقادهم ذلك إلى اتباع الحق ، ومتابعة الرسول محمد ﷺ . كما قال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . . . الآية^(٢)) ، وقال تعالى : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة . . . الآية^(٣)) ، وقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . . . الآية^(٤)) . وهذا المذهب وهو القول بأن التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها - حكاه البخاري عن ابن عباس في آخر كتابه الصحيح وقرر عليه ولم يردده . وحكاه العلامة نجر الدين الرازي في تفسيره عن أكثر المتكلمين .

لبس للجنب لمس التوراة :

ذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب لمس التوراة وهو محدث ، وحكاه الحنطلي في فتاويه عن بعض أصحاب الشافعي وهو غريب جداً . وذهب آخرون من العلماء إلى التوسط في هذين القولين منهم شيخنا الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله ، فقال : أما من ذهب إلى أنها كلها مبدلة من أولها إلى آخرها ، ولم يبق منها حرف إلا بدلوه - فهذا بعيد ، وكذا من قال لم يبدل شيء منها بالسكينة بعيد أيضاً . والحق أنه دخاها تبديل وتغيير ، وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص ، كما تصرفوا في معانيها . وهذا معلوم عند التأمل ، ولبسطه موضع آخر والله أعلم . كما في قوله في قصة الذبيح : اذبح ابنك وحيدك - وفي نسخة بكرك - إسحاق ، فلفظة إسحاق مقحمة مزيدة بلا مسرية ؛ لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل ؛ لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة ، فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق ؟ وإنما حملهم على ذلك حسد العرب أن يكون إسماعيل هو الذبيح ، فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم ، فزادوا ذلك في كتاب الله افتراء على الله وعلى رسوله ﷺ وقد اغتر بهذه الزيادة خلق كثير من السلف

(١) الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ من سورة المائدة (٢) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٣) الآية : ٦٦ من سورة المائدة : (٤) الآية : ١١ من سورة المائدة .

والخلف ، ووافقهم على أن الديبج إسحاق ، والصحيح أن الديبج إسماعيل كما قدمنا والله أعلم . وهكذا في توراة السامرة في العشر الكلمات زيادة الأمر بالتوجه إلى الطور في الصلاة ، وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى .

وهكذا يوجد في الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً ، وفيه أشياء مزبدة ملحقة فيه وليست منه ، والله أعلم . قلت : وأما ما بأيديهم من التوراة المعربة فلا يشك عاقل في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها ، وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البين الواضح ، وفيها من الكذب البين والخطأ الفاحش شيء كثير جداً ، فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأفلامهم - فلا اطلاع لنا عليه ، والمظنون بهم أنهم كذبة خونة ، يكثرون الفرية على الله ورسوله وكتبه .

وأما النصارى فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومتى ويوحنا - أشد اختلافاً ، وأكثرت زيادة ونقصاً ، وأغش تفاوتاً من التوراة . وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيء قد شرعوه لأنفسهم ؛ فمن ذلك صلاحهم إلى الشرق ، وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة . وهكذا تصويرهم كنفائسهم ، وتركهم الختان ، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع ، وزيادته إلى خمسين يوماً ، وأكلهم الخنزير ، ووضعهم الأمانة الكبيرة وإنما هي الخيانة الخفية ، والرهبانية وهي ترك التزويج لمن أراد التعبد وتحريمه عليه ، وكتبهم القوانين التي وضعتها لهم الأسافرة الثلاثمائة والثمانية عشر . فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطن بناني القسطنطينية ، وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة ، وكان أبوه أحد ملوك الروم ، ونزوح أمه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حران ، وكانت نصرانية على دين الرهايين المتقدمين ، فلما ولد لها منه قسطنطين المذكور ، تعلم الفلاسفة وبهر فيها ، وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أمه عليها ، فعظم القائلين بها بعض الشيء وهو على اعتقاد الفلاسفة . فلما مات أبوه واستقل هو في المملكة - سار في رعيته سيرة عادلة ، فأحبه الناس وساد فيهم ، وغلب على ملك الشام بأمره مع الجزيرة ، وعظم شأنه وكان أول القياصرة .

ثم اتفق اختلاف في زمانه بين النصارى ، ومنازعة بين بترك الإسكندرية ا كصندروس - وبين رجل من علمائهم يقال له عبد الله بن أريوس ؛ فذهب ا كصندروس إلى أن عيسى بن الله ، تعالى الله عن قوله . وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ، واتبعه على هذا طائفة من النصارى . واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم ، ومنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه ، فذهب يستعدى على ا كصندروس وأصحابه الملك قسطنطين ، فسأله الملك عن مقاتله ، فمرض عليه عبد الله بن أريوس ما يقول في المسيح ؛ من أنه عبد الله ورسوله ، واحتج على ذلك فقال إليه وجنح إلى

قوله ، فقال له قائلون : ينبغي أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه ، فأمر الملك بإحضاره ، وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف وكل من عنده في دين النصرانية ، وجمع البتاركة الأربعة من القدس وأنطاكية ورومية والإسكندرية . فيقال إنهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفي أسقف ، فجمعهم في مجلس واحد ، وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة ، وهم مختلفون اختلافاً متبايناً منتشرأ جداً : فمنهم الشذمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقيين عليها ؛ فهؤلاء خمسون على مقالة ، وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى ، وهؤلاء عشرة على مقالة ، وأربعون على أخرى ، ومائة على مقالة ، ومائتان على مقالة ، وطائفة على مقالة ابن أربوس ، وجماعة على مقالة أخرى .

فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين ، مع أنه ساء الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين . فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم ، فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، قد اجتمعوا على مقالة أكسندروس ، ولم يجد طائفة باغت عدتهم ، فقال هؤلاء أولى بنصر قولهم ؛ لأنهم أكثر الفرق ، فاجتمع بهم خصوصاً ، ووضع سيفه وخاتمه إليهم ، وقال إنى رأيتم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقاتلتكم هذه ، فأنا أنصرها وذهب ، فسجدوا له ، وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً في الأحكام ، وأن تكون الصلاة إلى الشرق ؛ لأنها مطلع الكواكب النيرة ، وأن يصوروا في كنائسهم صوراً لها جثت ، على أن تكون في الحيطان . فلما توافقوا على ذلك أخذ في نصرهم ، وإظهار كلمتهم ، وإقامة مقالاتهم ، وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله . فظهر أصحابه بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم ، وأمر ببناء الكنائس على دينهم - وهم الملكية نسبة إلى دين الملك . فبنى في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرى - أزيد من اثنتي عشرة ألف كنيسة ، واعتنى الملك ببناء بيت لحم - يعني على مكان مولد المسيح ، وبنيت أمه هيلانة قامة^(١) بيت المقدس على مكان المصلوب الذي زعمت اليهود والنصارى - بحملهم وقلة علمهم - أنه المسيح عليه الصلاة والسلام ، ويقال إنه قتل من أعداء أولئك ، وخذلهم الأخاديد في الأرض ، وأجج فيها النار وأحرقهم بها ، كما ذكرنا في سورة البروج .

وعظم دين النصرانية وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين ، وقد أفسده عليهم فساداً لا إصلاح له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده ، وكثرت أعيادهم بسبب عظائمهم وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم ، وتفاقم كفرهم وغلظت مصيبتهم وتخلد ضلالهم وعظم وبالهم ، ولم يهد الله قلوبهم ولا أصاح بالهم بل صرف قلوبهم عن الحق وأمال نفوسهم عن الاستقامة . ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين في قضية النسبورية واليعقوبية وكل فرقة من هؤلاء تكفر الأخرى وتعقد تخالفاً في نار جهنم ولا يرى مجامعهم في المعابد والكنائس ، وكلهم يقول بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة ، ولكن بينهم اختلاف

(١) القامة : الدير . قال في الفاموس : القامة - نصرانية بنت ديراً بالقدس فسمى باسمها .

في الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت ، هل تدرعه أو حل فيه أو أحد به ، واختلافهم في ذلك شديد ، وكفرهم بسببه غليظ ، وكلهم على الباطل إلا من قال من الأريوسية - أصحاب عبد الله بن أريوس : إن المسيح عبد الله ورسوله ، وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، كما يقول المسلمون فيه سواء . ولكن لما استقر أمر الأريوسية على هذه المقالة تسلط عليهم الفرق الثلاثة بالإبعاد والطرده حتى قتلوا ، فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما يعلم ، والله أعلم .

كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . . . الآية)^(١) وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب وونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)^(٢) .

وقد روى ابن حبان في صحيحه ، وابن مردويه في تفسيره ، وغيرهما من طريق إبراهيم بن هشام عن يحيى بن محمد الغساني الشامي - وقد تكلموا فيه - حدثني أبي عن جدى عن أبي إدريس عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ! كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قلت : يا رسول الله ! كم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفيرة ، قلت : يا رسول الله ! من كان أولهم ؟ قال : آدم ، قلت : يا رسول الله نبي مرسل ؟ قال : نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً - ثم قال : يا أبا ذر ! أربعة سريانيون : آدم وشيث ونوح وخنوخ - وهو إدريس - وهو أول من خط بالقلم ، وأربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ، وأول نبي من بني إسرائيل - موسى ، وآخرهم عيسى ، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك » .

وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزى في الموضوعات ، وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معان بن رفاعة عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : قلت يا رسول الله ! كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً » ، وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف ، فيه ثلاثة من الضعفاء : معان وشيخه وشيخه . وقد قال الحافظ أبو يلى الموصلى : حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهري البصرى ، حدثنا مكى بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عبيدة الزيدى عن يزيد الرقاشى عن أنس

(١) الآية : ٢٤٣ من سورة البقرة . (٢) الآيات : ١٦٣ - ١٦٥ من سورة النساء .

ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله ثمانية آلاف نبي ؛ أربعة آلاف إلى بني إسرائيل ، وأربعة آلاف إلى سائر الناس » ، موسى وشيخه ضيمفان أيضاً . وقال أبو يعلى أيضاً : حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدي ، حدثنا معبد بن خالد الأنصاري عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثم كان عيسى ، ثم كنت أنا » . يزيد الرقاشي ضعيف . وقد رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا أحمد بن طارق ، حدثنا مسلم بن خالد ، حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر عن صفوان ابن سليم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي ، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل » ، وهذا إسناد لا بأس به لكنني لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا ، والله أعلم .

[صريح آخر] - قال عبد الله بن الإمام أحمد : وجدت في كتاب أبي بخطه حدثني عبد المتعالى بن عبد الوهاب ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي ، حدثنا مجالد عن أبي الوداك قال قال أبو سعيد : هل تقرأ الخوارج بالدجال ؟ قال - قلت لا . فقال قال رسول الله ﷺ : « إني خاتم ألف نبي أو أكثر ، وما بعث الله نبياً يتبع إلا وحذر أمته منه ، وإني قد بين لي فيه ما لم يبين لأحد منهم ، وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفي ؛ كأنها نخامة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء ، وصورة النار سوداء تدخن » . وهذا حديث غريب وقد روى عن جابر بن عبد الله فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : « إني خاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أندر قومه الدجال ، وإنه قد تبين لي فيه ما لم يتبين لأحد منهم ، وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور » . وهذا إسناد حسن ، وهو محمول على ذكر عدد من أندر قومه الدجال من الأنبياء ، لكن في الحديث الآخر : « مامن نبي إلا وقد أندر أمته الدجال » ، والله أعلم .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فرات قال : سمعت أبا حازم قال : قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعتة يحدث عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون » . قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « فوا بيعة الأول فالأول أعظوم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » . وكذا رواه مسلم عن بندار ، ومن وجه آخر عن فرات به نحوه .

وقال البخاري : حدثنا عمرو بن حفص ، حدثنا أبي حدثني الأعمش ، حدثني شقيق قال : قال عبد الله - هو ابن مسعود - كأي أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو

يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . رواه مسلم من حديث الأعمش به نحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم عن رجل عن أبي سعيد الخدري قال : وضع رجل يده اليمنى على النبي ﷺ فقال : والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك ، فقال النبي ﷺ : « إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر ، إن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالتمل حتى يقتله ، وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباء فيجوبها^(١) ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء » ، هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل عن أبي سعيد . وقد رواه ابن ماجه عن دحيم عن ابن أبي فديك ، عن هشام بن سعد عن زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد فذكره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان بن عاصم بن أبي النجود عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عليه ، ولا يزال البلاء بالمعبد حتى يمشی على الأرض وما عليه خطيئة » .

ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث عاصم بن أبي النجود . وقال الترمذى حسن صحيح وتقدم في الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ؛ ديننا واحد وأمهاتنا شتى » . والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ونسخ بعضها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين - إلا أن كل نبي بعثه الله فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد ، أن يعبد الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون^(٢)) . وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون^(٣)) ؟ وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة... الآية^(٤)) . فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأمهات متفرقات ؛ فالأب بمنزلة الدين وهو التوحيد ، والأمهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها . قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) ، وقال : (لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه^(٥)) وقال : (ولكل وجهة هو موليها^(٦)) على أحد القولين في تفسيرها .

(١) أى يعمل لها حياً كأنها قيص (٢) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء (٣) الآية : ٤٥ من سورة الزخرف (٤) الآية : ٣٦ من سورة النحل . (٥) الآية : ٦٧ من سورة الحج (٦) الآية : ١٤٨ من سورة البقرة .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاتها - إلا أن الجميع آسرة بعبادة الله وحده لا شريك له ، وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء ، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة ، كما قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ^(١)) ، وقال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ^(٢)) وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا الذين هادوا . . . الآية ^(٣)) . فدين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو الإخلاص له وحده دون ماسواه . والإحسان أن يكون على الوجه المشروع في ذلك الوقت للمأمور به . ولهذا لا يقبل الله من أحد عملاً بعد أن بعث محمداً ﷺ على ما شرعه له ، كما قال تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ^(٤)) وقال تعالى : (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ^(٥)) ، وقال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . وقال رسول الله ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . قيل أراد العرب والعجم ، وقيل الإنس والجن . وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضلتم » . والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

والمقصود : أن إخوة العلات - أن يكونوا من أب واحد وأمهم شتى ؛ مأخوذ من شرب العلل بعد النهل . وأما إخوة الأخياف فمعكس هذا : أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى . وإخوة الأعيان هم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وفي الحديث الآخر : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركنا فهو صدقة » ، وهذا من خصائص الأنبياء ؛ أنهم لا يورثون ، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلقة عنهم ، ولأن توكلهم على الله عز وجل في ذراريتهم أعظم وأشد وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم مالاً يستأثرون به عن الناس ، بل يكون جميع ما تركوه صدقة لفقراء الناس ومحاوليهم وذو خلتهم .

وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين - في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير ؛ حيث ذكره الأئمة من المصنفين اقتداء بالإمام أبي عبد الله الشافعي ، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن : أن عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس في ظل الكعبة فسمعتة يقول : بينا نحن مع رسول

(١) الآية : ٨٥ من سورة آل عمران (٢) الآيات : ١٣٠ - ١٣٢ من سورة البقرة
(٣) الآية : ٤٤ من سورة المائدة (٤) الآية : ١٥٨ من سورة الأعراف (٥) الآية : ١٩ من سورة الأنعام

الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلاً فمنا من بضرب خباءه ومنا من هو في جِشْره^(١) ، ومنا من ينتضل^(٢) ؛ إذ نادى مناديه : الصلاة جامعة ، قال : فاجتمعنا قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وحذرهم ما يعلمه شرأ لهم . وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها ، وإن آخرها سيصيبها بلاء شديد وأمور ينكرونها ، تجيء فتن يريق بعضها بعضاً ، تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ، ثم تنكشف . ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه ، ثم تنكشف . فمن سره منكم أن يزحزح عن النار ، وأن يدخل الجنة - فلندركه موته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن باع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه - فليطمعه ما استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » . قال فأدخلت رأسي من بين الناس فقلت أنشدك بالله ! أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال فأشار بيده إلى أذنيه وقال : سمعته أذناي ووعاه قلبي ، قال فقلت : هذا ابن عمك - يعني معاوية - يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن نقتل أنفسنا . وقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل^(٣)) . قال فجمع يديه فوضعهما على جبهته ثم نكس هنيهة ، ثم رفع رأسه فقال : أطعه في طاعة الله وأعصه في معصية الله . ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن الأعمش به ، وقال فيه : « أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم ، وينذرهم ما يعلمه شرأ لهم » ، وذكر تمامه بنحوه . وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ، ورواه مسلم أيضاً من حديث الشعبي عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ بنحوه .

ذكر أخبار العرب

قيل إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام . والصحيح المشهور : أن العرب العاربة قبل إسماعيل ، وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجُرهم والعماليق وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله - كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام ، وفي زمانه أيضاً . فأما العرب المستعربة - وهم عرب الحجاز - فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وأما عرب اليمن - وهم حمير - فالمشهور أنهم من قحطان ، واسمه مهزم قاله ابن ماكولا ، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة : قحطان وقاحط ومقحط وفالغ ، وقحطان بن هود ، وقيل هو هود ، وقيل هود أخوه ، وقيل من ذريته ، وقيل إن قحطان من سلالة إسماعيل . حكاه ابن إسحاق وغيره ؛ فقال بعضهم هو قحطان بن تيمن ابن قيدير بن إسماعيل ، وقيل غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل ، والله أعلم .

(١) الجسر : لإخراج الدواب للرعى (٢) انتضل النوم : تفاخروا (٣) الآية : ٢٩ من سورة النساء .

رقد ترجم البخارى فى صحيحه على ذلك فقال : [باب نسبة اليمين الى إسماعيل عليه السلام] - حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى عن يزيد بن أبى عبيد ، حدثنا سلمة رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتفاضلون^(١) بالسيوف فقال : « ارموا بنى إسماعيل وأنا مع بنى فلان - لأحد الفريقين - فأمسكوا بأيديهم فقال : ما لكم ؟ قالوا وكيف نرمى وأنت مع بنى فلان ؟ فقال ارموا وأنا معكم كلكم » . انفرد به البخارى ، وفى بعض ألفاظه « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع^(٢) ، فأمسك القوم ، فقال ارموا وأنا معكم كلكم » . قال البخارى : وأسلم بن أفضى ابن حارثة بن عمرو بن عامر - من خزاعة ، يعنى وخزاعة فرقة بمن كان تمزق من قبائل سبأ ، حين أرسل الله عليهم سيل العرم كما سيأتى بيانه ، وكانت الأوس والخزرج منهم ، وقد قال لهم ﷺ : ارموا بنى إسماعيل فدل على أنهم من سلالة . وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب ، ولكنه تأويل بعيد ؛ إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل . لکن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمين ، وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل . وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية وعدنانية ؛ فالقحطانية شعبان : سبأ وحضر موت ، والعدنانية شعبان أيضاً : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان .

والشعب الخامس - وهم قضاة - مختلف فيهم ؛ فقليل إنهم عدنانيون ، قال ابن عبد البر وعليه الأكثرون ، ويروى هذا عن ابن عباس وابن عمر وجبير بن مطعم ، وهو اختيار الزبير بن بكار وعمه مصعب الزبيرى وابن هشام . وقد ورد فى حديث قضاة بن معد ولكنه لا يصح وقاله ابن عبد البر وغيره . ويقال إنهم لن يزالوا فى جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان ، فلما كان فى زمن خالد بن يزيد بن معاوية - وكانوا أخواله - انتسبوا إلى قحطان ، فقال فى ذلك أعشى بن ثعلبة فى قصيدة له :

أبلغ قضاة فى القرطاس أنهم لولا خلائف آل الله ماعتقوا
 قالت قضاة إنا من ذوى يمين والله يعلم ما نروا وما صدقوا
 قد ادعوا والدأ ما نال أمهم قد يعلمون ولكن ذلك الفرق

وقد ذكر أبو عمرو السهيلي أيضاً من شعر العرب - ما فيه إبداع فى تفسير قضاة فى انتسابهم إلى اليمين ، والله أعلم . والقول الثانى : أنهم من قحطان ، وهو قول ابن إسحاق والسكبي وطائفة

(١) يتبارون ويتراون ، والتناضل : التنازل .

(٢) الأدرع - لقبه . واسمه : حجن وهو صحابى معروف .

من أهل النسب . قال ابن إسحاق : وهو قضاة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد قال بعض شعرائهم - وهو عمرو بن مرة صحابي له حديثان :

يا أيها الداعي ادعنا وأبشر وكن قضاعيًا ولا تُنْزِر
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر في الحجر المنقوش تحت المنبر

قال بعض أهل النسب : هو قضاة بن مالك بن عمر بن مرة بن زيد بن حمير ، وقال ابن لهيعة عن معروف بن سويد عن أبي عشانة عن ابن يومن عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ! أما نحن من معد ؟ قال - لا . قلت فمن نحن ؟ قال « أتم قضاة بن مالك بن حمير » قال أبو عمر بن عبد البر : ولا يختلفون أن جهينة بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن إلخاف بن قضاة - قبيلة عقبة بن عامر الجهني ، فعلى هذا قضاة في اليمن في حمير بن سبأ . وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير ابن بكار وغيره ؛ من أن قضاة امرأة من جرم ، تزوجها مالك بن حمير فولدت له قضاة ، ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير . وزعم بعضهم أنه كان حملًا فنسب إلى زوج أمه ، كما كانت عادة كثير منهم ؛ ينسبون الرجل إلى زوج أمه ، والله أعلم .

وقال محمد بن سلام البصري النسابة : العرب ثلاثة جرائم : العدنانية والقحطانية وقضاة . قيل له فأيهما أكثر؟ العدنانية أو القحطانية؟ فقال : ماشاءت قضاة أن تيامنت فالقحطانية أكثر ، وإن تعددت فالعدنانية أكثر . وهذا يدل على أنهم يتلومون في نسبهم . فإن صح حديث ابن لهيعة المقدم فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم . وقد قال الله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ^(١)) .

قال علماء النسب - يقال : شعوب ، ثم قبائل ، ثم عشائر ، ثم بطون ، ثم أنخاذ ، ثم فصائل ، ثم عشائر . والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء . ولنبدأ أولاً بذكر القحطانية ، ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية ، وما كان من أمر الجاهلية ؛ ليكون ذلك متصلًا بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

وقد قال البخاري : [باب ذكر قحطان] حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي المغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » ، وكذا رواه مسلم عن قتيبة عن الدراوردي عن ثور بن زيد به .

قال السهيلي : وتخطان أول من قبل له : آية الالن ، وأول من قبل له : أنعم صباحاً .
وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة عن جرير ، حدثني راشد بن سعد المقرئ عن أبي حنيفة عن
ذو الجب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم فجعله في
قريش ، وسى ع ودإلى هم » . قال عبد الله : كان هذا في كتاب أبي ، وحيث حدثنا به تكلم
به على الاستواء ، يعنى : وسيهود إليهم .

قصة سبأ

قال الله تعالى : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم
واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين
ذواتى أكل خبط وأثل وثىء من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور *
وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً
آمنين * فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن في ذلك
لآيات لكل صبار شكور ^(١)) .

قال علماء النسب ومنهم محمد بن إسحق : اسم سبأ - عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن
قحطان ، قالوا وكان أول من سبى من العرب فسمى سبأ لذلك ، وكان يقال له الرائش ؛ لأنه كان يعطى
الناس الأموال من متاعه ^(٢) . قال السهيلي : ويقال إنه أول من تتوج ، وذكر بعضهم أنه كان مسلماً
وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله ﷺ ، فمن ذلك قوله :

سيملك بعدنا ملكاً عظيماً	نبي لا يرخس في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك	يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوك	يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي	تقى مخبت خير الأنام
يسمى « أحداً » ياليت أنى	أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى	بكل مدحج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه	ومن يلقاه يبلغه سلامى

حكاه ابن دحية في كتابه : [التنوير في مولد البشير النذير] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن وعله قال : سمعت
عبد الله بن العباس يقول : إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ماهو ؟ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال :

(١) الآيات : ١٥ - ١٩ من سورة سبأ (٢) في التاموس . راسخ الصديق : أطعمه وكساه وأصلح حاله .

« بل هو رجل ولد له عشرة^(١) فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ؛ فأما اليمانيون : فمُدْحِج وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان . »
وقد ذكرنا في التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفي هو السائل عن ذلك ، كما استقصينا طرق هذا الحديث وألغاه هناك ، والله الحمد .

والمقصود : أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن - واحدهم تبع ، وكان لملوكم تيجان يلبسونها وقت الحكم ، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك . وكانت العرب تسمى كل من ملك اليمن مع الشجر وحضرموت - تُبعاً ؛ كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة - قَيْصر ، ومن ملك الفرس - كسرى ، ومن ملك مصر - فرعون ، ومن ملك الحبشة - النجاشي ، ومن ملك الهند - بطليموس . وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن - بلقيس ، وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام ، وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارة ، وثمار وزروع كثيرة . وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد ، فلما بدلوا نعمة الله كفوفاً - أحلوا قومهم دار البوار .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً ، وزعم السدي أنه أرسل إليهم اثني عشر ألف نبي ، فأنه أعلم . والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، وسجدوا للشمس من دون الله ، وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً ، واستمر ذلك فيهم - أرسل الله عليهم سبل العرم ، كما قال تعالى : (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حنط وأثل وشيء من سدرٍ قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) .

ذكر غير واحد من علماء الساف والخلف من المفسرين وغيرهم : أن سد مأرب كان صنعته - أن المياه كانت تجري من بين جبابين ، فعمدوا في قديم الزمان فسدوا ما بينهما بيناء محكم جداً ، حتى ارتفع الماء ، فحكهم على أعالي الجبابين ، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة . ويقال كان أول من بناه - سبأ بن يعرب ، وسلط إليه سبعين وادياً فدأ إليه ، وجعل له ثلاثين فرضة^(٢) يخرج منها الماء ، ومات ولم يكمل بناؤه فكلمته حمير بعده ، وكان اتساعه فرسخاً في فرسخ ، وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة ؛ حتى ذكر قتادة وغيره : أن المرأة كانت تمر بالمكبل على رأسها فيمتلىء من التمار ، مما يتساقط فيه من نضجه وكثرته . وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية ؛ لصحة هوائهم وطيب فنائهم ، كما قال تعالى : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان

(١) المراد : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه .

(٢) أى ثلثة وثمجة .

عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) ، وكما قال تعالى : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ^(١)) .

فلما عبدوا غير الله ويطروا نعمته ، وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم ، وطيب ما بينها من البسانين ، وأمن الطرقات - سألوا أن يباعد بين أسفارهم ، وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب . وطلبوا أن يبدلوا بالخير شراً ، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والساوى - البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل ، فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة ؛ بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد ؛ كما قال تعالى : (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم) . قال غير واحد : أرسل الله على أصل السد الفأر - وهو الجرذ ، ويقال الخلد ^(٢) . فلما فطنوا لذلك أرسدوا عندها السنائير فلم تكن شيئاً إذ قد حُمَّ القدر ولم ينفع الحذر ، كلالا ووزر . فلما تحكم في أصله الفساد سقط وانهار ، فسلك الماء القرار ، فقطعت تلك الجداول والأنهار ، وانقطعت تلك النمار ، ومادت تلك الزروع والأشجار ، وتبدلوا بعدها بردى الأشجار والأثمار ، كما قال العريز الجبار : (وبدلناهم بحنقيهم جنات ذواتى أكل خبط وأثل) . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو الأراك وثمره البرير ، وأثل وهو الطرفاء ، وقيل يشبهه - وهو حطب لا ثمر له (وشيء من سدر قليل) وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلاً ، مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه ، كما يقال في المثل : لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لاسهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى . ولهذا قال تعالى : (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا ، وكذب رسلنا وخالف أمرنا وانتبهك محارمنا . وقال تعالى : (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) ، وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم - احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها ، فتفرقوا في غور البلاد ونجدها أيدي سبأ شذر مذر ^(٣) ، فنزلت طوائف منهم الحجاز ؛ ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ومنهم أهل المدينة المنورة اليوم فكانوا أول من سكنها ، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير ، فخالقوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ونزلت طائفة أخرى منهم الشام ، وهم الذين تنصروا فيما بعد ؛ وهم غسان ، وعاملة ، وبهراء ، ونخلم ، وجذام ، وتنوخ ، وتغلب ، وغيرهم . وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشياطين رضى الله عنهم .

قال محمد بن إسحاق : حدثني أبو عبيدة قال : قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة - وهو ميمون

ابن قيس :

(١) الآية : ٧ من سورة إبراهيم (٢) الخلد : ضرب من القيرة ، وضرب من الجرذ أعمى .

(٣) أى تفرقوا وذهبوا في كل وجه ، ومذر - اتباع لشذر .

وفي ذاك للوئسى أسوة . ومأرب عفى عليها العرم
 رجام بنته لهم حمير إذا جاء مواره^(١) لم يرم
 فأروى الزروع وأعنايها على سمة ماؤهم إذ قسم
 فصاروا أبادى لا يقدرؤ ن على شرب طفل إذا ما فطم

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة : أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم - عمرو بن عامر اللخمي ، ولحم هو ابن عدى بن الحارث بن مرة بن أزد بن زيد بن معمر بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال لحم بن عدى بن عمرو بن سبأ ، قاله ابن هشام . قال ابن إسحاق : وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدثني به أبو زيد الأنصاري - أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء ، فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ، فلم أنه لابقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النقلة عن اليمن ، فكاد قومه ؛ فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه - أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي ، وعرض أمواله ، فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتتموا غضبة عمرو فاشترؤا منه أمواله ، وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لانتخلف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين برنادون البلدان ، فخار بهم عك فكانت حربهم سجالات . ففي ذلك قال عباس بن مرداس :

وعك بن عدنان الذين تابعوا بفسان حتى طردوا كل مطرد^(٢)

قال فارتحلوا عنهم ، فتفرقوا في البلاد ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر - الشام ، ونزل الأوس والحزرج - يثرب ، ونزلت خزاعة - مرأ ، ونزلت أزد السراة - السراة ، ونزلت أزد عمان - عمان . ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات . وقد روى عن السدي قريش من هذا . وعن محمد بن إسحاق في روايته : أن عمرو بن عامر كان كاهناً ، وقال غيره كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة ، فأخبرت بقرب هلاك بلادهم ، وكانهم رأوا شاهد ذلك في الغار الذي سلط على سدوم ففعلوا ما فعلوا ، والله أعلم . وقد ذكرت قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبي حاتم - في التفسير .

(١) المراد : إذا سال ماؤه - لم يسله السد حتى يأخذوا منه ما يحتاجون إليه .

(٢) هذا البيت من قصيدة له يفخر بعك .

فصل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم ، بل أقام أكثرهم بها ، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد ، فتفرقوا في البلاد . وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس : أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن ، بل إنما تشاءم منهم أربعة ، وبقي باليمن ستة ، وهم : مذحج وكندة وأنمار والأشعريون . وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير ، فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن ، واستمر فيهم الملك والتبابعة ، حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميره - أبرهة وأرباط - نحواً من سبعمين سنة ثم استرجعه سيف بن ذى يزن الحميري ، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل كما سنذكره مفصلاً قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن - علياً وخالد بن الوليد ، ثم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ، وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبينون لهم الحجج ، ثم تغلب على اليمن الأسود العنسي وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها ، فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى .

قصة ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر

هو المتقدم ذكره اللخمي ، كذا ذكره ابن إسحاق . وقال السهيلي : وتساب اليمن تقول : نصر بن ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن نخم ، وقال الزبير بن بكار : ربيعة بن نصر بن مالك بن شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن نخم . ونخم أخو جذام ، وسمى نخماً ؛ لأنه نخم أخاه - أي لطمه فعضه الآخر في يده فجذمها فسمى جذاماً . وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة ، وخبره مع شق وسطيح الكاهنين ، وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ - معروف . أما سطيح : فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن غسان ، وأما شق : فهو ابن صعيب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار . ومنهم من يقول : أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو ابن الفوث بن نابت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال إن سطيحاً كان لأعضاء له ، وإنما كان مثل السطيحة^(١) ووجهه في صدره ، وكان إذا غضب انتفخ وجلس . وكان شق نصف إنسان ، ويقال إن خالد بن عبد الله القسري كان سلالته . وذكر السهيلي أنهما ولدا في يوم واحد ، وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ، ويقال إنها تفتت في فم كل منهما فورث الكهانة عنها ، وهي امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره ، والله أعلم .

(١) السطيحة : المزادة .

قال محمد بن إسحاق : وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هائلة حالته وفضّح بها ، فلم يدع كاهنًا ولا ساحرًا ولا عائفًا ولا منجمًا من أهل مملكته - إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتي وفضّعت بها فأخبروني بها وتأويلها ، فقالوا أقصصها علينا نخبرك بتأويلها ، فقال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها ؛ لأنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شق وسطيح ، فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانك بما سألت عنه . فبعث إليهما ، فقدم إليه سطيح قبل شق فقال له : إني قد رأيت رؤيا هالتي وفضّعت بها فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها ، فقال أفعل . رأيت حمة^(١) خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة^(٢) ، فأكلت منها كل ذات ججمة . فقال له الملك ما أخطأت منها شيئًا ياسطيح ؛ فما عندك في تأويلها ؟ قال : أحلف بما تبين الحرين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن ما بين أبين إلى جرش^(٣) فقال له الملك : ياسطيح إن هذا لنا لغاظ موجه فتى هو كائن ؟ أفي زمان أم بعده ؟ فقال لا وأبيك بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين . قال أفيدوم ذلك من سلطانهم أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هار بين . قال ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال يليه إرم ذى يزن ، يخرج عليهم من عدان ، فلا يترك منهم أحدًا باليمن . قال أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع ، قال ومن يقطعه ؟ قال نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلى . قال ومن هذا النبي ؟ قال رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يسكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال وهل الدهر ياسطيح من آخر ؟ قال : نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال أحق ما تخبرني ؟ قال نعم . والشقق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

قال : ثم قدم عليه شق فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان ؟ قال : نعم ، رأيت حمة خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة ، فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولها واحد ؛ إلا أن سطيحًا قال : وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات ججمة ، وقال شق : وقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة . فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئًا فما عندك في تأويلها ؟ فقال أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليعلبن على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران . فقال له الملك :

(١) قال في اللسان : الحم : الفحم والرماد وكل ما احترق من النار ، الواحدة حمة .

(٢) التهمة — بالتحريك : الأرض المتصوبة إلى البحر المنخفضة . ويتسكن الهاء — لغة في تهامة .

(٣) في القاموس — جرش بالتحريك : بلد بالأردن ، وكزفر - مخلاف باليمن .

وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجه فتى هو كائن؟ أفي زمانى أم بعده؟ قال لا - بل بعده بزمان ، ثم يستفقدكم منهم عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشد الهوان . قال : ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بدنى ولا مدن^(١) ، يخرج عليهم من بيت ذى يزن . قال أفيدوم ساطانه أم ينقطع؟ قال بل ينقطع برسول مرسل يأتى بالحق والعدل ، من أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل . قال وما يوم الفصل؟ قال يوم يجزى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، تسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع الناس فيه الميقات . يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات قال أحق ماتقول؟ قال : إى ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنباتك به لحق ما فيه أمض^(٢) .

قال ابن إسحاق : فوق فى نفس ربيعة بن نصر ما قالوا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرزاذ ، فأسكنهم الحيرة . قال ابن إسحاق : فن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى ، بن ربيعة بن نصر - يعنى الذى كان نائباً على الحيرة لملوك الأكامرة ، وكانت العرب تفد إليه وتمتدحه . وهذا الذى قاله محمد بن إسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر قاله أكثر الناس . وقد روى ابن إسحاق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جىء بسيف النعمان بن المنذر سأل جبير بن مطعم عنه ممن كان؟ فقال من أشلاء قنص بن معد بن عدنان . قال ابن إسحاق : فأنه أعلم أى ذلك كان .

قصة تبع أبى كرب تبان أسعد ملك اليمى مع أهل المدينة

وكيف أراد غزو البيت الحرام : ثم شرفه وعظمه وكساه الحلال ، فكان أول من كساه قال ابن إسحاق : فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمى كله إلى حسان بن « تبان أسعد^(٣) » أبى كرب ، وتبان أسعد تبع الآخر ابن ملكيكر بن زيد ، وزيد تبع الأول ابن عمرو ذى الأذعار ابن أبرهة ذى المنار بن الرائى بن عدى بن صيفى بن سبأ الأصغر بن كعب كهف الظلم بن زيد بن سهل ابن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير ابن أيمن بن الهاميسع بن العرنجج ، والعرنجج - هو جبير بن سبأ الأكبر بن يعرب بن يشجب بن قحطان . قال عبد الملك بن هشام : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال ابن إسحاق : وتبان أسعد أبو كرب هو الذى قدم المدينة وساق الخبرين من اليهود إلى اليمى ، وعمر البيت الحرام وكساه ، وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر ، وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة ، وكان قد مر بها فى بدأنه فلم يهجع أهلها ، وخاف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة ، فقدمها وهو مجمع لإخراجهما

(١) المدن : المقصر فى الأمر (٢) أى باطل ، أو شك - بلغة حمير . (٣) تبان أسعد : اسم جعل اسماً واحداً .

واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فجمع له هذا الحى من الأنصار ورئيسهم عمرو بن طلة أحد بنى النجار ، ثم أحد بنى عمرو بن مبدول - واسم مبدول عامر بن مالك بن النجار ، واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة عمرو بن عامر . وقال ابن هشام : عمرو بن طلة - هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار ، وطلة أمه وهى بنت عامر بن زريق الخزرجية .

قال ابن إسحاق : وقد كان رجل من بنى عدى بن النجار يقال له أحر ، عدا على رجل من أصحاب تبع وجده يجد عذقا له فضربه بمنجله فقتله ، وقال إنما التمر لمن أبره^(١) ، فزاد ذلك تبعاً حنقاً عليهم فاقتتلوا . فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لسكرام . وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن تبعاً إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوه منه . قال السهيلي : ويقال إنه إنما جاء لنصرة الأنصار أبناء عمه ، على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط ، فلم يفوا بها ، واستطالوا عليهم ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فبينما تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران^(٢) من أحرار اليهود من بنى قريظة ، عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له : أيها الملك لا تفعل ؛ فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة . فقال لها : ولم ذلك ؟ قالوا هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان ، تسكون داره وقراره ، فتنهاى ورأى أن لها علماً وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة وانبعهما على دينهما . قال ابن إسحاق : وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان وأمج ، أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فقالوا له : أيها الملك ! ألا ندلك على بيت مال دأثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه الأوثان والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده ، وإنما أراد الهدليون هلاكه بذلك ؛ لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبنى عنده . فلما أجمع لما قالوا ، أرسل إلى الخبرين فسألها عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القوم إلا إهلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذ في الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهكن من معك جميعاً ، قال فماذا تأمراننى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟ قالوا تصنع عنده ما يصنع أهله ؛ تطوف به وتعظمه وتكرمه وتخلق رأسك عنده ، وتنزل له حتى تخرج من عنده . قال فما يمنعكما أنما من ذلك ؟ قالوا : أما والله إنه لبيت أئبنا إبراهيم عليه السلام ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء التى يهريقون عنده ، وهم نجس أهل شرك - أو كما قالوا له - فعرف نصحبهما ، وصدق حديثهما ،

(١) أبر النخل : لفحه وأصلحه . (٢) قيل كان اسمهما : كعباً وأسدا ، وكانا ابني عمه .

وقرب نفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده . وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ؛ ينفجر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل وأرى في المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف^(١) ، ثم أرى في المنام أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافر^(٢) ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل^(٣) . وكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت ، وأوصى به ولاته من جرم ، وأمرهم بتطهيره وألا يقربوه دمًا ولا ميتة ولا مثلًا تآ وهي الحائض^(٤) ، وجعل له بابًا ومفتاحًا . ففي ذلك قالت سبيعة بنت الأجب تذكر ابنها خالد بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ، وتنهاه عن البغي بمكة ، وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها :

ابني لا تظلم بمكة * مكة لا الصغير ولا الكبير	واحفظ محارمها بنى * ولا يغرنك الغرور
أبني من يظلم بمكة * مكة يلق أطراف الشرور	أبني يضرب وجهه * ويلج بخديه السعير
أبني قد جربتها * فوجدت ظالمها يبور	الله آمنها وما * بنيت بعرضتها قصور
والله آمن طيرها * والعصم تأمن في ثبير	ولقد غزاها تبع * فكسا بذبتها الحبير
وأذل ربى ملكه * فيها فأوفى بالندور	يمشى إليها حافياً * بفنائها ألفا بهير
ويظل يطعم أهلها * لحم المهاري والجزور	يسقيهم العسل المصفى * والرحيض من الشعير
والفيل أهلك جيشه * يرمون فيها بالصخور	والملك في أقصى البلا * دوفى الأعاجم والخزور
فاسمع إذا حدثت وافهم	كيف عاقبة الأمور

قال ابن إسحاق : ثم خرج تبع متوجهاً إلى اليمن بمن معه من الجنود وبالخبيرين ، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن . قال ابن إسحاق : حدثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرظي قال : سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدث : أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها ، حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا : لا تدخلنا علينا وقد فارقت ديننا ، فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خير من دينكم قالوا : فحاننا إلى النار ، قال : نعم . وكانت باليمن - فيما يزعم أهل اليمن - نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأخذ الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم ، وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها ، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه ، فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فزمرهم من حضرهم من الناس ، وأمرهم بالصبر لها فصبروا ، حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا

(١) جمع خصفة : وهي ثوب غليظ ينسج من الخوص والاتف (٢) نوع من الثياب اليمانية تعرف بالمعافرية نسبة إلى معافر ، حى من همدان باليمن (٣) ثياب موصلة جيدة من ثياب باليمن . (٤) جمع محيضة : وهي خرقة المحيض .

معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير . وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ، ولم تضرهما ، فأصفت عند ذلك حمير على دينهما ، فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني محدث أن الخبرين ومن خرج من حمير ، إنما اتبعوا النار ليردوها ، وقالوا : من ردها فهو أولى بالحق . فدنا منها رجال من حمير بأوثانهم ليردوها ، فدنت منهم لتأكلهم ، فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها . فدنا منها الخبران بعد ذلك ، وجعلوا يتلوان التوراة وهي تنكص عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذي خرجت منه ، فأصفت عند ذلك حمير على دينهما ، والله أعلم أى ذلك كان . قال ابن إسحاق : وكان رثام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ، ويكلمون فيه إذ كانوا على شركهم ، فقال الخبران لتبع : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك ، نخل بيننا وبينه . قال : فشأنكما به ؛ فاستخرجاه منه - فيما يزعم أهل اليمن - كلباً أسود فذبجاه ، ثم هدم ذلك البيت ، فبقاياها اليوم - كما ذكر لي - بها آثار الدماء التي كانت تهراق عليه ^(١) . وقد ذكرنا في التفسير الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ : « لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم » ، قال السهيلي : وروى معمر عن هام بن منبه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسى الكعبة » قال السهيلي : وقد قال تبع حين أخبره الخبران عن رسول الله ﷺ شعراً :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره اكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل هم

قال : ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم ، وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه وأرضاه . قال السهيلي : وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب القبور : أن قبراً حفر بصنعاء ، فوجد فيه اسرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب ، وفيه : هذا قبر ليلس وحبي ابنتي تبع ، ماتا وهما شهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تبيان أسعد ، وهو أخو اليمامة الزرقاء ، التي صابت على باب مدينة جو ، فسميت من يومئذ اليمامة . قال ابن إسحاق : فلما ملك ابنه حسان بن أبي كرب تبيان أسعد - سار بأهل اليمن يريد أن يظأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم ، حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهلهم ، فكلموا أخاً له يقال له عمرو ، وكان معه في جيشه ، فقالوا له : اقتل أخاك حسان وتملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا

(١) يزعمون أنه كان بيت رثام شيطان ، وكانوا يملؤن له حياضاً من دماء الثيران فيصيب منها .

فأجابهم فاجتمعوا على ذلك ، إلا ذَارُعَيْن الحميري ، فإنه نهى عمراً عن ذلك فلم يقبل منه ، فكتب ذورُعَيْن رقعة فيها هذان البيتان :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بنومٍ سَعِيدٌ مَنْ بَيْتِ قَرِيرَ عَيْنِ
فَمَا حَمِيرٌ غَدَرْتُ وَخَانَتْ فَعُذْرَةُ الْإِلَهِ لَذِي رُعَيْنِ

ثم استودعها عمراً . فلما قتل عمرو أخاه حسان ورجع إلى اليمن - منع منه النوم ، وسلط عليه السهر ، فسأل الأطباء والحذاق من الكهان والعرافين عما به ، ف قيل له : إنه والله ما قتل رجل أخاه قط أو ذا رحم بغيّاً - إلا ذهب نومه ، وسلط عليه السهر . فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه ، فلما خلاص إلى ذِي رُعَيْنِ قال له : إن لي عندك براءة ، قال وما هي ؟ قال الكتاب الذي دفعته إليك ، فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه ، ورأى أنه قد نصحه ، وهلك عمرو وفرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا .

أَوْثوبُ لُخْنَيْعَةَ ذِي شَنْتَارٍ عَلَى مَلِكِ الْيَمَنِ وَقَدْ مَلَكَهَا سَبْعاً وَعِشْرِينَ سَنَةً

قال ابن إسحاق : فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك ، يقال له لُخْنَيْعَةُ يَنُوفُ ذُو شَنْتَارٍ^(١) فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم ، وكان مع ذلك امرأ فاسقاً يعمل عمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك ، فيقع عليه في مَشْرَبَةٍ له قد صنعها لذلك لثلاث ملك بعد ذلك ، ثم يطالع من مشر بته تلك إلى حرسه ، ومن حضر من جنده ، وقد أخذ مسواكاً فجعله في فيه ليعلمهم أنه قد فرغ منه . حتى بعث إلى زُرْعَةَ ذِي نُوَاسِ بْنِ تَبَّانِ أَسْعَدَ أَخِي حَسَانَ ، وكان صبياً صغيراً حين قتل أخوه حسان ، ثم شب غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئة وعقل ، فلما أناه رسوله عرف ما يريد منه ، فأخذ سكيناً حديداً لطيفاً ، فخبأه بين قدمه ونعله ، ثم أناه فلما خلا معه وثب إليه ، فوثابه ذو نواس فوجأه حتى قتله ، ثم حزر رأسه فوضعه في الكوة التي كان يشرف منها ، ووضع مسواكه في فيه ، ثم خرج على الناس فقالوا له : ذانواس ، أرطب أم يباس ؟ فقال : سسل نخاس^(٢) استرطبان ذو نواس ، استرطبان ذو نواس ؛ لابس^(٣) . فنظروا إلى الكوة فإذا رأس لُخْنَيْعَةَ مَقْطُوعٌ ، فخرجوا في أثر ذِي نُوَاسِ حَتَّى أَدْرَكُوهُ ، فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث ، فملكوه عليهم . واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير ، وتسمى « يوسف » ، فأقام في ملكه

(١) الشنار : الأصابع بلغة حمير (٢) النخاس في لغة اليمن : الرأس .

(٣) قيل معنى استرطبان : أخذته النار - بالفارسية . وفي الأغاني قال : كان الغلام إذا خرج من عند لُخْنَيْعَةَ وَقَدْ لَاطَ بِهِ قَطَعُوا مَشَافِرَ نَاقَتِهِ وَذَنبَهَا وَصَاحُوا بِهِ : أَرَطْبُ أُمِّ يَبَاسِ ، فلما خرج ذو نواس من عنده وركب ناقة له يقال لها السراب ، قالوا : ذانواس ! أرطب أم يباس ؟ فقال ستعلم الأحراس : لست ذِي نُوَاسِ ؛ لست رطب أم يباس .

زماناً ، وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل ؛ أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر .

ثم ذكر ابن إسحاق سبب دخول أهل نجران في دين النصراني ، وأن ذلك كان على يدي رجل يقال له « فيميون » ، كان من عباد النصراني بأطراف الشام ، وكان مجاب الدعوة . وصحبه رجل يقال له « صالح » فكانا يتعبدان يوم الأحد ، ويعمل « فيميون » بقية الجمعة في البناء . وكان يدعو للعرضي والزمني وأهل العاهات فيشفون . ثم استأسره وصاحبه بعض الأعراب فباعوهما بنجران ، فكان الذي اشترى « فيميون » - يراه إذا قام في مصلاه بالبيت الذي هو فيه في الليل يتملىء عليه البيت نوراً ، فأعجبه ذلك من أسره . وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلقون عليها حلّ نسائهم ويعكفون عندها ، فقال فيميون لسيده : أرأيت إن دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت ، أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل ؟ قال : نعم . فجمع له أهل نجران ، وقام فيميون إلى مصلاه ، فدعا الله عليها فأرسل الله عليها قاصفاً ، فجمفها^(١) من أصلها ورمها إلى الأرض ، فانبعه أهل نجران على دين النصرانية ، وحملهم على شريعة الإنجيل ، حتى حدثت فيهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض . فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب . ثم ذكر ابن إسحاق قصة عبد الله بن الثامر ؛ حين تنصر على يدي « فيميون » ، وكيف قتله وأصحابه ذونواس وخذ لهم الأخدود . وقال ابن هشام : وهو الحفر المستطيل في الأرض مثل الخندق ، وأجج فيه النار وحرقهم بها ، وقتل آخرين ، حتى قتل قريباً من عشرين ألفاً كما قدمنا ذلك مبسوطاً في أخبار بني إسرائيل ، وكما هو مستقصى في تفسير سورة (والسما ذات البروج) من كتابنا التفسير ، والله الحمد .

ذكر خروج الملك باليمن من حمير وصيرورته إلى الحبشة السودان

« كما أخبر بذلك شق وسطيح السكاهنان »

وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجل واحد يقال له « دوس ذو ثعلبان »^(٢) على فرس له ، فسلك الرمل فأعجزهم ، فضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم ، فاستنصره على ذى نواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصراني على دينهم . فقال له : بعدت بلادك منا ، ولكني سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك منا . فكتب إليه بأمره بنصره والطلب بثأره ، فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ، وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له « أرباط » ومعه في جنده أبرهة الأشرم ، فركب أرباط البحر حتى نزل بساحل

(١) أي قلها وأسقطها . (٢) هو رجل من سبأ .

اليمين ، ومعه دوس ، وسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمين . فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس منازل به وبقومه - وجه فرسه إلى البحر ، ثم ضربه فدخل فيه نفاض به ضخاح^(١) البحر ، حتى أفضى به إلى عمرة فأدخله فيها فكان آخر العهد به ، ودخل أرياط اليمن وملكها . وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغربية ، وفيها فصاحة وحلاوة ، وبلاغة وطلاوة ، ولكن تركنا إيرادها خشية الإطالة وخوف الملالة ، وبالله المستعان .

ذكر خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما واقتتالهما

وصيرورة ملك اليمين إلى أبرهة بعد قتله أرياط

قال ابن إسحاق : فأقام أرياط بأرض اليمين سنين في سلطانه ذلك ، ثم نازعة أبرهة ؛ حتى تفرقت الحبة عليهما . فأنحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إلى الآخر . فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط - إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تغنيها شيئاً فشيئاً ، فأبرز لي وأبرز لك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط - أنصفت ، فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لحماً ، وكان ذا دين في النصرانية . وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظاماً طويلاً ، وفي يده حربته له ، وخلف أبرهة غلام يقال له عتودة يمنع ظهره . فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه^(٢) ، ف وقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفتيه ، فبذلك سمى أبرهة الأشرم . وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله ، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وودى^(٣) أبرهة أرياط . فلما بلغ ذلك النجاشي ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن ، غضب غضباً شديداً على أبرهة وقال : عدا على أميرى فقتله بغير أمرى ، ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويحز ناصيته ، فخلق أبرهة رأسه ، وملاً جراباً من تراب اليمن ، ثم بعث به إلى النجاشي ، ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك ، فاختلفنا في أمرك ، وكل طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه ، وقد حلفت رأسي كله حين بلغنى قسم الملك ، وبعثت إليه بجراب تراب من أرضي ، ليضعه تحت قدمه فيبرقسه في . فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضى عنه ، وكتب إليه : أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى ، فأقام أبرهة باليمن .

(١) الضحاح من الماء : الذي يظهر منه القمر .

(٢) اليافوخ . وسط الرأس .

(٣) ودى التثيل : أعطى ديتة .

ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة

فأهلكه الله عاجلاً غير آجل

قال الله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف ما كول) .

قيل أول من ذلّل الفيلة إفريدون بن أنفیان الذي قتل الضحاک ، قاله الطبري . وهو أول من اتخذ للخيل السرج . وأما أول من سخر الخيل وركبها فطهمورث ، وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا ، ويقال إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام : ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم .

ويقال إن الفيل مع عظمة خلقه يفرق من الهر ، وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال الهنود - بإحضار سنابير إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبرهة بنى القليس بصنعاء ، فبنى كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض ، وكتب إلى النجاشي إنى قد بنيت لك كنيسة لم يكن مثلها ملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب^(١) . فذكر السهيلي : أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة ، وسخرهم فيها أنواعاً من السخر ، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لالحالة . وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صلباناً من من ذهب وفضة ، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس ، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً واتساعها باهراً . فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة ، كان من يتعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها - أصابته الجن بسوء ؛ وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين : كعيب وامرأته . وكان طول كل منهما ستون ذراعاً . فتركها أهل اليمن على حالها ، فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح ، أول خلفاء بني العباس ، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم ، فنقضوها حجراً حجراً ودرست آثارها إلى يومنا هذا .

قال ابن إسحاق : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي ، غضب رجل من النساء^(٢) من كنانة الذين يفتنون شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله : (إنما النسوة زيادة في الكفر ... الآية^(٣)) . قال ابن إسحاق : فخرج الكنانى حتى أتى القليس فقعدها فيها - أى أحدث - حيث لا يراه أحد ، ثم خرج فالحق بأرضه ، فأخبر أبرهة بذلك ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه

(١) قال السهيلي : سميت هذه الكنيسة القليس ؛ لارتفاع بنائها وعلوها .

(٢) هم الذين كانوا يؤخرون حرمة شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات ، وطلب الثارات .

(٣) الآية : ٣٧ من سورة التوبة .

رجل من أهل هذا البيت الذى تخرج إليه العرب بمكة ؛ لما سمع بقولك إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا ، فغضب فجاء فقمعد فيها ؛ أى أنها ليست لذلك بأهل . فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه .

ثم أمر الحبشة فتمهيات وتجهزت ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة - بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم - يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجا به من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريده من هدمه وإخرا به ، فأجا به من أجا به إلى ذلك . ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه ، وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً . فلما أراد قتله قال له ذو نفر : يا أيها الملك لا تقتلنى ؛ فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من القتل ، فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم - وهما شهران وناهس - ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به . فلما هم بقتله قال له نفيل : أيها الملك لا تقتلنى فأبى دليلاً بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم - شهران وناهس - بالسمع والطاعة ، فحلى سبيله وخرج به معه يده . حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن ممتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف - فى رجال ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا بالبيت الذى تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم .

قال ابن إسحاق : واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ، قال : فبعثوا معه أبارغال يده على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبارغال حتى أنزله بالمغمس^(١) ، فلما أنزله به مات أبارغال هنالك ، فرجت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرحم الناس بالمغمس . وقد تقدم فى قصة ثمود أن أبارغال كان رجلاً منهم وكان يتمتع بالحرم ، فلما خرج منه أصابه حجر فقتله ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب » ، فحفروا فوجدوهما ، قال : وهو أبو ثقيف .

قلت : والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق : أن أبارغال هذا المتأخر - وافق اسمه اسم جده الأعلى ، ورحمه الناس كما رحموا قبر الأول أيضاً . والله أعلم . وقد قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجسكم لقبر أبي رغال

(١) موضع بطريق الطائف على نائى فرسخ من مكة ، به قبر أبي رغال .

الظاهر أنه الثانى . قال ابن إسحاق : فلما نزل أبرهة بالنموس ، بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مفضود على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم - وهو يومئذ كبير قريش وسيدها - فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم . بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك . وبعث أبرهة ، حنيفة الحميرى إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول إنى لم آت الحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب - فلا حاجة لى بدمائكم فإن هو لم يرد حربى فائتنى به .

فلما دخل حنيفة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجهاه فقال له ما أسره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربته ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - أو كما قال - فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يحل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حنيفة : فانطلق معى إليه ؛ فإنه قد أسرنى أن آتية بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر - وكان له صديقاً - حتى دخل عليه وهو فى محبسه ، فقال له : ياذا نفر ! هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : ما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ؟ ما عندى غناء فى شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس الغيل صديق لى ، فسأرسل إليه وأوصيه بك ، وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ، وبشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ، فقال حسبي .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عين مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . قال أفعل . فكلام أنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك ! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال ، فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته ، فأذن له أبرهة . قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم . فلما رآه أبرهة أجابه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال له ذلك - قال أبرهة لترجمانه : قل له ، لقد كنت أعجبته حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمنى فيه ؟ فقال له

عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه ، فقال ما كان ليتمنع مني ، قال أنت وذاك ، فرد على عبد المطلب إبله .

قال ابن إسحاق : ويقال إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة - يعمر بن نفثة بن عدى ابن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة - سيد بني بكر يومئذ ، وخويلد بن وائلة - وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم ذلك . فالله أعلم ؛ أكان ذلك أم لا ؟

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قریش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رءوس الجبال والشعاب . ثم قام عبد المطلب فأخذ بملقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قریش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . وقال عبد المطلب - وهو آخذ بملقة باب الكعبة - :

لا هُمَّ إنَّ العبدِ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فامْنَعُ رَحْلَكَ^(١)
لا يَغْلِبُنَّ صَليْبُهُمْ وَمَحَالْمُهُمْ غَدَوْاً^(٢) مَحَالِكُ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبْرُ لَمْتَنَا فَأَسْرُ مَا بَدَاكَ

قال ابن هشام هذا ما صح له منها . وقال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قریش إلى شرف الجبال ، يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل . فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة ، وهياً فيله وعبي جيشه ، وكان اسم الفيل « محموداً » . فلما وجهوا الفيل إلى مكة ، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال : أبرك محمود ، وارجع راشداً من حيث أتيت ؛ فإنك في بلد الله الحرام ، وأرسل أذنه فبرك الفيل ، قال السهيلي : أى سقط إلى الأرض ، وليس من شأن الفيلة أن تبرك ، وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير ، فالله أعلم .

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين^(٣) ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهن في مساقه فبزغوه^(٤) بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف^(٥) والبلشون ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ؛ حجراً في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت .

(١) في رواية : فامنع حلالك . والحلال : القوم والجماعة يحلون في المكان .

(٢) أى غدا ، ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر . والمحال : السكيد والسكر والفندرة ، وليس المراد الغد بعينه . وإنما المراد - القرب من الزمان (٣) الطبرزين : فأس السرج ، فارسي معرب . (٤) بزغوه : أدموه ومنه المزرغ : وهو المشعرط للجمام ونحوه (٥) الخطاطيف . جمع خطاف ، وهو طائر أسود . إذا رأى ظله في الماء أقبل إليه ليخطفه .

وخرجوا هاربين يبتذرون الطريق التي منها جاءوا ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ؛ ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل في ذلك :

ألا حَيِّتَ عَنَا يَارُدَيْنَا نَعْمَنَا كَمَ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ فَلَاحَ تَرِيهِ لَدَى جَنْبِ الْحَصْبِ مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَذَّرْتَنِي وَحَدَّتْ أَمْرِي وَلَمْ تَأْسَى عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا
حَدَّتْ اللَّهُ إِذَا أَبْصَرْتَ طَيْرًا وَخَفْتُ حَجَارَةً تُتَلَقَى عَلَيْنَا
وَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَن نُّفَيْلٍ كَأَنَّ عَلَى لِحْجُشَانِ دَيْنَا !

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل . وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أُنملة أُنملة ، كلما سقطت أُنملة اتبعها منه مدة تَمُثُ (١) قِيحًا ودما ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر . فمات حتى انصدع صدره عن قلبه - فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة ، أنه حدث أن أول ما رُؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رُؤي بها مرائر الشجر : الحرمل والحنظل والعُشْر - ذلك العام .

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمدًا ﷺ كان مما يعدد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله - مارد عنهم من أمر الحبشة ؛ لبقاء أمرهم ومدتهم . فقال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيرًا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف ما كُول) .

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها . وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا التفسير بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى ، وله الحمد والمنة .

قال ابن هشام : الأبايل - الجماعات ، ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه . قال : وأما السجيل - فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة : أنه عند العرب - الشديد الصلب . قال وزعم بعض المفسرين : أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وأنهما : سنج وجل (٢) ؛ فالسنج - الحجر ، والجل - الطين ؛ يقول : الحجارة من هذين الجنسيتين - الحجر والطين قال : والعصف - ورق الزرع الذي لم يقصب . وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبايل - إبَّيل ، وقال كثيرون من السلف : الأبايل - الفرق من الطير التي يتبع بعضها بعضها من ههنا وههنا . وعن ابن عباس : كان لها خراطيم كخراطيم

(١) مت الجرح : نقي عنه غثيته . (٢) والأصل : « سنك وكل » وقد ركبا ، وأبدت الكاف جima .

الطير ، وأكف كأف الكلاب . وعن عكرمة كانت رؤوسها كروس السباع ، خرجت عليهم من البحر وكانت خضراً . وقال عبيد بن عمير : كانت طيوراً سوداً بحرية ، في مناقيرها وأكفها الحجارة ، وعن ابن عباس : كانت أشكلها كعقلاء مغرب^(١) ، وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كراس الإنسان ومنها ما هو كالإبل . وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق . وقيل كانت صفاراً ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي شيبه ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ؛ كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار : حجرين في رجله وحجرأ في منقاره ، قال فجاءت حتى صنعت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت مافي رجلها ومناقيرها . فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادت شدة فأهلكوا جميعاً .

وقد تقدم أن ابن إسحاق قال : وليس كلهم أصابته الحجارة ، يعني بل رجع منهم راجعون إلى اليمن ، حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال . وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أمثلة أمثلة ، فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه الله . وروى ابن إسحاق قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن سمرة عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه « أنيساً » فأما قائده فلم يسم ، والله أعلم .

وذكر النقاش في تفسيره : أن السيل احتمل جنثهم فألقاها في البحر . قال السهيلي : وكانت قصة الفيل أول الحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة^(٢) من تاريخ ذي القرنين . قلت وفي عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور . وقيل كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

ثم ذكر ابن إسحاق ماقالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة ، التي نصر الله فيها بيته الحرام الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويظهره ويوقره ببعثة محمد ﷺ ، وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة ، بل عماد دينه ، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة . ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذلك على النصارى الذين هم الحبشة ؛ فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش ، وإنما كان النصر للبيت الحرام ، وإرهاصاً وتوطئة لبعثة محمد ﷺ . فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الزبير السهمي .

وتسكبوا^(٣) عن بطن مكة لأنها كانت قديماً لايرام حريمها

لم تخلق الشعري ليالي حرمت إذ لاعزيز من الأنام يرومها

(١) طائر معروف يبعد في طيرانه (٢) الذي في السهيلي : سنة اثنتين وثمانين الخ .

(٢) ارجعوا وانصرفوا خوفاً ورهبة منها .

سائل أمير الحبش عنها مارأى فاسوف يُنبي الجاهلين عليها
ستون ألفاً لم يثوبوا أرضهم بل لم بعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرم قبلهم والله من فوق العباد يقيها

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري المدني :

ومن صنعه يوم فيل الحيو * ش إذ كلما بعثوه رزم
وقد جعلوا سوطه مغولا * إذا يموه قفاه كليم
فأرسل من فوقهم حاصباً * فلفهم مثل لف القزم
ومن ذلك قول أبي الصلت ربيعة بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي . قال ابن هشام : وروى
لأمية بن أبي الصلت :

إن آيات ربنا ثاقبات * ما يمارى فيهن إلا الكفور
ثم يجلو النهار رب رحيم * بمهاة شعاعها منشور
لازماً حلقة الجران كما * د من صخر ككب محذور
خلفوه ثم اذعروا جميعاً * كلهم عظم ساقه مكسور
ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت أيضاً :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا
فمنذكم منه بلاء مصدق
كتيبته بالسهل تمشى ورجله
فلما أنا كم نصرذى العرش ردم
فولوا سراعاً هارين ولم يؤب
بأركان هذا البيت بين الأخشاب
غداة أبي يكسوم هادى الكتائب
على القاذفات في رءوس المناقب
جنود الملليك بين ساف وحاصب
إلى أهله ملحبش غير عصائب

ومن ذلك قول عبيد الله بن قيس الرقيات في عظمة البيت وحمايته ، بهلاك من أراده بسوء :

كاده الأشرم الذى جاء بالفيه
واستهلت عليهم الطير بالجذ
ذلك من يفزه من الناس ير
ل فولى وجيشه مهزوم
دل حتى كأنه مرجوم
جمع وهو فل من الجيوش ذميم

قال ابن إسحاق وغيره : فلما هلك أبرهة ، ملك الحبشة بعده ابنه يكسوم . ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة وهو آخر ملوكهم . وهو الذى انتزع سيف بن ذى يزن الحميرى - الملك من يده ، بالجيش الذى قدم به من عند كسرى أنوشروان ، كما سيأتى بيانه .

وكانت قصة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين ، وهو اسكندر الثاني ابن فلبس المقدوني ، الذي يؤرخ له الروم . ولما هلك أبرهة وابناه ، وزال ملك الحبشة عن اليمن - هجر القليس الذي كان بناه أبرهة ، وأراد صرف حج العرب إليه ؛ لجهله وقلة عقله ، وأصبح يباباً لا أنيس به وكان قد بناه على صنمين ؛ وهما كعيب وامرأته ، وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعاً في السماء وكانا مصحوبين من الجن ، ولهذا كان لا يتعرض أحد إلى أخذ شيء من بناء القليس وأمتعته - إلا أصابوه بسوء ، فلم يزل كذلك إلى أيام السفاح ، أول خلفاء بني العباس . فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن ، فبعث إليه من خربه حجراً حجراً ، وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل . هكذا ذكره السهيلي ، والله أعلم .

ذكر خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن الحميري

كما أخبر بذلك الكاهنان لربيعة بن نصر اللخمي

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : فلما هلك أبرهة ، ملك الحبشة يكسوم بن أبرهة - وبه كان يكنى - فلما هلك يكسوم - ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة . قال : فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن الحميري ، وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن العوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهديس بن العرنجيج ، وهو حمير بن سبأ - وكان سيف يكنى أبا مروة - حتى قدم على قيصر ملك الروم ، فشكا إليه ما هو فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ، ويليهم هو ، ويخرج إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يشككه . فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر - وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق - فشكا إليه أمر الحبشة ، فقال له النعمان : إن لي على كسرى وفادة في كل عام ، فأقم عندي حتى يكون ذلك - ففعل ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القنقل^(١) العظيم - فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت والزرجد والؤلؤ والذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاق في مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر عليه بالثياب حتى يجاس في مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاجه فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه أحد لم يره قبل ذلك إلا البرك هيبه له ، فلما دخل عليه سيف بن ذي يزن طأطأ رأسه ، فقال الملك : إن هذا الأحق يدخل على من هذا الباب الطويل ثم يطأطأ رأسه ! فقيل ذلك لسيف فقال : إنما فعلت هذا لهما ؛ لأنه يضيق عنه كل شيء ، ثم قال : أيها الملك ! غلبتنا على

(١) القنقل : مكبال يسع ثلاثة وثلاثين مناً ، والمن : وزن رطلين .

بلادنا الأغرّبة ، قال كسرى : أى الأغرّبة ؟ الحبشة أم السند ؟ قال : بل الحبشة ، فجنّتك لتنصرنى
ويسكون ملك بلادى لك . فقال له كسرى : بعدت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورط جيشاً من
فارس بأرض العرب ، لاحاجة لى بذلك . ثم أجازته بعشرة آلاف درهم وافٍ ، وكساه كسوة حسنة .
فلما قبض ذلك منه سيف ، خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال : إن لهذا
لشأناً ، ثم بعث إليه فقال له : عمدت إلى حياء الملك تنثره للناس ! قال وما أصنع بحباك ؟ ما جبال أرضى
التي جئت منها إلا ذهب وفضة - يرغبه فيها . فجمع كسرى مرازبته فقال : ماترون فى أمر هذا الرجل
وما جاء له ؟ فقال قائل : أيها الملك ! إن فى سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه ؛
فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكاً ازددته ؛ فبعث معه كسرى من
كان فى سجونهم ، وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم « وهرز » ، وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حساباً
وويتماً ، فخرجوا فى ثمان سفائن ؛ ففرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن ، فجمع سيف إلى
« وهرز » من استطاع من قومه ، وقال له : رجلى ورجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً ، فقال له وهرز :
أنصفت ، وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن ، وجمع إليه جنده . فأرسل إليهم وهرز ابناً له
ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن « وهرز » ، فزاده ذلك حنقاً عليهم . فلما توافق الناس على مصافهم قال
وهرز : أرونى ملككم ، فقالوا له أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟
قال : نعم . قالوا ذلك ملككم ، فقال تركوه . قال فوقفوا طويلاً ثم قال : علام هو ؟ قالوا قد تحول
على الفرس . قال تركوه ، فتركوه طويلاً ثم قال علام هو ؟ قالوا على البغلة . قال وهرز : بنت الحمار
ذل وذئلكم ، إنى سأرئيه ؛ فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فائتوا حتى أوزنكم ، فإنى قد أخطأت الرجل ،
وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولا نوا فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم . ثم أوترقوسه - وكانت فيما
يزعمون لا يوترها غيره من شدتها - وأمر بحاجبيه فمصبأ له ، ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه ،
وتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ، وتنكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولائت به ،
وحملت عليهم الفرس فانهزموا ، فقتلوا وهرىوا فى كل وجه ، وأقبل « وهرز » ليدخل صنعاء ، حتى إذا
أتى بابها قال : لا تدخل رايتى منكسة أبداً ، اهدموا هذا الباب - فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايتيه ، فقال
سيف بن ذى يزن الحميرى :

يظن الناس بالملك * بين أنهما قد التأمأ
ومن يسمع بلأمهما * فإن الخطب قد قعما
قتلنا القيل مسروقاً * وروينا الكئيب دما
وإن القيل قيل الذ * اس وهرز مقسم قعما
يذوق مشعشعاً حتى * ينى السبي والنعا

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهشونه بعود الملك إليه وامتدحوه . فكان من جملة من وفد - قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فبشره سيف برسول الله ﷺ ، وأخبره بما يعلم من أمره . وسيأتي ذلك مفصلاً في باب البشارات به ، عليه الصلاة والسلام .
قال ابن إسحاق : وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، قال ابن هشام : وبروي لأمية بن أبي الصلت :

ليطلب الوتر أمثال ابن يزن	ريم ^(١) في البحر للأعداء أحوالا
يم قيصراً لما حان رحلته	فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم اثني نحو كسرى بعد عاشرة	من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى بيني الأحرار يحملهم	إنك عمري لقد أسرعت قلقالا ^(٢)
لله درهم من عصابة خرجوا	ما إن أرى لهم في الناس أمثالا
غلباً مرابزة بيضاً أساوره	أسداً تربب في الفيضات أشبالا
يرمون عن شدف كأنها غبُط	بزخري يعجل المرمي إجمالا ^(٣)
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد	أضحى شريدهم في الأرض فُلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً	في رأس عُمدان داراً منك محلالا
واشرب هنيئاً فقد شالت نعماتهم ^(٤)	وأسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من ابن	شدياً بماء فعادا بعد أبوالا ^(٥)

يقال : إن عُمدان - قصر باليمن بناه يعرب بن قحطان ، وملكه بعده واحتله وأثله بن حمير بن سبأ . ويقال كان ارتفاعه عشرين طبقة ، فالله أعلم .

قال ابن إسحاق : وقال عدى بن زيد الحميري وكان أحد بني تميم :

ما بعد صنعاء كان يعمرها	ولاية مُلك جزل مواهبها
رفعها من بني لدى قزع الـ	مزن وتندى مسكاً محاربها
محفوفة بالجبال دون عمري الـ	ككائد ما ترتقي غواربها
يأنس فيها صوت النهام إذا	جاوبها بالعشى قاصبها ^(٦)
ساقط إليها الأسباب جند بني الـ	أحرار فرسانها مواكبها

(١) أي أقام (٢) عمري : أصله لعمرى حذف اللام للضرورة ، والقتال : شدة الحركة ، وبني الأحرار : الفرس .
(٣) الشدف : جم شدفاء . وهي القسي الفارسية ، والغبط : المهادج ، شبه بها القسي لعلوها . والزخري : النصب الفارسي ، والسهم الدقيق (٤) شالت نعماتهم : أي هلكوا ، وأصل التعامة : باطن القدم (٥) روى هذا البيت للناطقة الجمدي في قصيدة (٦) النهام كغراب : طائر ، أو ذكر اليوم . والقاصب : الذي يزمر في القصب .

وفوزت بالبغال توسق بالـ حتف وتسعى بها توالبها^(١)
 حتى يراها الأقوال من طرف المنقل^(٢) مخضرة كتابها
 يوم ينادون آل بربر واليك سوم لا يفلحن هاربها
 فكان يوماً باقى الحديث وزا لت أمة ثابت مراتبها
 وبدل الهيج بالزرافة والأيام جون جم عجائبها
 بعد بنى تبع نحاورة^(٣) قد اطمانت بها سرازبها

قال ابن هشام : وهذا الذى عنى سطيع بقوله : يليه إرم ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن . والذى عنى شق بقوله : غلام ليس بدنى ولا مدنى ، يخرج من بيت ذى يزن .
 قال ابن إسحاق : وأقام وهرز والفرس باليمن ، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس - الأبناء الذين باليمن اليوم . وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرياط ، إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة ، وأخرجت الحبشة - اثنتين وسبعين سنة ، توارث ذلك منهم أربعة : أرياط ، ثم أبرهة ، ثم يكسوم بن أبرهة ، ثم مسروق بن أبرهة .

ذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام : ثم مات وهرز ، فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ، ثم مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان ، ثم مات فأمر ابن التينجان ، ثم عزله عن اليمن وأمر عليها باذان ، وفى زمنه بعث رسول الله ﷺ . قال ابن هشام : فبلغنى عن الزهرى أنه قال : كتب كسرى إلى باذان : إنه بلغنى أن رجلاً من قريش خرج بمسكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاستتبه ، فإن تاب وإلا فابعث إلى رأسه ، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى فى يوم كذا وكذا من شهر كذا » ، فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظر ، وقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال ، فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله ﷺ - قال ابن هشام - على يدى ابنه شيرويه . قلت : وقال بعضهم بنوه تماثوا على قتله . وكسرى هذا هو ابرويز ابن هرمز بن أنوشروان بن قباذ ، وهو الذى غلب الروم فى قوله تمالى : (ألم * غلبت الروم فى أدنى الأرض^(٣)) كما سيأتى بيانه قال السهيلي : وكان قتله ليلة الثلاثاء لشر خلون من جمادى الأولى سنة تسع من الهجرة . وكان - والله أعلم - لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعو به إلى الإسلام غضب ومزق كتابه ، وكتب إلى نائبه باليمن يقول له ما قال . وفى بعض الروايات : أن رسول الله ﷺ قال لرسول

(١) التوالب : جمع توب ، وهو الجحش (٢) المنقل كقعد : الطريق فى الجبل ، والمراد من أعلى حصونها .

(٣) نحاورة : شرفاء - جمع نحاوار ، وهو الشريف (٣) أول سورة الروم .

بازان : « إن ربي قد قتل الليلة ربك » ، فكان كما قال رسول الله ﷺ ، قتل تلك الليلة بعينها ، قتله بنوه لظلمه - بعد عدله - بعد ما خلعوه ، وولوا ابنه شيرويه فلم يعيش بعد قتله أباه إلا ستة أشهر أو دونها . وفي هذا يقول خالد بن حق الشيباني :

وكسرى إذ تقمه بنوه بأسياف كما اقتسم اللحم
تمخضت المنون له بيوم ألا ولكل حاملة تمام

قال الزهري : فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ فقالت الرسل : إلى من نحن يارسول الله ؟ قال : « أتم منا وإلينا أهل البيت » . قال الزهري : ومن ثم قال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » قلت والظاهر أن هذا كان بعد ما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم إلى الله عز وجل ؛ فبعث أولاً خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب ، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ، ودانت اليمن وأهلها للإسلام ، ومات باذان فقام بعده ولده شهر بن باذان ، وهو الذي قتله الأسود العنسي حين تنبأ وأخذ زوجته كما سيأتي بيانه . وأجلى عن اليمن نواب رسول الله ﷺ ، فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها . وقال ابن هشام : وهذا هو الذي عنى سطيج بقوله : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلي . والذي عنى شق بقوله : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل . قال ابن إسحاق : وكان في حجر باليمن - فيما يزعمون - كتاب الزبور كتب في الزمان الأول : « لمن ملك ذمار ؟ لحير الأخيار ، لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار ، لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار ، لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار » . وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودي :

حين شدت ذمار قيل لمن أذ : ت ؟ فقالت لحير الأخيار
ثم سيات من بعد ذاك فقا : لت : أنا للحبش أخبث لأشرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أذ : ت ؟ فقالت لفارس الأحرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أذ : ت ؟ فقالت إلى قريش التجار

ويقال إن هذا الكلام الذي ذكره محمد بن إسحاق ، وجد مكتوباً عند قبر هود عليه السلام ، حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن ، وذلك قبل زمن بلقيس بيسير ؛ في أيام مالك بن ذى المنار أخى عمرو ذى الأذعار بن ذى المنار . ويقال كان مكتوباً على قبر هود أيضاً ، وهو من كلامه عليه السلام ، حكاه السهيلي ، والله أعلم .

قصة الساطرون صاحب الحضرة

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام ؛ لأجل ما قاله بعض علماء النسب : إن النيمان بن المنذر الذي تقدم ذكره في ورود سيف بن ذى يزن عليه ، وسؤاله في مساعدته في رد ملك اليمن إليه - إنه من سلالة الساطرون صاحب الحضرة . وقد قدمنا عن ابن إسحاق : أن النيمان بن المنذر من ذرية ربيعة ابن نصر ، وأنه روى عن جبير بن مطعم أنه من أشلاء قيصر بن معد بن عدنان . فهذه ثلاثة أقوال في نسبه فاستطرد ابن هشام في ذكر صاحب الحضرة . والحضرة حصن عظيم بناه هذا الملك - وهو الساطرون - على حافة الفرات ، وهو منيف مرتفع البناء ، واسع الرحبة والفناء ، دوره بقدر مدينة عظيمة ، وهو في غاية الإحكام والبهاء ، والحسن والسناء ، وإليه يجي ماحوله من الأقطار والأرجاء . واسم الساطرون : الضيزن بن معاوية بن عبید بن أكرم من بنى ساليح بن حلوان بن الحاف بن قضاة ؛ كذا نسبه ابن السكبي . وقال غيره كان من الجرائمة ، وكان أحد ملوك الطوائف ، وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم ، وكان حصنه بين دجلة والفرات .

قال ابن هشام : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف - غزا الساطرون ملك الحضرة ، وقال غير ابن هشام : إنما الذي غزا صاحب الحضرة - سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بني ساسان ؛ أذل ملوك الطوائف ، ورد الملك إلى الأكامرة . وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله أعلم ، ذكره السهيلي . قال ابن هشام : فحصره سنتين ، وقال غيره أربع سنين ؛ وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور في غيبته بأرض العراق ، فأشرفت بنت الساطرون - وكان اسمها النصيرة - ففطرت إلى سابور ، وعليه ثياب ديباج ، وعلى رأسه تاج من ذهب مكمل بالزبرجد والياقوت واللاؤلؤ . وكان جميلا ، فدست إليه : أتزوجني إن فتحت لك باب الحضرة ؟ فقال : نعم ! فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر ، وكان لا يبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضرة من تحت رأسه ، وبعثت بها مع مولى لها ففتحت الباب . ويقال : بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع ، فولوجوا منه إلى الحضرة . ويقال بل دلتهم على طلسم كان في الحضرة ؛ وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء ، وتخضب رجلاها بمبيض جارية بكر زرقاء ثم ترسل ، فإذا وقعت على سور الحضرة - سقط ذلك الطلسم . فيفتح الباب ، ففعل ذلك فأنفتح الباب ، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضرة وخربه ، وسار بها معه فتزوجها . فبينما هي نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تملعل لا تنام ، فدعا لها بالشمع ، ففقتش فراشها فوجد عليه ورقة آس ؛ فقال لها سابور : أهذا الذي أسهرك ؟ قالت نعم ! قال فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ويلبسنى الحرير ، ويطعمني المنخ ويسقيني الخمر . قال : أفكان جزاء

أبيك ما صنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع ، ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذب فرس ، ثم ركض
الفرس حتى قتلها ، ففيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمى وهل خالد من نعم^(١) ؟
أقام به شاهبور الجنو دحولين تضرب فيه القدم^(٢)
ولما دعا ربه دعوة أناب إليه فلم ينتقم
فهل زاده ربه قوة ومثل مجاوره لم يقم
وكان دعا قومه دعوة هلهوا إلى أمركم قد صرم
فوتوا كراماً بأسيا فكم أرى الموت يجشمه من جشم

وقال عدى بن زيد في ذلك :

والحضر صابت عليه داهية من فوقه أيد مناكبها
ربيّة^(٣) لم توق والدها لحينها إذ أضاع راقبها
إذ غبقت صهبا صافية والخمر وهل يهيم شاربها
فأسلمت أهلها بآيلتها تظن أن الرئيس خاطبها
فكان حظ العروس إذ جشرا الصبح دماء تجرى سبائبها^(٤)
وخرّب الحضر واستبيح وقد أحرق في خدرها مشاجبها^(٥)

وقال عدى بن زيد أيضاً :

أيها الشامت المعير بالده ر أنت المسيرة الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذاعليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أبو شروان أم أين قبله سابور
وبنو الأصغر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور
وأخوا الحضر إذ بناه وإذ جلة تجي إليه والخابور
شاده مرصراً وجله كسا فلطير في ذراه وكور
لم يهنه ريب المنون فبا ن الملك عنه فبابه مهجور

(١) في رواية من سلم (٢) جم قدوم وهو معروف .

(٣) أصله : ربيثة ، وسهلت الهمز فصارت ياء (٤) جمع سبيبة : وهي كالعامة ونحوها .

(٥) جمع مشجب ، وهو ما يعلق عليه الثياب .

وتذكر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
 سره ماله وكثرة ما يملك البحر معرضاً والسدير
 فارعوى قلبه وقال وما غب طة حتى إلى المات بصير
 ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

قلت : ورب الخورنق الذي ذكره في شعره - رجل من الملوك المتقدمين ، وعظه بعض علماء زمانه في أمره الذي كان قد أسرف فيه ، وعتا وتمرد فيه ، وأتبع نفسه هواها ، ولم يراقب فيها مولاها ؛ فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول ، وكيف بادوا ولم يبق منهم أحد ، وأنه ماضى إليه عن غيره ، إلا وهو منتقل عنه إلى من بعده . فأخذته موعظته وبلغت منه كل مبلغ فارعوى لنفسه ، وفكر في يومه وأمه ، وخاف من ضيق رسمه ، فتاب وأناب ، ونزع عما كان فيه ، وترك الملك ولبس زى الفقراء ، وساح في القلوات وحظى بالخلوات ، وخرج عما كان الناس فيه من اتباع الشهوات ، وعصيان رب السموات . وقد ذكر قصته مبسوطه الشيخ الإمام ؛ موفق بن قدامة المقدسى رحمه الله في كتاب التوايين . وكذلك أوزدها بإسناد متين : الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتاب الروض الأنف : المرتب أحسن ترتيب وأوضح تبين .

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضرة - وهو ساطرون ؛ فقد تقدم أنه كان مقدماً على سائر ملوك الطوائف ، وكان من زمن إسكندر بن فليبس المقدوني اليونانى ، وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا ، وأذل مملكته وخرب بلاده ، واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ، ومنزق شمل الفرس شذر مذر - غزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ، ولا يلتئم لهم أمر ، فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس في إقليم من أقاليم الأرض ، ما بين عربها وأعاجمها . فاستمر كل ملك منهم يحمى حوزته ، ويحفظ حصته ، ويستغل محلته ، فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه . فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة ، حتى كان أزدشير بن بابك من بنى ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن بشتاسب بن لهراسب ، فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ، ورجعت الممالك برمتها إليه ، وأزال ممالك ملوك الطوائف ، ولم يبق منهم تالد ولا طارف . وكان تأخر عليه حصار صاحب الحضرة الذي كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم ؛ إذ كان رئيسهم ومقدمهم . فلما مات أزدشير تصدى له ولده سابور ، فحاصره حتى أخذه كما تقدم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا الخبر مأخوذ من كتاب تاريخ طبرستان لشيخنا العلامة ميرزا محمد باقر المجلسى ، طبع في طهران سنة ١٢٩٠ هـ .
 نسخة من كتاب تاريخ طبرستان لشيخنا العلامة ميرزا محمد باقر المجلسى ، طبع في طهران سنة ١٢٩٠ هـ .

باب ذكر بنى إسماعيل وهم عرب الحجاز

وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدم ذكر إسماعيل نفسه - عليه السلام - مع ذكر الأنبياء ، وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مع أمه هاجر ، فأسكنها بوادي مكة بين جبال فاران ، حيث لا أنيس به ولا حسيس ، وكان إسماعيل رضيعاً . ثم ذهب وتركها هنالك عن أمر الله بذلك ، ليس عند أمه سوى جراب فيه تمر ، ووكاء فيه ماء . فلما نفذ ذلك أنبع الله لهاجر زمزم ، التي هي طعام طعم وشفاء سقم ، كما تقدم بيانه في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخارى رحمه الله . ثم نزلت جرهم - وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين - عند هاجر بمكة ؛ على أن ليس لهم في الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به ، فاستأنست هاجر بهم ، وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم في كل حين ؛ يقال إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس في ذهابه وإيابه . ثم لما ترعرع الغلام وشب وبلغ مع أبيه السمي - كانت قصة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح . ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأة ، ثم فارقتها وتزوج غيرها ، وتزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وجاءته بالبنين الاثنى عشر كما تقدم ذكرهم ؛ وهم : نابت ، وقيدر ، وأدييل ، وميشا ، ومسمع ، وماس ، ودما ، وأدد ، ووطور ، ونفيس ، وطما ، وقيدمان . هكذا ذكره محمد بن إسحاق وغيره عن كتب أهل الكتاب^(١) ، وله ابنة واحدة اسمها نسمة ، وهي التي زوجها من ابن أخيه العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، فولد له منها الروم وفارس والأشبان أيضاً - في أحد القولين .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلها يرجعون في أنسابهم إلى ولديه : نابت وقيدر ، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور ، الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم - نابت بن إسماعيل ، وهو ابن أخت الجرهميين . ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً في بنى أختهم ، فحسكوا بمكة وما والاها عوضاً عن بنى إسماعيل مدة طويلة ، فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت - مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن عيبر بن نبت بن جرهم . وجرهم بن قحطان ، ويقال : جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن أرغشذ بن سام بن نوح الجرهمي ، وكان نازلاً بأعلى مكة بقعقعمان^(٢) . وكان السميدع سيد قطوراء نازلاً بقومه في أسفل مكة ، وكل منهما يعشر من صر به مجتازاً إلى مكة . ثم وقع بين جرهم

(١) قال ابن جرير : وقد ينطق أسماء أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التي ذكرت عن ابن إسحاق ، وأسماءهم في سفر التكوين : نياوت ، وقيدار ، وأنبيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيا ، ويطور ، ونافيس ، وقدمه .
(٢) في القاموس ؛ قعقعمان : زرع على اثنى عشر ميلاً من مكة .

وقطورا نزع فاقتلوا ، فقتل السميدع ، واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكة والبيت ، لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها ؛ وذلك لخثولتهم له ولعظمة البيت الحرام . ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث ثم إلى عمرو بن الحارث . ثم بفت جرم بمكة وأكثرت فيها الفساد ، وألحدوا بالمسجد الحرام ؛ حتى ذكر أن رجلا منهم يقال له إساف بن بغي ، وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل - اجتمعا في الكعبة ، فكان منه إليها الفاحشة ، فسخطها الله حجر بن فنصبهما الناس قريبا من البيت ليعتبروا بهما . فلما طال المطال بمد ذلك بمدد - عبدا من دون الله في زمن خزاعة ، كما سيأتي بيانه في موضعه ، فكانا صنمين منصوبين يقال لهما : إساف ونائلة . فلما أكثرت جرم البغي بالبلد الحرام تملأت عليهم خزاعة ، الذين كانوا نزلوا حول الحرم ، وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذي خرج من اليمن لأجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم . وقيل إن خزاعة من بني إسماعيل فأنه أعلم .

والمقصود أنهم اجتمعوا لجرهم وآذونهم بالحرب واقتتلوا ، واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين فغلبت خزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان وأجلوهم عن البيت ، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي - وهو سيدهم - إلى غزالي الكعبة وهما من ذهب ، وحجر الركن وهو الحجر الأسود ، وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر فدفنها في زمزم ، وعلم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن . وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض :

وقائلة والدمع سكب مبادر	وقد شرت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيس ولم يسمر بمسكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما	يلججه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا	صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاية البيت من بعد نابت	نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت	بمزنا فما يحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا	فليس لحي غيرنا ثم فآخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته	فأبناؤه منا ونحن الأصاهر
فإن تنشى الدنيا علينا بماها	فإن لها حالا وفيها القشاجر
فأخرجنا منها المليك بقدره	كذلك ياللفاس تجرى المقادر
أقول إذا نام الخلى ولم أنم	أذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وبدت منها أوجها لأحبها	قبائل منها حمير ومجابر

وصرنا أحاديثًا وكنا بقبطة بذلك عضتنا السنون الغواير
فسحت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم أمن وفيها المشاعر
وتبكي لبيت ليس يؤذى حممه بظل به أمنًا وفيه العصافر
وفيه وحوش لا ترام أنيسة إذا خرجت منه فليست تغادر

قال ابن إسحاق : وقال عمرو بن الحارث بن مضاض أيضاً - يذكر بني بكر وغبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة :

يا أيها الناس سيروا إن قصركم أن تصبحوا ذات يوم لانسيرونا
حشوا المطى وأرخوا من أزمتهما قبل المات وقضوا ما تقضونا
كنا أناسًا كما كنتم فغيرنا دهر فأتتم كما صرنا تصيرونا

قال ابن هشام : هذا ما صح له منها . وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يسم قائلها ، وذكر السهيلي لهذه الأبيات إخوة ، وحكى عندها حكاية معجبة وإنشادات مغربة . قال : وزاد أبو الوليد الأزرق في كتابه فضائل مكة على هذه الأبيات المذكورة المنسوبة إلى عمرو بن الحارث بن مضاض :

قد مال دهر علينا ثم أهلكننا بالبغى فينا وبز الناس ناسونا
فاستخبروا في صنيع الناس قبلكم كما استبان طريق عنده الهونا
كنا زمانًا ملوك الناس قبلكم بمسكن في حرام الله مسكونا

قصة خزاعة ، ونخز عمرو بن لحي وعبادة الأصنام بأرض العرب

قال ابن إسحاق : ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بني بكر بن عبد مناة ، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشاني ، وقريش إذ ذاك حُلُول وصِرم ، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة . قالوا : وإنما سميت خزاعة ؛ لأنهم نخز عوا^(١) من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام ، فنزلوا بمر الظهران فأقاموا به . قال عون بن أيوب الأنصاري ثم الخزرجي في ذلك :

فلما هبطنا بطن مر نخزعت خزاعة منا في حلول كراكر
حمت كل واد من تهامة واحتمت بصم القنا والمرهفات البواتر
وقال أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصاري الأوسي :

فلما هبطنا بطن مكة أحدثت خزاعة دار الآكل المتجامل

(١) أي نخزوا ، والنخزعة : القطعة تقطع من الشيء .

فحلت أكاريساً وشتت قنابلاً على كل حي بين نجد وساحل البحر
ففراجرهما عن بطن مكة واحتبوا . بعض خزاعي شديد الكواهل
فوليت خزاعة البيت ، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول
ابن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي ، الذي تزوج قصى بن كلاب ابنته حبي ، فولدت له بنيه الأربعة :
عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبدأ ، ثم صار أسر البيت إليه كما سيأتي بيانه وتفصيله في
موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة . واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة ، وقيل
خمسائة سنة والله أعلم . وكانوا قوم سوء في ولايتهم ، وذلك لأنه في زمانهم كان أول عبادة الأوثان
بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي لعنه الله ؛ فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ، وكان ذا مال
جزيل جداً ؛ يقال : إنه فقاً أعين عشرين بعيراً ، وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير . وكان
من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقاً عين واحد منها ؛ لأنه يدفع بذلك العين عنها ، ومن ذكر
ذلك الأزرقى . وذكر السهيلي : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة ، وكسب عشرة آلاف
حلة في كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الخيس بالسمن والعسل ويلت لهم السوق . قالوا : وكان
قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع ؛ لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ،
فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عملاق - ويقال ولد عمليق بن لاوذ بن سام
ابن نوح - رأهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام
نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض
العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنماً يقال له « هبل » ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .
قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام : أنه كان
لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح^(١) في البلاد - إلا حمل معه حجراً من
حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحينما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى
أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه .
وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي ، قال : كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حنمية من
التراب ، وجئنا بالشاة فخلبناها عليه ثم طفنا بها .

قال ابن إسحاق : واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره ؛ فعبدوا الأوثان وصاروا
إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام

(١) الفسح : جمع فسحة ، وهي السعة .

(٢) الفسح : جمع فسحة ، وهي السعة .

يتمسكون بها ؛ من تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفات والمزدلفة ، وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه ؛ فكانت كنفاته وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده . يقول الله تعالى لحمد ﷺ : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ^(١)) ، أى ما يوحدونى لمعرفة حتى إلا جعلوا معى شريكاً من خلقى .

وقد ذكر السهيلي وغيره : أن أول من لبي هذه التلبية عمرو بن لحي ، وأن إبليس تبدى له في صورة شيخ ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول ، واتبعه العرب في ذلك .

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا سمعهم يقولون لبيك لا شريك لك - يقول : « قد قد » أى حسب حسب . وقد قال البخارى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا يحيى بن آدم حدثنا إسرائيل عن أبي حفص عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول من سب السوائب ^(٢) وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإى رأيت يجر أمعاه في النار » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهذا يقتضى أن عمرو ابن لحي هو أبو خزاعة الذى تنسب إليه القبيلة بكالها ، كما زعمه بعضهم من أهل النسب فيما حكاه ابن إسحاق وغيره . ولو تركنا مجرد هذا لكان ظاهراً في ذلك بل كالنص ، ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه ؛ فقال البخارى : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري ، قال سمعت سعيد بن المسيب قال : البحيرة ^(٣) التى يمنع درها للطواغيت فلا يحملها أحد من الناس ، والسائبة التى كانوا يسيبونها لآتهم لا يحمل عليها شئ . قال وقال أبو هريرة . قال النبي ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه ^(٤) في النار ، كان أول من سب السوائب » . وهكذا رواه البخارى أيضاً ومسلم من حديث صالح ابن كيسان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به . ثم قال البخارى . ورواه ابن الهاد عن الزهري ، قال الحاكم : أراد البخارى رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن يخت عن الزهري كذا قال .

وقد رواه أحمد عن عمرو بن سلمة الخزاعى عن الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت عمرو بن عامر يجر قصبه في النار ؛ كان أول من سب السوائب وبحر البحيرة » . ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن يخت كما قال الحاكم فأنه أعلم . وقال أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه في النار ، وهو أول من سب السوائب » . وهذا

(١) الآية : ١٠٦ من سورة يوسف . (٢) السائبة الناقة كانت تسيب في الجاهلية لنذر أو غيره فلا تمنع عن ماء ولا كلاً ، ولا تترك ولا يحمل عليها . (٣) قال في القاموس : البحر : شق الأذن ومنه البحيرة ، كانوا إذا هجت الناقة أو الثاة عشرة أبطن - يجرها وتركوها ترعى ، وحرموا لحمها إذا ماتت على نسايم وأكلها الرجال . (٤) القصب : الحصر والمعى .

منقطع من هذا الوجه . والصحيح الزهري عن سعيد عنه كما تقدم . وقوله في هذا الحديث والذي قبله - الخزاعي - يدل على أنه ليس والد القبيلة ، بل منتسب إليها ، وما وقع في الرواية من قوله أبو خزاعة - تصحيف من الراوى ، من أخو خزاعة ، أو أنه كان يكنى بأبي خزاعة ، ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلهم . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثرهم بن الجون الخزاعي : « يا أكرم ! رأيت عمرو ابن لحي بن قعدة بن خندف يجر قصبه في النار ، فما رأيت رجلاً أشبهه برجل منك به ، ولا بك منه » . فقال أكرم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله ! قال : « لا - إنك مؤمن وهو كافر ؛ إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البهيرة ، وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحى الخامى » . ليس في الكتب من هذا الوجه . وقد رواه ابن جرير عن هناد بن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله ، وليس في الكتب أيضاً . وقال البخاري : حدثني محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قصبه ، وهو أول من سيب السوائب » . تفرد به البخاري . وروى الطبراني من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعاً في ذلك . والمقصود أن عمرو بن لحي لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين ؛ غير بها دين الخليل ، فاتبعه العرب في ذلك فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً بيناً فظيماً شنيعاً . وقد أنكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه فقال تعالى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . . . الآية ^(١)) ، وقال تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ^(٢)) وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً ، وبيننا اختلاف الساف في تفسير ذلك ؛ فمن أراد فليأخذه من ثم والله الحمد والمنة . وقال تعالى : (ويجعلون لما لا يعملون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون ^(٣)) . وقال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله

(١). الآية : ١١٦ من سورة النحل (٢) الآية : ١٠٣ من سورة المائدة .

(٣) الآية : ٥٦ من سورة النحل .

عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرمو ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين (١) .

باب جهل العرب

قال البخاري في صحيحه : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة في سورة الأنعام : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرمو ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) . وقد ذكرنا تفسير هذه الآية ، وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنوها كبيرهم عمرو بن لحي - قبحة الله - مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم ، وهو كاذب مفتر في ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام فيه ، بل قد تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير ؛ وهو عبادة الأوثان مع الله عز وجل . وبدلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم ؛ من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له ، وتحريم الشرك . وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ، ولا دليل صحيح ولا ضعيف . واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين ، وشابهوا قوم نوح . وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ؛ ولهذا بعث الله إليهم نوحاً ، وكان أول رسول بعث ونهى عن عبادة الأصنام كما تقدم بيانه في قصة نوح : (وقالوا لا تذرنا آلهتنا ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً . . . الآية) قال ابن عباس : كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم : وقد بينا كيفية ما كان من أمرهم في عبادتهم بما أغنى عن إعادته ههنا .

قال ابن إسحاق وغيره : ثم صارت هذه الأصنام في العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل ؛ فكان «ود» لبني كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكان منصوباً بدومة الجندل (٢) . وكان «سواع» لبني هذيل بن إلياس بن مدركة بن مضر ، وكان منصوباً بمكان يقال له رهاط (٣) . وكان «يغوث» لبني أنعم من طيء ولأهل جرش (٤) من مذحج ، وكان منصوباً بجرش . وكان «يعوق» منصوباً بأرض همدان من اليمن لبني خيوان بطن من همدان . وكان «نسر» منصوباً بأرض حمير لقبيلة يقال لهم : ذو السكلاع .

(١) الآيات : ١٣٦ - ١٤٠ من سورة الأنعام .

(٢) دومة الجندل - بفتح الدال وضمها : بلدة في وادي القرى في الشمال الشرقي من المدينة المنورة قريبة منها .

(٣) رهاط - كتراب : موضع على ثلاث ليال من مكة . (٤) جرش - كزفر : مخلاف باليمن .

قال ابن إسحاق: وكان لخلولان بأرضهم صنم يقال له «عم أنس»^(١) يقسمون له من أنعامهم وحرثهم قسما بينه وبين الله - فيما يزعمون ، فما دخل في حق «عم أنس» من حق الله الذي قسموه له - تركوه له ، وما دخل في حق الله من حق «عم أنس» - رددوه عليه . وفيهم أنزل الله : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) ، قال : وكان لبني ملكان بن كنفانة بن خزيمية بن مدركة صنم يقال له «سعد» ؛ صخرة بغلاة من أرضهم طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبل له مؤبلة^(٢) ليقفها عليه التماس بركته - فيما يزعم ، فلما رأته الإبل وكانت سرعية لا تركب ، وكان الصنم يهراق عليه الدماء - نفرت منه ، فذهبت في كل وجه ، فغضب ربها وأخذ حجراً فرماه به ، ثم قال : لا بارك الله فيك ، نفرت على إبلي . ثم خرج في طلبها فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة^(٣) من الأرض لا يدعولنى ولا رشد؟

قال ابن إسحاق: وكان في دوس صنم لعمر بن حمزة الدوسي . قال : وكانت قریش قد اتخذت صنما على بئر في جوف الكعبة يقال له «هبل» وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام : أنه أول صنم نصبه عمرو بن لحي ، لعنه الله .

قال ابن إسحاق: واتخذوا «إسافاً» و «نائلة» على موضع زمزم ينفخون عندهما ، ثم ذكر أنهما كانا رجلاً وامراًة ، فوقع عليها في الكعبة فسخطها الله حجرتين . ثم قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة أنها قالت : سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامراًة من جرهم أحدنا^(٤) في الكعبة فسخطها الله عن رجل حجرتين ، والله أعلم . وقد قيل : إن الله لم يمهلهما حتى فجر فيها ، بل مسخهما قبل ذلك ، فعند ذلك نصبا عند الصفا والمروة ، فلما كان عمرو بن لحي نقلهما فوضعهما على زمزم ، وطاف الناس بهما . وفي ذلك يقول أبو طالب :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم بمفضى السيول من إساف ونائل^(٥)

وقد ذكر الواقدي : أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح ، خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور . وقد ذكر السهيلي : أن «أجا» و «سلمى» - وهما جبلان بأرض الحجاز - إنما سميا باسم رجل اسمه «أجا» بن عبد الحى ، فجر بسلمى بنت حام ، فصلبا في هذين الجبلين فعرفا بهما . قال : وكان بين أجا وسلمى صنم لطي يقال له : «فلس» .

(١) وقيل : «عميانس» (٢) مؤبلة - كعظلة : متخذة للقنية (٣) أى مغارة . (٤) أى فجرها وزنيا .

(٥) هذا البيت من قصيدة طويلة تزيد أبياتها على التسعين ، فالها أبو طالب يتودد فيها أشرف فومه ومطلعها :

ولما رأيت القوم لاود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد - قالت قریش : (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلهًا واحداً إن هذا لشيء عجاب) « الآية : ٥ من سورة ص » .

قال ابن إسحاق : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت - وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ؛ لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحدر عندها . وهي مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده . وكانت لقریش وبنی كنانة - « العزى » بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم ، وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتى . قال : وكانت « اللات » لتقيف بالطائف ، وكانت سدنتها وحجابها بنى معتب من ثقيف ، وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجيء أهل الطائف كما سيأتى . قال : وكانت « مناة » للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، وقد خربها أبو سفيان أيضاً ، وقيل على بن أبي طالب كما سيأتى . قال : وكان « ذو الخلصة ^(١) » لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلاذهم من العرب بتبالة ، وكان يقال له الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية ، وقد خربه جرير بن عبد الله البجلي كما سيأتى . قال : وكان « فليس » لطيم ومن يليها بجبلى طيم بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران كما تقدم . قال : وكان « رآم » بيتاً لحمير وأهل اليمن كما تقدم ذكره في قصة تبع أحد ملوك حمير ، وقصة الخبرين حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود . قال : وكانت « رُضاً » بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر - واسمه كعب بن ربيعة بن كعب :

ولقد شددت على رُضاء شدة فتركتها قفراً بقاع أسحا
وأعان عبد الله في مكروهما ويمثل عبد الله أغشى المحرما

ويقال إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً وهو الذى يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حدثها بعدها مائتان لى وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلا كما قد فاتنا يوم يمر وليلة تمدونا

قال ابن هشام : وتروى هذه الأبيات لزهير بن جناب بن هبل . قال السهيلي : ومن المعمرين

(١) ذو الخلصة - محركة وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية ، وكان فيه صنم يسمى : الخلصة .

الذين جازوا المائتين والثلاثمائة - زهير هذا ، وعبيد بن شربة ، ودغفل بن حنظلة النسابة ، والربيع بن ضبع الفزاري ، وذو الأصبع العدواني ، ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان - وكان قد اسود شعره بعد ابيضاضه وتقوم ظهره بعد اعوجاجه . قال : وكان « ذو الكعبات ^(١) » لبكر وأغلب ابن وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الشرفات من سنداد
وأول هذه القصيدة :

ولقد علمت وإن تطاول بي المدى أن السبيل سبيل ذي الأعواد
ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
وأرى النعيم وكلما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد

قال السهيلي : الخورنق : قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنار في عشرين سنة ، ولم يُر بناء أعجب منه ، نخشى النعمان أن يبني لغيره مثله ، فألقاه من أعلاه فقتله ، ففي ذلك يقول الشاعر :

جزاني جزاء الله شر جزائه جزاء سنار وما كان ذا ذنب
سوى رضفه البنيان عشرين حجة يعد عليه بالقرامد والسكب ^(٢)
فلما انتهى البنيان يوماً تمامه وآض كمثل الطود والباذخ الصعب
رمى بسنار على حق رأسه وذلك لعمر الله من أقبح الخطب

قال السهيلي : أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان ، والسنار من أسماء القمر . والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت ؛ لما جاء الإسلام جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه - سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها ؛ حتى لم يبق للكعبة ما يضاهاها ، وعبد الله وحده لا شريك له كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

(١) بيت كانوا يطوفون به . (٢) القرامد - جمع قرمد . قال صاحب القاموس : القرمد : حجارة لها خروق تنضح ويبني بها ، والخزف الطيوخ ، والاجر - كالقرميد . والسكب : النحاس أو الرصاص .

خبر عدنان جد عرب الحجاز

وهو الذى ينتهى إليه نسب النبي صلى الله عليه وسلم

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين إسماعيل على أقوال كثيرة ؛ فأكثر ما قيل أربعون أباً وهو الموجود عند أهل الكتاب ؛ أخذوه من كتاب رخصيا كاتب إرميا بن حلقيا على ما سنده ، وقيل بينهما ثلاثون ، وقيل عشرون ، وقيل خمسة عشر ، وقيل عشرة ، وقيل تسعة ، وقيل سبعة ، وقيل إن أقل ما قيل في ذلك أربعة ؛ لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزهري عن عمته عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال : « معد بن عدنان بن أدد بن زند بن يرمى بن أعراق الثرى » . قالت أم سلمة : فزند هو الهاميسع ، ويرمى هو نبت ، وأعراق الثرى هو إسماعيل ؛ لأنه ابن إبراهيم ، وإبراهيم لم تأكله النار ، كما أن النار لا تأكل الثرى . قال الدارقطني : لانعرف زنداً إلا في هذا الحديث ، وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلي وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل - أكثر من أن يكون بينهما أربعة آباء أو عشرة أو عشرون ؛ وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر اثنتي عشرة سنة . وقد ذكر أبو جعفر الطبرى وغيره : أن الله تعالى أوحى في ذلك الزمان إلى إرميا ابن حلقيا : أن اذهب إلى بخت نصر ، فأعلمه أنى قد سلطته على العرب . وأسر الله إرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق ؛ كي لانصيبه النعمة فيهم ؛ فبنى مستخرج من صلبيه نبياً كريماً أختم به الرسل . ففعل إرميا ذلك ، واحتمل معداً على البراق إلى أرض الشام ، فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقى منهم بعد خراب بيت المقدس ، وتزوج هناك امرأة اسمها « معانة » بنت جوشن من بني ديب بن جرهم ، قبل أن يرجع إلى بلاده . ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتحضت جزيرة العرب ، وكان رخصيا كاتب إرميا قد كتب نسبه في كتاب عنده ؛ ليكون في خزانة إرميا فيحفظ نسب معد كذلك ، والله أعلم . ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب إلى ما بعد عدنان .

قال السهيلي : وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه ؛ كابن إسحاق والبخارى والزيبر بن بكار والطبرى وغيرهم من العلماء . وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فسكره ذلك ، وقال : من أين له علم ذلك ؟ فقيل له فإلى إسماعيل ، فأنكر ذلك أيضاً وقال : ومن يخبره به ؟ وكره أيضاً أن يرفع في نسب الأنبياء ، مثل أن يقال : إبراهيم بن فلان بن فلان ، هكذا ذكره المعيطى في كتابه .

قال : وقول مالك هذا - نحو ما روى عن عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين

عدنان وإسماعيل . وعن ابن عباس أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون ، وروى عن ابن عباس أيضاً أنه كان إذا بلغ عدنان يقول : كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً ، والأصح عن ابن مسعود مثله . وقال عمر بن الخطاب : إنما تنسب إلى عدنان ، وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه [الإنباه في معرفة قبائل الرواه] : روى ابن لهيعة عن أبي الأسود ، أنه سمع عمرو بن الزبير يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلا تخرصاً . وقال أبو الأسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن ابن أبي خيثمة - وكان من أعلم قریش بأشعارهم وأنسابهم - يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد ابن عدنان في شعر شاعر ولا علم عالم .

قال أبو عمر : وكان قوم من السلف ؛ منهم عبد الله بن مسعود ، وعمرو بن ميمون الأزدي ومحمد ابن كعب القرظي إذا تلاوا : (والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله^(١)) - قالوا : كذب النسابون .

قال أبو عمر رحمه الله : والمعنى عندنا في هذا غير ما ذهبوا - والمراد أن من ادعى إحصاء بني آدم ؛ فإنهم لا يعلمهم إلا الله الذي خلقهم . وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها - قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهاً قبائلها ، واختلفوا في بعض فروع ذلك .

قال أبو عمر : والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا : عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة .

قال ابن هشام : ويقال عدنان بن أد - يعني عدنان بن أد بن أدد ، ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه في قصة الخليل عليه السلام . وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً ، لا يتماهى فيها اثنان . والنسب النبوي ليه أظهر وأوضح من فلق الصبح ، وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه ، كما سنورده في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذكر أنسابها ، وانتظامها في سلك النسب الشريف ، والأصل المنيف إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . وما أحسن ما نظم النسب النبوي الإمام أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ في قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهي قوله :

مدحت رسول الله أبني بمدحه	وفور حظوظي من كريم المآرب
مدحت اسراً فاق المديح موحداً	بأوصافه عن مبعده ومقارب
نبياً تسامى في المشارق نوره	فلاحت هواديه ^(٢) لأهل المغارب

(١) من الآية : ٩ من سورة إبراهيم . (٢) جم هدى وهو : الطريقة والسيرة .

أنتذا به الأنباء قبل مجيئه
وأصبحت الكهان تهتف باسمه
وأنطقت الأصنام نطقاً تبرأت
وقالت لأهل الكفر قولاً مبيناً
ورام استراق السمع جن فزيلت
هدانا إلى مالم نكن نهتدى له
وجاء بآيات تبين أنها
فمنها انشقاق البدر حين تعممت
ومنها نبوع الماء بين بنانه
فروى به جماً غفيراً وأسهمت
وبئر طفت بالماء من مس سهمه
وضرع مرآه^(٣) فاستدر ولم يكن
ونطق فصيح من ذراع مبينة
وإخباره بالأمر من قبل كونه
ومن تلسم الآيات وحى أتى به
تقاصرت الأفكار عنه فلم يطع
حوى كل علم واحتوى كل حكمة
أناها به لاعن روية مرتىء
يواتيه طوراً في إجابة سائل
وإتيان برهان وفرض شرائع
وتصريف أمثال وتثبيت حجة
وفي جمع الغادى وفي حومة الوغى
فيأتى على ماشئت من طرقاته
يصدق منه البعض بعضاً كأنما
وعجز الورى عن أن يجيئوا بمثل ما

وشاعت به الأخبار في كل جانب
وتنفى به رجم الظنون الكواذب
إلى الله فيه من مقال الأكاذب
أناك نبي من لؤى بن غالب
مقاعدهم منها رجوم الكواكب
لطول العمى من واختات المذاهب
دلائل جبار مثيب معاقب
شعوب الضيا منه رهوس الأخاشب^(١)
وقد عدم الوراد قرب المشارب
بأعناقه طوعاً أكف المذانب^(٢)
ومن قبل لم تسمح بمذقة شارب
به درة تصفى إلى كف حالب
لكيد عدو للعداوة ناصب
وعند بواديه بما في العواقب
قريب المآتى مستجم العجائب
بليفاً ولم يخظر على قلب خاطب
وفات مرام المستمر الموارب
ولاصحف مستمل ولا وصف كاتب
وإفتاء مستفت ووعظ مخاطب
وقص أحاديث ونص مآرب
وتعريف ذى جحد وتوقيف كاذب
وعند حدوث المعضلات الغرائب
قويم المعانى مستدر الضرائب
يلاحظ معناه بعين المراقب
وصفناه معلوم بطول التجارب

(١) الأخشب: الجبل المشن العظيم، والأخاشب: جبال الصمان.

(٢) المذانب من الإبل: الذي يكون في آخر الإبل. (٣) مري الناقة: مسح ضرعها فدر لنها.

تأبى بعبد الله أكرم والد
وشيبة ذى الحمد الذى نخرت به
ومن كان يستسقى الغمام بوجهه
وهاشم البانى مشيد افتخاره
وعبد مناف وهو علم قومه اش
وإن قصياً من كريم غرامه
به جمع الله القبائل بعدما
وحل كلاب من ذرى المجد ممقلا
ومرة لم يحلل صريرة عزمه
وكعب علا عن طالب المجد كعبه
وألوى لؤى بالعادة فطوعت
وفى غالب بأس أبى اليأس دونهم
وكانت لغهر فى قريش خطابة
وما زال منهم مالك خير مالك
وللنضر طول يقصر الطرف دونه
لعمرى لقد أبدى كفانة قبله
ومن قبله أبى خزيمة حمده
ومدركة لم يدرك الناس مثله
وإلياس كان اليأس منه مقارناً
وفى مضر يستجمع الفخر كله
وحل نزار من رياسة أهله
وكان معدّ عدة لوليه
وما زال عدنان إذا عد فضله
وَأد تأدى الفضل منه بغاية
وفى أدد حلم تزين بالحجا
وما زال يستعلى هميسع بالعلى
ونبت بنته دوحة العز وابتنى

تبلج منه عن كريم المناسب
قريش على أهل العلى والمناصب
ويصدر عن آرائه فى النوائب
بغر المساعى وامتنان المواهب
تطاط الأمانى واحتكام الرغائب
لفى منهل لم يدن من كف قاضب
تقسمها نهب الأكف السوابل
تقاصر عنه كل دان وغائب
سفاه سفيه أو محوبة حائب
فقال بأدنى السعى أعلا المراتب
له همم الشم الأنوف الأغاب
يدافع عنهم كل قرن مغالب
يعوذ بها عند اشتجار المخاطب
وأكرم مصحوب وأكرم صاحب
بحيث التقى ضوء النجوم الثواب
محاسن تأبى أن تطوع لغالب
تليد تراث عن حميد الأقارب
أعف وأعلى عن ذنى المكاسب
لأعدائه قبل اعتداد الكتائب
إذا اعتركت يوماً زحوف المقائب
محلا تسمى عن عيون الرواقب
إذا خاف من كيد العدو المحارب
توحد فيه عن قرين وصاحب
وإرث حواه عن قروم أشايب
إذا الحلم أزهاه قطوب الحواجب
ويتبع آمال البعيد المراعب
معاقله فى مشمخر الأهاضب

وحكمة لقمان وهمة حاجب
فما بعده في الفخر مسمى لذهاب
له الأرض من ماش عليها وراكب
تبين منه عن حميد المضارب
مأثر لما يحصها عد حاسب
يقدر الطلي بالرهفات القواضب
ضنين على نفس المشح المغالب
ولا عابر من دونهم في المراتب
سجايا حتمهم كل زار وعائب
يعدده في المصطفين الأطايب
جريئاً على نفس السكى المضارب
يذود العدى بالذائدات الشواذب
من الله لم تقرن بهمة راغب
أبي الخزايا مستدق المآرب
مهذبة من فاحشات المثالب
وفاد بشأو الفضل وخذ الركائب
ونزهها عن مرديات المطالب
شريفاً بريئاً من ذميم العائب
وعن عوده أجنوا ثمار المناقب
جرى في ظهور الطيبين المناجب
مبرأة من فاضحات المثالب
ألاح لنا ضوءاً وفي كل غارب
وحيزت لقيذار سماحة حاتم
هوا نسل إسماعيل صادق وعده
وكان خليل الله أكرم من عنت
وتارح ما زالت له أريحية
وناحور نحر العدى حفظت له
وأشرع في الهجاء ضيغم غابة
وأرغوناب في الحروف محكم
وما فالغ في فضله تلو قومه
وشالغ وأرفشذ وسام سميت بهم
وما زال نوح عند ذى العرش فاضلاً
ولمك أبوه كان في الروع رائعاً
ومن قبل ملك لم يزل متوشلخ
وكانت لإدريس النبي منازل
ويارد ببحر عند آل سراته
وكانت لمهلاييل فهم فضائل
وقيقان من قبل اقتنى مجد قومه
وكان أنوش ناش للمجد نفسه
وما زال شيث بالفضائل فاضلاً
وكلهم من نور آدم اقبسوا
وكان رسول الله أكرم منجب
مقابلة آباؤه أمهاته
عليه سلام الله في كل شارق

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى في تهذيبه ،
من شعر الأستاذ أبي العباس عبد الله بن محمد الناشيء المعروف بابن شرشير . أصله من الأنبار ، ورد بغداد
ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، وكان متكلماً معتزلياً يحكى عنه
الشيخ أبو الحسن الأشعري ، في كتابه المقالات فيما يحكى عن المعتزلة ، وكان شاعراً مطبقاً حتى إن من

جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء في المعاني ، فينظم في مخالفتهم ويبتكر مالا يطبقونه من المعاني البديعة ، والألفاظ البليغة ، حتى نسبة بعضهم إلى التهوس والاختلاط . وذكر الخطيب البغدادي أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ، ذكرها الناجم وأرخ وفاته كما ذكرنا .

قلت : وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته ، وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، وإطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره ، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره ، فرحمه الله وأتابه ، وأحسن مصيره وإيابه .

ذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان

وذلك لأن عدنان ولد له ولدان : معد ، وعك . قال السهيلي : ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث ، وآخر يقال له المذهب ، قال : وقد ذكر أيضاً في بنيه - الضحاك . وقيل إن الضحاك ابن لمعد لا ابن عدنان . قال وقيل : إن عدن الذي تعرف به مدينة عدن ، وكذلك أبين - كانا ابني عدنان ، حكاه الطبري . فتزوج عك في الأشعرين وسكن في بلادهم من اليمن ، فصارت لغتهم واحدة ، فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم ، فيقولون : عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزدي بن يغوث ، ويقال عك بن عدنان بن الذيب بن عبد الله بن الأسد ، ويقال الديث بدل الذيب ، والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان . قال عباس بن مرداس :

وعك بن عدنان الذين تلقبوا بفسان حتى طردوا كل مطرد^(١)

وأما معد ، فولد له أربعة : نزار وقضاعة وقنص وإياد ، وكان قضاعة بكره ، وبه كان يكنى ، وقد قدمنا الخلاف في قضاعة ، ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق وغيره ، والله أعلم .

وأما قنص ، فيقال إنهم هلكوا ولم يبق لهم بقية ، إلا أن النعمان بن المنذر الذي كان نائباً لكسرى على الحيرة - كان من سلالة ، على قول طائفة من السلف ، وقيل بل كان من حمير كما تقدم ، والله أعلم .
وأما نزار ؛ فولد له ربعة ومضر وأنمار ، قال ابن هشام : وإياد بن نزار كما قال الشاعر :

وقنص حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

قال : وإياد ومضر شقيقان ، أمهما سودة بنت عك بن عدنان ، وأم ربعة وأنمار شقيقة بنت عك ابن عدنان^(٢) ، ويقال جمعة بنت عك بن عدنان ، قال ابن إسحاق : فأما أنمار فهو والد خثعم ومجيلة قبيلة جرير بن عبد الله البجلي ، قال : وقد تيامنت فلحقت باليمن قال ابن هشام : وأهل اليمن يقولون

(١) هذا البيت من قصيدة له يفخر فيها بعك . (٢) قال الطبري : اسمها - جدالة بنت وعلان من جرهم .

أثمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . قلت والحديث المتقدم في ذكر سبأ يدل على هذا ، والله أعلم .

قالوا : وكان مضر أول من حدا ؛ وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوماً عن بعيره ، فوثبت يده فجعل يقول وايدياه ! وايدياه ! فأعنت الإبل لذلك . قال ابن إسحاق : فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس وعيلان ، وولد لإلياس مدركة وطابخة وقمعة ، وأمهم خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاة . قال ابن إسحاق : وكان اسم مدركة - عامراً ، واسم طابخة - عمراً ، ولكن اصطادا صيداً ، فبينهما يطبخانه إذ نفرت الإبل ، فذهب عامر في طلبها حتى أدركها ، وجاس الآخر يطبخ . فلما راحا على أبيهما ذكر له ذلك ، فقال لعامر : أنت مدركة ، وقال لعمرو : أنت طابخة . قال : وأما قمعة فيزعم نساب مضر أن خزاعة من ولد عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس ، قلت والأظهر أنه منهم لا والدهم ، وأنهم من حمير كما تقدم ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فولد مدكة خزيمية وهذيل ، وأمهما امرأة من قضاة . وولد خزيمية كنانة وأسداً وأسدة والهون . قال فولد كنانة بن خزيمية أربعة : النضر ومالك وعبد مناة ومالكان ، وزاد أبو جعفر الطبري في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة - عامراً والحارث وغنماً وسعداً وعوقاً وجرولاً وألحداً وعزوان^(١) .

الكلام على قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً وهم بنو النضر بن كنانة

قال ابن إسحاق : وأم النضر برة بنت مر بن أد بن طابخة ، وسائر بنيها لامرأة أخرى ، وخالفه ابن هشام ؛ فجعل برة بنت مر - أم النضر ومالك ومالكان ، وأم عبد مناة - هالة بنت سويد بن الغطريف من أزد شنوءة . قال ابن هشام : النضر هو قريش ؛ فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وقال : ويقال فهر بن مالك هو قريش ؛ فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب ؛ كالشيخ أبي عمر ابن عبد البر والزبير بن بكار ومصعب وغير واحد . قال أبو عبيد وابن عبد البر : والذي عليه الأكثر أن النضر بن كنانة ؛ لحديث الأسعد بن قيس ، قلت : وهو الذي نص عليه هشام بن محمد ابن السائب الكلبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو جادة مذهب الشافعي رضي الله عنه . ثم اختار أبو عمر أنه فهر بن مالك ، واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك ، ثم حكى اختيار هذا القول عن الزهير بن بكار ومصعب الزبيري وعلي بن كيسان .

(١) وكذلك زاد الطبري : مخزومة وعمرو ، وهؤلاء إخوة النضر لأبيه وأمه - ماعدا عبد مناة فإنه أخوهم من أبيهم .

قال وإليهم المرجع في هذا الشأن : وقد قال الزبير بن بكار : وقد أجمع نساب قريش وغيرهم على أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك . والذي عليه من أدركت من نساب قريش : أن ولد فهر بن مالك قرشى ، وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ، ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً وتحامى له بأنه ونحوه أعلم بأنساب قومهم وأحفظ لما تروهم . وقد روى البخارى من حديث كليب بن وائل قال : قلت لربيعة النبي ﷺ - يعنى زينب - في حديث ذكره : أخبر بنى عن النبي ﷺ أكان من مضر؟ قالت فمن كان إلا من مضر من بنى النضر بن كنانة ؟ . وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ، ثنا الحسن بن صالح عن أبيه عن جفشيش الكندى قال : جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا أنت منا وادعوه ، فقالوا : « لا - نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقف أمنا ولا نتنفي من أيينا » .

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد : حدثنا أبي ثنا الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس قال جاء رجل من كندة يقال له جفشيش إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ! إنا نزعم أن عبد مناف منا ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقف أمنا ولا نتنفي من أيينا » ، فقال الأشعث : ألا كنت سكت من المرة الأولى؟ فأبطل ذلك قولهم على لسان نبيه ﷺ ، وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه - والكلبى ضعيف - والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان قالا : ثنا حماد بن سامة ، قال حدثني عقيل بن أبي طلحة وقال عفان عقيل بن طلحة السامى عن مسلم بن الهيصم عن الأشعث بن قيس ، أنه قال : أنبت رسول الله ﷺ في وفد كندة - قال عفان - لا يرونى أفضلهم ، قال : فقلت يا رسول الله ! إنا نزعم أنكم منا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقف أمنا ولا نتنفي من أيينا » . قال فقال الأشعث بن قيس : فوالله لأسمع أحداً نفي قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلده الحد . وهكذا رواه ابن ماجة من طرق عن حماد بن سامة به ، وهذا إسناد جيد قوى ، وهو فيصل في هذه المسألة فلا التفات إلى قول من خالفه والله أعلم والله الحمد والمنة . وقد قال جرير بن عطية التميمى يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان :

فا الأم التي ولدت قريشاً بمقرفة النجار^(١) ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أيكم ولا خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام : يعنى أم النضر بن كنانة ، وهى برة بنت مرة أخت تميم بن مر .

(١) المقرف : الذى أمه عربية وأبوه ليس يعربى ، والنجار : الأصل - كالنجير .

وأما اشتقاق قریش فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق ، وذلك في زمن قصي بن كلاب ،
فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتي بيانه . وقد قال حذافة بن غانم العدوي :
أبوكم قصي كان يدعى مُجمَعًا به جمع الله القبائل من فهر
وقال بعضهم : كان قصي يقال له قریش ؛ قيل من التجمع ، والتقرش التجمع ، كما قال
أبو خلدة البشكري :

إخوة قرشوا الذنوب علينا في حديث من دهرنا وقديم

وقيل سميت قریش ؛ من التقرش وهو التكسب والتجارة ، حكاها ابن هشام رحمه الله .

وقال الجوهري : القرش - الكسب والجمع ، وقد قرش يقرش ، قال الفراء : وبه سميت قریش وهي
قبيلة وأبوهم النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قرشي دون ولد كنانة فما فوقه . وقيل من
التقریش ؛ قال هشام بن الكلبي : كان النضر بن كنانة يُسمى قریشًا ؛ لأنه كان يقرش عن خلة الناس
وحاجتهم فيسدها بماله ، والتقریش هو التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيردونهم
بما يباغهم بلادهم ، فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم - قریشًا ، وقد قال الحارث بن حلزة في بيان أن
التقرش - التفتيش :

أيها الناطق المقرش عنا عند عمرو فهل له إبقاء^(١) ؟

حكى ذلك الزبير بن بكار ، وقيل قریش تصغير قرش ، وهو دابة في البحر . قال بعض الشعراء :

وقریش هي التي تسكن البحر ر بها سميت قریش قریشًا

قال البيهقي : أخبرنا أبو نصر بن قتادة ، أنبأنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني ، حدثنا محمد بن الحسن
ابن الخليل النسوي - أن أبا كريب حدثهم ، حدثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن عمرو عن أبيه عن
أبي ركانة العامري ، أن معاوية قال لابن عباس : فلم سميت قریش قریشًا ؟ فقال : لدابة تكون
في البحر هي أعظم دوابه ، يقال لها القرش ؛ لا تمر بشيء من الفث والسمين إلا أكلته ، قال فأنشدني
في ذلك شيئًا ، فأنشده شعر الجمحي إذ يقول :

وقریش هي التي تسكن البحر ر بها سميت قریش قریشًا

تأكل الفث والسمين ولا تتركن لدى الجناحين ريشًا

هكذا في البلاد حتى قریش يأكلون البلاد أكلًا كمدشا^(٢)

ولهم آخر الزمان نبي يكتر القتل فيهم والخموشا

وقيل سمو بقریش بن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة ، وكان دليل بني النضر وصاحب

(١) قال في اللسان : عناه بمن ؛ لأن فيه معنى الناقل عنا . (٢) أي سرعًا .

ميرتهم ، فكانت العرب تقول قد جاءت غير قريش ، قالوا : وابن بدر بن قريش - هو الذي حفر
البر المذسوبة إليه ، التي كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله أعلم .
ويقال في النسبة إلى قريش قرشي وقريشي ؛ قال الجوهري وهو القياس . قال الشاعر :

لكل قريشي عليه مهابة مربع إلى داعي النداء والتكرم

قال : فإذا أردت بقريش الحى صرفته ، وإن أردت القبيلة منعمته ، قال الشاعر في ترك الصرف :

وكفى قريش المعضلاتِ وسادها^(١)

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي عمر والأوزاعي قال : حدثني شداد أبو عمار ، حدثني
واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً
من كنانة ، واصطفى هاشمًا من قريش ، واصطفاني من بني هاشم » . قال أبو عمر بن عبد البر ، يقال :
بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ ، وبنو هاشم نخذه ، وبنو عبد مناف بطنه ، وقريش عمارته ،
وبنو كنانة قبيلته ، ومضر شعبه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . ثم قال ابن إسحاق :
فولد النضر بن كنانة - مالكا ومخلداً ، قال ابن هشام : والصلت ، وأمهم جميعاً بنت سعد بن الظرب
العدواني . قال كثير بن عبد الرحمن - وهو كثير عزة - أحد بني مليح بن عمرو من خزاعة :

أليس أبي بالصلت أم ليس إخوتي لكل هجان من بني النضر أزهرها

رأيت ثياب العصب مختلط السدى بنا وبهم والحضرمي المحصر^(٢)

فإن تكونوا من بني النضر فاتركوا أراك بأذنان الفوايح أخضرا

قال ابن هشام : وبنو مليح بن عمرو - يعزون إلى الصلت بن النضر .

قال ابن إسحاق : فولد مالك بن النضر - فهر بن مالك ، وأمه جندلة بنت الحارث بن مضا
الأصغر . فولد فهر - غالباً ومحارباً والحارث وأسداً ، وأمهم ليلي بنت سعد بن هذيل بن مدركة .
قال ابن هشام : وأختهم لأبيهم جندلة بنت فهر . قال ابن إسحاق : فولد غالب بن فهر - لؤي بن
غالب وتيم بن غالب ، وهم الذين يقال لهم بنو الأدرم ، وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعي . قال ابن
هشام : وقيس بن غالب ، وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي ، وهي أم لؤي وتيم بن غالب . قال
ابن إسحاق : فولد لؤي بن غالب أربعة نفر ؛ كعباً وعامراً وسامة وعوقفاً . قال ابن هشام : ويقال -
والحارث ، وهم جشم بن الحارث في هزان من ربيعة ، وسعد بن لؤي وهما : بنانة في شيبان بن ثعلبة ،
وبنانة حاضنة لهم ، وخزيمة بن لؤي وهم عائذة في شيبان بن ثعلبة .

(١) البيت لعدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك وأوله : غلب السامح الوليد سماحة .

(٢) العصب : نوع من البرود اليمنية ، والمراد بالحضرمي المحصر : النعال الضيقة من جانبيها .

ثم ذكر ابن إسحاق خبر سامة بن لؤى ، وأنه خرج إلى عمان فكان بها وذلك لشفان كان بينه وبين أخيه عامر ، فأخافه عامر فخرج عنه هارباً إلى عمان ، وأنه مات بها غربياً ، وذلك أنه كان يرعى ناقته فعلمت حية بمشفرها فوقعت لشقها ، ثم نهشت الحية سامة حتى قتلتها فيقال إنه كتب بأصبعه على الأرض :

عين فابكي لسامة بن لؤى علقت مابسامة العلاءه^(١)
لا أرى مثل سامة بن لؤى يوم حلوا به قتيلا لناقاه
بلغا عامراً وكعباً رسولاً أن نفسى إليهما مشتاقه
إن تكن في عمان داري فإني غالبى خرجت من غير فاقه
رب كأس هرقت يا بن لؤى حذر الموت لم تكن مهراقه
رمت دفع الختوف يا بن لؤى ملن رام ذلك بالختف طاقه
وخروس السرى تركت رذياً بعد جدّ وحدة ورشاقه

قال ابن هشام : وبلغنى أن بعض ولده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤى ، فقال له رسول الله ﷺ : « آلساعر » ؟ فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

ربّ كأس هرقت يا بن لؤى حذر الموت لم تكن مهراقه

فقال : « أجل » وذكر السهيلي عن بعضهم أنه لم يعقب . وقال الزبير : ولد أسامة بن لؤى - غالباً والنبيت والحارث ، قالوا وكانت ذرية بالعراق يبغضون علياً ، ومنهم على بن الجهم ؛ كان يشتم أباه لكونه سماه علياً . ومن بنى سامة بن لؤى - محمد بن عمر عرة بن الزيد شيخ البخارى .

وقال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤى فإنه خرج - فيما يزعمون - فى ركب من قرش ، حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطىء به ، فانطلق من كان معه من قومه ، فأناه ثعلبة بن سعد - وهو أخوه فى نسب بنى ذبيان - فحسه وزوجه والتاطه^(٢) وآخاه ، فشاع نسبه فى بنى ذبيان . وثعلبة - فيما يزعمون - الذى يقول لعوف حين أبطىء به فتركه قومه .

احبس على ابن لؤى بجملك تركك القوم ولا منزل لك

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير - أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين - أن عمر بن الخطاب قال : لو كنت مدعيًا حياً من العرب ، أو ملحقهم بنا - لادعيت بنى مرة بن عوف ؛ إنا لنعرف منهم الأشباه ، مع مانعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع - يعنى عوف بن لؤى .

قال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم : أن عمر بن الخطاب قال لرجال منهم من بنى مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه . قال ابن إسحاق : وكان القوم أشرفاً فى غطفان ؛ هم سادتهم

(١) فى نسخة : ساق سامة - بدل : مابسامة (٢) التاطه : ادعاه ولداً وليس له .

وقادتهم ، قوم لهم صيت في غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم . قالوا وكانوا يقولون إذا ذكر لهم نسبهم : ما ننكره وما نبجده ، وإنه لأحب النسب إلينا ، ثم ذكر أشعارهم في اتناهم إلى لؤى .

قال ابن إسحاق : وفيهم كان البسل ؛ وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب ، وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمنونهم أيضاً . قلت : وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة وهي ذو القعدة وذو الحجة والحرم ، واختلفت ربيعة ومضر في الرابع وهو رجب ؛ فقالت مضر : هو الذي بين جمادى وشعبان ، وقالت ربيعة : هو الذي بين شعبان وشوال . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في خطبة حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ؛ منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ، فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة . وقد قال الله عز وجل : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ^(١)) . فهذا رد على بنى عوف بن لؤى في جعلهم الأشهر الحرم ثمانية ؛ فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه . وقوله في الحديث : ثلاث متواليات - رد على أهل النسيء ، الذين كانوا يؤخرون تحريم الحرم إلى صفر . وقوله فيه : ورجب مضر - رد على ربيعة .

قال ابن إسحاق : فولد كعب بن لؤى ثلاثة : مرة ، وعدياً ، وهصيصاً . وولد مرة ثلاثة أيضاً : كلاب ابن مرة ، وتيم بن مرة ، ويقظة بن مرة من أمهات ثلاث . قال وولد كلاب رجلين : قصي بن كلاب ، وزهرة بن كلاب ، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل - أحد الجذرة من خثمة ^(٢) الأسد من اليمن ، حلفاء بنى الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وفي أبيها يقول الشاعر :

ماترى في الناس شخصاً واحداً من علمناه كسعد بن سيل
فارساً أضبط ^(٣) فيه عسرة وإذا ماواقف القرن نزل
فارساً يستدرج الخيل كما اس تدرج الحر القطامي الحجل

قال السهيلي : سيل - اسمه خير بن جمالة ، وهو أول من طليت له السيوف بالذهب والفضة .

قال ابن إسحاق : وإنما سموها الجذرة ؛ لأن عامر بن عمرو بن خزيمه بن خثمة تزوج بنت الحارث ابن مضاض الجرهمي ، وكانت جرمم إذ ذاك ولاية البيت ، فبنى للكعبة جداراً فسمى عامر بذلك الجادر ، فقيل لولده الجذرة لذلك .

(١) الآية : ٣٦ من سورة التوبة . (٢) وقيل : جثمة .

(٣) الأضبط : الذي يعمل بكتنا يديه ؛ يعمل بيساره كما يعمل بيمينه ، ويقال له أيضاً : « أعسر يسر » .

خبر قصي بن كلاب ، وما كان من أمره في ارتجاعه ولأية البيت إلى قريش

وانتزاعه ذلك من خزاعة ، واجتماع قريش إلى الحرم الذي جعله الله أمناً للعباد

بعد تفرقها في البلاد ، وتمزقها في الجبال والمهاد

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمه ربيعةُ بن حرام من عذرة ، وخرج بها وبه إلى بلاده ، ثم قدم قصي مكة وهو شاب فتزوج حُبيّ ابنة رئيس خزاعة حُلَيْل بن حُبَيْشِيَّة . فأما خزاعة فتزعم أن حليلاً أوصى إلى قصي بولاية البيت ؛ لما رأى من كثرة نسله من ابنته ، وقال أنت أحق بذلك مني . قال ابن إسحاق : ولم نسمع ذلك إلا منهم . وأما غيرهم فإنهم يزعمون أنه استغاث بإخوته من أمه ، وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة وأخوته وبنو كنانة وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم ، فأجلاهم عن البيت واستقل هو بولاية البيت ^(١) ، لأن إجازة ^(٢) الحجيج كانت إلى صوفة ، وهم بنو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ، ولا ينفرون من منى حتى ينفروا ، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقضوا فورثهم ذلك بالقمعد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، فكان أولهم صفوان بن الحارث بن شجينة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . وكان ذلك في بيته حتى قام على آخرهم الإسلام - وهو كَرِب بن صفوان . وكانت الإجازة من المزدلفة في عدوان ، حتى قام الإسلام على آخرهم - وهو أبو سيارة غميلة بن الأعزل ، وقيل اسمه العاص واسم الأعزل خالد ، وكان يجيز بالناس على أنان له عوراء ، مكث يدفع عليها في الموقف أربعين سنة ، وهو أول من جعل الدية مائة ، وأول من كان يقول : أشرق ثبير كما نغير ؛ حكاة السهيلي .

وكان عامر بن الظرب المدونى لا يكون بين العرب نائرة إلا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضى به ، فتحاكموا إليه مرة في ميراث خنثى ، فبات ليلته ساهراً يتروى ماذا يحكم به ، فرأته جارية له كانت ترعى عليه غنمه اسمها « سُخَيْلَة » ، فقالت له مالك - لأبالك - الليلة ساهراً ؟ فذكر لها ما هو مفكر فيه ، وقال : لعلمها يكون عندها في ذلك شيء . فقالت : أتبع القضاء المبال ^(٣) فقال فرجتها والله يا سُخَيْلَة ، وحكم بذلك . قال السهيلي : وهذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات . وله أصل في الشرع ، قال الله تعالى : (وجاءوا على قميصه بدم كذب) حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه ، وقال تعالى : (إن كان قميصه

(١) ذكر الطبري عن ابن إسحاق : أنه لما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه ، وهلك حليل - رأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأسرة مكة من خزاعة وبنو بكر . فكلم رجلاً من قريش وبنو كنانة ، ودعاهم إلى مناصرته ، ولإخراج خزاعة وبنو بكر من مكة ، فأجابوه إلى ما طلب ، كما أجابه إلى ذلك أخوه من أمه رزاح ، ولإخوته لأبيه .

(٢) أى الإفاضة بهم من عرفات ، وكان أحدهم يقوم فيقول : أجزى صوفة ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة .

(٣) أى اجعله تابعاً له ؛ فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة فهي امرأة .

قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (وفي الحديث : - « أنظروها فإن جاءت به أورك^(١) جمعاً جالياً فهو الذي رميت به » . قال ابن إسحاق : وكان النسب في بني فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمية بن مدركة بن إلياس بن مضر .

قال ابن إسحاق : وكان أول من نسا الشهور على العرب القلمس ، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدى ، ثم قام بعده ابنه عباد ، ثم قلع بن عباد ، ثم أمية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن قلع بن عباد بن حذيفة - وهو القلمس ، فعلى أبي ثمامة قام الإسلام ، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فخطبهم فحرم الأشهر الحرم ، فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم وجعل مكانه صفر ؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيقول : اللهم إني أحلت أحد الصفرين : الصفر الأول وأنسات الآخر للعام المقبل فتتبعه العرب في ذلك . ففي ذلك يقول عمير بن قيس أحد بني فراس بن غنيم بن مالك بن كنانة ، ويعرف عمير بن قيس هذا - بجذال الطمان :

لقد علمت معدّ أن قومي كرامُ الناس أن لهم كرام
فأى الناس فاتونا بوتر وأى الناس لم نعلك لجاماً
ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراماً ؟

وكان قصي في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً . والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة وإجلالهم عن البيت ، وتسليمه إلى قصي ، فكان بينهم قتال كثير ، ودماء غزيرة . ثم تداعوا إلى التحكيم ، فتحاكموا إلى يعمر ابن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع - يشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابته خزاعة وبني بكر من قريش وكنانة وقضاعة - ففيه الدية مؤداة ، وأن يخلى بين قصي وبين مكة والكعبة ، فسمى يعمر يومئذ : الشدابخ^(٢) .

قال ابن إسحاق : فولى قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فلسكوه ، إلا أنه أقر العرب على ما كانوا عليه ؛ لأنه كان يرى ذلك ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره ، فأقر آل صفوان وعدوان والنساء ومرة بن عوف - على ما كانوا عليه . حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله . قال : فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكاً أطاع له به قومه ، وكانت إليه الحجابة

(١) الأورك من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد ، والرماد .

(٢) وذلك لما شدخ من الدماء - أي أبطل ووضع منها .

والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة .

قلت : فرجع الحق إلى نصابه ، ورد شارد العدل بعد إيايه ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خزاعة المراد والأوطار ، وآسأت بيثهم العتيق القديم ؛ لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ، ونحرم لها وتضرعهم عندها ، واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها . وأنزل قصى قبائل قريش أباطح مكة ، وأنزل طائفة منهم ظواهرها ؛ فكان يقال : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . فكانت لقصى بن كلاب جميع الرئاسة ؛ من حجابة البيت وسدائنه ، واللواء . وبنى داراً لإراحة الظلمات وفصل الخصومات - سماها دار الندوة ؛ إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفضلوها . ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح إلا بها ، ولا تبلغ جارية أن تدرع^(١) فتدرع إلا بها ، وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام ، ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد بنى عبد الدار ، فباعها في زمن معاوية بمائة ألف درهم ، فلامه على بيعها معاوية وقال : بعث شرف قومك بمائة ألف ؟ فقال إنما الشرف اليوم بالتقوى ، والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزق خمر ، وها أنا قد بعثها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها صدقة في سبيل الله ، فأبنا المفبون ؟ ذكره الدارقطني في أسماء رجال الموطن . وكانت إليه سقاية الحجيج ؛ فلا يشربون إلا من ماء حياضه ، وكانت زمزم إذ ذاك مطموسة من زمن جرهم ، قد تناسوا أمرها من تقادم عهدا ، ولا يهتدون إلى موضعها . قال الواقدي : وكان قصى أول من أحدث وقيد النار بالمرذلفة ؛ ليهتدى إليها من يأتي من عرفات . والرفادة - وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم .

قال ابن إسحاق : وذلك أن قصياً فرضه عليهم فقال لهم : يا معشر قريش ! إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم - ففعلوا ؛ فكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خراجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية ، حتى قام الإسلام . ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا ؛ فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينتفضي الحج .

قلت : ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق . ثم أمر بإخراج طائفة من بيت المال فيصرف في حمل زاد وماء لأبناء السبيل القاصدين إلى الحج ، وهذا صنيع حسن من وجوه بطول ذكرها . ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أحل ما فيه ، والأولى أن يكون من جوالي الذمة ؛ لأنهم لا يحجون البيت العتيق . وقد جاء في الحديث : « من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً » . وقال قائلهم في مدح قصى وشرفه في قومه :

(١) ادعت الجارية : ليست الدرع . ودرع المرأة : قبصها ، مذكر والجمع أدراع .

قصي لعمرى كان يدعى مجمماً به جمع الله القبائل من فهر
هو اماؤا البطحاء مجدأ وسؤدداً وهم طردوا عنا غواة بنى بكر

قال ابن إسحاق : ولما فرغ قصي من حربه ، انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه
وإخوته من أبيه الثلاثة ؛ وهم : حنّ ومحمود وجلهمة . قال رزاح في إجابته قصياً :

ولما أتى من قصي رسول فقال الرسول : أجيئوا الخليليا
نهضنا إليه نقود الجيا د ونطرح عنا للمول الثقيليا
نسير بها الليل حتى الصبا ح ونكمتي^(١) النهار لثلا نزولا
فهن سراع كورد القطا يجبين بنا من قصي رسولا
جمعنا من السر من أشمذين^(٢) ومن كل حى جمعنا قبيليا
فيالك حلبة ما ليلة تزيد على الألف سيباً رسيلا
فلما مررن على عسجر^(٣) وأسهنن من مستفناخ سبيليا
وجاوزن بالركن من ورقان وجاوزن بالعرج حياً حلولا
مررن على الحلى ما ذقنه وعالجن من مرّة ليلاً طويلا
ندنى من العوذ^(٤) أفلاها وإرادة أن يسترقن الصهيليا
فلما انهمينا إلى مكة أبجنا الرجال قبيليا قبيليا
نعاورهم^(٥) ثمّ حد السيوف وفي كل أوب خلشنا العقولا
نخبزهم^(٦) بصلاب النسو ر خبز القوى العزيز الذليليا
قتلنا خزاعة في دارها وبكرأ قتلنا وجيلا فجيليا
نفيناهم من بلاد الملي ك كما لا يحلون أرضاً سهولا
فأصبح سبيهم في الحديد ومن كل حى شفينا الغليليا

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حنّاً ، فهما قبيليا عذرة إلى اليوم .

قال ابن إسحاق : وقال قصي بن كلاب في ذلك :

أنا ابن العاصمين بنى لؤى بمكة منزلى وبها ربيت
إلى البطحاء قد علمت معد ومروتها رضيت بها رضيت

(١) نكمتي : نكمت ونستتر . يقال : كمت نفسه - سترها بالدرع (٢) اسم لجيلين : وقيل : اسم قبيلتين .
(٣) اسم موضع (٤) العوذ : الحديدات التاج - جمع عائد . والأفلاء جمع فلو ، وهو المهر العظيم ، والبالغ سفة .
(٥) تعاون عليهم بالضرب واحداً بعد واحد . (٦) نسوتهم سوفاً شديداً .

فلست لغالب إن لم تأتلب بها أولاد قيسذر والنبيت
رزاح ناصرى وبه أسامى فلست أخاف ضيما ماحييت

وقد ذكر الأموى عن الأشرم عن أبى عبيدة عن محمد بن حفص : أن رزاحاً إنما قدم بعد مانفى
قصى خزاعة ، والله أعلم .

فصل

ثم لما كبر قصى فوض أمر هذه الوظائف التى كانت إليه ؛ من رئاسات قريش وشرفها ؛ من الرفاة
والسقاية والحجابة واللواء والندوة - إلى ابنه عبد الدار ، وكان أكبر ولده ، وإنما خصصه بها كلها لأن
بقية إخوته : عبد مناف وعبد الشمس وعبداد - كانوا قد شرفوا فى زمن أبيهم ، وبلغوا فى قوتهم شرفاً
كبيراً ، فأحب قصى أن يلحق بهم عبد الدار فى السؤدد فخصصه بذلك ، فكان إخوته لا ينازعونه
فى ذلك . فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم فى ذلك ، وقالوا إنما خصص قصى عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته
فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه . وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنا قصى ، فنحن أحق به ،
واختلفوا اختلافاً كثيراً . وانقسمت بطون قريش فرقتين ؟ فرقة بايعت عبد الدار وحالفتهم ، وفرقة
بايعت بنى عبد مناف وحالفوهم على ذلك ، ووضعوا أيديهم عند الحالف فى جففة فيها طيب ، ثم لما قاموا
مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسموا الحلف المطيبين^(١) وكان منهم من قبائل قريش : بنو أسد بن عبد
العزى بن قصى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر . وكان مع بنى عبد الدار : بنو مخزوم
وبنو مهم ، وبنو جمح ، وبنو عدى . واعتزلت بنو عامر بن لؤى ومحارب بن فهر الجميع ، فلم يكونوا
مع واحد منهما . ثم اصطالحوا واتفقوا على أن تكون الرفاة والسقاية لبنى عبد مناف ، وأن تستقر
الحجابة واللواء والندوة فى بنى عبد الدار ، فانبرم الأمر على ذلك واستمر .

وحكى الأموى عن الأشرم عن أبى عبيدة قال : وزعم قوم من خزاعة أن قصياً لما تزوج حبي
بنت حليل ، ونقل حليل عن ولاية البيت - جعلها إلى ابنته حبي ، واستناب عنها أبا غبشان سليم بن
عمرو بن لؤى بن ملكان بن قصى بن حارثة بن عمرو بن عامر ، فاشترى قصى ولاية البيت منه بزق
خمر وبعود^(٢) ؟ فكان يقال : أخسر من صفقة أبى غبشان . ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصى
فاستنصر أخاه فقدم بمن معه وكان ما كان . ثم فوض قصى هذه الجهات التى كانت إليه ؛ من السدانة
والحجابة واللواء والندوة والرفاة والسقاية - إلى ابنه عبد الدار كما سيأتى تفصيله وإيضاحه . وأقر الإجازة

(١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من المطيبين . (٢) العود : المسن من الإبل .

من مزدلفة في بني عدوان ، وأقر النسيء في قُقيم ، وأقر الإجازة - وهي النَّفَر - في صوفة ، كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك .

قال ابن إسحاق : فولد قصي أربعة نفر وامرأتين : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العزى ، وعبداء ، وتخمر ، وبرة . وأمهم كلهم حُبَي بنت حُلَيْل بن حُبَشِيَّة بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي ، وهو آخر من ولي البيت من خزاعة ، ومن يده أخذ البيت قصي كلاب . قال ابن هشام : فولد عبد مناف بن قصي أربعة نفر : هاشمًا ، وعبد شمس ، والمطلب - وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال ، ونوفل بن عبد مناف - وأمه وافدة بنت عمرو المازنية . قال ابن هشام : وولد لعبد مناف أيضاً : أبو عمرو ، وتماضر ، وقلابة ، وحية ، وريطة ، وأم الأحمم ، وأم سفيان .

قال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة : عبد المطلب وأسدًا وأبا صيفي ونضلة ، والشفا وخالدة وضعيفة ورقية وحية . فأُم عبد المطلب ورقية - سلمى بنت عمرو بن زيد ابن ليبيد بن خدّاش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار من المدينة ، وذكر أمهات الباقيين . قال : وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة ، وهم : العباس وحزرة وعبد الله وأبو طالب - واسمه عبد مناف لاعمران ، والزبير والحارث - وكان بكر أبيه وبه كان يكنى ، وجعل - ومنهم من يقول جعل - وكان يلقب بالغيذاق لكثرة خيره ، والمقوم وضرار وأبو لهب - واسمه عبد العزى ، وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة . وذكر أمهاتهم إلى أن قال : وأم عبد الله وأبي طالب والزبير وجميع النساء - إلا صفية - فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . قال : فولد عبد الله محمدًا رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، وأمه آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، ثم ذكر أمهاتها فأغرق - إلى أن قال : فهو أشرف ولد آدم حسبًا وأفضلهم نسبًا من قبل أبيه وأمه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقد تقدم حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ ، « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى هاشمًا من قريش ، واصطفاني من بني هاشم » ، رواه مسلم . وسيأتي بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد آخر ليست هاهنا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر جمل من الأحداث الواقعة في زمن الجاهلية

قد تقدم ما كان من أخذ جرهم ولاية البيت من بنى إسماعيل ؛ طمءوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم . وما كان من توثب خزاعة على جرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم . ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قصى وبنيه ، واستمرار ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأقر تلك الوظائف على ما كانت عليه .

باب ذكر جماعة مشهورين كانوا في الجاهلية

خبر خالد بن سنان العبسى الذى كان في زمن الفترة

وقد زعم بعضهم أنه كان نبياً ، والله أعلم

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التستري ، حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور الرازى ، حدثنا محمد بن الصلت ، حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه وقال : « بنت نبي ضيمه قومه » . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى بن منصور عن محمد بن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس قال : ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : « ذاك نبي ضيمه قومه » . ثم قال : ولانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . وكان قيس بن الربيع ثقة في نفسه ، إلا أنه كان ردىء الحفظ ، وكان له ابن يدخل في أحاديثه ما ليس منها ، والله أعلم .

قال البزار : وقد رواه الثورى عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلًا ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا المعلى بن مهدي الموصلى قال : حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلاً من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إني أظن أن عنكم نار الحرتين ، فقال له رجل من قومه^(١) والله يا خالد ما قلت لنا قط إلا حقاً ، فما شأنك وشأن نار الحرتين تزعم أنك تظنهما ؟ فخرج خالد ومعه أناس من قومه^(٢) فيهم عمارة بن زياد فأتوها ، فإذا هي تخرج من شق جبل ، فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها ، فقال إن أبطأت عليكم فلا تدعوني باسمي ، فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً ، فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول : بدا بدا بدا كل هدى ، زعم ابن راعية المعزى أتى لا أخرج منها وثيابي بيدي ، حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم . فقال لهم عمارة بن زياد : والله إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بمد . قالوا : فادعوه باسمه ، قال : فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه . فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه ، فقال : ألم أنبئكم أن تدعوني باسمي ؟ فقد والله قتلتهموني فادفونوني ، فإذا مرت بكم الحجر فيها حمار أبترا فانبشوني ، فإني أنبئكم تجدونني حياً . فدفنوه فمرت بهم الحجر

(١) هو عمارة بن زياد كما صرح به في بعض المصادر (٢) قيل كان عدتهم ثلاثين .

فيها حمار أتر ، فقلنا انبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه . فقال لهم عمارة لا تنبشوه ، لا والله لا يتحدث مضر أنا ننبش موتانا . وقد كان قال لهم خالد : إن في عكن امرأته لوحين ، فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما ، فإنكم ستجدون ما تسألون عنه . قال ولا يمسهما حائض . فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما ، فأخرجتهما إليهم وهي حائض ، فذهب ما كان فيهما من علم .

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : سئل عنه النبي ﷺ فقال : « ذاك نبي أضاعه قومه » . قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان أتى النبي ﷺ فقال : مرحباً بابن أخي فهذا السياق موقوف على ابن عباس ، وليس فيه أنه كان نبياً . والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتج بها هاهنا ، والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات ؛ فإنه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أولى الناس بعيسى بن مريم أنا ؛ لأنه ليس بيني وبينه نبي » . وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً ؛ لأن الله تعالى قال : (لتنذر قوماً ما أناهم من نذير من قبلك) ، وقد قال غير واحد من العلماء : إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً في العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء ، الذي دعا به إبراهيم الخليل بأبي الكعبة المكربة التي جعلها الله قبلة لأهل الأرض شرعاً ، وبشرت به الأنبياء لقومهم ، حتى كان آخر من بشر به عيسى بن مريم عليه السلام .

وبهذا المسلك بعينه رد ما ذكره السهيلي وغيره ؛ من إرسال نبي من العرب يقال له : شعيب بن ذي مهزم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين ، وأنه بعث إلى العرب أيضاً حفظة بن صفوان فكذبوها ، فسلط الله على العرب بخت نصر ، فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل ، وذلك في زمن معد بن عدنان . والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم . وقد تقدم ذكر عمرو بن لحي بن قعدة بن خندف في أخبار خزاعة بعد جرحه .

ذكر حاتم الطائي أحد أجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدى بن أحزم بن أبي أحزم - واسمه هرومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الفوث بن طيء ، أبو سفانة الطائي ، والد عدى ابن حاتم الصحابي . كان جواداً ممدوحاً في الجاهلية ، وكذلك كان ابنه في الإسلام . وكانت لحاتم مآثر وأمر عجيبة ، وأخبار مستغربة في كرمه يطول ذكرها ، ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، وإنما كان قصده السمعة والذكر ؛ قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا عبيد بن واقد القيسي ، حدثنا أبو نصر - هو الناجي ، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : ذكر حاتم عند النبي ﷺ فقال : « ذاك أراد أمراً فأدركه » ، حديث غريب . قال الدارقطني : تفرد به عبيد بن واقد عن أبي نصر الناجي - ويقال إن اسمه حماد .

قال ابن عساکر : وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبي نصر الناجي وبين أبي نصر حماد ولم يسم الناجي ، ووقع في بعض روايات الحافظ بن عساکر عن أبي نصر شعبة الناجي ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن إسماعيل ، حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مري بن قطري عن عدى بن حاتم قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن أبي كان يصل الرحم ويفعل ويفعل ، فهل له في ذلك ؟ يعني من أجر . قال : « إن أباك طلب شيئاً فأصابه » ، وهكذا رواه أبو يعلى عن القواريري عن غندر عن شعبة عن سماك به . وقال : « إن أباك أراد أمراً فأدرکه » - يعني الذكر . وهكذا رواه أبو القاسم البغوي عن علي بن الجعد عن شعبة به سواء . وقد ثبت في الصحيح في الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم ؛ منهم الرجل الذي ينفق ليقال إنه كريم ، فيكون جزاؤه أن يقال ذلك في الدنيا ، وكذا في العالم والمجاهد . وفي الحديث الآخر في الصحيح ، أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، فقالوا له : كان يقرى الضيف ويعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً ، المطعمين في السنين المحللة والأوقات المرملة .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العاني ، حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الله الكوفي ، حدثنا ضرار بن سرد ، حدثنا عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن كميل بن زياد النخعي قال : قال علي بن أبي طالب : ياسبحان الله ! ما أزهده كثيراً من الناس في خير ! عجيباً لرجل يحميه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ؛ فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً - لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق ؛ فإنها تدل على سبيل النجاح . فقام إليه رجل وقال : فذاك أبي وأمي يا أمير المؤمنين ! أسمعت من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم ! وما هو خير منه . لما أتى بسبايا طيء وقعت جارية حمراء لعساء زلفاء عيطاء^(١) ، شماء الأنف معتدلة القامة والهامة ، درماء^(٢) الكعبين خدلجة الساقين ، لفاء الفخذين خميصة الخصرين ، ضامرة الكشحين مصقولة المتنين . قال فلما رأيتها أعجبت بها ، وقلت لأطلبن إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فيئتي ، فلما تسكمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها ، فقالت : يا محمد ! إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ؛ فإنني ابنة سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسى العاري ويقرى الضيف ويطعم الطعام ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، وأنا ابنة حاتم طيء . فقال النبي ﷺ : « يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق ، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق » . فقام

(١) أي طوبولة الفئق (٢) أي لانتين كعوبها من اللحم ، يقال درم الكعب : واره اللحم حتى لم يظهر له حجم .

أبو بردة بن ينار فقال يا رسول الله ! والله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق » .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني عمر بن بكر عن أبي عبد الرحمن الطائي — هو القاسم بن عدى — عن عثمان بن عمار بن حليس الطائي عن أبيه عن جده — وكان أخا عدى بن حاتم لأمه ، قال : قيل لنوار امرأة حاتم : حدثينا عن حاتم ، قالت كل أمره كان عجيباً ؛ أصابتنا سنة حصت كل شيء ، فاقشعرت لها الأرض واغربت لها السماء ، وضفت المراضع عن أولادها ، وراحت الإبل حذباً حدابير^(١) مانبضّ بقطرة ، وحلقت المال . وإنا لفي ليلة صنيّرة بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاعى الأصبية من الجوع ؛ عبد الله وعدى وسفانة ، فوالله إن وجدنا شيئاً نعلمهم به . فقام إلى أحد الصبيان فحمله ، وقت إلى الصبية فملتها ، فوالله إن سكتنا إلا بعد هدأة من الليل . ثم عدنا إلى الصبي الآخر فعملناه حتى سكت ، وما كاد ؛ ثم افترشنا فطيفة لنا شامية ذات حمل ، فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو في حجرة والصبيان بيننا ، ثم أقبل على بعلاني لأنام ، وعرفت ما يريد فتناومت ، فقال مالك أمت ؟ فسكت ، فقال ما أراها إلا قد نامت ، وما بي نومٌ . فلما ادلهم الليل وتهورت النجوم ، وهدأت الأصوات وسكنت الرجل — إذ جانب البيت قد رفع فقال من هذا ؟ فولى حتى قلت إذا قد أسحرنا أو كدنا . ثم عاد فقال من هذا ؟ قالت جارتك فلانة يا أبا عدى ، ما وجدت على أحد معولاً غيرك ، أتيتك من عند أصبية يتعاوون عواء الذئب من الجوع ، قال : أعجلهم على ، قالت النوار : فوثبت فقلت ماذا صنعت ؟ اضطجع ؛ والله لقد تضاعى أصبيتك فما وجدت مائتلتهم فكيف بهذه وبولدها ؟ فقال اسكتي ؛ فوالله لأشبعنك إن شاء الله ، قالت : فأقبلت تحمل اثنتين وتمشي جنبتيها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام إلى فرسه فوجأ بحرسته في لبتة ، ثم قدح زنده وأورى ناره ، ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ، ثم دفع المدية إلى المرأة ثم قال دونك ، ثم قال ابعتي صبيانك فبعمتهم . ثم قال : سواء أنا كلون شيئاً دون أهل الصرم ؟ فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه ، والتفع في ثوبه ، ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا ، والله ماذا مزرعة ، وإنه لأحوجهم إليه ، فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عظم وحافر .

وقال الدارقطني : حدثني القامضي أبو عبد الله الحاملي ، حدثنا عبد الله بن أبي سعد ، وحدثنا عثيم ابن ثوبان بن حاتم الطائي عن أبيه عن جده قال : قالت امرأة حاتم لحاتم : يا أبا سفانة ! أشتهى أن أكل أنا وأنت طعاماً وحدثنا ليس عليه أحد ، فأمرها فحوات خيمتها من الجماعة على فرسخ ، وأمر بالطعام فهبى . وهي مرخاة ستورها عليه وعليها ، فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال :

(١) الحدباء : الذابة التي بدت حراقها من الهزال . والحدباء : الناقة الضامرة والتي ذهب سنماها والجمع حدابير .

فلا تطبخي قدرى وسترك دونها على إذن ماتبخين حرام
ولكن بهذاك اليفاع فأوقدى بجزل إذا أوقدت لابضرام

قال ثم كشف الستور ، وقدم الطعام ودعى النار فأكل وأكلوا ، فقالت ما أنمت لى ماقلت ،
فأجابها فإني لا تطاوعنى نفسى ، ونفسى أكرم على من أن يثنى على هذا وقد سبق لى السخاء ، ثم
أنشأ يقول :

أمارس نفسى البخل حتى أعزها وأترك نفس الجود ما أستثيرها
ولا تشتكيني جارتى غير أنها إذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سببافها خيرى ويرجع بعلها إليها ولم تقصر عليها ستورها

ومن شعر حاتم : إذا مابت أشرب فوق رى لسكر فى الشراب فلا رويت
إذا مابت أختل عرس جارى ليخفينى الظلام فلا خفيت
أفضح جارتى وأخون جارى؟ فلا والله أفعال ما حيت

ومن شعره أيضاً : ماضر جاراً لى أجاوره أن لا يكون لبابه ستر
أغضى إذا ماجارتى برزت حتى يوارى جارتى الخدر

ومن شعر حاتم أيضاً : وما من شيمتى شتم ابن عمى وما أنا مخلف من يرتجبنى
وكلمة حاسد من غير جرم سمعت وقلت سرى فأنقذينى
وعابوها على فلم تعبنى ولم يعرق لها يوماً جبنى
وذى وجهين يلقانى طليقاً وليس إذا تغيب يأنسينى
ظفرت بعيمه فكففت عنه محافظة على حبي ودبنى

ومن شعره : سلى البائس المفرور يا أم مالك إذا ما أتانى بين نارى ومجزرى؟
أأبسط وجهى إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكبرى

وقال أيضاً : وإنك إن أعطيت بطنك سؤله وفرجك - نالا منتهى الذم أجمعا

وقال القاضى أبو الفرج المعافى بن زكرياء الجريرى : حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبى ، حدثنا
أبو العباس المبرد ، أخبرنى الثورى عن أبى عبيدة قال : لما بلغ حاتم طيء قول المتلمس :

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير على الفساد
وحفظ المال خير من فناه وعسف فى البلاد بغير زاد

- قال : ماله ؟ قطع الله لسانه ؛ حمل الناس على البخل ، فهلا قال :

فلا الجود يقنى المال قبل فوائه ولا البخل فى مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس مالاً بعيش مقتر لكل غد رزق يعود جديد
ألم تر أن المال غاد ورائح وأن الذى يعطيك غير بعيد

قال القاضى أبو الفرج : ولقد أحسن فى قوله : وأن الذى يعطيك غير بعيد ، ولو كان مسلماً لرجى له الخير فى معاده ، وقد قال الله فى كتابه : (واسألوا الله من فضله ^(١)) . وقال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ^(٢)) .

وعن الواضح بن معبد الطائى قال : وفد حاتم الطائى على النعمان بن المنذر فأكرمه وأذناه ، ثم زوده عند انصرافه جملين ذهباً وورقاً - غير ما أعطاه من طرائف بلده فرحل ، فلما أشرف على أهله تلتفته أعراب طيبة ، فقالت : يا حاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر ، فقال حاتم : هلم ! نخذوا ما بين يدي فتوزعوه ، فوثبوا إلى ما بين يديه من حياء النعمان فاقدموه ، فخرجت إلى حاتم طريفة جاريتته ، فقالت له : اتق الله وأبق على نفسك فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً . فأنشأ يقول :

قالت طريفة ماتبقى دراهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ممن سوانا ولسنا نحن نرتزق
ما يألف الدرهم الكارى خرقتنا إلا يمر عليها ثم ينطلق
إننا إذا اجتمعت يوماً دراهمنا ظلت إلى سبل المعروف تستبق

وقال أبو بكر بن عياش : قيل لحاتم هل فى العرب أجود منك ؟ فقال : كل العرب أجود منى ، ثم أنشأ يحدث . قال : نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة ، وكانت له مائة من الفم ، فذبح لى شاة منها وأتانى بها ، فلما قرب إلى دماغها قلت : ما أطيب هذا الدماغ ! قال فذهب فلم يزل يأتينى منه حتى قلت قد اكتفيت ، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة وبقي لاشىء له ، فقيل فما صنعت به ؟ فقال : ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شىء ؟ قال : على كل حال - أعطيته مائة ناقة من خيار إبلى . وقال محمد بن جعفر الخرائطى فى كتاب مكارم الأخلاق : حدثنا العباس بن الفضل الربيعى ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى حماد الراوية ومشيخة من مشيخة طيبة ، قالوا : كانت غنية بنت عفيف بن عمرو بن عمرو القيس - أم حاتم طيبة ، لاتبسك شيئاً سخاء وجوداً ، وكان إخوتها يمنعونها فتأبى . وكانت امرأة موسرة ، فخبسوها فى بيت سنة يطعمونها قوتها العلم - تكلف عما تصنع . ثم

أخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق ، فدفعوا إليها صرمة^(١) من مالها ، وقالوا
استمتعي بها ، فأتتها امرأة من هوازن - وكانت تفشأها - فسألها فقالت : دونك هذه الصرمة ، فقد
والله مسنى من الجوع ما آليت ألا أمنع سائلا ، ثم أنشأت تقول :

لعمري لقدما عضنى الجوع عضه فأليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولوا لهذا اللأيمى اليوم أعفى وإن أنت لم تفعل فعض الأصابع
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم سوى عدلكم أو عدل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركى يا ابن أمى الطبايعا

وقال الهيثم بن عدى ، عن ملحان بن عركى بن عدى بن حاتم عن أبيه عن جده ، قال : شهدت
حاتما يكيد بنفسه ، فقال لى : أى بنى ! إني أعهد من نفسى ثلاث خصال : والله ما خانت جارة لريبة
قط ، ولا أوتمت على أمانة إلا أديتها ، ولا أوتى أحد من قبلى بسوء . وقال أبو بكر الخرائطى : حدثنا
على بن حرب ، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى العدوى ، حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي
مسكين - يعنى جعفر بن الحر بن الوليد - عن الحر مولى أبي هريرة قال : مررت من عبد القيس
بقبر حاتم طيء ، فنزلوا قريبا منه ، فقام إليه بعضهم - يقال له أبو الخيبرى - فجعل يركض قبره برجله ،
ويقول : يا أبا جعد أقرنا ، فقال له بعض أصحابه : ماتخاطب من رمة وقد بليت . وأجنهم الليل ، فناموا
فقام صاحب القول فرعاً يقول يا قوم ! عليكم بمطيمكم ؛ فإن حاتما أتانى فى النوم وأنشدنى شعراً
وقد حفظته يقول :

أبا الخيبرى وأنت امرؤ ظلوم العشيبة شتأمتها
أتيت بصحبك تبغى القرى لدى حفرة قد صدت هامها
أتبغى لى الذنب عند المييد ت وحوالك طيء وأنعامها
وإنا لنشبع أضيافنا وتأتى المطى فنقتامها

قال وإذا ناقة صاحب القول تكون عميراً فنحروها ، وقاموا يشتون ويأكلون . وقالوا والله لقد
أضافنا حاتم حياً وميتاً . قال : وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم وساروا ، فإذا رجل بنوه بهم راكباً جملاً
ويقود آخر . فقال : أيكم أبو الخيبرى ؟ قال أنا ، قال إن حاتما أتانى فى النوم فأخبرنى أنه قرى أصحابك
ناققتك ، وأمرنى أن أحملك ، وهذا بعير نخذه ودفعه إليه .

(١) هي القطعة من الإبل ما بين العمرين إلى الثلاثين أو إلى الخمسين .

ذكر شيء من أخبار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة - سيد بني تيم ، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمستفتين . وكان في بدء أمره فقيراً مملقاً ، وكان شريراً يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته ، وأهله وقبيلته ، وأبغضوه حتى أبوه ، فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً بائساً ، فرأى شقاً في جبل فظن أن يكون به شيء يؤذى ، فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه . فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه ، فجعل يحيد عنه ويثب فلا يغني شيئاً ، فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان ، فكسره وأخذه ودخل الغار ، فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرم ، ومنهم الحارث بن مضاض الذي طالت غيبته فلا يدري أين ذهب . ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفانهم ومدد ولايتهم ، وإذا عندهم من الجواهر والآلئ والذهب والفضة شيء كثير ، فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلم باب الغار . ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه ، وسادهم وجعل يطعم الناس . وكما قل ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع فمن ذكر هذا - عبد الملك بن هشام في كتاب : [التيجان] ، وذكره أحمد بن عمار في كتاب : [رى العاطش وأنس الواحش] . وكانت له جفنة يأكل منها الزاكب على بعيره ، ووقع فيها صغير ففرق . وذكر ابن قتيبة وغيره - أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمِّي^(١) » - أي وقت الظهيرة . وفي حديث مقتل أبي جهل ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجرة في ركبتة ؛ فإنني تراحت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان ، فدفعته فسدق على ركبتة فانهمست ، فأثرها باق في ركبتة » ، فوجدوه كذلك وذكروا أنه كان يطعم النمر والسويق ويسقي اللبن حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلمهم فرأيت أكرمهم بنى الديان
البر يابك بالشهاد طعامهم لاما يعلننا بنو جدعان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألقي بعير تحمل البر والشهد والسمن ، وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة : أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان . فقال أمية في ذلك :

له داع بمكة مشمعل وآخر فوق كعبتها ينادي
إلى روح من الشيزي ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

ومع هذا كله فقد ثبت في الصحيح لمسلم أن عائشة قالت : « يا رسول الله ! إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال : « لا - إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

(١) الصكة : شدة الهاجرة ، وتضاف إلى عمي ، رجل من العالقة أغار على قوم في ظهيرة فاجتاحهم .

ذكرى امرئ القيس بن حجر الكندي صاحب إحدى المعلقات

وهي أنخرهن ، وأشهرهن التي أولها : * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » . وقد روى هذا الحديث عن هشام جماعة كثيرون ؛ منهم بشر بن الحكم ، والحسن بن عرفة ، وعبد الله بن هارون - أمير المؤمنين - المأمون أخو الأمين ، ويحيى بن معين ، وأخرجه ابن عدى من طريق عبد الرزاق عن الزهري به ، وهذا منقطع وردى من وجه آخر عن أبي هريرة ، ولا يصح من غير هذا الوجه .

وقال الحافظ بن عساكر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر - آكل المرار ابن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة - أبو يزيد ، ويقال أبو وهب ، ويقال أبو الحارث الكندي ، كان بأعمال دمشق ، وقد ذكر مواضع منها في شعره ؛ فمن ذلك قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضّح فالتفراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

قال : وهذه مواضع معروفة بحوران . ثم روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي : حدثني فروة بن سعيد بن عفيف بن معدى كرب عن أبيه عن جده ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن ، فقالوا : يا رسول الله ! لقد أحيانا الله بيتين من شعر امرئ القيس ، قال : وكيف ذلك ؟ قالوا أقبلنا نريدك ، حتى إذا كنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق ، فسكرنا ثلاثاً لا تقدر على الماء ، فتفرقنا إلى أصول طلح وسمر ؛ ليموت كل رجل منا في ظل شجرة ، فبينما نحن بأخر رمق إذا راكب يوضع^(١) على بعير ، فلما رآه بعضنا قال - والراكب يسمع :

ولما رأت أن الشريمة ههنا وأن البياض من فرائضها دامي
تيمّمت العين التي عند ضارج بفيء عليها الظل عرّ مضها^(٢) طامى

فقال الراكب : ومن يقول هذا الشعر ؟ وقد رأى ما بنا من الجهد ، قال قلنا امرؤ القيس بن حجر ، قال والله ما كذب - هذا ضارج عندكم ، فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو خمسين ذراعاً ، فخبونا إليه على الركب فإذا هو كما قال امرؤ القيس ؛ عليه العرمض بفيء عليه الظل ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك

(١) أى يسرع (٢) العرمض كجعفر : الطحلب ، وصغار السدر والأراك

رجل مذكور في الدنيا منسى في الآخرة ، شريف في الدنيا خامل في الآخرة ، بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار .

وذكر الكلابي : أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بني أسد حين قتلوا أباه ، فر بقبالة^(١) وبها ذو الخلصة^(٢) - وهو صنم ، وكانت العرب تستقسم عنده ، فاستقسم فخرج القدح الناهي ، ثم الثانية ثم الثالثة كذلك ، فكسر القدح وضرب بها وجه ذي الخلصة وقال : عضضت بأير أبيك ، لو كان أبوك المقتول لما عوقفتني ، ثم أغار على بني أسد فقتلهم قتلاً ذريعاً . قال ابن الكلابي : فلم يستقسم عند ذي الخلصة حتى جاء الإسلام . وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجد في بعض الحروب ويسترفده ، فلم يجد ما يؤمله عنده ، فهجاه بعد ذلك . فيقال إنه سقاه سماً فقتله ، فألجأه الموت إلى جنب قبر امرأ ، عند جبل يقال له عسيب ، فكتب هنالك :

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

وذكروا أن المعلقة السبع كانت معلقة بالكعبة ، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش ؛ فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها . فاجتمع من ذلك هذه المعلقة السبع . فالأولى - لامرئ القيس بن حجر الكندي كما تقدم ، وأولها :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول

والثانية - للنايفة^(٣) الذبياني : واسمه زياد بن معاوية ، ويقال زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب بن

جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض ، وأولها :

يا دار مية بالعلياء قالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

والثالثة - لزهير بن أبي سلمى - ربيعة بن رياح المزني ، وأولها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتئمت

والرابعة - لطرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة

ابن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، وأولها :

نحولة أطلال ببرقة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

والخامسة - لعنترة بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قطيعة

ابن عبس العبسي وأولها :

(١) بلد باليمن . (٢) الخلصة - بالتحريك وبضمين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لحثهم ، كان فيه صنم

اسمه الخلصة . (٣) لقب بذلك لأنه كان أحسن الشعراء ديباجة شعر وأجزلم بيتاً . ومعلقته هذه قالها للنعمان بن

النضر يعتذر عن وشاية بلغته عنه ويتصل منها .

هل غادر الشعراء من مُتَرَدِّمٍ أم هل عَرَفَتِ الدار بعد توهم؟
والسادسة - لعقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم ، وأولها :

طجائبك قلب في الحسان طروب بُعِيدَ الشباب عَصَرَ حان مشيب

والسابعة - ومنهم من لا يثبتها في العلقات وهو قول الأصبمى وغيره - وهي للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ، وأولها :

عفت الديار سحائبها فمقامها بمتى تأبدا غولها فرجامها

فأما القصيدة التي لا يعرف قائلها - فيما ذكره أبو عبيدة والأصبمى والمبرد وغيرهم - فهي قوله :

هل بالطلول لسائل ردّ أم هل لها بتكلم عهد ؟

وهي مطولة وفيها معاني حسنة كثيرة (١) .

ذكر شيء من أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي

كان من شعراء الجاهلية وقد أدرك زمن الإسلام

قال الحافظ بن عساكر : هو أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عنزة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان - ويقال أبو الحكم الثقفي - شاعر جاهلي ، قدم دمشق قبل الإسلام ، وقيل إنه كان مستقيا ، وأنه كان في أول أمره على الإيمان ، ثم زاغ عنه . وإنه هو الذي أَرَادَهُ اللهُ تعالى بقوله : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (٢)) .

قال الزبير بن بكار : فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف - أمية الشاعر ابن أبي الصلت ، واسم أبي الصلت : ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف . وقال غيره : كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم ، وقال عبد الرزاق قال الثوري : أخبرني حبيب بن أبي ثابت ،

(١) المشهور أن العلقات السبع هي : لامرئى ، القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة بن العبد ، وليبيد بن ربيعة وعنزة بن شداد .

والسادسة - لعمر بن كلثوم ومطلعها : ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبق خور الأندرينا
والسابعة - للحارث بن حنزة اليشكري ومطلعها : آذنتنا بينها أسماء رب نأو يعل منه التواء
وزاد بعضهم معلقة للنايفة الديراني ومطلعها : عوجوا غبوا لنعم دمنة الدار ماذا تحبون من نعم وأحجار
وأخرى لأعشى بكر ؛ ميمون بن قيس ومطلعها : ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وماترد سؤالي ؟

(٢) الآية : ١٧٥ من سورة الأعراف .

أن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) — هو أمية بن أبي الصلت . وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر الشافعي عن معاذ بن المنثري عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن نافع بن عاصم بن مسعود ، قال : إني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمرو ، فقرأ رجل من القوم الآية التي في الأعراف : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) — فقال هل تدرون من هو ؟ فقال بعضهم : هو صيفي بن الراهب ، وقال آخر : بل هو بلعم رجل من بني إسرائيل ، فقال : لا ! قال فن ؟ قال هو أمية بن أبي الصلت . وهكذا قال أبو صالح الكلبي ، وحكاه قتادة عن بعضهم .

وقال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا عبد الله بن شبيب الربيعي ، حدثنا محمد بن مسلمة ابن هشام الخزومي ، حدثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفي ، حدثني أبي عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه ، قال : خرجت أنا وأميمة بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام ، فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفرأله يقرؤه علينا ، فسكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى ، فجاءوه وأكرموه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، وقال لي : هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى ، إليه يقنأه علم الكتاب نسأله ؟ قلت : لا إرب لي فيه ، والله لئن حدثني بما أحب لا أتق به ، ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه . قال : فذهب وخالفه شيخ من النصارى ، فدخل على فقال ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟ قلت لست على دينه ، قال وإن ؟ فإنك تسمع منه عجباً وتراه . ثم قال لي : أتتقي أنت ؟ قلت لا — ولكن قرشي . قال فما يمنعك من الشيخ ؟ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم . قال : فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هداة من الليل ، فطرح ثوبيه ثم أنجدل على فراشه . فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزيناً ، ساقطاً غبوقه على صبحه ، ما يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت وهل بك من رحيل ؟ قال نعم ! فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين ، ثم قال في الليلة الثالثة : ألا تحدث يا أبا سفيان ؟ قلت وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك ، قال : أما إن ذلك لشيء لست فيه ؛ إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلي . قلت وهل لك من منقلب ؟ قال : إي والله لأموتن ثم لأحيين . قلت : هل أنت قابل أمانتي ؟ قال على ماذا ؟ قلت على أنك لا تبعث ولا تحاسب . قال فضحك ثم قال : بلي ! والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن ، وليدخلن فريق في الجنة وفريق في النار . قلت : ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟ قال لا أعلم لصاحبك بذلك لافق ولا في نفسه . قال فسكنا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه ، حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى ، فلما رأوه جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعتهم ، فما جاء إلا بعد (٣١ — بداية — ج ٢)

مئة صنف النهار . فابس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بهدأة من الابل ، فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه ، فوالله ما نام ولا قام ، وأصبح حزينا كئيبا لا يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت بلى إن شئت ! فرحلنا كذلك وهو في بته وحزنه ليالى . ثم قال لى : يا أبا سفيان ! هل لك فى المسير لتتقدم أصحابنا ؟ قلت هل لك فيه ؟ قال نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال : هيا صحر (١) . فقلت : ما تشاء ؟ قال : حدثنى عن عتبة بن ربيعة ! أيجتنب المظالم والمحارم ؟ قلت : إى والله . قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إى والله ! قال وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟ قلت نعم ! قال فهل تعلم قريشا أشرف منه ؟ قلت لا والله لا أعلم ، قال أمحوج هو ؟ قلت لا - بل هو ذو مال كثير ، قال وكم أتى عليه من السن ؟ فقلت قد زاد على المائة ، قال فالشرف والسن والمال أزرين به ؟ قلت ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيد خيرا ، قال هو ذاك . هل لك فى المبيت ؟ قلت لى فيه ، قال فاضطجعنا حتى سر الثقل (٢) قال فسرنا حتى نزلنا فى المنزل وبتنا به ، ثم ارتحلنا منه . فلما كان الليل قال لى يا أبا سفيان ! قلت ما تشاء ؟ قال هل لك فى مثل البارحة ؟ قلت هل لك فيه ؟ قال : نعم . فسرنا على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال : هيا صحر ، هيه عن عتبة بن ربيعة . قال قلت هيبا فيه ، قال أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إى والله إنه ليفعل ، قال وذو مال ؟ قلت وذو مال ، قال أنعلم قريشا أسود منه ؟ قلت : لا - والله ما أعلم . قال كم أتى له من السن ؟ قلت قد زاد على المائة ، قال فإن السن والشرف والمال أزرين به ؟ قلت كلا - والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله ، قال لا تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت . ثم قال : فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر ، قال هو رجل من العرب . قلت قد علمت أنه من العرب فمن أى العرب هو ؟ قال من أهل بيت تجبه العرب . قلت وفيها بيت تجبه العرب ، قال هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون إياه . قلت فإذا كان ما كان فصفه لى ، قال رجل شاب حين دخل فى الكهولة ؛ بدو أمره ، يجتنب المظالم والمحارم ، ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة . قلت وما آية ذلك ؟ قال قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة ، كلها فيها مصيبة ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب . قال أبو سفيان : فقلت هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسقا شريفا . قال أمية : والذى حلفت به ! إن هذا لهكذا يا أبا سفيان ، تقول إن قول النصرانى حق . هل لك فى المبيت ؟ قلت نعم لى فيه ، قال فبتنا حتى جاءنا الثقل ، ثم خرجنا . حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان

(١) أى نتحدث جهارا ليس معنا أحد (٢) الثقل - محرقة : متاع المسافر وحشمه .

ليلتان أدر كفا راكب من خافنا ، فسألناه فإذا هو يقول : أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة . قال أبو سفيان : فأقبل على أمية فقال : كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان ؟ قلت أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق . قال أبو سفيان فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي ، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ، ثم قدمت مكة فبينما أنا في منزلي جاءني الناس يسألون علي ويسألون عن بضائعهم ، حتى جاءني محمد بن عبد الله وهدى عندي تلاعب صبيانها ، فسلم عليّ ورحب بي وسألني عن سفري ومقامي ، ولم يسألني عن بضاعته ، ثم قام . فقلت لهدى : والله إن هذا ليعجبني ، مامن أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألتني عنها ، وما سألتني هذا عن بضاعته . فقالت لي هدى : أو ما علمت شأنه ؟ فقلت وأنا فرزع : ما شأنه ؟ قالت يزعم أنه رسول الله ، فوقدتني وتذكرت قول النصراني ، فرجفت حتى قالت لي هدى مالك ؟ فانتبهت فقلت إن هذا هو الباطل ، وهو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له أصحاباً على دينه ، قلت هذا هو الباطل . قال : وخرجت فبينما أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته ، فقلت له إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا ، وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي ، فأبي عليّ ، وقال : إذن لا آخذها ، قلت فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي ، فأرسل إلي بضاعته فأخذها ، وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره .

قال أبو سفيان : فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن ، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت ، فقال لي يا أبا سفيان ما تشاء ؟ هل تذكر قول النصراني ؟ فقلت أذكره وقد كان . فقال : ومن ؟ قلت محمد بن عبد الله ، قال ابن عبد المطلب ؟ قلت ابن عبد المطلب ثم قصصت عليه خبر هدى ، قال فأنه يعلم . وأخذ يتصبب عرقاً ثم قال : والله يا أبا سفيان لعله ؛ إن صفته هي . ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله عز وجل في نصره عذراً . قال : ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاني هنالك استهلاه ، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف ، فقلت يا أبا عثمان ! قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته ، فقال قد كان لعمري . قلت فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ فقال والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً . قال أبو سفيان : وأقبلت إلى مكة ، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويحرقون . قال أبو سفيان : فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة ؟ قال فدخلى ما يدخل الناس من النفاسة .

وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب الدلائل من حديث إسماعيل بن طريح به ، ولكن سياق الطبراني الذي أورده أتم وأطول ، والله أعلم .

وقال الطبراني : حدثنا بكر بن أحمد بن نفييل ، حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا يعقوب بن محمد

الزهرى، حدثنا مجاشع بن عمرو الأسدى، حدثنا ليث بن سعد عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة بن الزبير عن معاوية بن أبى سفيان عن أبى سفيان بن حرب: أن أمية بن أبى الصلت كان بغزة أو بابلية، فلما قفلنا قال لى أمية: يا أبأ سفيان هل لك أن تتقدم على الرقة فنحدث؟ قلت نعم! قال ففعلنا، فقال لى يا أبأ سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة، قلت: كريم الطرفين ويحتمب الحارم والمظالم، قال وشريف مسن؟ قلت وشريف مسن. قال السن والشرف أزريا به، فقلت له كذبت؛ ما زاد سناً إلا ازداد شرفاً. قال يا أبأ سفيان: إنها كلمة ماسمعت أحداً يقوها لى منذ تبصرت، فلا تعجل على حتى أخبرك. قال قلت هات، قال إنى كنت أجد فى كتبى نبياً يبهث من حرتنا هذه، فكنت أظن - بل كنت لأشك - أنى أنا هو، فلما دارست أهل العلم إذا هو من بنى عبد مناف فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة. فلما أخبرتنى بسنه عرفت أنه ليس به؛ حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه. قال أبو سفيان: فضرب الدهر ضربته فأوحى إلى رسول الله ﷺ، وخرجت فى ركب من قريش أريد اليمن فى تجارة، فمررت بأمية فقلت له كالمستهزىء به: يا أمية، قد خرج النبى الذى كنت تنفعته، قال أما إنه حق فاتبعه، قلت ما يمنعك من اتباعه؟ قال ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف؛ إنى كنت أحدثهن أنى هو، ثم يرينى تابعاً لغلام من بنى عبد مناف. ثم قال أمية: كأنى بك يا أبأ سفيان قد خالفته، ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن السكابي قال: بينا أمية راقد ومعه ابنتان له، إذ فرغت إحداهما فصاحت عليه، فقال لها ما شأنك؟ قالت رأيت نسرين كسطا سقف البيت، فنزل أحدهما إليك فشق بطنك، والآخر واقف على ظهر البيت، فناداه فقال أوعى؟ قال نعم: قال أركى؟ قال لا. فقال ذلك خير أريد بأبيكما فلم يفعله. وقد روى من وجه آخر بسياق آخر؛ فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: قدمت الفارعة - أخت أمية بن أبى الصلت - على رسول الله ﷺ بعد فتح الطائف، وكانت ذات لب وعقل وجمال، وكان رسول الله ﷺ بها معجباً، فقال لها ذات يوم: يا فارعة! هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟ فقالت نعم، وأعجب من ذلك ما قد رأيت. قالت: كان أخى فى سفر، فلما انصرف بدأنى فدخل علىّ، فرقد على سريرى وأنا أحلق أديماً فى يدى، إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين، فوقع أحدهما على السكوة ودخل الآخر فوقه عليه، فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عاتقه، ثم أدخل يده فى جوفه فأخرج قلبه فوضعه فى كفه ثم شمه، فقال له الطائر الآخر: أوعى؟ قال وعى، قال أركى؟ قال أبى، ثم رد القلب إلى مكانه فالتأم الجرح أسرع من طرفه عين، ثم ذهب. فلما رأيت ذلك دنوت منه فخركته، فقلت هل تجد شيئاً؟ قال: لا، إلا توهيناً فى جسدى -

وقد كنت ارتعبت مما رأيت - فقال مالي أراك مرتاعة؟ قالت فأخبرته الخبر، فقال خير أريد بي، ثم
صرف عني. ثم أنشأ يقول:

باتت همومي تسرى طوارقها	أكف عيني والدمع سابقها
بما أناني من اليقين ولم	أوت براءة يقص ناطقها
أم من تلظى عليه واقدة الذ	ار محيط بهم سراقها
أم أسكن الجنة التي وعد الـ	أبرار مصفوفة نمارقها
لايستوى المنزلان ثم ولا الـ	أعمال لانستوى طرائقها
هما فريقان فرقة تدخل الجـ	نة حفت بهم حدائقها
وفرقة منهم قد أدخلت الذ	ار فساءتهم مرافقها
تعاهدت هذه القلوب إذا	همت بخير عاقت عوائقها
وصدها للشقاء عن طلب الـ	جنة دنيا الله ماحقها
عبد دعا نفسه فعاتبها	يعلم أن البصير رامقها
مارغب النفس في الحياة وإن	تحيا قليلا فالموت لاحقها
يوشك من فر من منيته	يوماً على غرة يوافقها
إن لم تمت غبطة تمت هرماً	لموت كأس والمرء ذائقها

قالت: ثم انصرف إلى رحله، فلم يلبس إلا يسيراً حتى طعن في حيازته، فأثاني الخبر فانصرفت إليه
فوجدته منهوشاً قد سحى عليه، فذنوت منه فشوق شهقة وشق بصره، ونظر نحو السقف ورفع صوته
وقال: لبيكاً لبيكاً، ها أنا ذا لديكاً؛ لاذو مال فيفديني، ولا ذو أهل فيحميني. ثم أغنى عليه إذ شوق
شهقة فقلت قد هلك الرجل، فشق بصره نحو السقف فرفع صوته فقال: لبيكاً لبيكاً، ها أنا ذا لديكاً؛
لا ذو براءة فأعتذر، ولا ذو عشيرة فأنتصر. ثم أغنى عليه إذ شوق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف
فقال: لبيكاً لبيكاً، ها أنا ذا لديكاً؛ بالنعم محفود وبالذنب محصود. ثم أعمى عليه إذ شوق شهقة فقال:
لبيكاً لبيكاً، ها أنا ذا لديكاً. إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لاألاً
ثم أغنى عليه إذ شوق شهقة فقال:

كل عيش وإن تطاول دهرماً	صائر مرة إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ماقد بدالى	في قلال الجبال أرعى الوعولا

قالت ثم مات فقال رسول الله ﷺ: «يا فارعة إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ،

منها . . . (١) « الآية . وقد تكلم الخطابي على غريب هذا الحديث ، وروى الحافظ بن عساكر عن الزهري أنه قال : قال أمية بن أبي الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غابتنا من رأس مجرانا ؟

قال : ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين ، وتنبأ رسول الله ﷺ ، وأقام أمية بالبحرين ثمانين سنين ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقول محمد بن عبد الله ؟ قالوا يزعم أنه نبي وهو الذي كنت تتمنى ، قال : فخرج حتى قدم عليه مكة فلقبه ، فقال : يا ابن عبد المطلب ، ما هذا الذي تقول ؟ قال أقول : إني رسول الله وأن لا إله إلا هو . قال : إني أريد أن أكلمك فعدني غداً ، قال فوعدك غداً . قال فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي ؟ وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك ؟ فقال رسول الله ﷺ «أى ذلك شئت» : قال فإني آتيك في جماعة ، فأت في جماعة . قال فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش ، قال وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل السكعبة . قال : فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر ، حتى إذا فرغ الشعر ، قال أجبني يا ابن عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : (بسم الله الرحمن الرحيم * يس * والقرآن الحكيم) ، حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه ، قال فتبعته قريش يقولون ما تقول يا أمية ؟ قال أشهد أنه على الحق . فقالوا : هل تتبعه ؟ قال حتى أنظر في أمره . قال : ثم خرج أمية إلى الشام وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما قتل أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدرأ ، ثم ترجل يريد رسول الله ﷺ ، فقال قائل : يا أبا الصلت ما تريد ؟ قال أريد محمداً ، قال وما تصنع ؟ قال أو من به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر ، قال : أندري من في الغليب ؟ قال لا . قال : فيه عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك — وأمه ربيعة بنت عبد شمس — قال : فجدع أذني ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القلب يقول :

ما ذا بيـدر فـالعقـن قـل من مرابـزة جـجاجـح؟ (٢)

القصيدة إلى آخرها كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصة بدر إن شاء الله . ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام . ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم ، وأنشد شعره عند الوفاة .

كل عيش وإن تطاول دهرأ صار مرة إلى أن يزولا
ليتني كفت قبل ما قد بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا
ناثلا ظفرها القساور والصدعان والطفل في المنار الشكيلا

(١) الآية : ١٧٥ من سورة الأعراف . (٢) العقنقل : الوادي العظيم المنسم ، والشكيب المزاعم . ولججاجح

وبفاث النياف واليعفر النسا فر والعوهج البرام الضئيل

فقوله : القساور — جمع قسورة وهو الأسد ، والصدعان : ثيران الوحش — واحدهما صدع ، والطفل الشكل : ما فيه حمرة العين ، والبفاث : الرخم ، والنياف : الجبال ، واليعفر : الظبي ، والعوهج : ولد النعامه . يعنى أن الموت لا ينجو منه الوحوش فى البرارى ، ولا الرخم الساكنة فى رءوس الجبال ، ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره . وقد تكلم الخطابى وغيره على غريب هذه الأحاديث .

وقد ذكر السهيل فى كتابه [التعريف والأعلام] : أن أمية بن أبى الصلت أول من قال باسمك اللهم ، وذكر عند ذلك قصة غريبة ؛ وهى أنهم خرجوا فى جماعة من قريش فى سفر ، فيهم حرب بن أمية والدة أبى سفيان ، قال فروا فى مسيرهم بحية فقتلوا ، فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فماتبتهم فى قتل تلك الحية ، ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها ، فذهبت وشردت كل مذهب ، وقاموا فلم يزلوا فى طلبها حتى ردها . فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الإبل ، فذهبوا فى طلبها ، فلما أعيام ذلك قالوا والله هل عندك لما نحن فيه من مخرج ؟ فقال : لا — والله ولكن سأنظر فى ذلك . قال فساروا فى تلك الحلة لعلهم يجدون أحداً يسألونه عما قد حل بهم من العناء ، إذا نار تلوح على بعد . فجاءوها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد ناراً ، وإذا هو من الجان فى غاية الضالة والدمامة ، فسلموا عليه ، فسألهم عما هم فيه ، فقال إذا جاءتك فقولوا باسمك اللهم فإنها تهرب ، فلما اجتمعوا وجاءتهم الزائفة أو الرابعة قال فى وجهها أمية : باسمك اللهم ، فشردت ولم يقر لها قرار . لكن عدت الجن على حرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية ، فقبه أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار . فى ذلك يقول الجان :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وذكر بعضهم : أنه كان يتفرس فى بعض الأحيان فى لغات الحيوانات ؛ فكان يمر فى السفر على الطير فيقول لأصحابه : إن هذا يقول كذا وكذا ، فيقولون لانعلم صدق ماتقول ، حتى مروا على قطع قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها ، فالتفتت إليه فنفثت كأنها تستحثه ، فقال : أندرون ماتقول له ؟ قالوا لا . قال إنها تقول أسرع بنا لا يجىء الذئب فىأكلك كما أكل الذئب أخاك عام أول ، فأسرعوا حتى سألوا الراعى : هل أكل له الذئب عام أول حملاً بتلك البقعة ؟ فقال نعم . قال : وسر يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو ، فقال : إنه يقول لها إنك رحلتينى وفى الحداجة مخيط ، فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرجل فإذا فيه مخيط كما قال .

وذكر ابن السكيت : أن أمية بن أبى الصلت بينما هو يشرب يوماً إذ نعب غراب ، فقال له : بفيك التراب — مرتين ، فقيل له مايقول ؟ فقال : إنه يقول إنك تشرب هذا الكأس الذى فى يدك ثم تموت .

ثم نعب الغراب فقال إنه يقول : وآية ذلك أنى أنزل على هذه المزبلة فأكل منها فيعلق عظم في حلقى فأموت . ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق في حلقه عظم فمات . فقال أمية : أما هذا فقد صدق في نفسه ، ولكن سأنظر هل صدق في أم لا ؟ ثم شرب ذلك الكأس الذى فى يده ثم اتكأ فمات . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مهدي عن الثورى عن عبد الملك بن عمير عن أبى سلامة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكاد أمية بن أبى الصات أن يسلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا زكرياء بن إسحاق ، حدثنا إبراهيم بن ميسرة - أنه سمع عمرو ابن الشريد يقول : قال الشريد كنت ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لى : « أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت شيء ؟ قلت نعم ! قال فأنشدىنى » ، فأنشدته بيتاً ، فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتاً - إيه ، حتى : أنشدته مائة بيت . قال ثم سكت النبى ﷺ وسكت . وهكذا رواه مسلم من حديث سفیان بن عيينة عن أبى تميم بن ميسرة به . ومن غير وجه عن عمرو بن الشريد عن أبیه الشريد بن سويد الثقفى عن النبى ﷺ . وفى بعض الروايات - فقال رسول الله : « إن كاد يسلم » .

وقال يحيى بن محمد بن صاعد : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا حاتم بن أبى صفرة عن سماك بن حرب عن عمرو بن نافع ، عن الشريد الهمدانى وأخواله ثقيف قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ، فبينما أنا أمشى ذات يوم إذا وقع ناقه خلفى ، فإذا رسول الله ﷺ فقال : « الشريد ؟ فقلت نعم ، قال ألا أحملك : قلت بلى . وما بى من إعياء ، ولكنى أردت البركة فى ركوبى مع رسول الله ﷺ . فأناخ فحملنى فقال : أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت ؟ قلت نعم ! قال هات ، فأنشدته - قال أظنه قال - مائة بيت ، فقال عند الله علم أمية بن أبى الصلت » . ثم قال ابن صاعد هذا حديث غريب . فأما الذى يروى أن رسول الله ﷺ قال فى أمية : « آمن شعره وكفر قلبه » - فلا أعرفه ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد - هو أبو بكر بن أبى شيبة - حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ صدق أمية فى شيء من شعره قال :

رجل وثورٌ تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصدُ
والشمس تبدو كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
تأبى فما تطلع لنا فى رسلها إلا مُعدّبة وإلا تُجالد

فقال رسول الله ﷺ : صدق . وفي رواية أبي بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك ، يقول لها اطعني اطعني ، فتقول لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله ، فإذا همت بالطلوع أنها شيطان يريد أن يثبطها ، فتطلع بين قرنيه وتحرقه . فإذا تضيفت للغروب عزمته عز وجل ، فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود ، فتغرب من قرنيه وتحرقه . أورده ابن عساكر مطولاً . ومن شعره في حملة العرش :

فمن حامل إحدى قوائم عرشه ولولا إله الخلق كلوا وأبلدوا
قيام على الأقدام عانون تحته فرائصهم من شدة الخوف ترعد

رواه ابن عساكر . وروى عن الأصمعي أنه كان ينشد من شعر أمية :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً
بالباء الأعلى الذي سبق الذ ساس وسوى فوق السماء سريراً
شرجعاً يناله بصر العيـ ن ترى دونه الملائك صوراً

ثم يقول الأصمعي : الملائك - جمع ملك ، والصور - جمع أصور ، وهو المائل العنق . وهؤلاء حملة العرش . ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عهد الله بن جدعان التيمي :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
وعامك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المهذب والسفاء
كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء
يبارى الريح مكرمة وجوداً إذا ما الكلب أججره الشتاء
وأرضك أرض مكرمة بنتها بنوتيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وله فيه مدائح أخر . وقد كان عهد الله بن جدعان هذا من السكرماء الأجواد الممدحين المشهورين ، وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره ؛ من عرض حافتها وكثرة طعامها . وكان يملؤها باب البر يلبك بالشهد والسمن ، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب . وقد سألت عائشة النبي ﷺ أينفعه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » ومن شعر أمية البديع :

لا ينفكثون الأرض عند سؤالهم كتطلب العلات بالعيدان
بل يسفرون وجوههم فترى لها عند السؤال كأحسن الألوان

وإذا للقل أقام وسط رحالمم رده رب صواهل وقيان
وإذا دعوتهم لكل ملة سدوا شعاع الشمس بالفرسان

بحيرا الواهب

هو الذي توسم في رسول الله صلى الله عليه وسلم النبوة، وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجار من أهل مكة، وعمره إذ ذك اثنتا عشرة سنة؛ فرأى الغمامة تظله من بينهم، فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم كما سيأتي بيان ذلك في السيرة. وقد روى الترمذى في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك، وقد أورده الحافظ بن عساكر شواهد وسائغات في ترجمة بحيرا. ولم يورد مارواه الترمذى وهذا عجيب.

وذكر ابن عساكر أن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها الكفر^(١) بينها وبين بصرى ستة أميال، وهي التي يقال لها: «دير بحيرا». قال ويقال: إنه كان يسكن قرية يقال لها «منفعة» بالبلقاء وراء زيرا، والله أعلم.

ذكر قس بن ساعدة الإيادى

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرنطى - في كتاب هواتف الجان: حدثنا داود القنطرى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى أبو عبد الله المشرق عن أبي الحارث الوراق عن ثور بن يزيد عن مورق العجلي عن عبادة بن الصامت، قال: لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال: «يامعشر وفد إياد! ما فعل قس بن ساعدة الإيادى؟» قالوا: هلك يارسول الله. قال: «لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جبل أحمر يتكلم بكلام معجب موق لا أجدنى أحفظه». فقام إليه أعرابى من أقاصى القوم فقال: أنا أحفظه يارسول الله قال: فسر النبي ﷺ بذلك، قال: فكان بسوق عكاظ على جبل أحمر وهو يقول: يامعشر الناس اجتمعوا، فكل من فات فات، وكل شىء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج. نجوم تزهز، وجبال مرسية، وأنهار مجرية. إن فى السماء لجبرا، وإن فى الأرض لعبرا. مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالإقامة فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ أقسم قس! بالله تسما لاريب فيه؛ إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا. ثم أنشأ يقول:

فى الذاهبين الأواى ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت لى لها مصادر

(١) فى القاوس - كغريبة كهلبيرية: بلد بالشام.

ورأيت قومي نحوها يمضي الأصغر والأكبر
لا من مضى يأتي إليه ك ولا من الباين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه . وقد رواه الطبراني من وجه آخر ، فقال في كتابه المعجم الكبير : حدثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي ، حدثنا محمد بن حسان السهمي ، حدثنا محمد بن الحجاج ، عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس . قال : قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ فقال : « أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي ؟ » قالوا كلنا يعرفه يارسول الله . قال « فما فعل » ؟ قالوا هلك قال : « فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جبل أحر ، وهو يخطف الناس وهو يقول : يا أيها الناس : اجتمعوا واستمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هوات آت . إن في السماء نجبرا ، وإن في الأرض لعبرا . مهاد موضوع ، وستف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسما حقا ؛ لئن كان في الأمر رضى ليكون بعده سخط . إن لله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ » . ثم قال رسول الله ﷺ : أفیکم من بروى شعره ؟ فأنشده بعضهم :

في الداهيين الأولي ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا لموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسمي الأصغر والأكبر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وهكذا أورده الحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة ؛ من طريق محمد بن حسان السلمي به وهكذا روينا في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستورية في أخبار قس . قال : حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديري قولى عن سعيد بن شبيب عن محمد بن الحجاج عن إبراهيم الواسطي نزيل بغداد - ويعرف بصاحب الفريسة ، وقد كذبه يحيى بن معين ، وأبو حاتم الرازي والدارقطني ، واتهمه غير واحد ؛ منهم ابن عدى - بوضع الحديث . وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج . هذا ورواه ابن درستورية وأبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وهذه الطريقة أمثل من التي قبلها ، وفيه أن أبا بكر هو الذي أورد القصة بكاملها نظمها ونثرها بين يدي رسول الله ﷺ . ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الخطمي ، حدثنا علي بن الحسين بن محمد

الحزومي ، حدثنا أبو حاتم السجستاني ، حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد ابن المسيب عن ابن عباس ، قال : قدم وفد يسكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال لهم : « ما فعل حليف لكم يقال له قس بن ساعدة الأيادي ؟ » ، وذكر القصة مطولة .

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبي طالب الحجار إجازة إن لم يسكن سماعاً قال : أجاز لنا جعفر بن علي الهمداني قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي سماعاً ، وقرأت علي شيخنا الحافظ أبي عبد الله الذهبي ، أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر الخلال سماعاً قال : ثنا جعفر بن علي سماعاً ، قال ثنا السلفي سماعاً ، ثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد إبراهيم الرازي ، ثنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي ، ثنا أبو القاسم عبيد الله ابن أحمد بن علي المقرئ ، حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دستورية النحوي قال : حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم بن أحمد السعدي - قاضي فارس - حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائي من أهل حران ، حدثنا أبو عمرو سعيد بن يربيع عن محمد بن إسحاق حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال : كان الجارود بن المعلى جنش بن معلى العبدى نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالماً بسير الفرس وأقوابها ، بصيراً بالفلسفة والطب ، ظاهر الدهاء والأدب ، كامل الجمال ، ذا ثروة ومال . وإنه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وافداً في رجال من عبد القيس ذوى آراء وأسنان ، وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان . فلما قدم على النبي ﷺ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول :

يا نبي الهدى أنتك رجال	قطعت فدفداً وآلاً فالأ
وطوت نحوك الصحاصح تهوى	لا تعد السلال فيك كلالا
كل بهماء قصر الطرف عنها	أرقلتها قلاصنا إرقالا
وطوتها العتاق يجمع فيها	بكامة كأنجم تتلالا
تبتغي دفع بأس يوم عظيم	هائل أوجع القلوب وهالا
ومزاداً لمحشر الخلق طراً	وفراقاً لمن تمادى ضلالا
نحو نور من الإله وبرها	ن وبر ونعمة أن تنالا
خصك الله يا ابن آمنة الخ	ير بها إذ أتت سجالاتا
فاجمل الحظ منك يا حجة الا	جزيلاً لاحظ خلف أحالا

قال فادناه النبي ﷺ وقرب مجلسه ، وقال له : « يا جارود لقد تأخر الموعد بك وبقومك » .

فقال الجارود : فذاك أبي وأمي . أما من تأخر عنك فقد فات حظه ، وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة . وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فمداك وانبع سواك ، وإني الآن على دين قد علمت به قد جئتكم وأنا تاركه لدينك ، أفذلك مما يحص الذنوب ، والمآثم والحبوب ؟ ويرضى الرب عن الربوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أنا ضامن لك ذلك ، وأخلص الآن لله بالوحدانية ودع عنك دين النصرانية » . فقال الجارود : فذاك أبي وأمي ! مد يدك ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال : فأسلم وأسلم معه أناس من قومه . فسر النبي ﷺ بإسلامهم ، وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجوا به . ثم أقبل عليهم رسول الله ﷺ فقال : « أفیکم من يعرف قس بن ساعدة الإيادی ؟ فقال الجارود : فذاك أبي وأمي ! كلنا نعرفه ، وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يارسل سبطاً من أسباط العرب ، عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار . يضج بالتسبيح على مثال المسيح ، لا يقره قرار ولا تسكنه دار ، ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأوساخ ويفوق السباح ، ولا يفتر من رهبانيتها ؛ يتحسى في سياحته بيض النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام . يبصر فيمتبر ، ويفكر فيختبر ، فصار لذلك واحداً تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال . أدرك رأس الحواريين سمعان ، وهو أول رجل تأله من العرب ووحد ، وأقر وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المسآب . وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلم بالقضا ، على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكر في الأقدار . وأناب عن السماء والتماء ، وذكر النجوم وكشف الماء . ووصف البحار وعرف الآثار . وخطب راكباً ، ووعظ دائباً . وحذر من السكر ، ومن شدة الغضب . ورسل الرسائل ، وذكر كل هائل . وأرغم في خطبه ، وبين في كتبه . وخوف الدهر ، وحذر الأزر ، وعظم الأمر ، وجنب الكفر . وشوق إلى الخنيفة ، ودعا إلى اللاهوتية .

وهو القائل في يوم عكاظ : شرق وغرب ، ويتم وحزب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب . وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار . وإناث وذكور ، وبرار وبحور : وحب ونبات وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثرها آيات . ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام - لقد ضل الأنام . نشو مولود ، وواد مفقود ، وتربية محصود وفقير وغنى ، ومحسن ومسىء . تبأ لأرباب الغفلة ؛ ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الأمل أمله . كلا بل هو إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ؛ أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى . أما بعد فيامعشر إياد ! أين نمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد - لتحشرن على الانفراد ، في يوم التناد ؛ إذا نفخ في الصور ، ونقر في الناقور ، وأشرقت الأرض ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاخط . فويل لمن صدف عن الحق الأشهر

والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل - إذا حكم القدير ، وشهد النذير ،
وبعد النصير ، وظهر التقصير ، ففريق في الجنة وفريق في السعير . وهو القائل :

ذكر القلب من جواه اذكار وليال خلاهن نهار
وسجال هواطل من غمام ثرُن ماء وفي جواهن نار
ضوؤها بطمس العيون وأرعا دسداد في الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخ ير وأخرى خلت بهن قفار
وجبال شوامخ راسيات وبحار مياهن غزار
ونجوم تلوح في ظلم الليل ل نراها في كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر الله ل وكل متاع موار
وصغير وأشمت وكبير كلهم في الصعيد يوماً منار
وكبير مما يقصر عنه حدسه الخاطر الذي لا يحار
فالذي قد ذكرت دل على الا ه نفوساً لها هدَى واعتبار

قال : فقال رسول الله ﷺ : « مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ ، واقفأ على جبل أحر
يخطب الناس : اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتعموا . وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ؛
من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات ، ليل داج ،
وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهز ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام . إن في السماء
خبراً ، وإن في الأرض عبراً ، يحار فيهن البصرا . مهاد . موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تفور ،
وبحار لانفور . ومنيايدوان ، ودهر خوان ، كحد النسطاس ، ووزن القسطاس . أقسم قس قسما .
لا كاذباً فيه ولا آثماً ؛ لئن كان في هذا الأمر رضى - ليكونن سخط . ثم قال : أيها الناس ! إن الله
ديناً هو أحت إليه من دينكم هذا الذي أتم عليه وهذا زمانه وأوانه . ثم قال : مالى أرى الناس
يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ » والتفت رسول الله ﷺ إلى بعض
أصحابه فقال : « أيكم يروى شعره لنا ؟ » فقال أبو بكر الصديق : فذاك أبى وأمى ! أنا شاهد له في ذلك
اليوم حيث يقول :

في الذهبين الأولي * ن من القرون لنا بصائر لما رأيت موارداً * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * يمضى الأصاغر والأكابر لا يرجع الماضى إلـ * ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنى لا محار لة حيث صار القوم صار

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس ؛ عظيم الهامة ، طويل القامة ، بعيد ما بين المنكبين فقال : فذاك أبي وأمي ! وأنا رأيت من قس عجبا . فقال له رسول الله ﷺ : « ما الذي رأيت يا أخا بني عبد القيس ؟ » . فقال : خرجت في شبيتي أربع بعيرا لي ندعني ، أقفو أثره في تناصف قفاف^(١) ذات ضفائيس^(٢) ، وعرصات جثجات^(٣) بين صدور جذعان ، وغير حوذان^(٤) ، ومهمه ظلمان ، ورصييع أبيهقان^(٥) ، فبينما أنا في تلك الفلوات أجول بسببها ، وأرتق فدفدها - إذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كبات مخضوضلة ، وأغصانها متهدلة ، كأن بريرها حب القفل وبواسق أخوان ، وإذا بعين خراة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقس بن ساعدة في أصل تلك الشجرة ويده قضيب . فدنوت منه وقلت له : أنعم صباحا ! فقال : وأنت فنعم صباحك . وقد وردت العين سبع كثيرة ، فكان كما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه - ضربه قس بالقضيب الذي بيده . وقال : اصبر حتى يشرب الذي قبلك ، فذعرت من ذلك ذعرا شديدا ، ونظر إلى فقال لا تخف . وإذا بقبرين بينهما مسجد ، فقلت ماهذان القبران ؟ قال قبرا أخوين كانا يعبدان الله عز وجل بهذا الموضع ، فأنا مقم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحق بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فنكون معهم في خيرهم وتباينهم على شرهم ؟ فقال لي : نكلك أمك ، أو ما عدت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ؟ ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول :

خلي هبنا طالما قد رقدتما	أجدا كما لا تقضيان كرا كما
أرى النوم بين الجلد والعظم منكما	كأن الذي يسقى العقار سقا كما
أمن طول نوم لا تجيمان داعيا ؟	كأن الذي يسقى العقار سقا كما
ألم تعلمي أني بنجران مفردا ؟	ومالي فيه من حبيب سوا كما ؟
مقيم على قبريكما لست بارحا	إياب الليلي أو يجيب صدا كما
أبكيكما طول الحياة وما الذي	يرد على ذي لوعة أن بكا كما
فلوجملت نفس لنفسي فدمي فدي	لجذت بنفسي أن تكون فدا كما
كأنكما والموت أقرب غاية	بروحي في قبريكما قد أنا كما

قال : فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله قسا ، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده » . وهذا

- (١) أي مفازات ذات أحجار لا تخالطها سهولة . (٢) أي حشائش وأشواك ، جمع ضفبوس .
 (٣) الجثجات : نبات ينبت في السهول في الربيع فإذا جاء الصيف جف ، والإبل تأكله إذا لم تجد غيره .
 (٤) جذعان الجبل : صغارها ، والحوذان : نبت .
 (٥) عشب يطول ، عريض الورق يؤكل ، وقيل هو الجرجير البري .

الحديث غريب جداً من هذا الوجه ، وهو مرسل - إلا أن يكون الحسن سمعه من الجارود ، والله أعلم .
وقد رواه البيهقي والحافظ أبو القاسم بن عساكر من وجه آخر ، من حديث محمد بن عيسى بن
محمد بن سعيد القرشي الإخباري ، ثنا أبي ، ثنا علي بن سليمان بن علي بن عبد الله عن عبد الله
ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم الجارود بن المعلی ، فذكر مثله أو نحوه مطولاً بزيادات كثيرة في
نظمه ونثره ، وفيه ما ذكره عن الذي ضل بعيره فذهب في طلبه قال : فبت في واد لا آمن فيه حتفي ،
ولا أركن إلى غير سيفي ، أرقب الكوكب ، وأرمق الغيب ، حتى إذا الليل عسعس ، وكاد الصبح
أن يتنفس ، هتف بي هاتف يقول :

يا أيها الراقد في الليل الأجم قد بعث الله نبياً في الحرم
من هاشم أهل الوفاء والكرم يحلو دجيات الدياجي والبهيم
قال فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فصاً ، قال فأنشأت أقول :

يا أيها الهاتف في داجي الظلم أهلاً وسهلاً بك من طيف ألم
بين هداك الله في لحن الكلم ماذا الذي تدعو إليه يفتنم

قال : فإذا أنا بنحنحة وقائل يقول : ظهر النور ، وبطل الزور ، وبعث الله محمداً بالخبور ، صاحب
النجيب الأحمر ، والتاج والمغفر ، والوجه الأزهر ، والحاجب الأقر ، والطرف الأحر صاحب .
قول شهادة أن لا إله إلا الله . وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض ، أهل المدر والوبر . ثم
أنشأ يقول :

الحمد لله الذي لم يخلق الخلق عبث
لم يخلقنا يوماً سدى من بعد عيسى وأكثر
أرسل فينا أحداً خير نبي قد بعث
صلى عليه الله ما حيج له ركب وحث

وفيه من إنشاء قس بن ساعدة :

يا ناعى الموت والملحود في جدث عليهم من بقايا قولهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم أرقوا
حتى يعودوا بحال غير حالهم خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا
منهم عمارة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها المنهج الخلق

ثم رواه البيهقي عن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أحمد الأصبهاني ، حدثنا أبو بكر أحمد بن
سعيد بن فرضخ الأحميمي بمكة . حدثنا القاسم بن عبد الله بن مهدي ، ثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن

الحزومي ، ثنا سفيان بن عيينة عن أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، فذكر
القصة وذكر الإشاد . قال : فوجدوا عند رأسه صحيفة فيها :

ياناعى الموت والأموات في جدث عليهم من بقايا نومهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم كما تنبه من نومانه الصعق
منهم عراة وموتى في ثيابهم منها الحديد ومنها الأزرق الخلق

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي بعثني بالحق لقد آمن قس بالبعث » . وأصله
مشهور ، وهذه الطرق على ضعفها كالمتماعضة على إثبات أصل القصة . وقد تكلم أبو محمد بن درستويه
على غريب ما وقع في هذا الحديث ، وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالى ، وما كان فيه غرابة شديدة نهبنا
عليه في الحواشي .

وقال البيهقي : أنا أبو سعيد بن محمد بن أحمد الشعبي ، ثنا أبو عمرو بن أبي طاهر الحمد آبادي
لفظاً ، ثنا أبو لبابة محمد بن المهدي الأموردي ، ثنا أبي ، ثنا سعيد بن هبيرة ، ثنا المعتز بن سليمان عن أبيه
عن أنس بن مالك قال : قدم وفد إباد على النبي ﷺ فقال : « ما فعل قس بن ساعدة » ؟ قالوا هلك .
قال : « أما إني سمعت منه كلاماً أرى أني أحفظه » ، فقال بعض القوم : نحن نحفظه يا رسول الله ، قال
هاتوا : فقال قائلهم : إني واقف بسوق عكاظ فقال : يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كل من
عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ماهو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهزح ،
وبحار تزخر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن في السماء لحبراً ، وإن في الأرض لعبرا ، أرى الناس
يموتون ولا يرجعون . أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ أقسم قس قسماً بالله لا آثم فيه ، إن
لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه ، ثم أنشأ يقول :

في الداهيين الأورا بين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مصارعاً للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأكاكبر والأصاغر
أيقنت أني لا محأ لة حيث صار القوم صائر

ثم ساقه البيهقي من طرق آخر قد نهبنا عليها فيما تقدم ، ثم قال بعد ذلك كله : وقد روى هذا
الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بزيادة ونقصان . وروى من وجه آخر عن الحسن
البهري منقطعاً ، وروى مختصراً من حديث سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة . قلت : وعبادة بن الصامت

كما تقدم وعبد الله بن مسعود كما رواه أبو نعيم في كتاب الدلائل عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل ، عن يحيى بن عبد الحميد الحماني عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود فذكره . وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم وسعد بن أبي وقاص . ثم قال البيهقي : وإذا روى الحديث من أوجه أخر - وإن كان بعضها ضعيفاً - دل على أن للحديث أصلاً ، والله أعلم .

ذكر زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرظ بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى . وكان الخطاب والد عمر بن الخطاب عمه وأخاه لأمه ؛ وذلك لأن عمرو ابن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه ، وكان لها من نفيل أخوه الخطاب ، قاله الزبير بن بكار ومحمد بن إسحاق وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم ، وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده . قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ! والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ، ثم يقول : اللهم إني لو أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم ، ثم يسجد على راحلته وكذا رواه أبو أسامة عن هشام به ، وزاد : وكان يصلى إلى الكعبة ويقول : إلهى إله إبراهيم ، ودينى دين إبراهيم . وكان يحيى الموءودة ، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ؛ ادفنها إلى أكفلها ، فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها وإن شئت فادفنها . أخرجه النسائى من طريق أبي أسامة وعلقه البخارى فقال : وقال الليث : كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه به . وقال يونس ابن بكير عن محمد بن إسحاق : وقد كان نفر من قريش ؛ زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعثمان بن الحويرث ابن أسد بن عبد العزى ، وعبد الله بن جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم ابن داودان بن أسعد بن أسد بن خزيمة . وأمه أميمة بنت عبد المطلب ، وأخته زينب بنت جحش التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتى بيانه - حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك نفر إلى بعض وقالوا : تصادقوا وليسكنتم بعضكم على بعض . فقال قائلهم : تملن والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ؟ فابتغوا لأنفسكم ، فخرجوا يطلبون ويسيرون فى الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والمثلل كلها ليهدوا إلى الخنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحکم في النصرانية ، وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من زيد بن عمرو بن نفيل ، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها ، إلا دين الحنيفية دين إبراهيم ؛ يوحد الله ويخلص من دونه ، ولا يأكل ذبائح قومه . فأذاهم بالفراق لما هم فيه . قال : وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ، ووكل به الخطاب شباباً من قریش وسفهاء من سفاهم ، فقال لهم لا تتركوه يدخل مكة ، فكان لا يدخلها إلا سرّاً منهم . فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم ، أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه . وقال موسى بن عقبة : سمعت من أرضي يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل ، كان يبيب على قریش ذبائحهم ، ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ؛ لم تذبجوها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظماً له .

وقال يونس عن ابن إسحاق : وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل ، قد عزم على الخروج من مكة ، فضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم ، وكانت امرأته صفية بنت الحضرمي كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده - آذنت الخطاب بن نفيل . فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ويسأل عنه ، ولم يزل في ذلك - فيما يزعمون - حتى أتى الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها ، حتى أتى راهباً بديمة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية - فيما يزعمون - فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب : إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ؛ لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ، ولكنه قد أظلم خروج نبي وهذا زمانه . وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها ، فخرج سريعا - حين قال له الراهب ما قال - يريد مكة ، حتى إذا كان بأرض نلم - عدوا عليه فقتلوه ، فقال ورقة يرثيه :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا

بدينك رباً لبس ربك كمثلته وتركك أوثان الطواغى كلها

وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض سبعة واديا

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة : حدثنا أحمد بن طارق الوابسي ، ثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عمر عن زيد بن عمرو بن نفيل ، أنه كان يتأله في الجاهلية ، فانطلق حتى أتى رجلاً من اليهود ، فقال له : أحب أن تدخلني معك في دينك ، فقال له اليهودي : لأدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله ، فقال من غضب الله أفر ؟ فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له أحب أن تدخلني معك في دينك ، فقال : لست أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة ، فقال من الضلالة أفر ؟ قال له النصراني

فإني أدلك على دين إن تبعته اهتديت ، قال أي دين ؟ قال دين إبراهيم . قال : فقال اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم ؛ عليه أحياء وعليه أموت . قال فذكر شأنه للنبي ﷺ فقال : « هو أمة وحده يوم القيامة » .
وقد روى موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هذا ، وقال محمد بن سعد : حدثنا علي بن محمد ابن عبد الله بن سيف القرشي عن إسماعيل عن مجالد عن الشعبي عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : شامت اليهودية والنصرانية فككرهتها ، فكنت بالشام وما والاها ، حتى أتيت راهباً في صومعة ، فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية فقال لي : أراك تريد دين إبراهيم ، يا أبا أهل مكة ! إنك لتطلب ديناً ما يوجد اليوم أحد يدين به ، وهو دين أبيك إبراهيم ؛ كان حنيفاً ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلاذك ، فالحق ببلاذك فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية ، وهو أكرم الخلق على الله . وقال يونس عن ابن إسحاق : حدثني بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل : أن زيدا كان إذا دخل الكعبة قال : لبيك حقاً حقاً ؛ تعبداً ورقاً .

عُدت بما عاذ به إبراهيم مستقبل القبلة وهو قائم
إذ قال : إلهي أنفي لك عان راغم مها تجشمني فإني جاشم
البر أبني لا الخلال ليس مهجر كمن قال (١)

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا المسعودي عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي عن أبيه عن جده : أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى اتھيا إلى راهب بالموصل ، فقال لزيد بن عمرو : من أين أقبلت يا صاحب البعير ؟ فقال من بنية إبراهيم ، فقال وما تلتمس ؟ قال ألتمس الدين . قال ارجع فإنه يوشك أن يظهر في أرضك . قال : فأما ورقة فتنصر ، وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقني فرجع وهو يقول :

لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً البر أبني لا الخلال ، فهل مهجر كمن قال

أمنت بما آمن به إبراهيم وهو يقول : أنفي لك عان راغم ، مها تجشمني فإني جاشم ، ثم يخر فيسجد . قال : وجاء ابنه - يعني سعيد بن زيد - أحد العشرة رضي الله عنه فقال : يا رسول الله : إن أبي كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له ، قال : « نعم - فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » . قال وأتى زيد بن عمرو ابن زيد على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفره لهما ، فدعوا لاطعامهما ، فقال زيد بن عمرو : يا ابن أخي ! أنا لا آكل مما ذبح على النصب . وقال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمرو

(١) الخلال : الخيلاء والكبر . والمهجر - من الهجر - وهو أشد الحر . وقال : من القيلولة .

حدثني أبو بكر بن أبي سبرة عن موسى بن ميسرة عن ابن أبي مليكة عن حجر بن أبي أهاب ، قال : رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بُوَانة^(١) بعد ما رجعت من الشام وهو يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة سجدة ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل ، لأعبد حجراً ولا أصلي له ، ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم بالأزلام ، وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي فيقول : لبيك لا شريك لك ولا نذل لك ، ثم يدفع من عرفة ماشياً وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً .

وقال الواقدي : حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ، ولا أراني أدركه وأنا أو من به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيتته فأقرته مني السلام ، وسأخبرك مانعته حتى لا يخفي عليك . قلت : هلم ! قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارق عينه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرج قومه منها ، ويكرهون ما جاء به ، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره . فأياك أن تحمد عنه ، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك وينعتونه مثل مانعته لك ، ويقولون لم يبق نبي غيره . قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وإقراءه منه السلام ، فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : « قد رأيت في الجنة يسحب ذبولاً » . وقال البخاري في صحيحه : [ذكر زيد بن عمرو بن نفيل] حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا موسى بن عقبة ، حدثني سالم عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَدَاح^(٢) قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي ، فقَدُمْتُ إلى النبي ﷺ سفرة فإني أن يا كل منها ، ثم قال زيد : إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له . قال موسى بن عقبة : حدثني سالم بن عبد الله - ولا أعلمه إلا يحدث به عن ابن عمر - أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقى عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إني لعلّي أن أدين دينكم فأخبرني ، فقال إنك لانكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله تعالى ، ولا أهل من غضب الله شيئاً أبداً .

(١) بُوَانة : هضبة وراء ينبع ، وماء لبني عقيل . (٢) واد غربي مكة لبني فزارة .

وأنى أستطيعه؟ فهل تدانى على غيره؟ قال ما علمه إلا أن يسكون حنيفاً ، قال زيد : وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم عليه السلام ؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى ، فذكر مثله ، فقال لن تسكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنى أستطيع؟ فهل تدانى على غيره؟ قال ما علمه إلا أن تسكون حنيفاً ، قال وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم ؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج ، فلما برز رفع يديه فقال : اللهم إني أشهدك أنى على دين إبراهيم . قال : وقال الليث : كتب إلى هشام ابن عمرو عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قریش ! والله مامنكم على دين إبراهيم غيرى . وكان يحيى الموءودة ويقول الرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفنتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها . انتهى ما ذكره البخارى .

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي داود عن عيسى ابن حماد عن الليث عن هشام عن أبيه عن أسماء ، فذكر نحوه . وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام ابن عمرو عن أبيه عن أسماء ، قالت : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قریش : إياكم والزنا فإنه يورث الفقر . وقد ساق ابن عساكرها هنا أحاديث غريبة جداً وفي بعضها نكارة شديدة . ثم أورد من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يبعث يوم القيامة أمة وحده » . فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال : سئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل - أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ، ويقول : إلهى إله إبراهيم ودينى إبراهيم ويسجد . فقال رسول الله ﷺ : « يحشر ذاك أمة وحده بينى وبين عيسى بن مريم » ، إسناده جيد حسن .

وقال الواقدى : حدثنى موسى بن شيبة عن خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : سمعت سعيد ابن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل ، فقال : توفى وقریش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ بخمس سنين ، وأقد نزل به وإنه ليقول : أنا على دين إبراهيم ، فأسلم ابنه سعيد بن زيد وانبع رسول الله ﷺ . وأنى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ ، فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال : « غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم » ، قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له ، ثم يقول سعيد بن المسيب : رحمه الله وغفر له .

وقال محمد بن سعد عن الواقدي : حدثني زكريا بن يحيى السعدي عن أبيه قال : مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودفن بأصل حراء ، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له « مَيْفَعَة » ، والله أعلم .

وقال الباغندي عن أبي سعيد الأشج عن أبي معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درختين » : وهذا إسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب . ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله - ما قدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة :

إلى الله أهدى مدحتي وثنائيا وقولاً رضىً لابني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانيا
وقد قيل إنها لأمية بن أبي الصلت^(١) والله أعلم . ومن شعره في التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق والزبير بن بكار وغيرهما :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلا
دحاها فلما استوت شداها سواء وأرسي عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سيقمت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجلا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الريح تصرف حالا فحالا

وقال محمد بن إسحاق : حدثني هشام بن عمرو قال : روى أبي أن زيد بن عمرو قال :

أرب واحد أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
عزات اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولا غنماً^(٢) أدين وكان رباً لنا في الدهر إذ حلنى بسير
عجبت وفي الليالي معجبات وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجلا كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين بـ قوم فيربل^(٣) منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً كما يتروح الغصن النضير

(١) ذكر ذلك ابن هشام وأتى على التصبذة (٢) في نسخة : ولا هبلا

(٣) فيشب ويكبر ، وفي رواية : فيربو كما سيأتي .

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما حفظوها لا تبوروا
تري الأبرار دارهم جنان والكفار حامية سعيهم
وخزي في الحياة وإن يموتوا يلاقوا ماتضيق به الصدور

هذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة وقد رواه أبو القاسم البغوي عن مصعب بن عبد الله عن الضحاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال : قال هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قال زيد بن عمرو بن نفيل :

عزلت الجن والجنان عني كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى طسم أدير
ولا غما أدين وكان رباً لنا في الدهر إذ حلمى صغير
أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
ألم تعلم بأن الله أفنى رجالا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً كما يتروح الفصن النضير

قالت : فقال ورقة بن نوفل :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا
لدينك رباً ليس رباً كمثلها وتركت جنان الجبال كما هيا
أقول إذا أهبطت أرضاً مخوفة حنانيك لا تظهر على الأعدايا
حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا
لتدركن المرء رحمة ربه وإن كان تحت الأرض سبعين واديا
أدين لرب يستجيب ولا أرى أدين لمن لا يسمع الدهر واعيا
أقول إذا صليت في كل بيعة تباركت قدأ كثرت باسمك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام ، هو وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش - فتنصروا ، إلا زيدا فإنه لم يدخل في شيء من الأديان ، بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له ؛ متبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه . وأما ورقة بن نوفل فسيأتى خبره في أول المبعث . وأما عثمان بن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر . وله خبر عجيب

كره الأموى؛ ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى إليه مالتي من قومه، كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش، فعزم على ذلك، فسكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك، لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الغيل، فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه، فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموى، تركناه اختصاراً. وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر شيء مما وقع من الحوادث في زمن الفترة

فمن ذلك: بنيان السكعبة. وقد قيل: إن أول من بناه آدم، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن عبد الله بن عمرو — وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف. وأقوى الأقوال أن أول من بناه الخليل عليه السلام كما تقدم، وكذلك رواه سماك بن حرب عن خالد بن عرعة عن علي بن أبي طالب قال: ثم تهدم فبنته العالقة، ثم تهدم فبنته جرحم، ثم تهدم فبنته قريش. قلت: وسيأتي بناء قريش له، وذلك قبل المبعث بخمس سنين، وقيل بخمس عشرة سنة، وقال الزهرى: كان رسول الله ﷺ قد بلغ الحلم. وسيأتي ذلك كله في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة.

ذكر كعب بن لؤى

روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زباله، عن محمد بن طلحة التيمي، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة، قال: كان كعب بن لؤى يجمع قومه يوم الجمعة، وكانت قريش تسميه العروبة فيخطبهم فيقول: أما بعد فاسمعوا وتمعنوا، وافهموا واعلموا، ليل ساج، ونهار ضاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالأخرين، والأنثى والذكر، والروح وما يهبج إلى بلى، فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، ونمروا أموالكم. فهل رأيتم من هالك رجع؟ أو ميت نشر؟ الدار أمامكم، والظن غير ماتقولون، حرمكم زينوه وعظموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، ثم يقول:

نهار وإيل كل يوم بحادث سواء علينا ليالها ونهارها
يؤوبان بالأحداث حتى تأوبا وبالنعم الضافي علينا ستورها
على غفلة يأتي النبي محمد فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم يقول: والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر، ويد ورجل - لتنصبت^(١) فيها تنصب الجمل، ولأرقلت بها لارقال العجل. ثم يقول:

(١) تنصبت: وقفت وهدمت مرفوع الرأس. وأرقلت: أسرعت.

يا ليتني شاهدت نجواء دعوته حين العشيّة تبغى الحق خذلانا
قال : وكان بين موت كعب بن لؤى ومبعث رسول الله ﷺ - ستون سنة .

ذكر تجديد حفر زمزم على يدى عبد المطلب بن هاشم وكان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها إلى زمانه

قال محمد بن إسحق : ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر ، إذ أتى فأمر بحفر زمزم . وكان أول ما ابتدئ به عبد المطلب من حفرها - كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصرى عن مرثد بن عبد الله المزنى عن عبد الله بن رزين الغافقى - أنه سمع على بن أبي طالب يحدث حديث زمزم ، حين أمر عبد المطلب بحفرها . قال : قال عبد المطلب : إني لنأتم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي احفر طيبة . قال : قلت وما طيبة ؟ قال ثم ذهب عنى ، قال : فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر برة^(١) . قال : قلت وما برة ؟ قال ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر المذنونة . قال : قلت وما المذنونة ؟ قال ثم ذهب عنى . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر زمزم . قال : قلت وما زمزم ؟ قال : لا تُنزف^(٢) أبداً ولا تدم^(٣) ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين القرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية التمل .

قال : فلما بين لى شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق - غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب - وليس له يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها . فلما بدا لعبد المطلب الطمى كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته . فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب ! إنها بئر أينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل ؛ إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم ، قالوا له فأنصفنا فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكم إليهم ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أمية^(٤) وركب من كل قبيلة من قريش نفر ، فخرجوا والأرض إذ ذاك بفاوز ، حتى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب وأصحابه ، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم ، وقالوا إنا بماغزة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم قال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا رأينا تبع لرأيتك فرنا بما شئت . فقال عبد المطلب : إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته

(١) قيل : سميت طيبة ؛ لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم . وبيرة ، لأنها فاضت على الأبرار . ومذنونة ؛ لأنه ضن بها على غير المؤمنين . (٢) أى لا يفرغ ماؤها ولا تنرح . (٣) أى لا يقل ماؤها . من قولهم : بئر ذمة وذميم وذميمة - قليلة الماء . (٤) فى ابن هشام : من بنى أبيه من بنى عبد مناف .

لنفسه بما لكم الآن من القموة ، فكلمنا مات رجل دفعه أصحابه في حفرة ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلاً واحداً ؛ فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه . فقالوا : نعم ما أمرت به . فحفر كل رجل لنفسه حفرة ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا تضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا — لعجز ، فعسى أن يرزقنا الله ماء بيهض البلاد . فارتحلوا حتى إذا بمث عبد المطلب راحلته — انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه . ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستسقوا حتى ماؤا أسقيتهم ، ثم دعا قبائل قريش — وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال — فقال هاموا إلى الماء ، فقد سقانا الله ، فجاءوا فشربوا واستسقوا كلهم ، ثم قالوا قد والله قضى لك علينا ، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً . إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الغلاة — هو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقائتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى السكاهنة ، وخلوا بينه وبين زمزم .

قال ابن إسحاق فهذا ما بلغني من حديث علي بن أبي طالب في زمزم . قال ابن إسحاق : وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أسر بحفر زمزم :

ثم ادع بالماء الرّوي غير الكدر يسقى حجيج الله في كل مبر
ليس يخاف منه شيء ما عمر

فقال : فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : تعلموا أني قد أسرت أن أحفر زمزم ، قالوا فهل بُين لك أين هي ؟ قال : لا ! قالوا فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه مارأيت ، فإن يك حقاً من الله يبين لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك . فرجع ونام فأثى فقيل له : احفر زمزم ؛ إنك إن حفرتها لن تندم ، وهي من تراث أبيك الأعظم ، لا تنزف أبداً ولا تدم . تسقى الحجيج الأعظم مثل نعام جافل لم يقسم ، ينفذ فيها ناذر لمنعم ، تكون ميراثاً وعقداً محكم ، ليست كبعض ما قد تعلم ، وهي بين القرث والدم .

قال ابن إسحاق : فزعموا أن عبد المطلب حين قيل له ذلك — قال وأين هي ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدا ، فأنه أعلم أى ذلك كان ؟ قال فقدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره — زاد الأموي — ومولاه أصرم ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنيين : إساف ونائلة — اللذين كانت قريش تنحرف عندهما ذبايحهما ، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه قريش وقالت : والله لا نتركك تحفر بين وثنيينا اللذين ننحرف عندهما ، فقال عبد المطلب لابنه الحارث : دُدْ عني حتى أحفر ، والله لأمضين لما أمرت به . فلما عرفوا أنه غير نازع — خلوا بينه وبين الحفر

وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطمي ، فكبر وعرف أنه قد صدق . فلما تمالى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب ، وهما اللتان كانت جرم قد دفنتهما ، ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعا . فقالت له قریش : يا عبد المطلب ! لنا معك في هذا شرك وحق ، قال : لا . ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم ؛ نضرب عليها بالقداح . قالوا وكيف نصنع ؟ قال أجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . قالوا : أنصفت . فجعل للكعبة قدحين أصفرين ، وله أسودين ، ولم أبيضين . ثم أعطوا القداح الذي يضرب عند هبل ، وهبل أكبر أصنامهم . ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد : ^(١) أعل هبل — يعني هذا الصنم . وقام عبد المطلب يدعو الله . وذكر يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق أن عبد المطلب جعل يقول :

لآلهم أنت الملك المحمود ربي أنت المبدى المعيد
ومسك الراسية الجمود من عندك الطارف والتليد
إن شئت ألهمت كما تريد لموضع الحلية والحديد
فبين اليوم لما تريد إنى نذرت العاهد المعهود

اجعله رب لي فلا أعود

قال وضرب صاحب القداح ^(٢) ، نخرج الأصفران على الغزاليين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب ، وتخلف قدحاً قریش . فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزاليين من ذهب . فكان أول ذهب حلية للكعبة - فيما يزعمون . ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج . وذكر ابن إسحاق وغيره أن مكة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم في زمن عبد المطلب ، ثم عددها ابن إسحاق وسمها ، وذكر أنها من مكة وحافريها - إلى أن قال : فمفت زمزم على البئر كلها ، وانصرف الناس كلهم إليها لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم . وافتخرت بها بنو عبد مناف على قریش كلها وعلى سائر العرب . وقد ثبت في صحيح مسلم في حديث إسلام أبي ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في زمزم : « إنها طعام طعم ^(٣) وشفاء سقم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن المؤمل عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ماء زمزم لما شرب منه » . وقد رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن

(١) أي أظهر دينك (٢) جمع قدح بكسر الفاء وسكون الدال - وهو السهم الذي كانوا يستقسمون به .

(٣) أي طعام مشبع جيد .

المؤمل ، وقد تكلموا فيه ولفظه : « ماء زمزم لما شرب له » . ورواه سويد بن سعيد عن عبدالله بن المبارك عن عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له » . ولكن سويد بن سعيد ضعيف ، والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبدالله بن المؤمل كما تقدم . وقد رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً : « ماء زمزم لما شرب له » ، وفيه نظر ، والله أعلم .

وهكذا روى ابن ماجه أيضاً والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل : إذا شربت من زمزم فاستقبل الكعبة ، واذكر اسم الله وتنفس ثلاثاً وتضلع منها ، فإذا فرغت فاحمد الله ؛ فإن رسول الله ﷺ قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتضلعون من ماء زمزم » . وقد ذكر عن عبد المطلب أنه قال : اللهم إني لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حلّ وبل^(١) . وقد ذكره بعض الفقهاء عن العباس بن عبد المطلب ، والصحيح أنه عن عبد المطلب نفسه ؛ فإنه هو الذي جدد حفر زمزم كما قدمنا والله أعلم . وقد قال الأموي في مغازيه : حدثنا أبو عبيد أخبرني يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرمله ، سمعت سعيد بن المسيب يحدث : أن عبد المطلب بن هاشم حين احتقر زمزم ، قال : لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حلّ وبل . وذلك أنه جعل لها حوضين : حوضاً للشرب ، وحوضاً للوضوء . فعند ذلك قال : لا أحلها لمغتسل ؛ لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه . قال أبو عبيد قال الأصمعي : قوله : وبل - إتباع ، قال أبو عبيد والإتباع لا يكون بواو العطف ، وإنما هو كما قال معتمر بن سليمان : إن « بل » بلغة حمير - مباح ، ثم قال أبو عبيد : حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود - أنه سمع ذراً أنه سمع العباس يقول : لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حلّ وبل : وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان عن عبد الرحمن ابن علقمة أنه سمع ابن عباس يقول ذلك ، وهذا صحيح إليهما ، وكأنهما يقولان ذلك في أيامهما على سبيل التبليغ والإعلام ، بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها ؛ فلا ينافي ما تقدم ، والله أعلم .

وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته ، ثم صارت إلى ابنه أبي طالب مدة . ثم اتفق أنه أُمليق في بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر ، وصرها أبو طالب في الحجيج في عامه فيما يتعلق بالسقاية ، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء ، فقال لأخيه العباس : أسلفني أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام المقبل أعطك جميع مالك ، فقال له العباس : بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لي أكتفيكها ، فقال : نعم . فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطى العباس ، فترك له السقاية فصارت إليه ، ثم من بعده صارت إلى عبد الله ولده ، ثم إلى علي بن عبد الله ابن عباس ، ثم إلى داود بن علي ، ثم إلى سليمان بن علي ، ثم إلى عيسى بن علي ثم أخذها المنصور واستناب عليها مولاة أبا رزين ذكره الأموي .

(١) في القاموس : والبل بالكسر : الشفاء والباح ، ويقال : حلّ وبل ، أو هو إتباع .

ذكر نذر عبد المطلب ذبح أحد ولده

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب فيما يزعمون نذر - حين لقي من قريش مالتى عند حفر زمزم - لثن ولده عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يذبحوه - ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة . فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم : الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وأبو هلب ، والعباس ، وحزمة ، وأبو طالب ، وعبد الله - جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل بذلك فأطاعوه ، وقالوا كيف نصنع ؟ قال ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني ، ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل وكان على بئر في جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة ، وكان عند هبل قداح سبعة ؛ وهي الأزلام التي يتحاكون إليها . إذا أعزل عليهم أمر ؛ من عقل أو نسب أو أمر من الأمور - جاءوه فاستقسموا بها ، فما أمرتهم به أو نهتهم عنه - امتثلوه .

والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل ، خرج القدح على ابنه عبد الله ، وكان أصغر ولده وأحبهم إليه ، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله ، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أندية فقالوا : ما تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه إخوة عبد الله : والله لا نذبحه أبداً حتى تُعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يحيىء بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق : أن العباس هو الذي اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه ، فيقال إنه شج وجهه شجاً لم يزل في وجهه إلى أن مات . ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز ؛ فإن بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك ، ثم أنت على رأس أمرك ؛ إن أمرتك بذبحه فاذبحه ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته . فانطلقوا حتى أتوا المدينة ، فوجدوا العرافة وهي سجاح - فيما ذكره يونس عن بكير بن ابن إسحاق - بختيار ، فركبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، فقالت لهم ارجعوا عنى اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله ؛ فرجعوا من عندها . فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها ، فقالت لهم قد جاءني الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الإبل - وكانت كذلك - قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ؛ فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فأنحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ، فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك الأمر - قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً ثم ضربوا فخرج القدح

على عبد الله فزادوا عشراً ، فلم يزالوا يزدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد الله - حتى بلغت الإبل مائة . ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب - وهو قائم عند هبل يدعو الله : قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب .

فَعندها زعموا أنه قال : لا - حتى أضرب عليها بالقدح ثلاث مرات ، فضربوا ثلاثاً ويقع القدح فيها على الإبل فنحرت ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع . قال ابن هشام : ويقال ولا سبع . وقد روى أنه لما بلغت الإبل مائة ، خرج على عبد الله أيضاً فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين ، فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الإبل ثلاثمائة ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرتها عند ذلك عبد المطلب . والصحيح الأول ، والله أعلم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهري عن قبيصة بن ذؤيب : أن ابن عباس سأله امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة ، فأسرها بذبح مائة من الإبل ، وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب . وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم - وهو أمير على المدينة - فقال إنهما لم يصيبا الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ، ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل ، وأخذ الناس بقول مروان بذلك ، والله أعلم .

ذكر تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنه بنت وهب الزهرية

قال ابن إسحاق : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله ، فرب به - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهي أم قتال أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وهي عند الكعبة ، فنظرت إلى وجهه فقالت أين تذهب يا عبد الله ؟ قال مع أبي . قالت : لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع على الآف . قال أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ، فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر - وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً - فزوجه ابنته آمنه بنت وهب ، وهي يومئذ سيدة نساء قومها ، فزعموا أنه دخل عليها حين أملى كهما مكانه فوقع عليها ، فحملت منه برسول الله ﷺ . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ماعرضت ، فقال لها : مالك لانعرضين علي اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة . وكانت تسمع من أخيها ، ورقة بن نوفل - وكان قد تنصر واتبع الكتب - أنه كائن في هذه الأمة نبي ، فطمعت أن يكون منها ، فجعله الله تعالى في أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل ، كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته ^(١)) وسند كرم المولد مفصلاً .

ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على ما فاتها من الأمر الذي رامته - وذلك فيما رواه البيهقي من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه الله :

عليك بآل زهرة حيث كانوا وآمنة التي حملت غلاما
ترى المهدي حين نزا عليها ونوراً قد تقدمه أماما

إلى أن قالت : فكل الخلق يرجوه جميعاً يسود الناس مهتدياً إماما
يراه الله من نور صفاه فأذهب نوره عنا الظلاما
وذلك صنع ربك إذ حباه إذا ماسار يوماً أو أقاما
فيهدى أهل مكة بعد كفر ويفرض بعد ذلكم الصياما

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي : حدثنا علي بن حرب ، حدثنا محمد بن عمارة القرشي ، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي ، حدثنا ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه ، مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب ؛ يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية ، فرأت نور النبوة في وجهه عبد الله فقالت : يا فتى ! هل لك أن تقع على الآن وأعطيك مائة من الإبل ؟ فقال عبد الله :

أما الحرام فاللمات دونه والحل لاجل فأسئبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ؟ يحيى الكريم عرضه ودينه

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فأقام عندها ثلاثاً . ثم إن نفسه دعت إلى مادعته إليه الكاهنة ، فأناها فقالت : ما صنعت بعدى ؟ فأخبرها ، فقالت : والله ما أنا بصاحبة ربية ، ولكني رأيت في وجهك نوراً ، فأردت أن يسكون في . وأبي الله إلا أن يجعله حيث أراد . ثم أنشأت فاطمة تقول :

إني رأيت نخيلة لمعت فتلاأت بجفاتي^(١) القطر
فلمأتها^(٢) نوراً يضيء له ماحوله كإضاءة البدر
ورجوتها نخرأ أبوه به ماكل قاذح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت نوبيك ما استقلت وما تدرى ا

(١) الختام : السحاب السود (٢) لمأتها : أبصرتها ولحنتها .

وقالت فاطمة أيضاً :

بنی هاشم قد غادرت من أخیکم أمینةُ إذ للباه تمترکان
کما غادر المصباح عند خموده فتائل قد میثت له بدهان
وما کل ما یجوى الفتى من تلاده بحزم ولا ما فاته لتوانی
فأجل إذا طالبت أمراً فإنه سیکفیکه جدان یحتاجان
سیکفیکه إما ید مفعلة^(١) وإما ید مبسوطه بینان
ولما حوت منه أمینة ما حوت حوت منه نغراً مالذک ثان

وروی الإمام أبو نعیم الحافظ فی کتاب : [دلائل النبوة] من طریق یعقوب بن محمد الزهری عن عبد العزیز بن عمران عن عبد الله بن جعفر عن ابن عون عن المسور بن مخرمة عن ابن عباس قال : إن عبد المطلب قدم الیمین فی رحلة الشتاء ، فنزل علی حبر من الیهود ، قال : فقال لی رجل من أهل الدیور - یعنی أهل الکتاب - یا عبد المطلب ! أتأذن لی أن أنظر إلی بعضک ؟ قال : نعم - إذا لم یکن عورة . قال ففتح إحدى منخری فنظر فیہ ، ثم نظر فی الآخر فقال : أشهد أن فی إحدى یدیک ملکاً وفی الأخری نبوة ، وإنا نجد ذلک فی بنی زهرة ، فکیف ذلک ؟ قلت لأدری ، قال هل لك من شاعة ؟ قلت وما الشاعة ؟ قال زوجة^(٢) . قلت أما الیوم فلا ، قال فإذا رجعت فتزوج فیهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فولدت حمزة وصفیة ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنه بنت وهب ، فولدت رسول الله ﷺ ، فقالت قریش حین تزوج عبد الله بآمنة : فمالج^(٣) - أی فاز وغلب - عبد الله علی أبیه عبد المطلب .

(١) ففعلت یده : تشنجت وتقبضت (٢) فی القاموس - الشاعة : الزوجة لما یتمتها الزوج .

(٣) الفالج یسکون اللام : الظفر والفوز .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه وشمائله وفضائله ودلائله الدالة عليه ﴾

باب ذكر نسبه الشريف وطيب أصله المنيف

قال الله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال : كيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب ، قال : كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها - يعنى في أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة ، صلوات الله عليهم أجمعين .

فهو سيد ولد آدم وغرهم في الدنيا والآخرة : أبو القاسم ، وأبو إبراهيم ، محمد ، وأحمد ، والملاحى الذى يعنى به الكفر ، والعاقب الذى مابعده نبي ، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه ، والمقفى ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، وخاتم النبيين ، والقانع ، وطه - ويس ، وعبد الله .

قال البيهقي : وزاد بعض العلماء فقال : سماه الله في القرآن رسولا ، نبياً ، أميناً ، شاهداً ، مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وروفاً رحماً ، ومذكراً ، وجعله رحمة ونعمة وهداياً .

وسنورد الأحاديث المروية في أسمائه عليه الصلاة والسلام في باب نعتده بعد فراغ السيرة ؛ فإنه قد وردت أحاديث كثيرة في ذلك ، اعتنى بجمعها الحفاظ الكبيران : أبو بكر البيهقي وأبو القاسم بن عساكر . وأفرد الناس في ذلك مؤلفات ، حتى رام بعضهم أن يجمع له - عليه الصلاة والسلام - ألف اسم . وأما الفقيه الكبير أبو بكر بن العربي المالكي شارح الترمذي بكتابه الذى سماه الأحوذى ؛ فإنه ذكر من ذلك أربعة وستين اسماً ، والله أعلم .

وهو ابن عبد الله ، وكان أصغر ولد أبيه عبد المطلب ، وهو الذبيح الثانى المقدى بمائة من الإبل كما تقدم . قال الزهرى : وكان أجمل رجال قريش ، وهو أخو الحارث والزبير وحمة وضرار وأبي طالب - واسمه عبد مناف ، وأبي لهب - واسمه عبد العزى ، ولتقوم - واسمه عبد الكعبة ، وقيل هما اثنان ، وحجل - واسمه المغيرة ، والفيداق وهو كبير الجود - واسمه نوفل ، ويقال إنه حجل . فمؤلاء أعمامه عليه الصلاة والسلام . وعماته ست وهن : أروى ، وبرة ، وأميمة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم - وهى البيضاء . وسنتكلم على كل منهم فيما بعد إن شاء الله تعالى . كلهم أولاد عبد المطلب - واسمه شيبه ؛ يقال لشيبه كانت في رأسه ، ويقال له شيبه الحمد لجوده . وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً لما مر بالمدينة في تجارته إلى الشام ، نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خدش بن جندب بن عدى

ابن النجار الخزرجي النجاري - وكان سيد قومه - فأعجبتته ابنته سلمى ، فخطبها إلى أبيها فزوجها منه ، واشترط عليه مقامها عنده ، وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة . فلما رجع من الشام بنى بها وأخذها معه إلى مكة ، فلما خرج في تجارة أخذها معه وهي حبلى فتركها بالمدينة . ودخل الشام فمات بقرية ، ووضعت سلمى ولدها فسمته شيبه . فأقام عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين ، ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف ، فأخذ خفية من أمه فذهب به إلى مكة . فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة ، قالوا من هذا معك ؟ فقال عبدى . ثم جاءوا فهنئوه به وجعلوا يقولون له عبد المطلب لذلك فغلب عليه ، وساد في قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورأسهم ، فكان جماع أمرهم عليه .

وكانت إليه السقاية والرفادة^(١) بعد المطلب ، وهو الذى جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم ، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها ، من تينك الغزالتين من ذهب اللتين وجدتهما فى زمزم مع تلك الأسياف القلعية . قال ابن هشام : وعبد المطلب أخو أسد ونضلة وأبى صيفى وحية وخالدة ورقية والشفاء وضعيفة ، كلهم أولاد هاشم - واسمه عمرو . وإمامسى هاشمًا لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى الحبل ، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته ، وقيل للزبيرى والد عبد الله :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون^(٢) عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأسياف

وذلك لأنه أول من سن رحلتى الشتاء والصيف ، وكان أكبر ولد أبيه . وحكى ابن جرير أنه كان توأم أخيه عبد شمس ، وأن هاشمًا خرج ورجله ملتصقة برأس عبد شمس ، فماتت حتى سال بينهما دم ، فقال الناس بذلك يكون بين أولادها حروب ، فكانت وقعة بنى العباس مع بنى أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة . وشقيقهم الثالث المطلب ، وكان للمطلب أصغر ولد أبيه - وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال . ورابعهم نوفل من أم أخرى - وهى واقدة بنت عمرو المازنية ، وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة ، وكان يقال لهم المجبرون ، وذلك لأنهم أخذوا قومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ، ليدخلوا فى التجارات إلى بلادهم ؛ فكان هاشم قد أخذ أمانًا من ملوك الشام والروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس من النجاشى الأكبر ملك الحبشة ، وأخذ لهم نوفل من الأكاسرة ، وأخذ لهم المطلب أمانًا من ملوك حمير . ولهم يقول الشاعر :

يا أيها الرجل الحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف ؟

وكان إلى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه ، وإليه وإلى أخيه المطلب نسب ذوى القربى ، وقد كانوا

(١) لإطعام الحجيج (٢) المستنون : الذين أصابهم السنة المجذبة الشديدة . وأستنوا - أجدبوا . وأرض سنة مستنة - لم تنبت .

شيئاً واحداً في حالتي الجاهلية والإسلام لم يفتروا، ودخلوا معهم في الشعب وأنخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل . ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شرّ عاجلا غير آجل

ولا يعرف بنو أب تباينوا في الوفاة مثلهم ؛ فإن هاشمًا مات بغزة من أرض الشام ، وعبد شمس مات بمكة ، ونوفل مات بسلامان من أرض العراق ، ومات المطلب - وكان يقال له القمر لحسنه - برّدمان من طريق اليمن . فهؤلاء الإخوة الأربعة المشاهير وهم : هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، والمطلب . ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو - واسمه عبد ، وأصل اسمه عبد قصى . فقال الناس عبد ابن قصى درّج ولا عقب له ، قاله الزبير بن بكار وغيره . وأخوات ست وهن : تماضر ، وحية ، وربطة وقلابة ، وأم الأختم ، وأم سفيان - كل هؤلاء أولاد عبد مناف - ومناف اسم صنم ، وأصل اسم عبد مناف - المغيرة . وكان قد رأس في زمن والده ، وذهب به الشرف كل مذهب ، وهو أخو عبد الدار الذي كان أكبر ولد أبيه وإليه أوصى بالمناصب كما تقدم ، وعبد العزى وعبد قصى ، وبرة وتخمر - وأمهم كلهم حبي بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي ، وأبوها آخر ملوك خزاعة وولادة البيت منهم ، وكلهم أولاد قصى - واسمه زيد . وإنما سمي بذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حرام بن عذرة فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير فسمى قصياً لذلك . ثم عاد إلى مكة وهو كبير ولم يمش قريش وجمعها من متفرقات البلاد ، وأزاح يد خزاعة عن البيت ، وأجلهم عن مكة ورجع الحق إلى نصابه ، وصار رئيس قريش على الإطلاق . وكانت إليه الرقادة والسقاية - وهو سنها - والسدانة^(١) والحجابة واللواء ، وداره دار الندوة كما تقدم بسط ذلك كله ؛ ولهذا قال الشاعر :

قصي ، لعمرى كان يدعى مجعاً به جمع الله القبائل من فهر

وهو أخو زهرة ، كلاهما ابنا كلاب أخى تميم ، ويقظة أبي مخزوم ، ثلاثهم أبناء مرة أختي عدى ، وهُصَيْص - وهم أبناء كعب ، وهو الذي كان يخطب قومه كل جمعة ، ويبشروهم بمبعث رسول الله ﷺ وبنشد في ذلك أشعاراً كما قدمنا ، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحرث وعوف - سبعتهم أبناء لؤي أخى تميم الأدرم^(٢) ، وهما أبناء غالب أخى الحرث ومخارب - ثلاثهم أبناء فهر ، وهو أخو الحرث ، وكلاهما ابن مالك . وهو أخو الصلت ويخلد ، وهم بنو النضر الذي إليه جماع قريش على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه ، وهو أخو مالك وميلكان وعبد مناة وغيرهم - كلهم أولاد كنفانة ، أخى أسد وأسدة والمون - أولاد خزيمة ، وهو أخو هذيل وهما ابنا مدركة - واسمه عامر ، وأخو طابحة - واسمه

(١) خدمة الكعبة (٢) الدرهم : نقصان في الذقن . قيل سمي بذلك لأنه كان ناقص اللحي .

عمرو ، وقمة^(١) وثلاثتهم أبناء إلياس ، وأخو إلياس هو عيلان والد قيس كلاهما ولدا مضر أخى ربيعة ، ويقال لهما الصريحان من ولدا إسماعيل ، وأخواتهما أنمار وإياد تيامنا - أربعتهم أبناء نزار أخى قضاة ؛ فى قول طائفة ممن ذهب إلى أن قضاة حجازية عدنانية ، وقد تقدم بيانه ، كلاهما أبناء معد بن عدنان . وهذا النسب بهذه الصفة لاخلاف فيه بين العلماء ، فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ، ولهذا قال ابن عباس وغيره فى قوله تعالى : (قل لأسألكنم عليه أجراً إلا المودة فى القربى^(٢)) لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم ، وصدق ابن عباس رضى الله عنه فيما قال وأز يد مما قال ؛ وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهى إليه بالآباء ، وكثير منهم بالأمهات أيضاً . كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره فى أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم مما يطول ذكره . وقد حرره ابن إسحاق رحمه الله والحافظ ابن عساكر . وقد ذكرنا فى ترجمة عدنان نسبه وما قيل فيه ، وأنه من ولد إسماعيل لا محالة ، وإن اختلف فى كم بينهما أباً ؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم ، والله أعلم .

وقد ذكرنا بقية النسب من عدنان إلى آدم ، وأوردنا قصيدة أبى العباس الفاشىء المتضمنة ذلك ، كل ذلك فى أخبار عرب الحجاز ، والله الحمد .

وقد تكلم الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله فى أول تاريخه على ذلك كلاماً مبسوطاً جيداً محرراً نافعاً . وقد ورد حديث فى انتسابه عليه السلام إلى عدنان وهو على المنبر ، ولكن الله أعلم بصحته . كما قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو الحسن على بن أحمد بن عمر بن حفص المقرئ - ببغداد - حدثنا أبو عيسى بكار بن أحمد بن بكار ، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى بن سعد - إملاء - سنة ست وتسعين ومائتين - حدثنا أبو جعفر محمد بن أبان القلانسي ، حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامى ، حدثنا مالك بن أنس عن الزهرى ، عن أنس وعن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، قال : بلغ النبى ﷺ أن رجلاً من كندة يزعمون أنهم منه وأنه منهم ، فقال : « إنما كان يقول ذلك العباس وأبو سفيان بن حرب فيما منا بذلك ، وإنما لن نفتنى من آبائنا ، نحن بنو النضر بن كنانة » . قال : وخطب النبى ﷺ فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار ، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما ، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شيء من عهد^(٣) الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً » ، وهذا حديث غريب جداً من حديث مالك ، تفرد به القدامى وهو ضعيف .

(١) سمي بذلك لأنه اتمتع فى الجاهلية فلم يخرج (٢) من الآية : ٢٣ من سورة الشورى . (٣) أى غيور وفسق .

ولكن سنذكر له شواهد من وجوه آخر؛ فن ذلك قوله: «خرجت من نكاح لامن سفاح». قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر في قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)^(١) - قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قال: وقال رسول الله ﷺ: «إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح»، وهذا مرسل جيد. وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصنعاني عن يحيى بن أبي بكير عن عبد الغفار بن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أخرجني من النكاح ولم يخرجني من السفاح». وقد رواه ابن عدي موصولا فقال: حدثنا أحمد بن حفص، حدثنا محمد بن أبي عمرو العدني المسكي، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: أشهد على أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء»، هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح. وقال هشيم: حدثنا المديني عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من نكاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنفكاح الإسلام». وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ بن عساكر، ثم أسنده من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ضعف والله أعلم. وقال محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن عمر؛ حدثني محمد بن عبد الله بن مسلم عن عمه الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ولدت من نكاح غير سفاح»، ثم أورد ابن عساكر من حديث أبي عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: (وتقلبك في الساجدين)^(٢) قال من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً، ورواه عن عطاء. وقال محمد بن سعد: أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية. وثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»، وفي صحيح مسلم من حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن وائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم عن سفیان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال: قال العباس: بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟» قالوا أنت رسول الله، قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير

(١) من الآية: ١٢٨ من آخر سورة العنكبوت (٢) الآية: ٢١٩ من سورة الشعراء.

قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعاني في خيرهم بيتاً . فأنا خير بيتاً وخيركم نفساً » ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم الدين . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن قریشاً إذا التقوا لقي بعضهم بعضاً بالبشاشة ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لانرفها . فغضب رسول الله ﷺ عند ذلك غضباً شديداً ثم قال : « والذي نفس محمد بيده لا يدخل قاب رجل الإيمان حتى يحكم الله ورسوله » ، فقلت يا رسول الله : إن قریشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم ، فجلوا مثلك كمثل نخلة في كُبوته^(١) من الأرض . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم ، ثم لما فرقهم قبائل جعلني في خيرهم قبيلة ، ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال : باع النبي ﷺ فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثني يحيى بن عبد الحميد ، حدثني قيس بن عابد عن الأعمش عن عليمة بن ربي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً ، فذلك قوله : (وأصحاب اليمين - وأصحاب الشمال) ، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين . ثم جعل القسمين اثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً ، فذلك قوله : (وأصحاب اليمين - والسابقون السابقون)^(٢) فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين . ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة ، فذلك قوله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)^(٣) ، وأنا أنقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا نخر . ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً ، وذلك قوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)^(٤) فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب » . وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة .

وروى الحاكم والبيهقي من حديث محمد بن ذكوان - خال ولد حماد بن زيد - عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال : إنا لنعوذ بفناء النبي ﷺ إذ سرت به امرأة ، فقال بعض القوم هذه ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو سفيان : مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط الفتن فانطلقت المرأة فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فخاء رسول الله ﷺ بعرف في وجهه الغضب ، فقال : « ما بال أقوال تبغني عن أقوام ! إن الله خلق السماوات سبعة فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من

(١) قال في القاموس : السكوة بالفتح : الوقفة منك لرجل عند الشيء تكريهه ، وبالضم : الجمرة ، وهي ما يوضع فيه الحجر (٢) سورة الواقعة (٣) الآية : ١٣ من سورة الحجرات (٤) الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب .

مضر قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارني من بنى هاشم . فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم » . هذا أيضاً حديث غريب .

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر » ، وروى الحاكم والبيهقي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة ، حدثنا عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزهري عن أبي أسامة أو أبي سلمة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل قابت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ، وقابت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » ، قال الحافظ البيهقي : وهذه الأحاديث وإن كان في روايتها من لا يحتج به - فبعضها يؤكد بعضاً ، ومعنى جميعها يرجع إلى حديث وائلة بن الأسقع ، والله أعلم .

قلت وفي هذا المعنى يقول أبو طالب يمدح النبي ﷺ :

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر	فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حُصِّلت أشراف عبد منافها	ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن نخرت يوماً فإن محمداً	هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نُقر ظلاماً	إذا ما تئنا صعر الحدود نقيمها
ونحى حماها كل يوم كريمة	ونضرب عن أجاجها من يروها
بنا انتعش العود الذواء وإنما	بأ كفافنا تَدَدَى وتنعى أروها

وقال أبو السكن - زكريا بن يحيى الطائي في الجزء المذكور إليه المشهور : حدثني عمر بن أبي زحر

ابن حصين عن جده حميد بن منهب قال : قال جدى خريم بن أوس : هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه عند منصرفه من تبوك ، فأسلمت فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله ، إني أريد أن أمدحك ، فقال رسول الله ﷺ : « قل لا يفضض الله فاك » ، فأنشأ يقول :

قبلها طبت في الظلال وفي	مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لابشر أذ	ت ولا مضافة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد	ألجم نسرأ وأهله الغرق
تنقل من صاب إلى رحم	إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من	خندف عيأ تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأ	رض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي ال	نور وسبل الرشاد نخرق

وقد روى هذا الشعر لحسان بن ثابت ؛ فروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق أبي الحسن ابن أبي الحديد ، أخبرنا محمد بن أبي نصر ، ثنا عبد السلام بن محمد بن أحمد القرشي ، حدثنا أبو حصين محمد ابن إسماعيل بن محمد التميمي ، حدثنا محمد بن عبد الله الزاهد الخراساني ، حدثني إسحاق بن إبراهيم بن سنان ، حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائني ، حدثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبي مجيع عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ فقلت : فداك أبي وأمي ! أين كنت وآدم في الجنة ؟ قال : فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال « كنت في : صلبه وركب بي السفينة في صاب أبي نوح وقذف بي في صلب أبي إبراهيم ، لم يلتق أبوأي على سفاح قط ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسية إلى الأرحام الطاهرة ، صفتي مهدي ، لا ينشعب شعبتان إلا كنت في خيرها ، وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقى ، وبالإسلام عهدى ، ونشر في التوراة والإنجيل ذكرى ، وبين كل نبي صفتى ، تشرق الأرض بنورى والغمام بوجهى ، وعلمنى كتابه ، وزادنى شرفاً في سمائه ، وشق لى اسماً من أسمائه ، فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد ، ووعدنى أن يحبونى بالحوض والكوثر ، وأن يعملنى أول شافع وأول مشفع ، ثم أخرجنى من خير قرن لأمتى ، وهم الحمادون ؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . قال ابن عباس :

فقال حسان بن ثابت فى النبى ﷺ :

قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع يوم يخصف الورق
ثم سكنت البلاد لا بشر أن ت ولا نطفة ولا علق
مطهر تركب السفين وقد أجم نسرأ وأهله الفرق
تنقل من صلب إلى رحم إذا مضى طبق بدا طبق

فقال النبى ﷺ : « يرحم الله حساناً » ، فقال على بن أبى طالب : وجبت الجنة لحسان ورب السكبة . ثم قال الحافظ بن عساكر : هذا حديث غريب جداً . قلت : بل مفكر جداً ، والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضى الله عنه ، ثم أوردتها من حديث أبى السكن - زكريا بن يحيى الطائى كما تقدم . قلت : ومن الناس من يزعم أنها للعباس بن مرداس السلمى ، فله أعلم .

تنبئيه : قال القاضى عياض - فى كتابه الشفاء - وأما أحمد الذى أتى فى الكتب وبشرت به الأنبياء ، فنع الله بحكته أن يسمى به أحد غيره ، وألا يدعى به مدعو قبله ؛ حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك . وكذلك محمد ؛ لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم ، إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ؛ فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ؛ رجاء أن يكون أحدهم هو (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن سلمة الأنصارى ، ومحمد بن البراء الكندى ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعة السلمى - لاسابع

لهم . ويقال : إن أول من سمي محمداً - محمد بن سفيان بن مجاشع . واليمن تقول : بل محمد بن ليحمد من الأزد . ثم إن الله حي كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره ، حتى تحمقت الشيمتان له ﷺ لم ينافع فيهما . هذا لفظه .

باب مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولد - صلوات الله عليه وسلامه - يوم الاثنين ؛ لما رواه مسلم في صحيحه من حديث غيلان بن جرير ابن عبد الله بن معبد الزماني عن أبي قتادة : أن أعرابياً قال يارسول الله ، ماتقول في صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذلك يوم ولدت فيه وأنزل علي فيه » . وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين ، واستنبيء يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين . تفرد به أحمد ، ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد : ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين : (اليوم أكملت لكم دينكم) . وهكذا رواه بعضهم عن موسى بن داود ، وزاد أيضاً : وكانت وقعة بدر يوم الاثنين . ومن قال هذا - يزيد بن حبيب ، وهذا منكر جداً . قال ابن عساکر : والمحفوظ أن بدرأ ونزل (اليوم أكملت لكم دينكم) - يوم الجمعة ، وصدق ابن عساکر . وروى عبد الله بن عمر عن كريب عن ابن عباس : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين ، وهكذا روى من غير هذا الوجه عن ابن عباس - أنه ولد يوم الاثنين ، وهذا مالا خلاف فيه أنه ولد ﷺ يوم الاثنين . وأبعد بل أخطأ من قال : ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول ، نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه في كتاب [أعلام الروى بأعلام الهدى] لبعض الشيعة . ثم شرع ابن دحية في تضعيفه ، وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص .

ثم الجمهور على أن ذلك كان في شهر ربيع الأول ؛ فليلتين خلتا منه ، قاله ابن عبد البر في الاستيعاب ، ورواه الواقدي عن أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني . وقيل لثمان خلون منه ؛ حكاه الحميدي عن ابن حزم ، ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم ، ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صحوه ، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي ، ورجعه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه : [التنوير في مولد البشير النذير] . وقيل لعشر خلون منه ، نقله ابن دحية في كتابه ، ورواه ابن عساکر عن أبي جعفر الباقر ، ورواه مجالد عن الشعبي كما مر . وقيل لثنتي عشرة خلت منه ، نص عليه ابن إسحاق ، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالوا : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بعث ، وفيه عرج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات .

وهذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم . وقيل لسبعة عشر خلت منه ؛ كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة . وقيل لثمان بقين منه ، نقله ابن دحية من خط الوزير أبي رافع بن الحافظ أبي محمد بن حزم عن أبيه . والصحيح عن ابن حزم الأول - أنه لثمان مضين منه كما نقله عن الحميدى وهو أثبت .

والقول الثانى : أنه ولد فى رمضان ، نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار وهو قول غريب جداً ، وكان مستنده أنه عليه الصلاة والسلام أوحى إليه فى رمضان بلا خلاف ، وذلك على رأس أربعين سنة من عمره ، فيكون مولده فى رمضان ، وهذا فيه نظر والله أعلم . وقد روى خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كدوس الواسطى ، عن المعلّى بن عبد الرحمن ، عن عبد الحميد بن جعفر عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين فى ربيع الأول ، وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين فى أول شهر ربيع الأول ، وأنزلت عليه الهجرة يوم الاثنين فى ربيع الأول . وهذا غريب جداً ، رواه ابن عساكر . قال الزبير بن بكار : حملت به أمه فى أيام التشريق فى شعب أبى طالب عند الجرة الوسطى ، وولد بمكة بالدار المعروفة بمحمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف - لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان . ورواه الحافظ بن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال : حل برسول الله ﷺ فى يوم عاشوراء فى الحرم ، وولد يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل . وذكر غيره أن الخيزران - وهى أم هارون الرشيد - لما حجت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً ، فهو يعرف بها اليوم . وذكر السهيلي أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى العشرين من نيسان ، وهذا أعدل الزمان والفصول ، وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذى القرنين - فيما ذكره أصحاب الزيج . وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجدى ، وكان المشتري وزحل مقترنين فى ثلاث درج من العقرب - وهى درجة وسط السماء ، وكان موافقاً من البروج الحمل ، وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل . نقله كله ابن دحية ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل . وهذا هو المشهور عن الجمهور . قال إبراهيم بن المنذر الحزامى - وهو الذى لا يشك فيه أحد من علمائنا - إنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل ، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل . وقد رواه البيهقي من حديث أبى إسحاق السبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل . وقال محمد بن إسحاق : حدثنى المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخزوم عن أبيه عن جده قيس بن مخزوم قال : ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ، فنحن لدتان^(١) قال : وسأل عثمان رضى الله عنه قُبات بن أشيم أخا بنى يعمر بن ليث : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد . ورأيت خذق^(٢)

(١) مثلى لدة ، واللدة : الترب - وهو من ولد مملك . (٢) الخذق : الروث .

الفييل أخضر محيلاً . ورواه الترمذى والحاكم من حديث محمد بن إسحاق به . قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ عام عكاظ ابن عشرين سنة . وقال ابن إسحاق : كان الفجار بعد الفييل بعشرين سنة ، وكان بناء الكعبة بعد الفجار بخمس عشرة سنة ، والمبعث بعد بنائها بخمس سنين . وقال محمد بن جبير ابن مطعم : كانت عكاظ بعد الفييل بخمس عشرة سنة ، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين ، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة . وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد العزيز بن أبي ثابت المدني ، حدثنا الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول أقبات بن أشيم الكنانى ثم اللبثى : يا أقبات أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى ، وأنا أسن ؛ ولد رسول الله ﷺ عام الفييل ، ووقفت بى أمى على روث الفييل محيلاً أعقله ، وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنا نعيم - يعنى ابن ميسرة - عن بعضهم عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا لدة رسول الله ﷺ ؛ ولدت عام الفييل . قال البيهقي : وقد روى عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بستين . قال يعقوب : وحدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، حدثنى عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان النوفلى عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم ، قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفييل ، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة ، وبنى البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفييل ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة من الفييل .

والمقصود أن رسول الله ﷺ ولد عام الفييل على قول الجمهور ؛ فقبل بعده بشهر ، وقيل بأربعين يوماً ، وقيل بخمسين يوماً وهو أشهر . وعن أبي جعفر الباقر : كان قدوم الفييل للنصف من الحرم ، ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده بخمس وخمسين ليلة . وقال آخرون بل كان عام الفييل قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر سنين ، قاله ابن أبزى . وقيل بثلاث وعشرين سنة ، رواه شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده كما تقدم ، وقيل بعد الفييل بثلاثين سنة ، قاله موسى بن عقبة عن الرهبرى رحمه الله ، واختاره موسى بن عقبة أيضاً رحمه الله . وقال أبو زكريا العجلانى : بعد الفييل بأربعين عاماً ، رواه ابن عساكر وهذا غريب جداً ، وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط : حدثنى شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبي عمرو عن السكابي عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفييل بخمس عشرة سنة ، وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضاً . قال خليفة بن خياط : والمجتمع عليه أنه عليه السلام ولد عام الفييل .

صفة مولده الشريف عليه الصلاة والسلام

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله ، حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى ؛ لما كان قدر في الأزل من ظهور النبي الأمي ﷺ خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه ، فذهب كما تقدم فزوجه أشرف عقيلة في قريش - آمنه - بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهرية ، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ ، وقد كانت أم قتال - رقيقة بنت نوفل - أخت ورقة بن نوفل ، توسمت ما كان بين عيني عبد الله - قبل أن يجامع آمنه - من النور ، فودت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ ، وأنه قد أزف زمانه ، فعرضت نفسها عليه . قال بعضهم : ليتزوجها ، وهو أظهر والله أعلم ، فامتنع عليها . فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنه بمواقفته إياها ، كأنه تندم على ما كانت عرضت عليه ، فتعرض لها لتعاوده ، فقالت لاحاجة لي فيك وتأسفت على ما فاتها من ذلك وأنشدت في ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ . وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ ، فإنه كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ^(١) وقد تقدم الحديث المروي من طريق جيد - أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ولدت من نكاح لا من سفاح » . والقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه على المشهور . قال محمد ابن سعد : حدثنا محمد بن عمر - هو الواقدي - حدثنا موسى بن عبيدة البيهقي ، حدثنا سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة . قال : خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزوة في غير من غيران قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله ابن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخاف عند أخوالي بني عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله ، فقالوا خلفناه عند أخواله بني عدى بن النجار وهو مريض . فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ودفن في دار النابغة ^(٢) فرجع إلى أبيه فأخبره ، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخوانه جداً شديداً ، ورسول الله ﷺ يومئذ حل ، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة .

قال الواقدي : هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه عندنا . قال الواقدي : وحدثني معمر عن الزهري أن عبد المطلب بعث عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات . قال محمد بن سعد : وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه وعن عوانة بن الحكم - قال : توفي عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل سبعة أشهر . وقال محمد بن سعد :

(١) من الآية : ١٢٤ من سورة الأنعام (٢) النابغة بالغين : أما دار النابغة فهي بمكة وهي التي ولد بها النبي عليه السلام .

والأول أثبت وهو أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل . وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ ، قال : توفي عبد الله بالمدينة ورسول الله ﷺ ابن شهرين ، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين ، ومات جده وهو ابن ثمان سنين ، فأوصى به إلى عمه أبي طالب . والذي رجحه الواقدي وكتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه ، وهذا أبلغ اليتيم وأعلى مراتبه . وقد تقدم في الحديث : « ورؤيا أمي التي رأت حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » . وقال محمد بن إسحاق : فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ ، فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، [وكل عبد رائد ، يذود عنى ذائد ، فإنه عند الحميد الماجد ، حتى أراه قد أتى المشاهد]^(١) وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام ، فإذا وقع فسميه محمداً ؛ فإن اسمه في التوراة أحمد ، يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه في الإنجيل أحمد ؛ يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه في القرآن محمد . وهذا وذاك يقتضى أنها رأت حين حملت به عليه السلام كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . ثم لما وضعت رأت عياناً تأويل ذلك ، كما رآته قبل ذلك هاهنا ، والله أعلم .

وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر — هو الواقدي — حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري . وقال الواقدي : حدثنا موسى بن عبدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظي ، وحدثني عبد الله بن جعفر الزهري عن عمته أم بكر بنت المسود عن أبيها ، وحدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم المزني وزياد بن حشرج عن أبي وجزة ، وحدثنا معمر عن أبي نجيح عن مجاهد ، وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس — دخل حديث بعضهم في حديث بعض : أن آمنة بنت وهب قالت : لقد علقتم به — تعنى رسول الله ﷺ — فما وجدت له مشقة حتى وضعت ، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء ، وقال بعضهم : وقع جائئاً على ركبتيه ، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رويت أعناق الإبل ببصرى ، رافعاً رأسه إلى السماء .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ ، أنبأنا محمد بن إسماعيل ، أنبأنا محمد بن إسحاق ، حدثنا يونس بن مبشر بن الحسن ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن أبي سويد الثقفي عن عثمان بن أبي العاص ، قال : حدثتني أمي : أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ ليلة ولده ، قالت فما شئ ، أنظره في البيت إلا نور ، ولما لأنظر

(١) [] ما بين هذين القوسين غير مثبت في رواية الطبري عن ابن إسحاق ولم يذكره ابن هشام كذلك .

إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول لتقمن على (١) .

وذكر القاضي عياض عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف - أنها كانت قابلته ، وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل ، وأنها سمعت قائلاً يقول يرحمك الله ، وإنه سطم منه نور رؤيت منه قصور الروم . قال محمد بن إسحاق : فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها - وقد هلك أبوه وهي حبلى ، ويقال إن عبد الله هلك والنبي ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً ، فإله أعلم أى ذلك كان - فقالت قد ولد لك غلام فإنه فانظر إليه ، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت أن تسميه . فأخذه عبد المطلب فأدخله على هبل في جوف الكعبة ، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عز وجل ويقول :

الحمد لله الذى أعطانى	هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهدي على الغلمان	أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى يكون باغة الفتيان	حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من كل ذى شأن	من حاسد مضطرب العنان
ذى هممة ليس له عينان	حتى أراه رافع اللسان (٢)
أنت الذى سميت فى القرآن	فى كتب ثابتة المثانى

* أحمد مكتوب على اللسان *

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حاتم الدراوردي - بمرور - حدثنا أبو عبد الله البوشنجي ، حدثنا أبو أيوب سليمان بن سلمة الخبائري ، حدثنا يونس بن عطاء بن عثمان بن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائي - بمصر - حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً ، قال فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظى عنده ، وقال : ليكون لابني هذا شأن ، فكان له شأن ، وهذا الحديث فى صحته نظر . وقد رواه الحافظ بن عساكر من حديث سفيان بن محمد المصيصي عن هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن بن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من كرامتى على الله أنى ولدت مختوناً ولم ير سوائى أحد » . ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به . ثم أورده من طريق محمد بن محمد ابن سليمان - هو الباغندي - حدثنا عبد الرحمن بن أيوب الحمصي ، حدثنا موسى بن أبي موسى المقدسي ،

(١) ذكر ابن جرير : أن النبي ولد فى الدار التى تعرف بدار ابن يوسف وكان الرسول وهبها لعقيل بن أبي طالب فلما توفى باعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف . (٢) فى نسخة رافع اللسان . قيل ولعابها :

حدثني خالد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسروراً مختوناً ، وقال أبو نعيم : حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطري ، حدثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المالكي ، حدثنا سليمان بن سلمة الخبائري ، حدثنا يونس بن عطاء ، حدثنا الحكم بن أبان ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً ، فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظي عنده ، وقال ليكونن لابني هذا شأن ، فكان له شأن . وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق ، حتى زعم بعضهم أنه متواتر ، وفي هذا كله نظر . ومعنى مختوناً : أى مقطوع الختان ، ومسروراً : أى مقطوع السرة من بطن أمه . وقد روى الحافظ بن عساكر عن طريق عبد الرحمن بن عبيدة البصرى ، حدثنا على بن محمد المدائنى السامى ، حدثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد عن أبيه عن أبي بكره - أن جبريل ختن النبي صلى الله عليه وسلم حين طهر قلبه ، وهذا غريب جداً . وقد روى أن جده عبد المطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها ، والله أعلم .

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأني محمد بن كامل القاضي - شفاهاً - أن محمد بن إسماعيل حدثه - بمضى السامى - حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح عن أبي الحكم التنوخى قال : كان المولود إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة ، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة فد انفلقت عنه بآنتين ، ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء ، فأتاهن عبد المطلب فقلن له : مارأينا مولوداً مثله ؛ ووجدناه قد انفلقت عنه البرمة ، ووجدناه مفتوحاً عينيه شاخصاً ببصره إلى السماء . فقال احفظنه فإني أرجو أن يكون له شأن ، أو أن يصيب خيراً . فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا يا عبد المطلب ، رأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ؟ ما سميت به ؟ قال سميت به محمداً ، قالوا فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال أردت أن يحمد الله فى السماء وخالقه فى الأرض . قال أهل اللغة : كل جامع لصفات الخير يسمى محمداً ، كما قال بعضهم :

إليك - أبيت اللعن - أعملت ناقتي إلى الماجد القرم الكريم المحمد

وقال بعض العلماء : ألهمهم الله عز وجل أن سموه محمداً لما فيه من الصفات الحميدة ؛ ليلتقى الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى فى الصورة والمعنى ؛ كما قال عمه أبو طالب ، ويروى لحسان :

وشق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود وهذا محمد

وسند ذكر أسماءه عليه الصلاة والسلام وشمائله - وهى صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة - ودلائل نبوته ، وفضائل منزلته - فى آخر السيرة إن شاء الله .

قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن شيبان الرملي ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الحلبي ، حدثنا الهيثم بن جميل ، حدثنا زهير عن محارب ابن دينار عن عمرو بن يثرب عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول الله ! دعاني إلى الدخول في دينك أمانة لنبوتك ؛ رأيتك في المهدي تنافى القمر وتشير إليه بأصبعك ، فحيث أشرت إليه مال . قال : « إني كنت أحدثه ويحدثني ويلميني عن البكاء ، وأسمع وجيبه حين يسجد تحت العرش » . ثم قال : تفرد به الليثي ، وهو مجهول .

« فصل » فيما وقع من الآيات ليلة مولده عليه الصلاة والسلام

قد ذكرنا في باب هواتف الجن ما تقدم من خرورج كثير من الأصنام ليلتهند - لوجوهها ، وسقوطها عن أماكنها ، ومارآه النجاشي ملك الحبشة ، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد ، وما كان من سقوطه جائئاً رافعاً رأسه إلى السماء ، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم ، وما شوهد من النور في المنزل الذي ولد فيه ، ودنو النجوم منهم وغير ذلك .

حكى السهيلي عن تفسير بقي بن مخلد الحافظ - أن إبليس رن أربع رنات : حين لعن ، وحين أهبط ، وحين ولد رسول الله ﷺ ، وحين أنزلت الفاتحة . قال محمد بن إسحاق : وكان هشام بن عمرو يحدث عن أبيه عن عائشة قالت : كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها ، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس من قریش : يا معشر قریش ! هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم والله ما نعلمه ، فقال : الله أكبر ! أما إذا أخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس ، لا يرضع ليلتين ، وذلك أن عفر بتاً من الجن أدخل أصبعه في فمه فمنعه الرضاع . فنصدع القوم من مجاسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً . فالتقى القوم فقالوا هل سمعتم حديث اليهودي ؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ فاطلقوا حتى جاءوا اليهودي فأخبروه الخبر . قال فذهبوا معي حتى أنظر إليه ، فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنه ، فقالوا : أخرجي إلينا ابنتك ، فأخرجته وكشفوا له عن ظهره ، فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودي مغشياً عليه . فلما أفاق قالوا له : مالك ويالك ؟ قال قد ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل فرحتم بها يا معشر قریش ، والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني صالح بن إبراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال : حدثني من شئت من رجال قومي - ممن لا أتهم ، عن حسان بن ثابت قال : إني لغلام بفعمة ابن سبع سفين - (٣٧ - بداية - ج ٢)

أوثمان سنين - أعقل مارأيت وسمعت ، إذا يهودى فى يثرب يصرخ ذات غداة ؛ يامعشر يهود ! فاجتمعوا إليه - وأنا أسمع - فقالوا و بلك مالك ؟ قال قد طلع نجم أحمد الذى يولد به فى هذه الليلة . وروى الحافظ أبو نعيم فى كتاب : [دلائل النبوة] - من حديث أبى بكر بن عبد الله العامرى ، عن سليمان ابن سحيم وذر يح بن عبد الرحمن - كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال : سمعت أبى مالك ابن سنان يقول : جئت بنى عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ، ونحن يومئذ فى هدنة من الحرب ، فسمعت يوشع اليهودى يقول : أظن خروج نبي يقال له : « أحمد » ، يخرج من الحرم . فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلى - كالمستهزىء به - ما صفته ؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ، فى عينيه حمرة ، يلبس الشملة ويركب الحمار ، سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجرة . قال فرجعت إلى قومي بنى خدره وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع ؛ فأسمع رجلاً منا يقول : ويوشع يقول هذا وحده ؟ كل يهود يثرب يقولون هذا . قال أبى مالك بن سنان ، فخرجت حتى جئت بنى قريظة فأجد جمعاً ، فتذاكروا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الزبير بن باطا : قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره ، ولم يبق أحد إلا « أحمد » وهذا مهاجرة . قال أبو سعيد : فلما قدم النبي ﷺ أخبره أبى هذا الخبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود إنعامهم له تبسع » .

وقال أبو نعيم : حدثنا عمر بن محمد ، حدثنا إبراهيم بن السندى ، حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ، سمعت زيد بن ثابت يقول : كان أحبار يهود بنى قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي ، وأنه لأنبي بعده ، واسمه « أحمد » ومهاجرة إلى يثرب . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة - أنكروا وحسدوا وكفروا . وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم فى كتابه من طرق أخرى ، والله الحمد .

وقال أبو نعيم ومحمد بن حبان : حدثنا أبو بكر بن أبى عاصم ، حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد ، قال : قال زيد ابن عمرو بن نفيل : قال لى حبر من أحبار الشام : قد خرج فى بلدك نبي - أو هو خارج ، قد خرج نجمه فارجع فصدقته واتبعه .

ذكر ارتجاس الإيوان

وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب [هواتف الجان] : حدثنا علي بن حرب ، حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران - من آل جرير بن عبد الله البجلي - حدثني مخزوم بن هاني الخزومي عن أبيه - وأنت عليه خمسون ومائة سنة - قال : لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس^(١) إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة . وخذت نار فارس ، ولم تحمد قبل ذلك مائة عام ، وغاضت بحيرة ساوة . ورأى الموبذان^(٢) إبلا صعباً تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها . فلما أصبح كسرى أفرعه ذلك فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن سرازبته ؛ فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم . فلما اجتمعوا عنده قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ قالوا - لا ، إلا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، فزاد غمها إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله ، فقال الموبذان : وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ، ثم قص عليه رؤياه في الإبل ، فقال : أي شيء يكون هذا يا موبذان ؟ قال : حدث يكون في ناحية العرب - وكان أعلمهم من أنفسهم - فكتب عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد ؛ فوجه إلى رجل عالم بما أريد أن أسأله عنه . فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن ببيعة الغساني ، فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال ليخبرني أو ليس ألتى الملك عما أحب ؛ فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم فأخبره بالذي وجه به إليه فيه ، فقال : علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام يقال له سطيح ، قال فائته فأسأله عما سألتك عنه ثم ائني بتفسيره . فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح فسلم عليه وكلمه فلم يرد إليه سطيح جواباً ، فأنشأ يقول :

أصم أم يسمع غطريف اليمين ؟ أم فاد فازلم به شأو العن^(٣) ؟
يا فاصل الخطة أعت من ومن أناك شيخ الحى من آل سنن
وأمة من آل ذئب بن حجبن أزرق نهم الفاب صرّار الأذن
أبيض فضفاض الرداء والبدن رسول قبيل العجم يسرى للوسن

(١) أي رجع وزلزل (٢) الموبذان : فقيه الفرس وحاكم الجوس . وفي اللسان : هو كقاضى النضاة المسلمين .
(٣) فاد : مات . ازلم : ولي .

يجوب في الأرض عَندَدة شَزَن^(١) لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
ترفعني وَجَن وتهوى بي وَجَن^(٢) حتى آتى عارى الجأجى والقطن
تلفه في الريح بَوَءاء الدَّمَن كما ما حُثِّث من حِضْنَى تُسَكَن^(٣)

قال فلما سمع سطيطح شعره رفع رأسه يقول : عبد للمسيح ، على جبل مشيخ ، أتي سطيطح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ؛ لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبدان ؛ رأى إبلا صمابا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها . يا عبد المسيح ! إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وقاض وادي السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخذت نار فارس ، فليس الشام لسطيطح شاماً . يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيطح مكانه ، فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شَمَّرَ فَإِنَّكَ ماضى العزم شَمِّيرٌ لا يُفْزِعُ عَنكَ تفریق وتغيير
إن يُمس ملك بني ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر أطوار دهارير
فرما ربما أضحوا بمنزلة تخاف صولهم الأسد المهاير
منهم أخو الصرح بهرام وإخوته والهرمزان وسابور وسابور
والناس أولاد علات فمن علموا أن قد أقلّ فحقور ومهجور
ورب قوم لهم صحبان ذى أذن بدت تلهيهم فيه المزامير
وهم بنو الأم لَمَّا أن رأوا نشباً فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشر مقرونان في قرَن فالخير متبَع والشر محذور

قال : فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيطح ، فقال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا تكون أمور وأمور ، فلك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه . ورواه البيهقي من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن علي بن حرب الموصلى بنحوه . قلت : كان آخر ملوكهم - الذى سلب منه الملك - بزدرج بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، وهو الذى انشق الإيوان في زمانه . وكان لأسلافه في الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة . وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح .

(١) العندى : الشديد والناء للبالغة . والشزن : النشيط (٢) الوجن - بفتح فسكون وبفتحتين : الغليظ الصلب من الأرض (٣) البوغاء : دقاق التراب . الدمن - جمع دمنة : ما تدمس أى تجتمع وء لبدء ، حثت : حث وأسرع . تسكن : اسم جبل .

[١] أما سطيح هذا فقال الحافظ بن عساكر في تاريخه: هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن الأزد. ويقال الربيع بن مسعود، وأمه ردعا بنت سعد بن الحارث الحجوري، وذكر غير ذلك في نسبه. قال: وكان يسكن الجابية، ثم روى عن أبي حاتم السجستاني، قال: سمعت المشيخة - منهم أبو عبيدة وغيره - قالوا: وكان من بعد لقمان بن عاد، ولد في زمن سيل العرم، وعاش إلى ملك ذى نواس وذلك نحو من ثلاثين قرناً، وكان مسكنه البحرين، وزعمت عبد القيس أنه منهم، وتزعم الأزد أنه منهم. وأكثر المحدثين يقولون هو من الأزد، ولا ندرى ممن هو؟ غير أن ولده يقولون إنه من الأزد. وروى عن ابن عباس أنه قال: لم يكن شيء من بني آدم يشبه سطيحاً؛ إنما كان لحمًا على وضم، ليس فيه عظم ولا عصب إلا في رأسه وعينيه وكفيه، وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه، ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه. وقال غيره: إنه كان إذا غضب اتفخ وجلس.

ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاها جماعة من رؤسائهم؛ منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصي، فامتحنوه في أشياء فأجابهم فيها بالصدق، فسألوه عما يسكون في آخر الزمان فقال: خذوا مني ومن إلهام الله إياي: أنتم الآن يامعشر العرب في زمان الهرم، سواء بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشؤ من عقبكم ذور فهم، يطلبون أنواع العلم؛ فيكسرون الصنم، ويتبعون الردم، ويقتلون العجم، يطلبون الغنم. ثم قال: والباقي الأبد، والبالغ الأمد، ليخرجن من ذى البلد، نبي مهتد، يهدى إلى الرشد، يرفض بغوث والفند، يبرأ عن عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه الله بخير دار محموداً من الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً. ثم بلى أمره الصديق إذا قضى صدق، وفي رد الحقوق لا حرق ولا نزق. ثم بلى أمره الخفيف، مجرب غطر يف، قد أضاف المضيف، وأحكم التحنيف.

ثم ذكر عثمان ومقتله، وما يكون بعد ذلك من أيام بني أمية ثم بني العباس، وما بعد ذلك من الفتن والملاحم. ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله. وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها، ثم ما يكون في بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول، حتى يعود إلى سيف ابن ذى يزن. فقال له: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال بل ينقطع، قال ومن يقطعه؟ قال نبي زكي، يأتيه الوحي من قبل العلي. قال ومن هذا النبي؟ قال من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يسكون الملك في قومه إلى آخر الدهر. قال وهل الدهر من آخر؟ قال نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه الحسنون ويشقى فيه المسيئون قال أحق ما تخبرني؟ قال: نعم، والشقق والغسق، والقمر إذا اتسق، إن ما نبأ نك عليه لحق. ووافقه على ذلك شق سواء بسواء، بعبارة أخرى كما تقدم، ومن شعر سطيح قوله:

عليكم بنقوى الله في السر والجهر ولا تلبسوا صدق الأمانة بالهدر
وكونوا لجار الجنب حصناً وجنة إذا ما عرته الثائبات من الدهر

وروى ذلك الحافظ بن عساكر ، ثم أورد ذلك المعافى بن زكريا الجريري فقال : وأخبار سطيج كثيرة ، وقد جمعها غير واحد من أهل العلم . والمشهور أنه كان كاهناً ، وقد أخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن نعته ومبعثه . وروى لنا بإسناد - الله به أعلم - أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن سطيج فقال : « نبي ضيعه قومه » .

قلت : أما هذا الحديث فلا أصل له في شيء من كتب الإسلام المعهودة ، ولم أره يا - فناد أصلاً . ويروى مثله في خبر خالد بن سنان العيسى ولا يصح أيضاً . وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد اسطيج ، وفيها روايح التصديق ، لكنني لم يدرك الإسلام كما قال الجريري ؛ فإنه قد ذكر في هذا الأثر أنه قال لابن أخته : يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة وغاضت بحيرة ساوة ، وخذت نار فارس - فليس الشام لسطيج شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ماهو آت آت . ثم قضى سطيج مكانه وكان ذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بشهر أو شية - أى أقل منه ، وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلي أرض العراق ، فأنه أعلم بأمره وما صار إليه . وذكر المعافى بن زكريا الجريري أنه عاش سبعمائة سنة ، وقال غيره خمسمائة سنة ، وقيل ثلاثمائة سنة والله أعلم .

وقد روى ابن عساكر أن ملكاً سأل سطيجاً عن نسب غلام اختلف فيه ، فأخبره على الجلية في كلام طويل مليح فصيح . فقال له الملك : يا سطيج ! ألا تخبرني عن علمك هذا ؟ فقال إن علمي هذا ليس مني ولا يجزم ولا بظن ، ولكن أخذته عن أخ لي قد سمع الوحي بطور سيناء . فقال له : رأيت أخاك هذا الجنى ؟ أهو معك لا يفارقك ؟ فقال إنه ليزول حيث أزول ، ولا أنطق إلا بما يقول .

وتقدم أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن عقبة السكاهن الآخر - ولدا في يوم واحد ، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية ، فتفلت في أفواههما فورثا منها الكهانة وماتت من يومها . وكان نصف إنسان ، ويقال إن خالد بن عبد الله القسري من سلالته ، وقد مات شق قبل سطيج بدهر .

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن ببيعة الغساني النصراني فكان من المعمرين . وقد ترجمه الحافظ بن عساكر في تاريخه وقال : هو الذي صالح خالد بن الوليد على ^(١) . وذكر له معه

(١) كذا في الأصل بيان . والذي نعلمه أن عمرو بن عبد المسيح الملقب بببيعة هو وآخرين من قبلاء الحيرة ، لما حاصرهم خالد بن الوليد ورأوا ألا طاقة لهم به - صالحوه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا ، فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر رضى الله عنه ، وكان أول من طلب الصلح عمرو بن عبد المسيح .

قصة طويلة ، وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء ؛ لأنه لما أخذه قال : بسم الله والله ، رب الأرض والسماء ، الذى لا يضر مع اسمه أذى . ثم أكله فعملته غشية فضرب بيديه على صدره ثم عرق وأفاق رضى الله عنه ، وذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ما تقدم [.

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا عقبة ابن مكرم ، حدثنا المسيب بن شريك ، حدثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى « عيصا » من أهل الشام ، وكان متخفراً^(١) بالعاص بن وائل ، وكان الله قد آتاه علماً كثيراً ، وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة ؛ من طيب ورفق وعلم ، وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة في كل سنة ، فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يأهل مكة ، يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه ، ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن أدركه نخالغه أخطأ حاجته . وبالله ما تركت أرض الخمر والخير والأمن ، ولا حلت بأرض الجوع والبؤس والخوف - إلا في طلبه . وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول ما جاء بعد ، فيقال له فصفه فيقول - لا . ويكنم ذلك الذى قد علم أنه لاق من قومه ، مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدنى ما يكون إليه من الأذى يوماً . ولما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد الله ابن عبد المطلب ، حتى أتى « عيصا » فوقف في أصل صومعته ، ثم نادى : يا عيصاه ! فناداه من هذا ؟ فقال : أنا عبد الله ، فأشرف عليه فقال كن أباه ، فقد ولد المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين ، ويبعث يوم الاثنين ، ويموت يوم الاثنين . قال فإنه قد ولد لي مع الصبح مولود ، قال فما سميته ؟ قال محمداً ، قال والله لقد كنت أشتهى أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها ؛ منها أن نجمه طلع البارحة ، وأنه ولد اليوم ، وأن اسمه محمد . انطلق إليه فإن الذى كنت أخبركم عنه ابنك . قال فما يدريك أنه ابنى ؟ ولعله أن يولد في هذا اليوم مولود غيره ؟ قال قد وافق ابنك الاسم ، ولم يكن الله يشبهه علمه على العلماء فإنه حجة . وآية ذلك أنه الآن به وجع فيشسكى أياماً ثلاثة ، فيظهر به الجوع ثلاثاً ثم بهاقى . فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد أحد حسده قط ، ولم يبع على أحد كما يبنى عليه . إن تعش حتى يبدو مقاله ثم يدعو - لظهر لك من قومك ما لا تتمله إلا على صبر وعلى ذل ، فاحفظ لسانك ودار عنه . قال فما عمره ؟ قال : إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين ، يموت في وتر دونها من الستين ، في إحدى وستين أو ثلاث وستين في أعمار جل أمته . قال وحمل برسول الله ﷺ في عاشر الحرم ، وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل . هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة .

(١) أى مستجيراً ، يقال خفره وتخفّر به : أجاره ومنعه ، والاسم الخفرة بالضم

ذكر حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

كانت أم أيمن - واسمها بركة - تمضنه ، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه ، فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة بن زيد رضي الله عنهم . وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام - مولاة عمه أبي لهب ؛ ثوية قبل حليمة السعدية . أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري عن عمرو بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة بنت أبي سفيان قالت : يا رسول الله ! أنكح أختي بنت أبي سفيان - ولمسلم عزة بنت أبي سفيان - فقال رسول الله ﷺ : « أو تحبين ذلك ؟ » قلت نعم ! لست لك بمخلية^(١) ، وأحبُّ من شاركني في خير أختي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فإن ذلك لا يحمل لي » ، قلت : فإنما تُحدِّث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة - وفي رواية درة بنت أبي سلمة - قال : « بنت أم سلمة ؟ » قلت نعم ، قال : « إنها لو لم تكن ربيتي في حجرى ما حلت لي ، إنها لابنة أخي من الرضاعة ، أرضعتني وأبا سلمة - ثوية ، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن » . زاد البخاري : قال عمرو : وثوية مولاة لأبي لهب ، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ ، فلما مات أبو لهب أريته بعض أهله بشر حبيبة^(٢) . فقال له ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب : لم ألق بعدكم خيراً ، غير أنى سقيت في هذه بعثاقتي^(٣) ثوية - وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والى تليها من الأصابع .

وذكر السهيلي وغيره : أن الرأى له هو أخوه العباس . وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبي لهب بعد وقعة بدر . وفيه أن أبا لهب قال للعباس : إنه ليخف عليّ في مثل يوم الاثنين ، قالوا لأنه لما بشرته ثوية بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله - أعتقها من ساعته ، فجزى بذلك لذلك .

ذكر رضاعه عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية

وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمد بن إسحاق : فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب ، واسمها عبد الله ابن الحارث بن شجينة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر . قال : واسم أبي رسول الله ﷺ الذي أرضعه - يعني زوج حليمة - الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن مِلان بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن . وإخوته عليه الصلاة والسلام - يعني من الرضاعة - عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وحذافة^(٤) بنت

(١) أى لست بمنفردة بك حتى أغار منها فإن لى ضرائر (٢) معناه : بسوء حال ، والحلية : الهم والحاجة والحالة .
(٣) أى بعنتى لها . (٤) فى الطبرى : خدامة بكسر الخاء المنقوطة .

الحارث وهى الشياء ، وذكروا أنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم .
 قال ابن إسحاق : حدثني جهم بن أبي جهم مولى لامرأة من بنى تميم كانت عند الحارث بن حاطب ، ويقال له مولى الحارث بن حاطب ، قال : حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال : حدثت عن حليلة بنت الحارث أنها قالت : قدمت مكة في نسوة - وذكر الواقدي بإسناده أنهن كن عشرة نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء - من بنى سعد نلتمس بها الرضعاء^(١) في سنة شهباء فقدمت على أتان لي قراء كانت أذمت^(٢) بالركب ، ومعى صبي لنا وشارف^(٣) لنا والله ماتبيض بقطرة ، وما ننام ليلنا ذلك أجمع من صبينا ذلك ، ما نجد في ندي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجزاً ، فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذا قيل إنه يتم تركناه . وقلنا ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد ، فأما أمه فإذا عسى أن تصنع إلينا ؟ فوالله ما بقي من صواحي امرأة إلا أخذت رضيعاً - غيرى . فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق - قلت لزوجى الحارث بن عبد العزى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحي ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلا خذنه . فقال : لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة . فذهبت فأخذته ، فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته فحُبت به رحلى ، فأقبل عليه ندياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى . وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة . فقال صاحبي حين أصبحنا : يا حليلة ! والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً .

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا ، فوالله لقطعَت أتانى بنا الركب حتى مايتعاق بها حمار ، حتى إن صواحي ليقنن : ويالك يا بنت أبي ذؤيب ! أهذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟ فأقول نعم والله إنها لهى ، فقلن والله إن لها لشأناً . حتى قدمنا أرض بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ؛ فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنجلب ماشئنا ، وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن ، وإن أغنامهم لتروح جياً حتى إنهم يقولون لرعاتهم - أو لرعيانهم - ويحكم ! انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم ، فيسرحون مع غنمى حيث تسرح ، فتروح أغنامهم جياً ما فيها قطرة لبن ، وتروح أغنامى شباعاً لبناً تحلب ماشئنا . فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين ،

(١) فى ابن هشام : المراضع ، وهو واضح ؛ لأن المراضع جم مرضع . أما الرضعاء فجمع رضيع . ولعله أريد ذوات الرضعاء على حذف مضاف ، أو أنه متى وجدت له مرضعة فقد وجد الرضيع الذى يرضع معه (٢) أنت بما يذم عليه من تخلف وتعمل ، والقراء : لون إلى المخضرة ، أو يياض فيه كدرة . (٣) الشارف من الزوق : السنة المهرمة .

فكان يشب شباباً لاشبهه الغلمان . فوالله ما بلغ السنين حتى كان غلاماً جفراً^(١) فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رآته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ، فإننا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم . فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة ، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم^(٢) لنا - جاء أخوه ذلك يشتد ، فقال ذلك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجماه فشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشد نحو فنجده قائماً منتقعاً لونه ، فاعتقه أبوه وقال يا بني ما شأنك ؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، أضجعاني وشقا بطي ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا .

فقال أبوه يا حليلة ! لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب ، فانطلقت بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف . قالت حليلة : فاحتملاه فلم ترع أمه إلا به ، فقدمنا به عليها ، فقالت ما ردك كما به يا ظئر فقد كنتا عليه حربصين ؟ فقالا : لا والله ؛ إلا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذي علينا ، وقلنا نخشى الإنلاف والأحداث نرده إلى أهله . فقالت ماذا بكما ؟ فأصدقاني شأنكما . فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت أخشيتما عليه الشيطان ؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل . والله إنه لسكائن لابني هذا شأن ، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى ! قالت : حملت به فما حملت حملاً قط أخف منه ، فأريت في النوم حين حملت به - كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام ، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود ؛ معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء ، فدعاه عنكما . وهذا الحديث قد روى من طرق أخر ، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي .

وقال الواقدي : حدثني معاذ بن محمد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : خرجت حليلة تطلب النبي صلى الله عليه وسلم وقد وجدت البهم ثقيل ، فوجدته مع أخته ، فقالت في هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ! ما وجد أخي حرأ ؛ رأيت غمامة تظلل عليه ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع .

وقال ابن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك . قال : « نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشري عيسى عليهما السلام ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينما أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ، معهما طست من ذهب مملوءة ناعجاً ، فأضججاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقا فأخرجاه به علقه سوداء فألقياها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج ،

(١) أي شديداً ، يقال جفراً الصبي واستجفر : اتفخ لحمه وقرى على الأكل .

(٤) جمع بهمة ، وهي أولاد الضأن والمز والبقر . ولعل المراد هنا - صفار الغنم

حتى إذا أنقياه رداه كما كان . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنتني بعشرة فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنتني بمائة فوزنتهم . ثم قال زنه بألف من أمته فوزنتني بألف فوزنتهم ، فقال دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنتهم . وهذا إسناد جيد قوى .

وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح - وهو أبو نعيم - عن ثور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس هذه القصة مطولة جداً ، ولكن عمر بن الصبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به . ثم قال : وحدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن زهير ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا ببيعة بن الوليد عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد الله - أنه حدثه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : « كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً ، فقلت يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخي ومكنت عند بهمهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ فقال نعم ! فأقبلا يبتدراني ، فأخذاني فبطحاني لاقفا فشقا بطاني ، ثم استخرجا قلبي فشقا ، فأخرجا منه علفتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائني بماء ثلج فغسلا به جوفي ، ثم قال : ائني بماء برد فغسلا به قلمي ، ثم قال : ائني بالسكينة فذرهما في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه نخاطه ، وختم على قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة واجعل ألقاً من أمته في كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوق أشفق أن يخر على بعضهم ، فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم . ثم انطلقا فتركانني وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت ، فأشفقت أن يسكون قد لبس بي ، فقالت أعيذك بالله ، فرحلت بعيراً لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي ، فقالت أدبت أمانتي وذمتي ، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها ، وقالت إنني رأيت حين حملت به - أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام » .

ورواه أحمد من حديث ببيعة بن الوليد به . وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن ببيعة بن الوليد به . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي داود الطيالسي : حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي ، أخبرني عمير بن عمر بن عروة بن الزبير قال : سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال : قلت يا رسول الله ! كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي ؟ قال : « يا أبا ذر ! أناني مملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوق أحدهما على الأرض ، وكان الآخر بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال هو هو . قال زنه برجل ، فوزنتني برجل فرجحته » ، وذكر تمامه ، وذكر شق صدره وخياطته ، وجعل الخاتم بين كتفيه ، قال : « فها هو إلا أن وليا عني فكأنما أعطين

الأمر معاينة » . ثم أورد ابن عساكر عن أبي بن كعب بنحو ذلك . ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك .

وثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء فقال هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره . وقد رواه ابن عساكر من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن عبد ربه بن سعيد عن ثابت البناني عن أنس : أن الصلاة فرضت بالمدينة ، وأن ملكين أنيا رسول الله ﷺ ، فذهبا إلى زمزم فشقا بطنه ، فأخرجا حشوته في طشت من ذهب ففسلاه بماء زمزم ، ثم لبسا جوفه حكمة وعلماً . ومن طريق ابن وهب أيضاً عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن بن عاصم بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس ، قال : أتى رسول الله ﷺ ثلاث ليال^(١) قال خذوا خيرهم وسيدهم ، فأخذوا رسول الله ﷺ فعمد به إلى زمزم فشق جوفه ، ثم أتى بتور^(٢) من ذهب فغسل جوفه ثم ملأ حكمة وإيماء . وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ، وفي الصحيحين من طريق شريك بن أبي نمر عن أنس ، وعن الزهري عن أنس عن أبي ذر وقتادة عن أنس ، وعن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء كما سيأتي قصة شرح الصدر ليلته ، وإنه غسل بماء زمزم . ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين ، مرة وهو صغير ، ومرة ليلة الإسراء ليتأهب الوفود إلى الملأ الأعلى ، ولمناجاة الرب عز وجل والمثول بين يديه تبارك وتعالى .

وقال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : « أنا أعر بكم ، أنا قرشي واسترضت في بني سعد بن بكر » وذكر ابن إسحاق : أن حليلة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه - مرت به على ركب من النصارى ، فقاموا إليه عليه الصلاة والسلام فقبلوه ، وقالوا إنا سنذهب بهذا الغلام إلى ملكنا فإنه كائن له شأن ، فلم تكذب تنفقت منهم إلا بعد جهد . وذكر أنها لما ردت حين تحوفت عليه أن يكون أصابه عارض ، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده ، فجاءت جده عبد المطلب فخرج هو وجماعة في طلبه ، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده ، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوده ويدعوله ، ثم رده إلى أمه آمنة .

وذكر الأموي من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي - وهو ضعيف - عن الزهري عن سعيد

(١) هكذا بالأصل . ولعله ثلاثة رجال فقال أحدهم خذوا خيرهم . الخ . وبعضه ما أنبأ به النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه قل : بينما أنا ذات يوم مع أترب لي إذ أتانا رهط ثلاثة . الخ . (٢) التور : لئاء يشرب فيه ،

ابن المسيب قصة مولده عليه الصلاة والسلام ، ورضاعه من حليلة - على غير سياق محمد بن إسحاق و ذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة ، فطاف حتى استأجر حليلة على رضاعه . و ذكر أنه أقام عندها ست سنين تزيه جده في كل عام ، فلما كان من شق صدره عندهم ما كان - ردت به إليهم ، فأقام عند أمه حتى إذا كان عمره ثمان سنين ماتت ، فكفله جده عبد المطلب ، فمات وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فكفله عمه شقيقاً أبيه : الزبير وأبو طالب . فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير إلى اليمن . فذكر أنهم رأوا منه آيات في تلك السفرة ؛ منها أن خللاً من الإبل كان قد قطع بعض الطريق في وادٍ مرهم عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ برك حتى حك بكله الأرض فركبه عليه الصلاة والسلام . ومنها أنه خاض بهم سيلاً عراً فأيدسه الله تعالى حتى جاوزوه . ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة ، فانفرد به أبو طالب .

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليلة السعدية وأهلها وهو صغير ، ثم عادت على هوازن بكاملهم فواضله حين أمرهم بعد وقتهم ، وذلك بعد فتح مكة بشهر ، فماتوا إليه برضاعه فأعتقهم وتحنن عليهم وأحسن إليهم ؛ كما سيأتي مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال محمد بن إسحاق - في وقعة هوازن - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ بمنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وقد هوازن بالجعرانة^(١) وقد أسلموا ، فقالوا يارسول الله ! إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك . فقام خطيبهم زهير بن صرد فقال : يارسول الله ! إن ما في الحظائر^(٢) من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك^(٣) ، فلو أنا ما حفا^(٤) ابن أبي شمر ، أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك - رجونا عائدتهما وعطفهما ، وأنت خير المكفولين . ثم أنشد :

امنن علينا رسول الله في كرم	فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر	ممزق شملها في دهرها غير
أبقت لنا الدهر هتافاً على حزن	على قلوبهم الغناء والغمر
إن لم تداركها نعاء تنشرها	يأرجح الناس حتماً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها	إذ فوك يملؤه من محضها درر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها	وإذ يزيناك ما تأتي وما تذر

(١) موضع بين مكة والطائف .

(٢) جمع حظيرة ، وهي الزرب الذي يصنع للابل والغنم ، وكان السبي في حظائر مثلها .

(٣) فقد كانت حاضنته عليه السلام من بني سعد بن بكر .

(٤) أي أرضعنا . والملاح هنا : الرضاع . وابن أبي شمر هو الحارث الغساني .

لا تجعلنا كمن شالت نعمته واستبق منا فإننا معشر زهر
إنا لشكر للنعمى وإن كفرت وعبدنا بعد هذا اليوم مدخر

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد الله بن رماحس الكلبي الرملي عن زياد بن طارق الجشمي عن أبي سرد زهير بن جربول - وكان رئيس قومه - قال : لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين ، فبينما هو يميز بين الرجال والنساء - وثبت حتى قعدت بين يديه وأسمعته شعراً ، أذكره حين شب ونشأ في هوازن حيث أرضعوه :

امنن علينا رسول الله في دعة فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عافها قدر ممزق شملها في دهرها غير
أبقت لنا الحرب هتافاً على حزن على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركها نعاء تنشرها يا أرجح الناس حلاً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من محضها الدرر
إذا أنت طفل صغير كنت ترضعها وإذ زينك ما تأتي وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعمته واستبق منا فإننا معشر زهر
إنا لشكر للنعمى وإن كفرت وعبدنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه من أمهاتك إن العفو مشتهر
إنا نؤمل عفواً منك تلبسه هذى البرية إذ تعفو وتذتصر
فاغفر عفا الله عما أنت راهبه يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم » ، فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وسيأتى أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة ، وأعطاهم أنعاماً وأناسى كثيراً ، حتى قال أبو الحسين ابن فارس : فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم . فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا ، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة ؟

« فصل » (في وفاة أمه عليه السلام وزيارة قبرها وحنينه عليها)

قال ابن إسحاق - بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليلة له - فكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب في كلاءة الله وحفظه ، ينبتة الله نباتاً حسناً ؛ لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدى بن النجار تزيره إياهم ، فماتت وهي راجعة به إلى مكة . وذكر الواقدي بأسانيده أن النبي ﷺ خرجت به أمه إلى المدينة ومعها أم أيمن وله ست سنين ، فزارت أخواله . قالت أم أيمن : فجاءني ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لي : أخرجني إينا أحد ننظر إليه ، فنظرنا إليه وقلباه ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته ، وسيكون بها من القتل والسبي أمر عظيم . فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به ، فماتت بالأبواء وهي راجعة . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا أيوب بن جابر عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن بريدة عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بوآذان قال : « مكانكم حتى آتيكم » ، فانطلق ثم جاءنا وهو ثقل ، فقال : « إني آتيت قبر أم محمد فسألت ربي الشفاعة - يعني لها - فمنمنها ، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام فكلوا وأمسكوا ما بدا لكم ، ونهيتكم عن الأشربة في هذه الأوعية فاشربوا ما بدا لكم » .

وقد رواه البيهقي من طريق سفينان الثوري عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر ، فجلس وجلس الناس حوله ، فجعل يحرك رأسه كالخطاب ثم بسكى ، فاستقبله عمر فقال ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فأبى علي ، وأدركتني رقتها فبكيت » . قال فما رؤيت ساعة أكثر باكيًا من تلك الساعة . تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه . ثم روى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب : حدثنا ابن جريج عن أيوب بن هاني عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ ينظر في المقابر ، وخرجنا معه ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطف القبور حتى انتهى إلى قبر منها - ففاجاه طوبلا ، ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكيًا ، فبكي كما بكاه رسول الله ﷺ . ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله ، ما الذي أبكاك ؟ لقد أبكنا وأفرعنا . فجاء فجلس إلينا فقال : « أفزعكم بكائي ؟ » قلنا نعم ! قال : « إن القبر الذي رأيتوني أناجي - قبر آمنة بنت وهب ، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي ، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه ، ونزل علي : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرابي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حلیم) (١) فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة ، فذلك الذي أبكاني » . غريب ولم يخرجوه .

وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبه عن محمد بن عبيد عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : « استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي ، فزوروا القبور تذكركم للموت » . وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبه عن عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : « في النار » ، فلما قفا دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار » . وقد روى البيهقي من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين عن إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : إن أبي كان يصل الرحم ، وكان وكان ، فأين هو ؟ قال : « في النار » قال . فكان الأعرابي وجد من ذلك ، فقال يا رسول الله أين أبوك ؟ قال : « حيثما مسرت بقبر كافر فبشره بالنار » ، قال فأسلم الأعرابي بعد ذلك ، فقال : لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً ، ما مسرت بقبر كافر إلا بشرته بالنار . غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد - هو ابن أبي أيوب - حدثنا ربيعة بن سيف المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو قال : بينما نحن نمشي مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها ، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت إليه ، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : « ما أخرجك من بيتك يا فاطمة ؟ » فقالت أنت أهل هذا البيت فترحت إليهم ميتهم وعزيتهم . قال : « لعلاك بلغت معهم الكدى ^(١) » قالت : معاذ الله أن أكون بلغتهم معهم وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر ^(٢) » ، قال : « لو بلغتهم معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جسد أهلك » . ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي من حديث ربيعة بن سيف بن مانع المعافري الصنعبي الإسكندري ، وقد قال البخاري عنده من أكبر ، وقال النسائي ليس به بأس ، وقال مرة صدوق ، وفي نسخة ضعيف . وذكره ابن حبان في الثقات وقال : كان يخطيء كثيراً ، وقال الدارقطني صالح ، وقال ابن يونس في تاريخ مصر : في حديثه من أكبر . توفي قريباً من سنة عشرين ومائة . والمراد بالكدي القبور - وقيل النوح .

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية ، خلافاً لفرقة الشيعة فيه وفي ابنه أبي طالب على ما سيأتي في وفاة أبي طالب ، وقد قال البيهقي - بعد روايته هذه الأحاديث في كتابه دلائل النبوة : وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة في الآخرة ؟ وقد كانوا يعبدون الوثن ، حتى ماتوا ولم يدينوا بدين عيسى بن مريم عليه السلام ، وكفرهم لا يقدر في نسبه عليه الصلاة والسلام ؛ لأن أنكحة الكفار صحيحة . ألا تراهم يسمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد

(١) جم كدية وهي التلعة الغليظة من الأرض - يريد المقابر ، وكانت مقابرهم فيها .

(٢) تشير إلى قوله عليه السلام : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

ولا مفارقتهم؟ إذا كان مثله يجوز في الإسلام وبالله التوفيق، انتهى كلامه.

قلت: وإخباره صلى الله عليه وسلم عن أبيه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار - لا ينافي الحديث الوارد عنه من طرق متعددة: أن أهل الفترة والأطفال المجانين والعميم يتمتحنون في العرصات يوم القيامة، كما بسطناه سنداً وامتناً في تفسيرنا عند قوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)، فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب، فلا منافاة والله الحمد والمنة.

وأما الحديث الذي ذكره السهيلي - وذكر أن في إسناده مجهولين - إلى ابن أبي الزناد، عن عروة عن عائشة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يحيي أبويه، فأحياهما وأمنا به - فإنه حديث منكر جداً، وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى. لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه، والله أعلم.

فصل [في عناية جده عبد المطلب وعمه أبي طالب به عليه السلام]

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم - يعني بعد موت أمه آمنة بنت وهب - فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفراً حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع وقال الواقدي: حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري، وحدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله، وحدثنا هاشم بن عاصم الأسدي عن المذخر بن جهم، وحدثنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبي الحويرث، وحدثنا ابن أبي سبرة عن سليمان بن صالح عن نافع عن ابن جبير - دخل حديث بعضهم في بعض - قالوا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون مع أمه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقر به منه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام. وكان يجلس على فراشه فيقول لعبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا بني إنه يؤسس ملكاً.

وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب: احتفظ به فإننا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام منه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء! فكان أبو طالب يحتفظ به. وقال عبد المطلب لأم أيمن^(١) - وكان تحضنه - يابركة! لاتغفل عن ابني، فإنني وجدته مع غلمان قريب من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة. وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول: على بابني

(١) أمة حبشية كانت لأبيه عبد الله، وكانت حاضنته بعد وفاة أمه السيدة آمنة، وكان عليه السلام يقرها كثيراً ويقول لها: أنت أمي بعد أمي.

فيؤتى به إليه . فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ، ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون .

وقال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمانى سنين هلك جدّه عبد المطلب بن هاشم . ثم ذكر جمعه بناته وأسرّه إياهن أن يرثينه ؛ وهن : أروى ، وأميمة ، وبرة ، وصفية ، وعانكة ، وأم حكيم البيضاء . وذكر أشعارهن وما قلن في رثاء أبيهن وهو يسمع قبل موته وهذا أبلغ النوح ، واسط القول في ذلك . وقد قال ابن هشام : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر .

قال ابن إسحاق : فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولي السقاية وزمزم بعده ابنه العباس ، وهو من أحدث إخوته سناً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام فأقرها في يده رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ بعد جدّه عبد المطلب - مع عمه أبي طالب لوصية عبد المطلب له به ، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله ، أمها فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم . قال فكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله ﷺ وكان إليه ومعه . وقال الواقدي : أخبرنا معمر عن ابن نجیح عن مجاهد ، وحدثنا معاذ بن محمد الأنصارى عن عطاء عن ابن عباس ، وحدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة - دخل حديث بعضهم في حديث بعض - قالوا : لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصب ^(١) به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط . وكان يخصه بالطعام . وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أوفراى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ؛ فكان إذا أراد أن يفيديهم قال : كما أتم حتى يأتى ولدى . فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب : إنك مبارك . وكان الصبيان يصبحون رمصاً ^(٢) شعناً ، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً خيلاً .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا على بن ثابت عن طلحة بن عمرو ، سمعت عطاء بن أبي رباح ، سمعت ابن عباس يقول : كان بنو أبي طالب يصبحون رمصاً عمصاً ، ويصبح رسول الله ﷺ صةيلاً دهيناً . وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أو البكرة ، فيجلسون وينتهبون ، ويكف رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فلا ينتهب معهم ، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة .

وقال ابن إسحاق : حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير - أن أباه حدثه : أن رجلاً من هب

(١) المراد : أحبه حباً شديداً ، والصبابة بالفتح : حرارة الشوق ورقته .

(٢) الرمض - بفتحين : وسخ يجتمع في موق العين ، وقد رمضت عينه من باب طرب ، فإن سأل فهو غمض .

كان عائفاً^(١) فكان إذا قدم مكة أناه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم . قال فأتى أبو طالب برسول الله ﷺ وهو غلام مع من يأتيه . قال فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء . فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ على به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول : ويلكم ! ردوا على الغلام الذي رأيته آنفاً ، فو الله ليكونن له شأن . قال : فانطلق به أبو طالب .

فصل

في خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمه أبي طالب إلى الشام وقصته مع بحيرى الراهب
قال ابن إسحاق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام . فلما تهباً للرحيل وأجمع المسير صَبَّ به رسول الله ﷺ - فيما يزعمون - فرق له أبو طالب ، وقال : والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً - أو كما قال - فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له . وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها - فيما يزعمون - يتوارثونه كإبراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببجيرى - وكانوا كثيراً ما يعمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك - فيما يزعمون - عن شيء رآه وهو في صومعته ؛ يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حين أقبل وغمامة تظلمه من بين القوم . ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وانحصرت^(٢) أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها . فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أسر بطعام فصنع . ثم أرسل إليهم فقال : لاني صنعت لكم طعاماً يامعشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ؛ كبيركم وصغيركم ، وعبدكم وحرکم . فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ! ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ماتقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم . فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحدائة سنة - في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويحد عنده ، فقال يامعشر قريش ! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى ، قالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدثنا سنأ ، فتخلف في رحالنا . قال : لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللوات والعزى ! إن كان لاؤم بنا أن يتخلف محمد بن عبد الله

(١) العائف : المتكهن بالطير أو غيرها ؟ بان يعتبر باسمائها ومساقطها وأنواها فيتسعد أو يتشام .

(٢) أى اندفعت ومالت .

ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجاسه مع القوم ، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يحدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى وقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ؛ وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يخلفون بهما . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له : لانسألني باللات والعزى شيئاً ؛ فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما . فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال له سئني عما بدالك . فجعل يسأله عن أشياء ؛ من حاله في نومه وهيبته وأموره ؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده . فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال ابني ، قال بحيرى ما هو باينك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يسكون أبوه حياً . قال فإنه ابن أخى ، قال فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ؛ ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ؛ فوالله إن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغته شراً ؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده ، فخرج به عمه أبو طالب سريماً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

قال ابن إسحاق : فزعموا - فيما روى الناس - أن زُريراً ، وتماماً ، ودربساً - وهم نفر من أهل الكتاب - قد كانوا رأوا رسول الله ﷺ مثلما رآه بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب ، فأرادوه فردّهم عنه بحيرى وذكرهم الله وما يحدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه . وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، أن أبا طالب قال في ذلك ثلاث قصائد . هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه . وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع .

فقال الحافظ أبو بكر الخرائطي : حدثنا عباس بن محمد الدوري ، حدثنا قراد أبو نوح ، حدثنا يونس عن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياء من قریش . فلما أشرفوا على الراهب - يعني بحيرى - هبطوا فخلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يملكون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم ، قال : فنزل وهم يملكون رحالهم ، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال : هذا سيد العالمين . وفي رواية البيهقي زيادة : هذا رسول رب العالمين ؛ بعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياء من قریش : وما علمك ؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ، ولا يسجدون إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه . ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهاهم به - وكان هو في رعية الإبل -

قال أرسلوا إليه ، فأقبل وغمامة تظله ، فلما دنا من القوم قال انظروا إليه عليه غمامة ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى في الشجرة ، فلما جلس مال في الشجرة عليه ، قال انظروا إلى في الشجرة مال عليه . قال : فينا هو قائم عليهم وهو يندهم ألا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه - التفت فإذا هو بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا . قال : فاستقبلهم فقال ماجاء بكم ؟ قالوا جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس ، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه . قال فهل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا - لا ، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه . قال : أفأرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ فقالوا - لا . قال فبايعوه وأقاموا معه عنده . قال : فقال الراهب : أنشدكم الله ! أيكم وإيه ؟ قالوا أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر بلالاً ، وزوده الراهب من الكعك والزيت .

هكذا رواه الترمذي عن أبي العباس الفضل بن سهل الأعرج عن قراد أبي نوح به ، والحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم عن عباس بن محمد الدوري به . وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزامي مولاهم - ويقال له الضبي ويعرف بقراد - سكن بغداد ، وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري ، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ، ولم أر أحداً جرحه ، ومع هذا في حديثه هذا غرابة ؛ قال الترمذي حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال عباس الدوري : ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح ، وقد سمعته منه أحمد بن حنبل رحمه الله وبجي بن معين لغرابته وانفراده . حكاه البيهقي وابن عساكر .

قلت : فيه من الغرائب : أنه من مراسلات الصحابة ؛ فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خير سنة سبع من الهجرة ، ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، وعلى كل تقدير فهو مرسل ؛ فإن هذه القصة كانت ورسول الله ﷺ من العمر - فيما ذكره بعضهم - اثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ ، أو من بعض كبار الصحابة رضی الله عنهم ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة .

الثاني : أن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا .

الثالث : أن قوله : وبعث معه أبو بكر بلالاً ؛ إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتي عشرة سنة ، فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة ، وعمر بلال أقل من ذلك ، فأين كان أبو بكر إذ ذاك ؟ ثم أين كان بلال ؟ كلاهما غريب ، اللهم إلا أن يقال إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيراً ؛ إما بأن يكون سفره بعد هذا ، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك ثنتي عشرة سنة غير

محفوظ - فإنه إنما ذكره مقيداً بهذا . وحكى السهيلي عن بعضهم ، أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين والله أعلم . قال الواقدي : حدثني محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين قالوا : لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة ، ونزلوا بالراهب بحيرى . فقال لأبي طالب بالسر ما قال ، وأمره أن يحتفظ به ، فرده معه أبو طالب إلى مكة .

وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكأه الله ويحفظه ، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها ، لما يريد من كرامته ، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مهروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلاً وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى . مارؤى ملاحياً ولا ممارياً أحداً ، حتى سماء قومه الأمين ؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة ، فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويمضه حتى مات .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا خالد بن معدان ، حدثنا معتمر بن سليمان ، سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز : أن عبد المطلب - أو أبا طالب شك خالد - قال : لما مات عبد الله عطف على محمد ، فكان لا يسافر سفيراً إلا كان معه فيه ، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزلاً فأنه فيه راهب ، فقال إن فيكم رجلاً صالحاً . ثم قال : أين أبو هذا الغلام ؟ قال : فقال ها أنا ذا وليه - أو قيل هذا وليه - قال احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام ؛ إن اليهود حسد وإنى أخشاهم عليه . قال : ما أنت تقول ذلك ، ولكن الله يقوله ، فرده وقال : اللهم إني أستودعك محمداً ، ثم إنه مات .

قصة بحيرى : حكى السهيلي عن سير الزهرى - أن بحيرى كان حبراً من أحبار اليهود .

قلت : والذي يظهر من سياق القصة : أنه كان راهباً نصرانياً والله أعلم . وعن المسعودى أنه كان من عبد القيس ، وكان اسمه جرجيس . وفي كتاب المعارف لابن قتيبة : سمع هاتف في الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة : بحيرى ، ورتاب بن البراء الشنى ، والثالث المنتظر . وكان الثالث المنتظر ، هو الرسول ﷺ . قال ابن قتيبة : وكان قبر رتاب الشنى وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندها طش - وهو المطر الخفيف .

(فصل) في منشئه عليه الصلاة والسلام ومرباه

وكفاية الله له ، وحياطته ، وكيف كان يتيماً فأواه ، وعائلاً فأغناه

قال محمد بن إسحاق : فشب رسول الله ﷺ يكأه الله ويحفظه ، ويحوطه من أقدار الجاهلية ؛ لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مهروءة ، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم

حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تُدنس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين ؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة . وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي - يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : « لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرّس ، وأخذ إزاره وجمله على رقبتيه يحمل عليه الحجارة ؛ فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكني لا أرى ما أراه - لكفةً وجميعاً ، ثم قال : شدّ عليك إزارك . قال فأخذته فشدته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزاري على من بين أصحابي » . وهذه القصة شبيهة بما في الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس ، فإن لم تكنها فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها ، والله أعلم .

قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج ، أخبرني عمرو بن دينار : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة . فقال العباس لرسول الله ﷺ : اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل ، نخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : « إزاري » فشد عليه إزاره . أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق ؛ وأخرجاه أيضاً من حديث روح بن عبادة عن زكرياء بن أبي إسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالوا : أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا محمد بن إسحاق الصائغاني ، حدثنا محمد بن بكير الحضرمي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عكرمة ، حدثني ابن عباس عن أبيه : أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت ، قال : وأفردت قريش رجلين رجلين ؛ الرجال ينقلون الحجارة ، وكانت النساء تنقل الشيد . قال فكنت أنا وابن أخي ، وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة ، فإذا غشينا الناس اتبزننا . فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي - قال - نخر وانبطح على وجهه ، فبئت أسمى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء ، فقلت ما شأنك ؟ فقام وأخذ إزاره وقال : « إني نهيت أن أمشي عرياناً » . قال وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون . وروى البيهقي من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق ، حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخزوم عن الحسن ابن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهيمون به من النساء إلا ليلتين ؛ كتابها عصمني الله عن وجل فيهما . قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى . قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عرقاً بالغرابيل والمزامير فقلت ما هذا ؟ قالوا تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله علي

أذني ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال ما فعلت ؟ فقلت ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذي رأيت . ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل ، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة ، فسألت فقيل نكح فلان فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال ما فعلت ؟ فقلت لاشيء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته . وهذا حديث غريب جداً ، وقد يسكون عن علي نفسه ، ويكون قوله في آخره : « حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته » - مقحماً ، والله أعلم .

وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان في الثقات . (وزعم) بعضهم أنه من رجال الصحيح . قال شيخنا في تهذيبه ، ولم أفد على ذلك والله أعلم .

وقال الحافظ البيهقي : حدثني أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا الحسن بن علي بن عفان العامري ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة ، قال : كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة ، يتمسح به المشركون إذا طافوا . فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه ، فلما صررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ : « لاتمسه » . قال زيد : فطفنا فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته فقال رسول الله ﷺ : « ألم تنه ؟ » ، قال البيهقي : زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده - قال زيد : فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه .

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام ليجري حين سأله باللات والعزى : « لانسانى بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما » ، فأما الحديث الذي قاله الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو سعد الماليني ، أنبأنا أبو أحمد بن عدى الحافظ ، حدثنا إبراهيم بن أسباط ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن سفيان الثوري عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدتهم ، قال : فسمع من كمين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه : اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ ، قال كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام ؟ . قال فلم يعد بعد ذلك أن يشهد مع المشركين مشاهدتهم^(١) - فهو حديث أنكروه غيره واحد من الأئمة على عثمان بن أبي شيبة ، حتى قال الإمام أحمد فيه : لم يسكن أخوه يتلفظ بشيء من هذا . وقد حكى البيهقي عن بعضهم - أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام ، وذلك قبل أن يوحى إليه ، والله أعلم .

(١) قوله : فهو حديث منكّر - جواب قوله : فأما الحديث الذي قاله الحافظ .

وقد تقدم في حديث زيد بن حارثة أنه - اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته . وثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة ، بل كان يقف مع الناس بعرفات ، كما قال يونس ابن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير . قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه ، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم ، توفيقاً من الله عز وجل له . قال البيهقي : معنى قوله : على دين قومه - ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائماً . قلت : ويفهم من قوله هذا أيضاً : أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه ، وهذا توفيق من الله له . ورواه الإمام أحمد عن يعقوب عن محمد بن إسحاق به . ولفظه : رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه ، وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله . وقال الإمام أحمد : حدثنا سفیان عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : أضللت بعيراً لي بعرفة ، فذهبت أطلبه فإذا النبي ﷺ واقف ، فقلت إن هذا من الحس (١) ما شأنه ههنا ؟ وأخرجاه من حديث سفیان ابن عيينة به .

ذكر شهوده عليه الصلاة والسلام حرب الفجار

قال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وإنما سمي يوم الفجار ؛ بما استحل هذان الحيان - كنانة وقيس عيلان - فيه من المحارم بينهم . وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس . وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

وقال ابن هشام : فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة ، أو خمس عشرة سنة - فيما حدثني به أبو عبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء - هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان . وكان الذي هاجها : أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صمصمة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، أجارَ لطيمة (٢) - أي تجارة - للنعمان بن المنذر . فقال البراض بن قيس - أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة : أتجبرها على كنانة ؟ قال : نعم ، وعلى الخلق كله . فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض يطلب غفلته . حتى إذا كان بتيمن ذي طلال (٣)

(١) الحس جمع أحس . وهم قريش ومن ولدت ، وكنانة . وجديلة ، سموا حساً . لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشددوا . والحاسة - الشجاعة . كانوا يقفون في المزدلفة ، ويقولون : نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم .

(٢) اللطيمة : الجمال التي تحمل البز والعطير .

(٣) ذو طلال ككتاب : ماء أو موضع ببلاد بني مرة .

بالعالية ، غفل عمروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام ، فإذلك سُمِّي «الفجار» ، وقال البراض في ذلك :

وداهيةٍ تُهَمُّ الناس قبلي شددت لها بني بكر ضلوعي
هدمت بها بيوت بني كلاب وأرضعتُ الموالى بالضروع^(١)
رفعت له بذى طلال كُفِّي^(٢) نخرت يميْدُ كالجذع الصريع

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جمفر بن كلاب :

وأبغ - إن عرضت - بني كلاب وعامر ، والخطوبُ لها موالى
وبكغ - إن عرضت - بني مُمير وأحوال القتيل بني هلال
بأن الوافد الرّحال أمسى مقياً عند تيمن ذى طلال

قال ابن هشام : فأتى آت قریشاً فقال : إن البراض قد قتل عمروة ، وهم في الشهر الحرام بعكاظ . فارتحلوا وهوأزن لا تشعر بهم . ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فانتقلوا حتى جاء الليل ، فدخلوا الحرم فأمسكت هوازن عنهم ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، والقوم متساندون على كل قبيل من قریش وكنانة رئيس منهم ، وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم . قال وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم ، أخرجه أعمامه معهم . وقال رسول الله ﷺ : « كنت أنبئ على أعمامى » - أى أرد عليهم نبئ عدوهم إذا رموهم بها . قال ابن هشام : وحديث الفجار أطول مما ذكرت ، وإنما منعى من استقصائه قطعه حديث سيرة رسول الله ﷺ .

وقال السهيلي : والفجار بكسر الفاء على وزن قتال . وكانت الفجارات في العرب أربعة ، ذكرهن للمسعودي ، وآخرهن فجار البراض هذا . وكان القتال فيه في أربعة أيام ؛ يوم شمطة ، ويوم العبلاء - وهما عند عكاظ ، ويوم الشرب - وهو أعظمها يوماً - وهو الذى حضره رسول الله ﷺ ، وفيه قيذا رئيس قریش وبني كنانة - وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان - أنفسهما نثلا يفروا ، وانهمزمت يومئذ قيس إلا بني نضر منهم فإنهم ثبتوا . ويوم الحريرة عند نخلة . ثم تواعدوا من العام المقبل إلى عكاظ ، فلما توافقوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جملة^(٣) ، ونادى : يامعشر مُضرا ! علام تقاتلون ؟ فقالت له هوازن : ما ندعو إليه ؟ قال الصلح ، قالوا وكيف ؟ قال ندى قتلاكم ونزهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دماننا . قالوا ومن لنا بذلك ؟ قال أنا ، قالوا ومن أنت ؟ قال عتبة بن ربيعة ، فوقع الصلح على ذلك ، وبعثوا

(١) ألحقت الموالى بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع ، وهدمت بيوت أشراف بني كلاب .

(٢) روى : رفعت له يدي بذى طلال .

(٣) وكان عتبة يتيماً في حجر حرب بن أمية رئيس قریش وكنانة ، وأشفق عليه من خروجه معه ، ونخر بغير إذنه

وفعل ما ذكر .

إليهم أربعين رجلاً ، فيهم حكيم بن حزام . فلما رأته بنو عامر بن صعصعة لهن في أيديهم عفوا عن دمائهم ، وانقضت حرب الفجار . وقد ذكر الأموي حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولاً فيما رواه عن الأثرم - وهو المغيرة بن علي - عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، فذكر ذلك .

(فصل) في شهوده عليه الصلاة والسلام حلف الفضول

قال الحافظ البيهقي : أخبرنا أبو سعد الماليني ، أنبأنا أبو أحمد بن عدى الحافظ ، حدثنا يحيى بن علي ابن هاشم الخفاف ، حدثنا أبو عبد الرحمن الأردى ، حدثنا إسماعيل بن علي بن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شهدت مع عمومي حلف المطيبين فما أحب أن أنسكته - أو كلمة نحوها - وأن لي حمر النعم » . قال وكذلك رواه بشر ابن المفضل عن عبد الرحمن ، قال : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة ، حدثنا أبو عمرو بن مطر ، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن داود السمناني ، حدثنا معلى بن مهدي ، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ماشهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين ، وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته » . قال : والمطيبون : هاشم ، وأميمة ، وزهرة ، ومخزوم . قال البيهقي : كذا روى هذا التفسير مدرجاً في الحديث ولا أدري قائله ، وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول ؛ فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين .

قلت : هذا لا شك فيه ؛ وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصي ، وتنازعوا في الذي كان جعله قصي لابنه عبد الدار ؛ من السقاية ، والرفادة ، واللواء ، والندوة ، والحجابة ، ونازعهم فيه بنو عبد مناف . وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش ، وتحالفوا على النصر لحزبهم ؛ فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا ، فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت ، فسموا المطيبين كما تقدم وكان هذا قديماً ، ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول ، وكان في دار عبد الله ابن جدعان ، كما رواه الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر قالوا : قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دُعيت به في الإسلام لأجبت ؛ تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعد ظالم مظلوماً » . قالوا : وكان حلف الفضول قبل البعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر ؛ وذلك لأن الفجار كان في شعبان من هذه السنة ، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه - الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلاً من زبيد^(١) قدم مكة ببضاعة

(١) بلد باليمن ، منه موسى بن طارق .

فاشترها منه العاص بن وائل فبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف : عبد الدار ومخزوماً
وجحاً وسهماً وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل ، وزبروه - أى اتهموه ، فلما رأى
الزبيدي الشر ، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس - وقريش في أنديةهم حول الكعبة - فنادى
بأعلى صوته :

يا آل فهسر لمظلوم بضاعته بيطن مكة نأى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته بالرجال وبين الحجر والحجر
إنَّ الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة
في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذى القعدة في شهر حرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا
بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي إليه حقه ؛ ما بلّ بحرصوفة ، ومارسى ثبير
وحراء مكانهما ، وعلى التامى في المعاش . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول^(١) ، وقالوا لقد
دخل هؤلاء في فضل من الأمر . ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه .
وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك :

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعزبه الغريب لذى الجوار
ويعلم من حوال البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار
وقال الزبير أيضاً :

إن الفضول تعاهدوا وتحالفوا ألا يقيم بيطن مكة ظلم
أمر عليه تعاهدوا وتواتقوا فالجار والمعتز فيهم سالم

وذكر قاسم بن ثابت - في غريب الحديث - : أن رجلاً من خثعم قدم مكة حاجاً - أو معتمراً -
ومعه ابنة له يقال لها القتل ، من أوضاً نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيرها عنه . فقال
الخنعمي : من يعديني على هذا الرجل ؟ فقيل له عليك بحلف الفضول . فوقف عند الكعبة ونادى
يا آل حلف الفضول ! فإذا هم يمتقون إليه^(٢) من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك
الغوث فما لك ؟ فقال إن نبيها ظلمني في بنتي وانتزعها مني قسراً ، فساروا معه حتى وقفوا على باب داره

(١) قيل : إنعاسى حلف الفضول ؛ لأنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول إلى أهلها .

(٢) أى يمشون إليه ويسرعون إلى نجدته .

تفرج إليهم، فقالوا له أخرج الجارية ويحك ، فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه ، فقال أفعل ، ولكن متعوني بها الليلة ، فقالوا لا - والله ولا سُخْبَ لِقَعَةٍ ، فأخرجها إليهم وهو يقول :

راح صحبي ولم أحبي القتولا لم أردعهم وداعاً جميلاً
إذ أجد الفضول أن يذمموها قد أراني ولا أخاف الفضولا
لأنخالي أنى عشية راح الرك ب هنتم على أن لايزولا

وذكر أبياتاً آخر غيره . وقد قيل إنما سمي هذا حلف الفضول : لأنه أشبه حلفاً تخالفته جرمه على مثل هذا ؛ من نصر للمظلوم على ظالمه . وكان الداعي إليه ثلاثة من أشرفهم ؛ اسم كل واحد منهم فضل وهم : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث ، هذا قول ابن قتيبة . وقال غيره : الفضل بن شراعة ، والفضل بن بضاعة^(١) ، والفضل بن قضاة . وقد أورد السهيلي هذا رحمه الله . وقال محمد بن إسحاق بن يسار : وتداعت قبائل من قر يش إلى حلف ، فاجتمعوا له في دار عبد الله ابن جُدعان اشرفه وسنّه . وكان حلفهم عنده بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتعاهدوا وتعاهدوا على أن لا يجحدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس - إلا كانوا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته ، فسمت قر يش ذلك الحلف - حلف الفضول .

قال محمد بن إسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي ، أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ولو ادعى به في الإسلام لأجبت » .

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادي الليثي ، أن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، حدثه أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب ، وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - والوليد يومئذ أمير المدينة ، أمره عمه مهاوية بن أبي سفيان - منازعة في مال كان بينهما بذي المروة ، فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانته ، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفني من حقي ، أو لأخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول . قال : فقال عبد الله بن الزبير - وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال - وأنا أحلف بالله لئن دعا به لأخذن سيفي ، ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو تموت جميعاً . قال : فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضى .

(١) في بعض النسخ : والفضل بن وداعة .

فصل في تزويجه صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال على مالها مضاربة . فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها ؛ من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فمرضت عليه أن يخرج لها في مال تاجراً إلى الشام ، وتُعطيها أفضل ما تعطى غيره من التجار - مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال ميسرة : هذا رجل من قریش من أهل الحرم ، فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي . ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته - یعنی تجارته - التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري . ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت المهاجرة واشتد الحر ، يرى ملكين يُظللانه من الشمس ، وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعما كان يرى من إظلال الملائكة إياه ، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامتها . فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له - فيما يزعمون - يا بن عم ! إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك^(١) في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت نفسها عليه - وكانت أوسط نساء قریش نسباً ، وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً ؛ كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام^(٢) . قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

قال ابن إسحاق : فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلاًهم إلا إبراهيم - القاسم - وكان به يگنی ، والطيب ، والطاهر ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . قال ابن هشام . أكبر بنيه القاسم . ثم الطيب ، ثم الطاهر . وأكبر بناته رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

قال البيهقي عن الحاكم : قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة ، حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال : أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . وكان أول من مات من ولده القاسم ، ثم عبد الله . وبلغت خديجة خمساً وستين سنة ، ويقال خمسين وهو أصح . وقال غيره : بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ، ثم مات بعد النبوة ، وقيل مات

(١) السلطة : قال السهيلي : هي من الوسط ؛ وهو من أوصاف المدح والتفضيل .

(٢) قيل إن الذي أنكح خديجة - عمها عمرو بن أسد ، والذي نهض مع رسول الله هو عمه أبو طالب .

وهو رضيع ، فقال رسول الله ﷺ : « إن له مرضعاً في الجنة يستكمل رضاعه » ، والمعروف أن هذا في حق إبراهيم . وقال يونس بن بكير : حدثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم عن ابن عباس قال : ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة : القاسم ، وعبد الله ، وفاطمة ، وأم كلثوم ، وزينب ، ورقية . وقال الزبير بن بكار : عبد الله - هو الطيب وهو الطاهر ؛ سمي بذلك لأنه ولد بعد النبوة . قال ابن إسحاق : فأما القاسم والطيب والطاهر - فماتوا قبل البعثة . وأما بناته فأدركن البعثة ودخان في الإسلام وهاجرن معه ﷺ . قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية من كورة أنصنا^(١) وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام في باب مفرد لذلك في آخر السيرة إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

قال ابن هشام : وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثني غير واحد من أهل العلم ، منهم أبو عمرو المدني . وقال يعقوب بن سفيان : كتبت عن إبراهيم بن المنذر ، حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي ، حدثني غير واحد : أن عمرو بن أسد تزوج خديجة من رسول الله ﷺ وعمره خمساً وعشرين سنة وقريش تبني الكعبة . وهكذا نقل البيهقي عن الحاكم : أنه كان عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة ، وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين ، وقيل خمساً وعشرين سنة .

وقال البيهقي : [باب ما كان يشتغل به رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج خديجة] أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن عبد الله ، أخبرنا الحسن بن سفيان ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا عمرو ابن أبي يحيى بن سعيد القرشي عن جده سعيد عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » . فقال له أصحابه وأنت يارسول الله ؟ قال : « وأنا رعيتهما لأهل مكة بالقراريط » . رواه البخاري عن أحمد بن محمد المسكي عن عمرو بن يحيى به . ثم روى البيهقي من طريق الربيع بن بدر - وهو ضعيف - عن أبي الزبير عن جابر . قال : قال رسول الله ﷺ : « آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص . وروى البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس : أن أبا خديجة زوج رسول الله ﷺ وهو - أظنه قال - سكران . ثم قال البيهقي : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أن عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، قال حدثني إبراهيم بن المنذر ، حدثني عمر ابن أبي بكر المؤملي ، حدثني عبد الله بن أبي عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبي القاسم - مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل - أن عبد الله بن الحارث حدثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثر فيه يقول : أنا أعلم الناس

بزوجيه إياها ؛ إني كنت له تربياً ، وكنت له إلفاً وخِدينا ، وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم ، حتى إذا كنا بالحزورة (١) أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على آدم (٢) تبيعها ، فنادتني فأنصرفت إليها ، ووقف لي رسول الله ﷺ فقالت أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة ؟ قال عمار فرجعت إليه فأخبرته فقال : « بلى امرى » ، فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت : اغدوا علينا إذا أصبحنا ، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة ، وصفرت لحيته ، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقى خمراً ، فذكر له رسول الله ﷺ ومكانته وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة ، وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ، ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً فقال : ما هذه الحلة ؟ وما هذه الصفرة وهذا الطعام ؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عماراً : هذه حلة كساها محمد بن عبد الله ختنك ، وبقرة أهداها لك ، فذبحناها حين زوجه خديجة ، فأنكر أن يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحجر . وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاءوه فكلموه ، فقال أين صاحبكم الذي تزعمون أنى زوجه خديجة ؟ فبرز له رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليه قال : إني كنت زوجه فسبيل ذلك ، وإن لم أكن فعلت فقد زوجه . وقد ذكر الزهرى في سيره : أن أباهما زوجها منه وهو سكران ، وذكر نحو ما تقدم ، حكاه السهيلي . قال المؤملي : المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه ، وهذا هو الذي رجحه السهيلي ، وحكاه عن ابن عباس وعائشة . قالت : وكان خويلد مات قبل الفجار ، وهو الذي نازع ثبماً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن ، فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ، ثم رأى تبع في منامه ماروعه ، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه . وذكر ابن إسحاق في آخر السيرة : أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها رسول الله ﷺ فأنه أعلم .

فصل [فيما كان بين خديجة وابن عمها ورقة بن نوفل بشانته عليه السلام]

قال ابن إسحاق : وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصى - وكان ابن عمها ، وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلالانه ؛ فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبياً يُنتظر هذا زمانه - أو كما قال ، فجعل ورقة يستبطن الأمر ويقول : حتى متى ؟ وقال في ذلك :

لجيت وكنت في الذكرى لجوجا لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجا

بيطن المسكتين على رجائي
بما خبرتينا من قول قس
بأن محمداً سيسود قوماً
ويظهر في البلاد ضياء نور
فيلقي من بحاربه خساراً
فياليتي إذا ما كان ذاكم
ولو جأ في الذي كرهت قریش
أرجى بالذي كرهوا جميعاً
وهل أمر السفالة غير كفر
فإن يبقوا وأبق تكن أمور
وإن أهلك فكل فتى سيلقى

وقال ورقة أيضاً فيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عنه :

أتبكر أم أنت العشية رأمح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم
وأخبار صدق خبرت عن محمد
أناك الذي وجهت ياخير حرة
إلى سوق بصرى في الركاب التي غدت
فيخبرنا عن كل خير بعلمه
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل
وظنى به أن سوف يبعث صادقاً
وموسى وإبراهيم حتى يرى له
ويتبعه حياً لؤى وغالب
فإن أبق حتى يدرك الناس دهره
وإلا فإني ياخديجة فاعلمى

وزاد الأموى : فمتبع دين الذى أسس البنا وكان له فضل على الناس راجح

(١) القومس : التي تضرب حالها وتمنع الدرة . ودلج : مشى بحمله منقبض الخطو لثقله .

وأسس بنياناً بمسكة ثابتاً تلالاً فيه بالظلام المصانح
مثاباً لأفناء القبائل كلها تحب إليه العملات الطلائح
حراجيج^(١) أمثال القداح من السرى يعلق في أرساغهن السرايح

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السهيلي في روضه :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يفرركم أحد
لا تعبدن إلهاً غير خالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له وقبلنا سبح الجودى والجد
مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يناوى ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته يبقى الآله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه وانخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح به والجن والإنس فيما بينها مرد
أين الملوك التى كانت لعزتها من كل أرب إليها وافد يفد ؟
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوماً كما وردوا

ثم قال : هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة ، قال : وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبى الصلت .
قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كان يستشهد فى بعض
الأحيان بشيء من هذه الأبيات ، والله أعلم .

(فصل) فى تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقى بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة . والمشهور أن بناء قريش الكعبة
كان بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين . ثم شرع البيهقى فى ذكر بناء الكعبة فى زمن إبراهيم
كما قدمناه فى قصته ، وأورد حديث ابن عباس المتقدم فى صحيح البخارى ، وذكر ما ورد من
الإسرائيليات فى بنائه فى زمن آدم . ولا يصح ذلك ؛ فإن ظاهر القرآن يقتضى أن إبراهيم أول من
بناه مبعثاً وأول من أسسه ، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها ، مشرفة فى سائر الأعصار والأوقات
قال الله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام
إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً^(٢)) ، وثبت فى الصحيحين

(١) الحراجيج . جمع حرجيج ، وهى الناقة الطويلة .

(٢) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » ، قلت ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » . وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم ، وأن المسجد الأقصى أسسه إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام . وفي الصحيحين : « أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » ، وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو عبد الله الصفار ، حدثنا أحمد بن مهران ، حدثنا عبيد الله ، حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : كانت البيت قبل الأرض بألفي سنة ، (وإذا الأرض مدت ^(١)) قال من تحته مدت . قال وقد تابعه منصور عن مجاهد .

قلت : وهذا غريب جداً ، وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك ، وكان فيهما إسرائيليات يحدث منها ، وفيهما منكرات وغرائب .

ثم قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله البغدادي ، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا أبو صالح الجهني ، حدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيآلى بيتاً ، نخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، حتى أجابه الماء ، فنودى من تحته حسبك يا آدم ، فلما نبياه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ؛ وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » . قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً . قلت : وهو ضعيف ، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت ، والله أعلم .

وقال الربيع : أنبأنا الشافعي ، أنبأنا سفيان عن ابن أبي ليديد عن محمد بن كعب القرظي - أو غيره - قال : حجج آدم فلقيته الملائكة ، فقالوا بر نسلك يا آدم ؛ لقد حججنا قبلك بألفي عام . وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، حدثني بقية - أو قال ثقة - من أهل المدينة ، عن عروة بن الزبير أنه قال : ما من نبى إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح . قلت : وقد قدمنا حججنا إليه . والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثم بناء ، والله أعلم . ثم أورد البيهقي حديث ابن عباس المتقدم في قصة إبراهيم عليه السلام بطوله وتماه وهو في صحيح البخاري . ثم روى البيهقي من حديث سماك بن حرب عن خالد بن عرعر قال : سألت رجلاً علياً عن قوله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين) أهو أول بيت بنى في الأرض ؟ قال لا - ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . وإن شئت نباتك كيف بناؤه ؛ إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم أن

ابن لى بيتاً فى الأرض ، فضاق به ذرعا ، فأرسل إليه السكينة وهى ريح خجوج لها رأسان ، فأتبع أحدها صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، ثم تطوقت^(١) فى موضع البيت تطوق الحية ، فبنى إبراهيم حتى بلغ مكان الحجر ، فقال لابنه أبغنى حجراً ، فالتمس حجراً حتى آناه به ، فوجد الحجر الأسود قد ركب فى مكانه ، فقال لأبيه : من أين لك هذا ؟ قال : جاء به من لا يتكل على بنائك ؛ جاء به جبريل من السماء فأنماه . قال : فر عليه الدهر فانهدم فبنته العالقة ، ثم انهدم فبنته جرم ، ثم انهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب .

فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ؛ فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم ، ففضى بينهم أن يجعلوه فى صراط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم . وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام - كلهم عن سماك بن حرب - عن خالد بن عرعرة عن على بن أبى طالب قال : لما انهدم البيت بعد جرم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه ؟ فانفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب ، فدخل رسول الله ﷺ من باب بنى شيبه : فأمر بثوب فوضع الحجر فى وسطه ، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه ، وأخذ رسول الله ﷺ فوضعه . قال يعقوب بن سفيان : أخبرنى أصبغ بن فرج ، أخبرنى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال : لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم جرت امرأة الكعبة ، فطارت شرارة من مجرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها ، حتى إذا بنوها ، وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن ، أى القبائل تلى رفعه ؟ فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة^(٢) فحكوه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ، فكان هو يضعه . فكان لايزداد على السن إلا رضى ، حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى ، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلا التمسوه فيدعولهم فيها . وهذا سياق حسن ، وهو من سير الزهرى ، وفيه من الغرابة قوله : فلما بلغ الحلم . والمشهور أن هذا كان ورسول الله ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة ، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله . وقال موسى بن عقبة : كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة ، وهكذا قال مجاهد ، وعروة ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، وغيرهم ، فأنه أعلم . وقال موسى بن عقبة : كان بين الفجار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة قلت : وكان الفجار وحاف الفضول فى سنة واحدة ؛ إذ كان عمر رسول الله ﷺ عشرون سنة . وهذا يؤيد ما قاله محمد بن إسحاق ، والله أعلم . قال موسى بن عقبة : وإنما حمل قريشاً على بنائها - أن السيول كانت تاتى من فوقها ؛ من فوق

(١) وروى : تطوت كتطوى الحية (٢) النمرة : شملة فيها خطوط بيض وسود .

الردم الذي وصفوه فخر به ، تخافوا أن يدخلها الماء . وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة ، فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا ، فأعدا لذلك نفقة وعمالاً ، ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذي أرادوا . فكان أول رجل طلعها وهدم منها شيئاً - الوائيد بن المغيرة ، فلما رأوا الذي فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك ، فلما أرادوا أن يأخذوا في بنيانها أحضروا عمالهم ، فلم يقدر رجل منهم أن يمضي أمامه موضع قدم . فزعموا أنهم رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبا ، فأشفقوا منها شفقة شديدة ، وخشوا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا في هلكة . وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرقا لهم ، فلما سقط في أيديهم والتبس عليهم أمرهم - قام فيهم المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، فذكر ما كان من نصحه لهم ، وأمره إياهم أن لا يتشاجروا ولا يتحاسدوا في بنائها ، وأن يقتسموها أرباعاً ، وأن لا يدخلوا في بنائها مالا حراما . وذكر أنهم لما غزموها على ذلك ذهبت الحية في السماء وتغيبت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل قال : ويقول بعض الناس إنه اختطفها طائر وألقاها نحو أجياد .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : فلما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قریش لبناء الكعبة ، وكانوا يهيمون بذلك ليسقفوها ويهايون هدمها ، وإنما كانت رضماً فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك أن نفراً سرقوا كنزاً للكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، وكان الذي وجد عنده الكنز دُوبكاً مولى لبني مایح بن عمرو من خزاعة ، فقطعت قریش يده ، وتزعم قریش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك . وكان البحر قدرى بسفينة إلى جذة لرجل من تجار الروم ، فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها . قال الأموي : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم ، تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد ، سرحها قيصر مع باقوم الرومي إلى الكنيسة التي أحرقها الفرس للحبشة ، فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله عليها ريحاً فخطمتها .

قال ابن إسحاق : وكان بمكة رجل قبلي نجار ، فتهياً لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها . وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى إليها كل يوم فتشرق^(١) على جدار الكعبة وكانت مما يهايون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت^(٢) وفتحت فاهها ، فكانوا يهاونها ، فبينما هي يوماً تتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله عليها طائراً فاختطفها فذهب بها . فقالت قریش : إنا نلرجو أن يكون الله تعالى قد رضی ما أردنا ؛ عندنا عامل رقيق وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

(١) أي تقعد عند الشروق في موضع الشمس ، وروى : فتشرق .

(٢) احزألت : أي رفعت رأسها وانضمت واستوفزت للوثوب . وكشت : أي صوت باحتكاك بعض جلدها ببعض .

وحكى السهيلي : عن رزين - أن سارقاً دخل الكعبة في أيام جرم ليسرق كنزها ، فانهار البئر عليه ، حتى جاءوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كان أخذه . ثم سكنت هذا البئر حية رأسها كراس الجدوى ، وبطنها أبيض وظهرها أسود ، فأقامت فيها خمسمائة عام ، وهى التى ذكرها محمد بن إسحاق .

قال محمد بن إسحاق : فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم - وقال ابن هشام عائذ بن عمران بن مخزوم - فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يامعشر قريش ! لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا يدخل فيها مهر بنى ولا يبيع رباً ، ولا مظالم أحد من الناس . والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم . ثم رجع ابن إسحاق أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو ، قال : وكان خال أبي النبي ﷺ وكان شريفاً ممدحاً .

وقال ابن إسحاق : ثم إن قريشاً جزأت^(١) الكعبة ؛ فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة . وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم . وكان ظهر الكعبة لبني جُمح وسهم وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد المطلب ، ولبنى عدى ابن كعب - وهو الخطيم . ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ؛ فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدوكم فى هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين . فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : ننظر ؛ فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا من هدمها . فأصبح الوليد غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا انتهى المدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة^(٢) أخذ بعضها بعضاً . ووقع فى صحیح البخارى عن يزيد بن رومان - كأسنمة الأبل ، قال السهيلي : وأرى رواية السيرة كالأسنفة وهما ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض من يروى الحديث ، أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها ، أدخل عتلةً بين حجرين منها ليقاع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت^(٣) مكة بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس . وقال موسى بن عقبة : وزعم عبد الله بن عباس أن أولية قريش كانوا يحدثون أن رجلاً من قريش ، لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - عمد إلى حجر من الأساس الأول فرفعه ، وهو لا يدوى أنه من الأساس الأول ، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع^(٤) بصر الرجل ، ونزا الحجر من يده فوقه فى موضعه ، وفزع الرجل والبنات . فلما ستر الحجر عنهم ماتت إلى مكانه ، عادوا إلى بنائها وقالوا لا تحركوا هذا الحجر ولا شيئاً بجذائه .

(١) فى نسخة : تجزأت .

(٢) فى رواية : كالأسنة - جمع سنان (٣) يريد : اهترت (٤) أى تخطفه وتذهب به

قال ابن إسحاق : وحدثت أن قر يشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريرية فلم يعرفوا ماهو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا هو : أنا الله ذوبكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، لانزول حتى يزول أخشباها - قال ابن هشام : يعني جبلاها - مبارك لأهلها في الماء واللبن .

قال ابن إسحاق : وحدثت أنهم وجدوا في المنام كتاباً فيه : مكة بيت الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، لا يُحلبها أول من أهلها . قال : وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا حجراً في السكبة قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة - إن كان ما ذكر حقاً - مكتوباً فيه : من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة . تعملون السيئات وتجزون الحسنات ! أجل ، كما لا يجتنى من الشوك العنب .

وقال سعيد بن يحيى الأموي : حدثنا المعتمر بن سليمان الرقي عن عبد الله بن بشر الزهري - يرفع الحديث إلى النبي ﷺ - قال : « وجد في المقام ثلاثة أصفح ؛ في الصفح الأول : إني أنا الله ذوبكة ، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وباركت لأهلها في اللحم واللبن . وفي الصفح الثاني : إني أنا الله ذوبكة ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي ؛ فمن وصلها وصلته ومن قطعها بقتة . وفي الصفح الثالث : إني أنا الله ذوبكة ، خلقت الخير والشر وقدرته ، فطوبى لمن أجريت الخير على يديه ، وويل لمن أجريت الشر على يديه .

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة . ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه ؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقررت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى ابن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة . فسماوا « لعنة الدم » . فشكت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً . ثم إنهم اجتمعوا في المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا ؛ فزعم بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وكان عامئذ أسن قريش كلها - قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب ^(١) هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا . فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال رسول الله ﷺ : « هلموا إلى ثوباً » ، فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ - الأمين .

(١) قيل هو : باب بني شيبه ، وكان يقال له في الجاهلية : باب بني عبد شمس ، ويقال له الآن : باب السلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا ثابت - يعني أبا يزيد ، حدثنا هلال - يعني ابن حبان ، عن مجاهد عن مولاة - وهو السائب بن عبد الله ، أنه حدثه : أنه كان فيمن بنى الكعبة في الجاهلية قال : وكان لي حجر ، أنا نحتته أعبدته من دون الله ، قال : وكنت أجيء بالابن الخاضر الذي أنفه على نفسي فأصبه عليه ، فيجىء الكلب فيلحسه ، ثم يشفر^(١) فيبول عليه . قال : فبينما حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد ، فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل ، يكاد يترأى منه وجه الرجل . فقال بطن من قريش : نحن نضعه ، وقال آخرون نحن نضعه . فقالوا اجعلوا بينكم حكماً ، فقالوا أول رجل يطلع من الفج . فجاء رسول الله ﷺ فقالوا أنا كم الأمين ، فقالوا له : فوضعه في ثوب ، ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانى عشرة ذراعاً . وكانت تُكسى القبايطي^(٢) ، ثم كسيت بعد البرود . وأول من كساها الديقاج الحجاج بن يوسف .

قلت : وقد كانوا أخرجوا منها الحجر - وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام - حين قصرت بهم النفقة ، أى لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم . وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق ، وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد ، فيدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضی الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألم ترى أن قومك قصرت بهم النفقة ، ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً غربياً ، وأدخلت فيها الحجر » . ولهذا لما تمكن ابن الزبير بنهاها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ ، وجاءت في غاية البهاء والحسن والسناء ؛ كاملة على قواعد الخليل ؛ لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً ؛ يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر . فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان - وهو الخليفة يومئذ - فيما صنعه ابن الزبير ، واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه ، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه ؛ فعمدوا إلى الحائط الشامى خصوه وأخرجوا منه الحجر ، ورسوا حجارتها في أرض الكعبة فارتفع بابها ، وسدوا الغربى . واستمر الشرق على ما كان عليه . فلما كان في زمن المهدي - أو ابنه المنصور - استقار مالكا في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير ، فقال مالك رحمه الله : إني أكره أن يتخذها الملوك ملعباً ، فتركها على ما هي عليه ، فهي إلى الآن كذلك .

وأما المسجد الحرام : فأول من أخرج البيوت من حول الكعبة - عمر بن الخطاب رضی الله عنه ؛ اشتراها من أهلها وهدمها . فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه . فلما ولي ابن الزبير أحكم بنيانه

(١) قال في القاموس : شفر الكلب : رفع إحدى رجليه بال أو لم يبل - أو فبال (٢) قال في اللسان : القبطية ثياب كتان بيض رفاق تعمل بمصر . وهي منسوبة إلى القبط - وهم جيل بمصر - على غير قياس ، والجم قبايطي .

وحسن جدرانها وأكثر أبوابها ، ولم يوسعه شيئاً آخر . فلما استبد بالأمر عبد الملك بن مروان زاد في ارتفاع جدرانها وأمر بالكعبة فكسيت الديباج . وكان الذي تولى ذلك بأمره - الحجاج بن يوسف . وقد ذكرنا قصة بناء البيت والأحاديث الواردة في ذلك في تفسير سورة البقرة عند قوله : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ^(١)) ، وذكرنا ذلك مطولاً مستقصى ، فمن شاء كتبه هاهنا ، والله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا - قال الزبير بن عبد المطلب ، فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عجبت لما تصوّبت العقاب	إلى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيء	وأحياناً يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدّت	تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرّجز جاءت	عقاب تملّئ لها انصباب
فضمتها إليها ثم خلت	لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء	لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه	وليس على مسوينا ^(١) ثياب
أعزّ به المليك بنى لؤى	فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حسدت هناك بنو عدى	ومرّة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزّاً	وعند الله يُلتمس الثواب

وقد قدمنا في فصل ما كان الله يحوط به رسوله ﷺ من أقدار الجاهلية ، أنه كان هو والعباس عمه ينفلان الحجارة ، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه ، نهى عن خلع إزاره ، فأعاده إلى سيرته الأولى .

فصل [في الخمس]

وذكر ابن إسحاق ما كانت قريش ابتدعوه في تسميتهم الخمس ، وهو الشدة في الدين والصلابة ؛ وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيماً زائداً ؛ بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة . وكانوا يقولون : نحن أبناء الحرم وقطّان بيت الله ، فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام ، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة . وكانوا لا يدخرون من اللبن

(١) الآية : ١٢٧ من سورة البقرة (٢) ويروى : على مساوينا ثياب .

أَقْطًا^(١) ولا سمنًا ولا يسلمون شحمًا وهم حرم ولا يدخلون بيتًا من شعر ولا يستظلون - إن استظلوا - إلا بيت من آدم . وكانوا يمتعون الحجاج والعمار - ما داموا محرمين - أن يأكلوا إلا من طعام قريش ، ولا يطوفوا إلا في ثياب قريش ، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحُمس - وهم قريش وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة - طاف عربانًا ، ولو كانت امرأة ، ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك - وضعت يدها على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بَعْضُهُ أو كُذِّبَ وبعد هذا اليوم لا أحلّه^(٢)

فإن تكرّم أحد من يجد ثوب أحسى - فطاف في ثياب نفسه - فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقبها فلا ينتفع بها بعد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسها ، وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللَّقَى قال بعض الشعراء :

كفى حَزَنًا كَرَى عليه كأنه لقي بين أيدي الطائفين حريم

قال ابن إسحاق : فكانوا كذلك حتى بعث الله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن ردًا عليهم فيما ابتدعوه ، فقال : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أى جمهور العرب من عرقات ، (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم^(٣)) . وقد قدمنا أن رسول الله ﷺ كان يقف بعرفات قبل أن ينزل عليه توفيقًا من الله له ، وأنزل الله عليه ردًا عليهم فيما كانوا حرموا من اللباس والطعام على الناس : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . . الآية^(٤)) . وقال زياد البكائي عن ابن إسحاق : ولا أدري أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أو بعده .

كتاب مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر شيء من البشارات بذلك

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : وكانت الأحبار من اليهود ، والسكهان من النصرارى ومن العرب - قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه ؛ لما تقارب زمانه . أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصرارى فعلمًا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . قال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل . . . الآية^(٥))

(١) قال فى اللسان : الأقط - مثلثة : شىء يتخذ من اللبن الخبيض يطبخ ثم يترك حتى يعصل .

(٢) فى ابن هشام : وما بدأ منه فلا أحله . (٣) الآية : ١٩٩ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الأعراف .

(٥) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

وقال الله تعالى : (وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد^(١)) ، وقال الله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيأثم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل . . . الآية^(٢)) . وقال الله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلکم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين^(٣)) . وفي صحيح البخارى عن ابن عباس قال : « ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه » . يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه . وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك . . . الآية^(٤)) .

وقال الإمام أحمد . حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرغ بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر ، سمعت أبا أمامة قال : قلت يا رسول الله ! ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » . وقد روى محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ عنه مثله . ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره ؛ فذكر دعوة إبراهيم الذى تنسب إليه العرب ، ثم بشرى عيسى الذى هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل كما تقدم . وهذا يدل على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً .

أما فى الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام . كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد السكلي ، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن الرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني عبد الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ؛ دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بنى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين » . وقد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال : إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا منصور بن سعد عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت يا رسول الله ، متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » . تفرد بهن أحمد .

(١) الآية : ٦ من سورة الصف . (٢) آخر سورة الفتح .

(٣) الآية : ٨١ من سورة آل عمران . (٤) الآية : ١٢٩ من سورة البقرة .

وقد رواه عمر بن أحمد بن شاهين في كتاب دلائل النبوة من حديث أبي هريرة فقال : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز - يعني أبا القاسم البغوي - حدثنا أبو همام الوليد بن مسلم عن الأوزاعي ، حدثني يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم - متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » . ورواه من وجه آخر عن الأوزاعي به ، وقال : « وآدم منجدل في طينته » . وروى عن البغوي أيضاً عن أحمد بن المقدم عن بقية بن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي هريرة - مرفوعاً - في قول الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ^(١)) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » . ومن حديث أبي مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر عن الشعبي عن ابن عباس ، قيل : يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وأما الكهان من العرب فأتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع ؛ إذ كانت وهي لا تُحجَّب عن ذلك بالقذف بالنجوم ، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، ولا تُلقَى العرب لذلك فيه بالآ ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها ، فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر زمان مبعثه - حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عز وجل . قال : وفي ذلك أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : (قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهتدى إلى الرشاد فآمننا به ولن نشرك بربنا أحداً ^(٢)) . إلى آخر السورة . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في كتابنا التفسير ، وكذا قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم - الآيات ^(٣)) ، وقد ذكرنا تفسير ذلك كله هناك .

قال محمد بن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس - أنه حدث : أن أول العرب فَرَعَ للرعى بالنجوم حين رمى بها - هذا الحى من ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو ابن أمية - أحد بني علاج ، وكان أدهى العرب وأمكرها ، فقالوا له : يا عمرو ! ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال بلى ؛ فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس في معاشهم - هي التي يرمى بها ، فهو والله طي

(١) الآية : ٧ من سورة الأحزاب (٢) الآيتان : من أول سورة الجن .

(٣) الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ من سورة الأحقاف .

الدنيا ، وهلاك هذا الخلق ، وإن كانت نجومًا غيرها وهي ثابتة على حالها - فهذا لأمرٍ أراد الله به هذا الخلق ، فما هو ؟ .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم : أن امرأة من بنى سهم - يقال لها الغيظلة - كانت كاهنة في الجاهلية ، جاءها صاحبها ليلة من الليالي ، فانقض تحتها ، ثم قال : أذر ما أذر؟ يوم عقر ونحر ، فقالت قر يش حين بلغها ذلك : ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال : شعوب ما شعوب ، تُصرع فيه كعب لجنوب . فلما بلغ ذلك قر يشاً قالوا ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن ، فانظروا ما هو ؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب ، فعرفوا أنه كان الذي جاء به إلى صاحبتة .

قال ابن إسحاق : وحدثني علي بن نافع الجرشي أن جنبا - بطناً من اليمين - كان لهم كاهن في الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر في العرب ، قالت له جنبا : انظر لنا في أمر هذا الرجل ، واجتمعوا له في أسفل جبله ، فنزل إليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً ، ثم جعل ينزو ، ثم قال : أيها الناس ! إن الله أكرم محمداً واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد في جبله راجعاً من حيث جاء ، ثم ذكر ابن إسحاق قصة سواد بن قارب ، وقد أخرجناها إلى هواتف الجان .

فصل [في إنذار يهود برسول الله ، وقصة إسلام سلمان الفارسي]

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه لنا - أن كنا نسمع من رجال من يهود ، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تنزل بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يسكرون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم - أجبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به . فبادرناهم إليه ، فأمننا به وكفروا به . ففينا وفيهم نزلت هذه الآية : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ^(١)) .

وقال ورقاء عن ابن أبي نجيح عن علي الأزدي : كانت اليهود تقول : اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس ، يستفتحون به - أي يستنصرون به ، رواه البيهقي . ثم روى من طريق عبد الملك بن هارون بن عنبرة عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كانت اليهود

لنجير تقاتل غطفان ، فكلمنا التقوا هزمت يهود خيبر ، فعادت اليهود بهذا الدعاء فقالوا : اللهم نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه في آخر الزمان - إن نصرتنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموهم غطفان . فلما بعث النبي ﷺ كفروا به ، فأَنْزَلَ اللهُ عز وجل : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . . . الآية) ، وروى عطية عن ابن عباس نحوه . وروى عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً .

وقال ابن إسحاق : وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان من أهل بدر ، قال : كانت لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ، قال : نخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل . قال سلمة : وأنا يومئذ من أحدث من فيه سنّاً على فروة^(١) لي مضطجع فيها بفناء أهلي ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار . قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان ، لا يرون أنّ بعثنا كائن بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلان ! أو ترى هذا كائناً ؟ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ؛ يحزون فيها بأعمالهم ؟ قال - نعم ، والذي يُخلف به ، ولودّ أن له بمخظه من تلك النار أعظم تنور في الدار ، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وأن ينجون من تلك النار غداً . فقالوا له ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن . قالوا ومتى نراه ؟ قال : فنظر إلى وأنا من أحدثهم سنّاً - فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا ، فأمنّا به وكفر به بغيّاً وحسداً . قال فقلنا له : ويحك يا فلان ! أأنت بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال بلى ، ولكن ليس به . رواه أحمد عن يعقوب عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه البيهقي عن الحاكم بإسناده من طريق يونس بن بكير .

وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن محمد بن سلمة قال : لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له يوشع ، فسمعتة يقول - وإني لغلام في إزار - قد أظلمك خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت ، ثم أشار بيده إلى بيت الله ، فمن أدركه فليصدقه ، فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا ، ولم يُسلم حسداً وبغيّاً . وقد قدمنا حديث أبي سعيد عن أبيه في أخبار يوشع هذا عن خروج رسول الله ﷺ وصفته ونعمته . وأخبار الزبير بن باطا عن ظهور كوكب مولد رسول الله ﷺ . ورواه الحاكم عن البيهقي بإسناده من طريق يونس بن بكير عنه .

قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيوخ من بني قريظة قال : قال لي : هل تدري عمّ كان إسلام ثعلبة بن سَعِيَةَ وأَسِيد بن سَعِيَةَ ، وأَسَد بن عبيد - نفر من بني هذيل ، إخوة بني قريظة

كانوا معهم في جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم في الإسلام ؟ قال : قلت - لا ، قال : فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له « ابن الهيثبان » قدم علينا قبيل الإسلام بسنين ، فخل بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلّي الخمس أفضل منه ، فأقام عندنا ، فكننا إذا قحط عنا المطر قلنا له : اخرج يا ابن الهيثبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تُقدّموا بين يدي تخرجكم صدقة ، فنقول له كم ؟ فيقول صاعاً من تمر ، أو مدين من شعير . قال فنخرجها ، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرثنا فيستسقي لنا ، فوالله ما يبرح مجاسه حتى يمرّ السحاب ونسقى . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث . قال ثم حضرتة الوفاة عندنا : فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ! ما ترونه أخرجني من أرض النحر والنخيل إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال قلنا : أنت أعلم . قال فإني إنما قدمت . هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مهاجرة ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه ، وقد أظلم زمانه فلا تُسبقن إليه . يا معشر يهود ؛ فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة ، قال هؤلاء الفتية - وكانوا شباباً أحداً - : يا بني قريظة ! والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيثبان ، قالوا ليس به . قالوا بلى ، والله إنه هو بصفته ، فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم . قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

قلت : وقد قدمنا في قدوم تبع اليماني وهو أبو كرب تبيان أسعد إلى المدينة ومحاصرته إيها ، وأنه خرج إليه ذاك الخبر من اليهود ، فقالوا له : إنه لا سبيل لك عليها ؛ إنها مهاجرة نبي يكون في آخر الزمان ، فثناه ذلك عنها . وقد روى أبو نعيم في الدلائل من طريق الوليد بن مسلم ، حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده . قال : قال عبد الله بن سلام : إن الله لما أراد هدى زيد بن سعية ، قال زيد : لم يبق شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه - إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيد شدة الجهل عليه إلا حلاً . قال فكنت أتلف له لأن أخاطبه ، فأعرف حلمه وجهله ، فذكر قصة إسلامه للنبي ﷺ مالاً في ثمرة ، قال فلما حلّ الأجل أتيت ، فأخذت بجامع قيصه وردائه - وهو في جنازة مع أصحابه - ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : يا محمد ألا تقضيني حقى ؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل . قال فنظر إلى عمر وعيناه يدوران في وجهه كالفلك المستدير . ثم قال : يا عدو الله ! أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ وتفعل ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم . ثم قال : « أنا وهو كنا أخرج إلى غير هذا منك يا عمر ؛ أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ^(١) ، اذهب به يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من

(١) أي التبسم والتطلب ، والتبسم : الذي لك عليه مال . ومنه قوله تعالى : (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيهاً) أي ثأراً ولا مطالباً .

ثَر . فأسلم زيد بن سعية رضى الله عنه . وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وتوفى عام تبوك رحمه الله .

ثم ذكر ابن إسحاق - رحمه الله - إسلام سلمان الفارسي رضى الله عنه وأرضاه فقال : حدثني عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصارى عن محمود بن لبيد ، عن عبدالله بن عباس ، قال : حدثني سلمان الفارسي - وأنا أسمع من فيه - قال : كنت رجلاً فارسياً من أهل أصفهان ، من أهل قرية يقال لها جى ، وكان أبى دُهقان^(١) قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قاطن النار^(٢) التى يوقدها ، لا يتركها تحبوس ساعة . قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، قال فشغل فى بنيان له يوماً فقال لى : يا بنى ! إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب إليها فاطلمها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد . ثم قال لى : ولا تحتبس عنى فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى .

قال فخرجت أريد ضيعة التى بعثنى إليها ، فررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمرُ الناس ؛ لحبس أبى إياى فى بيته . فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبنتى صلاتهم ورغبت فى أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه . فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم آتها . ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن أمره كله . فلما جئت قال أى بنى ! أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ماعهدته ؟ قال : قلت يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس . قال أى بنى ! ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ؛ قال : قلت كلا والله ، إنه خير من ديننا . قال : تخافنى فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته .

قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم . قال : فقدم عليهم ركب من الشام ، فجاءونى النصارى فأخبرونى بهم . فقلت إذا قضاوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فاذنوني . قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم ، فألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام . فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماء ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة . قال : فجئته فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك ، وأخدمك فى كنيستك وأتعلم منك فأصلى معك . قال : ادخل ، فدخلت معه ، فكان رجلاً سوءاً ؛ يأمرهم بالصدقة

(١) أى رئيسها . والدهقان : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

(٢) أى خادمها ، يقال : قطن فلاناً - خدمه فهو قاطن .

ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قِلال من ذهب وورق ، قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يضع . ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه ، فقالت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جثتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً . قال : فقالوا لى وما علمك بذلك ؟ قال : فقالت لهم أنا أدلكم على كنزه ، قالوا فدلنا . قال : فأرثتهم موضعه فاستخرجوا سبع قِلال مملوءة ذهباً وورقاً ، فلما رأوها قالوا لا ندفنه أبداً ، قال : فصلبوه ورجموه بالحجارة . وجاءوا برجل آخر فوضوه مكانه .

قال سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلح الخس أرى أنه كان أفضل منه وأزهد في الدنيا ، ولا أُرغب في الآخرة ولا أداب ليلاً ونهاراً منه . قال فأحبيته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله . قال : فأقت معه زماناً . ثم حضرته الوفاة فقالت له : إني قد كنت معك وأحبيتك حباً لم أحب شيئاً قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصى ابني ؟ وبم تأمرني به ؟ قال : أى بنى : والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه فالحق به .

قال : فلما مات وغُيب لحقت بصاحب الموصل ؛ فقالت يا فلان ! إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره ، فقال لى أقم عندي ، فأقت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات . فلما حضرته الوفاة قلت له يا فلان ! إن فلاناً أوصى بى إليك ، وأمرني بالحق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرني ؟ قال يا بنى والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين^(١) ، وهو فلان فالحق به . فلما مات وغُيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباى . فقال أقم عندي ، فأقت عنده . فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له يا فلان ! إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرني ؟ قال : يا بنى والله ما أعلم بقى أحد على أمرنا أمرك أن تأتيه ، إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فائمه فإنه على أمرنا .

فلما مات وغُيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري ، فقام أقم عندي . فأقت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم . قال : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمات ، قال ثم نزل به أمر الله ، فلما حضر قلت له يا فلان ! إني كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرني ؟ قال

(١) بلد كانت قاعدة ديار ربيعة ، والنسبة إليها — نصيبيني ونصيبى .

أى بنى ! والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة إلى الأرض بين حرتين ، بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل : قال . ثم مات وغيب ، ومكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث .

ثم مر بي نفر من كلب تجار ، فقلت لهم احمولوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه ، قالوا نعم ، فأعطيتهموها وحمولوني معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلموني ، فباعوني من رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبي ، ولم يحق في نفسى . فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها فأقمت بها وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام ؛ لا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق . ثم هاجر إلى المدينة ؛ فوالله إنى لنى رأس عذق لسيدى أعمل فيه بعض العمل وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال يا فلان ! قاتل الله بنى قيلة ؛ والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي .

قال سلمان : فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أنى ساقط على سيدى ، فنزلت عن النخلة فجلت أقول لابن عمه ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال : ففضب سيدى فلكنى لكمة شديدة ، ثم قال مالك ولهذا ؟ أقبل على عمك . قال : فقلت لاشيء ، إنما أردت أن أستنبته عما قال . قال : وقد كان عندى شيء قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته ، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ - وهو بقباء - فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذو حاجة ، وهذا شيء كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم . قال فقربته إليه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « كلوا » ، وأمسك يده فلم يأكل ، فقلت فى نفسى : هذه واحدة . ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته فقلت له إنى قد رأيتك لانا كل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها ، قال فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال : فقلت فى نفسى : هاتان اثنتان . قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الفرقد^(١) فدتبعت جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبي ؟ فلما رآنى رسول الله ﷺ استدبرته - عرف أنى أستنبت فى شيء وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكبت عليه أقبلة وأبسكى ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

(١) البقيع : الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والفرقد : شجر عظام . وبقيع الفرقد : مقبرة المدينة . سمي بذلك لأنه كان منبته .

وسلم : « تَحْوَلُ » فتحوّلت بين يديه ، فقصدت عاينه حديثي كما حدثت بك يا ابن عباس ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه ، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ واحد .

قال سلمان : ثم قال لي رسول الله ﷺ : « كاتب ياسمان » ، فكاتبته صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير^(١) وأربعين أوقية . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أعيّنوا أخاكم » ، فأعانوني في النخل ؛ الرجل بثلاثين وديةً ، والرجل بعشرين وديةً ، والرجل بخمس عشرة وديةً ، والرجل بعشرة ، يُعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية . فقال لي رسول الله ﷺ : « اذهب ياسمان فققر لها ، فإذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي » . قال : فققرت ، وأعانتني أصحابي ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها . فجعلنا نقرب إليه الودى ، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، حتى فرغنا ، فوالذي نفس سلمان بيده مامات منها وديةً واحدة . فأديت النخل وبقي على المال ، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن ، فقال : « ما فعل الفارسيُّ المكاتب ؟ » قال فدعيت له فقال : « خذ هذه فأدّها مما عليك ياسمان » . قال قلت : وأين تقع هذه مما على يارسول الله ؟ قال : « خذها فإن الله سيؤدى بها عنك » . قال فأخذتها فوزنت لهم منها - والذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم وعتق سلمان . فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرّاً ، ثم لم يفتني معه مشهد .

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن رجل من عبد القيس عن سلمان أنه قال : لما قلت وأين تقع هذه من الذي على يارسول الله ؟ أخذها رسول الله ﷺ فقلّبها على لسانه ، ثم قال : « خذها فأوفهم منها » . فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كله - أربعين أوقية .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، حدثني من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز ابن مروان قال : حدثت عن سلمان أنه قال لرسول الله ﷺ - حين أخبره خبره - إن صاحب عمورية^(٢) قال له : إيت كذا وكذا من أرض الشام ، فإن بها رجلاً بين غيضتين^(٣) ، يخرج كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً ، يعترضه ذؤوب الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفى ، فأسأله عن هذا الدين الذي تبتغى فهو يخبرك عنه . قال سلمان : فخرجت حتى جئت حيث وُصف لي ، فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغيضتين إلى الأخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شفى ، وغلبوني عليه فلم أخلص إليه ، حتى دخل الغيضة التي يريد

(١) فقير النخلة : حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها والجمع فقر بضمين .

(٢) عمورية - مشددة الميم : بلد من بلاد الروم

(٣) قال ق الناموسي : الغيضة - الأجمة ، ومجتمع الشجر في مفيض ماء .

أن يدخل - إلا منكبه . قال : فتناواته فقال من هذا ؟ والتفت إلى ، قال : قلت يرحمك الله ! أخبرني عن الحنيفة دين إبراهيم ، قال : إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فإنه فهو يملك عليه ، ثم دخل . قال : فقال رسول الله ﷺ لسلمان : « لئن كنت صدقتني ياسلمان لقد لقيت عيسى بن مريم » . هكذا وقع في هذه الرواية ، وفيها رجل متهم - وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة ، وقد قيل إنه الحسن بن عماره . ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز وسلمان رضي الله عنه . قوله : « لئن كنت صدقتني ياسلمان لقد لقيت عيسى بن مريم » - غريب جداً بل منكر ؛ فإن الفترة أقل ما قيل فيها إنها أربعمائة سنة ، وقيل ستمائة سنة بالشمسية ، وسلمان أكثر ما قيل - إنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة . وحكى العباس بن يزيد البحراني إجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة ، واختلفوا فيما زاد إلى ثلاثمائة وخمسين سنة والله أعلم . والظاهر أنه قال : لقد لقيت وصي عيسى بن مريم ، فهذا ممكن بالصواب .

وقال السهيلي : الرجل المتهم - هو الحسن بن عماره وهو ضعيف ، وإن صح لم يكن فيه نكارة ؛ لأن ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعد ما رفع ، فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب ؛ فأخبرها أنه لم يقتل ، وبعث الخواريين بعد ذلك قال : وإذا جاز نزوله مرة جاز نزوله مراراً ، ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويتزوج حينئذ امرأة من بني جذام . وإذا مات دفن في حجرة روضة رسول الله ﷺ .

وقد روى البيهقي في كتاب : [دلائل النبوة] قصة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير عن محمد ابن إسحاق كما تقدم ، ورواها أيضاً عن الحاكم عن الأصم عن يحيى بن أبي طالب : حدثنا علي بن عاصم حدثنا حاتم بن أبي صفرة عن سماك بن حرب عن يزيد بن صوحان : أنه سمع سلمان يحدث كيف كان أول إسلامه ، فذكر قصة طويلة . وذكر أنه كان من رامهرمز^(١) ، وكان له أخ أكبر منه غني ، وكان سلمان فقيراً في كنف أخيه ، وأن ابن دُهقانهما كان صاحباً له ، وكان يختلف معه إلى معلم لهم ، وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عباد من الفصاري في كهف لهم ، فسأله سلمان أن يذهب به معه إليهم . فقال له : إنك غلام وأخشى أن تم عليهم فيقتلهم أبي ، فالتزم له أن لا يكون منه شيء يكرهه ، فذهب به معه فإذا هم ستة - أو سبعة - كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة ؛ يصومون النهار ويقومون الليل ، يأكلون الشجر وما وجدوا فذكروا عنهم أنهم يؤمنون بالرسول المتقدمين ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته أيده بالمعجزات . وقالوا له : يا غلام إن لك رباً ، وإن لك معاداً ، وإن بين يديك جنة ونارا ، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة ، لا يرضى الله بما يصنعون وإيسوا على دينه .

ثم جعل يتردد مع ذلك الغلام إليهم ، ثم لزمهم سلمان بالكلمة ، ثم أجلاهم ملك تلك البلاد - وهو أبو ذلك الغلام الذي صحبه سلمان إليهم - عن أرضه ، واحتبس الملك ابنه عنده ، وعرض سلمان دينهم على أخيه الذي هو أكبر منه ، فقال إني مشتغل بنفسى فى طلب المعيشة ، فأرجل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل فسلم عليهم أهلها ، ثم أرادوا أن يتكوفى عندهم فأبيت إلا صحبتهم ، فخرجوا حتى أتوا وادياً بين جبال ، فتحدر إليهم رهبان تلك الناحية يسألون عليهم ، واجتمعوا إليهم وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم ويسألونهم عنى فيثنون على خيراً . وجاء رجل معظم فيهم فخطبهم ، فأثنى على الله بما هو أهله ، وذكر الرسل وما أيدوا به ، وذكر عيسى بن مريم وأنه كان عبد الله ورسوله ، وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر .

ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه ، قال : فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الأحد إلى الأحد ، فيخرج إليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم ، فكث على ذلك مدة طويلة . ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان إليه ، قال : فكان أينما يمشى يلتفت إلىّ ويقبل علىّ ، فيعظنى ويخبرنى أن لى رباً ، وأن بين يدى جنة وناراً وحساباً ، ويعلمنى ويذكرنى نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد . قال : فما يقول لى : يا سلمان ! إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد ، يخرج من تهامة^(١) ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهذا زمانه الذى يخرج فيه قد تقارب ، فأما أنا فإنى شيخ كبير ولا أحسبنى أدركه ، فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه ، قلت له : وإن أمرنى بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال : وإن أسرك ؛ فإن الحق فيما يحىء به ورضى الرحمن فيما قال .

ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس ، وأن صاحبه صلى فيه هاهنا وهاهنا ، ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظل مكان كذا أن يوقظه ، فتركه سلمان حيناً آخر أزيد مما قال ليستريح ، فلما استيقظ ذكر الله ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك ، ثم خرجا من بيت المقدس ، فسأله مقعد فقال : يا عبد الله ! سألتك حين وصلت فلم تعطنى شيئاً ، وهأنا أسألك ، فنظر فلم يجد أحداً ، فأخذ بيده وقال : قم بسم الله ، فقام وليس به بأس ولا قلب^(٢) كما مما نشط من عقال . فقال لى يا عبد الله ! احمل على متاعى حتى أذهب إلى أهلى فأبشرهم ، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألقه ، ولم أدر أين ذهب ، وكما سألت عنه قوموا قالوا أمامك ، حتى لقينى ركب من العرب من بنى كلب فسألتهم ، فلما سمعوا لفتى أناخ رجل منهم بعيره ، فحلمى خلفه حتى أتوا بى بلادهم فباعونى ، فاشتترنى امرأة من الأنصار ، فجعلتنى فى حائط لها وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر ذهابه إليه بالصدقة والهدية ليستلم ما قال صاحبه ، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوة ، فلما

(١) تهامة — بالكسر : مكة المكرمة . (٢) القلبة — محرّكة : داء وتعب من علة .

راه آمن من ساعته ، وأخبر رسول الله ﷺ خبره الذى جرى له . قال : فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق فاشتره من سيده فاعتقه ، قال : ثم سأله يوماً عن دين النصارى فقال : لا خير فيهم . قال : فوقع في نفسى من أولئك الذين صحبتهم ، ومن ذلك الرجل الصالح الذى كان معى بيت المقدس ، فدخلنى من ذلك أمر عظيم ، حتى أنزل الله على رسول الله ﷺ : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون^(١)) ، فدعانى رسول الله ﷺ فحُت وأنا خائف ، فجلست بين يديه فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانياً وأنهم لا يستكبرون . . . الآيات) ، ثم قال : « يا سلمان أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى - كانوا مسلمين » ، فقلت : يا رسول الله ! والذى بعثك بالحق هو أمرنى باتباعك ، فقلت له : فإن أمرنى بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال نعم فاتركه ، فإن الحق وما يرضى الله فيما يأمرك . وفي هذا السياق غرابة كثيرة ، وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن إسحاق . وطريق محمد بن إسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخارى فى صحيحه ؛ من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمى عن أبيه ، عن أبى عثمان النهدي عن سلمان الفارسي : أنه تداوله بضعة عشر ، من رب إلى رب - أى من معلم إلى معلم ، ومرب إلى مثله - والله أعلم .

قال السهلي : تداوله ثلاثون سيدياً من سيد إلى سيد ، فإله أعلم . وكذلك استقصى قصة إسلامه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل ، وأورد لها أسانيد وألغازاً كثيرة ، وفى بعضها أن اسم سيده التى كاتبته - « حلبسة » ، فإله أعلم .

ذكر أخبار غريبة فى ذلك

قال أبو نعيم فى الدلائل : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي ، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبى السوية المنقري ، حدثنا عباد بن كسيب عن أبيه عن أبى عتوارة الخزاعي عن سمير بن سواده العامري ، قال : كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحى ، أركب لها الصعب والذلول ، لأبقى من البلاد مسرحاً أرجو ربحاً فى متجر إلا أتيت ، فانصرفت من الشام بمرث وأثاث أريد به كبة^(٢) الموسم ودهاء العرب ، فدخلت مكة بليل مسدف^(٣) فأقمت حتى تعرى عنى قميص الليل ، فرفعت رأسى فإذا قباب مسامتة شعف الجبال ، مضروبة بأنطاع^(٤) الطائف . وإذا جزر تنجر وأخرى تساق ، وإذا أكلة وحثثة على الطهارة يقولون : ألا مجلوا ألا مجلوا ، وإذا رجل يحمر على نشز من الأرض ، ينادى : ياوفد

(١) الآية : ٨٢ من سورة المائدة (٢) الكبة بالفتح والضم : الزحام . (٣) أى مظلم . والسدفة ويضم : الظلمة . والأسدف : الأسود . (٤) جمع نطع ، وهو ما ظهر من أعلى الغار فيه آثار .

الله ! ميلوا إلى الغذاء : وأنيسان على مدرجة يقول : يا وفد الله ! من طعم فليرح إلى العشاء ، فجهرتني ما رأيت ، فأقبلت أريد عميد القوم ، فعرف رجل الذي بي فقال أمامك ، وإذ اشبىخ كأن في خديه الأساريع ، وكان الشعرى توعد من جبينه ، قد لاث على رأسه عمامة سوداء ، قد أبرز من ملامها حمة فينانة كأنها سماسم - قال في بعض الروايات : تحته كرسى سماسم ^(١) - ومن دونها نمرقة ، بيده قضيب متغصر به ، حوله مشايخ جلس نواكس الأذقان ، ما منهم أحد يفيض بكلمة ، وقد كان نعى إلى خبر من أخبار الشام أن النبي الأُمى هذا أو ان نجومه ، فلما رأيتهُ ظننته ذلك . فقلت السلام عليك يا رسول الله ، فقال : مه مه - كلا . وكان قد وليتني إياه ، فقلت من هذا الشيخ ؟ فقالوا هذا أبو نضلة ، هذا هاشم بن عبد مناف ، فوليت وأنا أقول هذا والله المجد ، لاجد آل جفنة - يعنى ملوك عرب الشام من غسان ، كان يقال لهم آل جفنة - وهذه الوظيفة التي حكاها عن هاشم - هي الرفاة ، يعنى إطعام الحجيج زمن الموسم .

وقال أبو نعيم : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا محمد بن أحمد بن أبي يحيى ، حدثنا سعيد ابن عثمان ، حدثنا علي بن قتيبة الخرساني ، حدثنا خالد بن إلياس عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم عن أبيه عن جده ، قال : سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال : بينا أنا نائم في الحجر إذ رأيت رؤيا هالتي ففرغت منها فرعاً شديداً ؛ فأتيت كاهنة قريش وعليّ مطارف خزّ وجهتي تضرب منكبي ، فلما نظرت إلى عرفتي في وجهي التغيير - وأنا يومئذ سيد قومي - فقالت : ما بال سيدنا قد أنانا متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شيء ؟ فقلت لها بلى ، وكان لا يكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى ، ثم يضع يده على أم رأسها ثم يذكر حاجته ، ولم أفعل لأنني كبير قومي ، فجلست فقلت : إني رأيت الليلة - وأنا نائم في الحجر - كأن شجرة تنبت قد نال رأسها السماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نوراً أزهر منها ، أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها ، وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ؛ ساعة تخفي وساعة تزهر ، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخرجهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً ، فيكسر أظهمهم ويقلع أعينهم . فرفعت يدي لأنناول منها نصيباً ، فمغنى الشاب ، فقلت لمن النصيب ؟ فقال النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها ، فانتبهت مذعوراً فرعاً . فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ، ويدين له الناس . ثم قال - يعنى عبد المطلب - لأبي طالب : لعلك تكون هذا المولود ، قال : فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد رسول الله ﷺ وبعد ما بعث . ثم قال : كانت الشجرة والله أعلم - أبا القاسم الأمين ، فيقال لأبي طالب ألا تؤمن ؟ فيقول السبة والعار .

(١) المراد بسماسم الأولى : عيدان السمسم . وبالثنائية : خشب أسود كالأبنوس .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي حدثنا العباس بن بكار الضبي ، حدثنا أبو بكر المذلي عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال العباس : خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب - منهم أبو سفيان بن حرب - فقدمت اليمن ، فكنت أصنع يوماً طاماماً وأنصرف بأبي سفيان وبالنفق ، ويصنع أبو سفيان يوماً ويفعل مثل ذلك ، فقال لي في يومى الذى كنت أصنع فيه : هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتى وترسل إلى غداءك ؟ فقلت نعم . فانصرفت أنا والنفق إلى بيته وأرسلت إليه الغداء . فلما تغذى القوم قاموا واحتبسنى . فقال : هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله ؟ فقلت أى بنى أخى ؟ فقال أبو سفيان : إياى تسكتم ؟ وأى بنى أخيك ينبغى أن يقول هذا إلا رجل واحد ؟ قلت وأيهم على ذلك ؟ قال : هو محمد بن عبد الله ، فقلت قد فعل ؟ قال بلى قد فعل . وأخرج كتاباً باسمه من ابنه حفظة بن أبي سفيان فيه : أخبرك أن محمداً قام بالأبطح^(١) فقال : « أنا رسول أدعوكم إلى الله عز وجل » . فقال العباس قلت : أجده يا أبا حفظة صادقاً . فقال : مهلاً يا أبا الفضل ، فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا ؛ إني لأخشى أن يكون على ضير من هذا الحديث يا بنى عبد المطلب ، إنه والله ما برحت قريش تزعم أن لكم هنةً وهنةً ، كل واحدة منهما غاية . لئلا تشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك ؟ قلت نعم قد سمعت ، قال فهذه والله شوؤمكم ، قلت فلعلها يمتدنا .

قال : فما كان بعد ذلك إلا ليالى حتى قدم عبد الله بن حذافة بالخير وهو مؤمن ، ففشا ذلك في مجالس اليمن ، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه خبر من أحبار اليهود ، فقال له اليهودى ما هذا الخبر ؟ بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال . قال أبو سفيان : صدقوا وأنا عمه ، فقال اليهودى أخو أبيه ؟ قال نعم ! قال لحدثنى عنه ، قال لا تسألنى ، ما أحب أن يدعى هذا الأمر أبداً ، وما أحب أن أعيبه وغيره خير منه ، فرأى اليهودى أنه لا يغمس عليه ولا يجب أن يعيبه . فقال اليهودى : ليس به بأس على اليهود ، وتوراة موسى . قال العباس : فنادانى الخبر فحجيت ، ونجرت حتى جلست ذلك المجلس من الغد ، وفيه أبو سفيان بن حرب والخبر ، فقلت للخبر : بلغنى أنك سألت ابن عمى عن رجل منا زعم أنه رسول الله ﷺ وأخبرك أنه عمه ، وليس بعمة ولكن ابن عمه ، وأنا عمه وأخو أبيه . قال أخو أبيه ؟ قلت أخو أبيه . فأقبل على أبي سفيان فقال صدق ؟ قال نعم صدق . فقلت سألنى فإن كذبت فليرد على . فأقبل على . فقال : نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة ؟ قلت لا وإله عبد المطلب ، ولا كذب ولا خان ، وإنه كان اسمه عند قريش الأمين . قال فهل كتب بيده ؟ قال العباس : فظننت أنه خير له أن يكتب بيده فأردت أن أقولها . ثم ذكرت مكان أبي سفيان يكذبنى ويرد على ، فقلت لا يكتب . فوثب الخبر ونزل رداؤه وقال : ذبحت يهود ، وقتلت يهود .

(١) الأبطح : مسبل واسع فيه ذفاق الحصى ، والجمع أبطاح وبطاح وبطائح .

قال العباس : فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان : يا أبا الفضل ، إن اليهود تفرع من ابن أخيك ، قلت قد رأيت ما رأيت ، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به ؟ فإن كان حقاً كنت قد سبقت ، وإن كان باطلاً فمك غيرك من أكتفائك ، قال لا أومن به حتى أرى الخيل في كداء^(١) ، قلت ما تقول ؟ قال كلمة جاءت على فني ، إلا أني أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع من كداء . قال العباس : فلما استفتح رسول الله ﷺ مكة ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كداء - قلت يا أبا سفيان ! تذكر الكلمة ؟ قال إني والله إني لذاكرها ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام . وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق ، وإن كان في رجاله من هو متمسك فيه ، والله أعلم .

وقد تقدم ما ذكرناه في قصة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت ، وهو شبيه بهذا الباب ، وهو من أغرب الأخبار وأحسن السياقات وعليه النور . وسياق أيضاً قصة أبي سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله ، واستدل له بذلك على صدقه ونبوته ورسالته . وقال له : كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أكن أظن أنه فيكم ، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقيه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ولئن كان ما تقول حقاً ليمسكن موضع قدمي هاتين . وكذلك وقع ، والله الحمد والمنة .

وقد أكنز الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأخبار والعرب ، فأكثر وأطنب وأحسن وأطيب ، فله الله ورضي عنه .

قصة عمرو بن مرة الجهني

قال الطبراني : حدثنا علي بن إبراهيم الخزازي الأهوازي ، حدثنا عبد الله بن داود بن دلهث بن إسماعيل بن عبد الله بن شريح بن ياسر بن سويد ، صاحب رسول الله ﷺ ، حدثنا أبي عن أبيه دلهث عن أبيه إسماعيل : أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه : أن أباه ياسر بن سويد حدثه عن عمرو بن مرة الجهني قال : خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية ، فرأيت في نومي - وأما بكة - نوراً ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب ، وأشهر جهينة . فسمعت صوتاً بين النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء . ثم أضاء إضاءة أخرى ، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن ، وسمعت صوتاً من النور وهو يقول : ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً فقلت لقومي : والله ليحدثن لهذا الحى من قريش حدث وأخبرتهم بما رأيت ، فلما انتهينا إلى بلادنا جاءني رجل فقال : إن نبياً يقال له أحمد قد بعث ، فأتيته فأخبرته بما رأيت ، فقال : « يا عمرو

(١) كداء - كسما : جبل بأعلى مكة دخل النبي عليه السلام مكة منه عند الفتح .

ابن مسرة ، أنا النبي المرسل إلى العباد كافة ؛ أدعوهم إلى الإسلام ، وآسره بمحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت وصيام شهر رمضان من اثني عشر شهراً ؛ فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . فآمن ياعمرؤ يؤمنك الله من هول جهنم ، فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، آمنت بما جئت من لال وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام . ثم أنشدته آياتاً قلتها حين سمعت به ، وكان لنا صنم ، وكان أبي سادناً له فقمتم إليه فكسرتة ، ثم لحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنا أقول :

شهدت بأن الله حق وأنتي لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجراً إليك أجوب الفقر بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً والداً رسول ملك الناس فوق الحباثك

فقال النبي ﷺ : « مرحباً بك ياعمرؤ بن مرة » ، فقلت يارسول الله ابعثني إلى قومي لعل الله يمن عليهم بي كما من على بك . فبعثني إليهم ، وقال : « عليك بالرفق والقول السديد ، ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً » . فذكر أنه أتى قومه ، فدعاهم إلى مادعاه إليه رسول الله ﷺ فأسلوا كلهم - إلا رجلاً واحداً منهم ، وأنه وفد بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرحب بهم وحيامهم . وكتب لهم كتاباً هذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من الله على لسان رسوله ﷺ ، بكتاب صادق ، وحق ناطق مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد ؛ إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، تزرعون نباته وتشربون صافيه ، على أن تقرؤوا بالخمس ، وتصلوا صلاة الخمس ، وفي التبينة والصريمة إن اجتمعتا وإن تفرقتا شاة شاة ، ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة للبقعة^(١) وشهد على نبينا ﷺ من حضر من المسلمين بكتاب قيس بن شماس » . وذكر شعراً قاله عمرو بن مرة في ذلك كما هو مبسوط في المسند الكبير ، وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) ، قال كثيرون من السلف : لما أخذ الله ميثاق بني آدم يوم (ألسنت بر بكم ؟) - أخذ من النبيين ميثاقاً خاصاً ، وأكدم مع هؤلاء الخمسة أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد روى الحافظ أبو نعيم في كتاب : [دلائل النبوة] - من طرق عن الوليد بن مسلم ، حدثنا الأزاعي ، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، سئل النبي ﷺ : متى وجبت لك

(١) اللبقة . كذا في الأصل ، ولعله يريد أنه لا يؤخذ في الصدقة كرائم الأموال .

النبوة؟ قال: « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » ، وهكذا رواه الترمذى من طريق الوليد بن مسلم .
وقال حسن غريب من حديث أبي هريرة ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن الزبير الحلبي ، حدثنا أبو جعفر
النفيلي حدثنا عمرو بن واقد عن عمرو بن رويم عن الصنابحي . قال : قال عمر : يا رسول الله ، متى
جملت نبياً؟ قال : « وآدم منجدل^(١) في الطين » ، ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن
الربيع عن جابر الجعفي عن الشعبي عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال : « وآدم
بين الروح والجسد » ، وفي الحديث الذي أوردناه في قصة آدم - حين استخرج الله من صلبه ذريته -
خص الأنبياء بنور بين أعينهم . والظاهر - والله أعلم - أنه كان على قدر منازلهم ورتبهم عند الله .
وإذا كان الأمر كذلك فنور محمد ﷺ كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلهم ، وهذا تنويه عظيم
وتبنيه ظاهر على شرفه وعلو قدره . وفي هذا المعنى - الحديث الذي قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن
ابن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن
العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في
طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ؛ دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك
أمهات المؤمنين يرين » . ورواه الليث وابن وهب عن عبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الله بن صالح عن
معاوية بن صالح ، وزاد « إن أمه رأت حين وضعت نوراً أضاعت منه قصور الشام » . وقال الإمام
أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا منصور بن سعيد عن بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر
قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، إسناده جيد أيضاً . وهكذا
رواه إبراهيم بن طهمان وحماد بن زيد وخالد الحذاء عن بديل بن ميسرة به . ورواه أبو نعيم عن محمد
ابن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلي عن شيبان عن الحسن بن دينار عن عبد الله بن سفيان
عن ميسرة الفجر ، قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه [دلائل النبوة] : حدثنا أبو عمرو بن حمدان ، حدثنا الحسن بن
سفيان ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم عن خليل بن دعلج وسعيد عن قتادة عن الحسن
عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، في قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) - قال : « كنت
أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » . ثم رواه من طريق هشام بن عمار عن ببيعة عن سعيد بن نسير
عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً مثله . وقد رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة وشيبان
عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال مثله وهذا أثبت وأصح ، والله أعلم .

(١) أى ملقى وساقط . يقال جدله فأنجدل : صرعه على الجدالة وهي الأرض .

وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملأ الأعلى ، وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح ؛ لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والأرض لا محالة ، فلم يبق إلا هذا الذي ذكرناه من الإعلام به في الملأ الأعلى ، والله أعلم .

وقد أورد أبو نعيم من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة الحديث المتفق عليه : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » . وزاد أبو نعيم في آخره : فكان ﷺ آخرهم في البعث وبه ختمت النبوة . وهو السابق يوم القيامة ؛ لأنه أول مكتوب في النبوة والعهد ، ثم قال : ففي هذا الحديث الفضيلة لرسول الله ﷺ لما أوجب الله له النبوة قبل تمام خلق آدم . ويحتمل أن يكون هذا الإيجاب هو ما أعلم الله ملائكته ماسبق في علمه وقضائه من بعثته له في آخر الزمان ، وهذا الكلام يوافق ما ذكرناه والله الحمد .

وروى الحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - وفيه كلام - عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي ، فقال الله : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال يارب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك - رفعت رأسي ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً - لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ ، وإذ قد سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » . قال البيهقي : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ، والله أعلم

وقد قال الله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)^(١) قال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، [وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه]^(٢) وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته في سائر الملل وعلى أسنفة الأنبياء ، وإعلام لهم ومنهم برسالته في آخر الزمان ، وأنه أكرم المرسلين وخاتم النبيين . وقد أوضح أمره وكشف خبره وبين سره ، وجلى مجده ومولده وبلده - إبراهيم الخليل ، في قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم

(١) الآيات : ٨٠ ، ٨١ من سورة آل عمران .

(٢) ما بين القوسين غير مثبت في بعض النسخ .

إنك أنت العزيز الحكيم^(١) فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض - على لسان إبراهيم الخليل ، أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء ولهذا قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج - يعني ابن فضالة - حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال : قلت يا بنى الله ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » . تفرد به الإمام أحمد ، ولم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة .

وروى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب المولد من طريق بقية ، عن صفوان بن عمرو عن حجر بن حجر عن أبي سريق ، أن أعرابياً قال : يا رسول الله ! أى شئ كان أول أمر نبوتك ؟ فقال : « أخذ الله منى الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم » ، ورأت أم رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامها أنه خرج من بين رجلها سراج أضاءت له قصور الشام . وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى حين حبلت كأنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام » . إسناده جيداً أيضاً . وفيه إشارة لأهل محلتنا أرض بصرى ، وأنها أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبوة ، والله الحمد والمنة . ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام ، وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، كما سيأتى بيانه . وقد قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : في صحبة عمه أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وكانت عندها قصة بحيرى الراهب كما بيناه . والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة في تجارة لها . وبها مبرك الناقة التي يقال لها ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر ، ثم نقل وبنى عليه مسجد مشهور اليوم وهى المدينة التي أضاءت أعناق الإبل عندها من نور النار التي خرجت من أرض الحجاز سنة أربع وخمسين وستائة ، وفق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » . وسيأتى الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : (الذين يقبعون الرسول النبىء الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ... الآية)^(٢) .

(١) الآية : ١٢٩ من سورة البقرة . (٢) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي ، حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبه^(١) إلى المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغت من يميني قلت : لألقين هذا الرجل فلاأسمن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمسون ، فمتبعهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها ؛ يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم . فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ » فقال برأسه هكذا - أي لا ، فقال ابنه : إي والذي أنزل التوراة ؛ إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله . فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ، ثم تولى كفته والصلاة عليه . هذا إسناد جيد ، وله شواهد في الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا عبد الواحد بن غياث - أبو بحر - حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الصلتان بن عاصم ، وذكر أن خاله قال : كنت جالسا عند النبي ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل ، فإذا يهودى عليه قيص وسراويل ونعلان . قال : فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يكلمه وهو يقول : يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « أتشهد أنى رسول الله ؟ » ، قال لا . قال رسول الله ﷺ : « أقرأ التوراة ؟ » ، قال نعم ، قال : « أقرأ الإنجيل ؟ » ، قال نعم . قال : « والقرآن ؟ » قال : لا ، ولو تشاء قرأته . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فيم تقرأ التوراة والإنجيل أتجدني نبيا ؟ » قال : إنا نجد نعتك ومخرجك ، فلما خرجت رجونا أن تكون فينا ، فلما رأيناك عرفناك أنك لست به . قال رسول الله ﷺ : « ولم يايهودى ؟ » قال : إنا نجده مكتوبا ؛ يدخل من أمته الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، ولا ترى معك إلا نفرا يسيرا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أمتي لأكثر من سبعين ألفا وسبعين ألفا » . هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه .

وقال محمد بن إسحاق ، عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبي هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يهود] فقال : أخرجوا أعلمكم ، فقالوا عبد الله بن سوريا^(٢) ، فخلاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناشده بدينه ، وما أنعم الله به عليهم ، وأطعمهم من المن والسلوى ، وظلمهم به من الغنم : « أنعلمنى رسول الله ؟ » قال : اللهم نعم . وإن القوم ليعرفون ما أعرف ، وإن صفتك ونعتك لمبين في التوراة ، ولكنهم حسدوك . قال : « فما يمنعك أنت ؟ » قال أكره خلاف قومي ، وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم .

(١) الجلوبية : ذكور الإبل ، أو التي يحمل عليها متاع القوم - الجم والواحد - واء .

(٢) كان من الأخبار المشهورين ، أسلم ثم كفر .

وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر . « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى ، ألا إن الله قال لسكم يامعشر يهود وأهل التوراة ، وإنكم تجدون ذلك في كتابكم : إن محمداً رسول الله (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيأثم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا)^(١) ، وإني أنشدكم بالله وبالذي أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسلافكم وأسباطكم للن والسلوى ، وأنشدكم بالذي أبيض البحر لآبائكم حتى أجاكم من فرعون وعمله - إلا أخبرتمونا ؛ هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين الرشد من الغي ، وأدعوكم إلى الله وإلى نبيه صلى الله عليه وسلم » .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب المبتدا عن سعيد بن بشير ، عن قتادة عن كعب الأحبار . وروى غيره عن وهب بن منبه : أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذل بني إسرائيل بسبع سنين ، رأى في المنام رؤيا عظيمة هالته ، فجمع الكهنة والحزارة^(٢) ، وسألهم عن رؤياه تلك ، فقالوا ليقصها الملك حتى يخبره بتأويلها ، فقال : إني نسيته ، وإني لم تخبروني بها إلى ثلاثة أيام - قتلتمكم عن آخركم . فذهبوا خائفين وجلين من وعيده ، فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو في سجنه ، فقال للسجان : اذهب إليه فقل له إن هاهنا رجلا عنده علم رؤياك وتأويلها ، فذهب إليه فأعلمه فطلبه ، فلما دخل عليه لم يسجد له ، فقال له ما منعك من السجود لي ؟ فقال : إن الله آتانا علماً وعلمنا وأمرني أن لا أسجد لغيره ، فقال له بختنصر : إني أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود ، فأخبرني عن رؤياي . قال له دانيال : رأيت صنماً عظيماً رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، أعلاه من ذهب ووسطه من فضة ، وأسفله من نحاس ، وساقاه من حديد ، ورجلاه من نحار ، فبينما أنت تنظر إليه - وقد أعجبك حسنه وإحكام صنفته - قذفه الله بحجر من السماء ، فوقع على قمة رأسه حتى طحنه ، واختلط ذبه وفضته ونحاسه وحديده ونحاره ، حتى تحمّل لك أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض - لم يقدروا على ذلك . ونظرت إلى الحجر الذي قذف به ربو ويعظم وينتشر حتى ملأ الأرض كلها ، فصرت لا ترى إلا الحجر والسماء . فقال له بختنصر : صدقت ؛ هذه الرؤيا التي رأيتها فما تأويلها ؟ فقال دانيال : أما الصنم فأمم مختلفة في أول الزمان وفي وسطه وفي آخره ، وأما الحجر الذي قذف به

(١) آخر سورة الفتح (٢) الحزارة : جمع حازر ، وهو الذي يقدر بالحسد والتخبين . والحزر : التقدير والحرس .

الضنم فدين يقذف الله به هذه الأمم في آخر الزمان فيظايرها عليها ، فيبعث الله نبياً آمياً من العرب فيدوخ به الأمم والأديان ، كما رأيت الحجر دوخ أصناف الضنم ، ويظهر على الأديان والأمم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها ، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ، ويهدي به أهل الضلالة ، ويعلم به الأميين ، ويقوى به الضعفة ، ويعزبه الأذلة وينصر به المستضعفين . وذكر تمام القصة في إطلاق مختصر بنى إسرائيل على يدى دانيال عليه السلام .

وذكر الواقدي بأسانيده عن المغيرة بن شعبه في قصة وفوده على المقوقس ملك الإسكندرية ، وسؤاله له عن صفات رسول الله ﷺ قريباً من سؤال هرقل لأبي سفيان صخر بن حرب . وذكر أنه سأل أساقفة النصارى في الكنائس عن صفة رسول الله ﷺ وأخبروه عن ذلك ، وهي قطعة طويلة ذكرها الحافظ أبو زعيم في الدلائل . وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بمدراس اليهود فقال لهم : « يامعشر اليهود أسلموا ، فوالذي نفسي بيده إنكم لتجدون صفتي في كتبكم » الحديث وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود . حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة ، فقال أجل . والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً^(١)) ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لافظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يعتمر به الملة العوجاء ؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلغلا . ورواه البخارى عن محمد بن سنان العوفى عن فليح به . ورواه أيضاً عن عبد الله - قيل ابن رجاء ، وقيل ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال ابن علوية ، ولفظه قريب من هذا وفيه زيادة . ورواه ابن جرير من حديث فليح عن هلال عن عطاء ، وزاد : قال عطاء فلقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً . وقال فى البيوع : وقال سعيد بن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ، قال الحافظ أبو بكر البيهقى ، أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا الليث ، حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال ابن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام أنه كان يقول : إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ ؛ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزىء السيئة بمثلها ، ولكن يعفو ويتجاوز ، ولن يقبضه الله حتى يقم به الملة العوجاء ؛ بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله يفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلغلا . وقال عطاء بن يسار : وأخبرنى الليثى أنه سمع كعب الأخبار يقول مثل ما قال ابن سلام .

قالت : وهذا عن عبد الله بن سلام أشبهه ، وإن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر ، مع أنه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، وكان يحدث عنهما كثيراً ، ولعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب ، فهي عندهم أعم من التي أنزلها الله على موسى ، وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث . وقال يونس عن محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن ثابت ابن شريحيل عن ابن أبي أوفى ، عن أم الدرداء قالت : قلت لسكعب الأحبار : كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة ؟ قال : نجده محمد رسول الله ، اسمه المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، وقد أعطى المفاتيح ؛ فيبصر الله به أعيناً عوراً ، ويسمع آذاناً وقرأ ، ويقوم به أسناً معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له ، يعين به المظلوم ويمنعه . وقد روى عن كعب من غير هذا الوجه . وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان : حدثنا عتبة بن مكرم ، حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم ، حدثنا حمزة بن الزيات عن سليمان الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا^(١)) . قال : نودوا يا أمة محمد ! استجبت لكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني .

وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود في الزبور : يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد ، صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً ، ولا يفضيني أبداً ، وقد غفرت له - قبل أن يعصيني - ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة ، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل ، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء - إلى أن قال : يا داود إنى فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها .

والعلم بأنه موجود في كتب أهل الكتاب معلوم من الدين ضرورة . وقد دل على ذلك آيات كثيرة في الكتاب العزيز تكامنا عليها في مواضعها والله الحمد . فمن ذلك قوله : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين^(٢)) وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون^(٣)) ، وقال تعالى : (إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً^(٤)) أي إن كان وعدنا ربنا بوجود محمد وإرساله لسكائن لا محالة فسبحان التقدير على ما يشاء لا يعجزه شيء ، وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فآكتبنا مع الشاهدين^(٥)) . وفي قصة

(١) من الآية : ٤٦ من سورة القصص (٢) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة القصص (٣) الآية : ١٤٦ من

سورة البقرة (٤) الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨ من آخر سورة الإسراء (٥) الآية : ٨٣ من سورة المائدة .

النجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام وغيرهم كما سيأتي - شواهد كثيرة لهذا المعنى ، والله الحمد والمنة .
 وذكرنا في تضعيف قصص الأنبياء ما تقدم الإشارة إليه ؛ من وصفهم لبعثة رسول الله ﷺ ونعته ، وبلد مولده ودار مهاجره ونعت أمته ؛ في قصة موسى وشعيا وإرميا ودانيال وغيرهم . وقد أخبر الله تعالى عن آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم عيسى بن مريم : أنه قام في بني إسرائيل خطيباً قائلاً لهم : (إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد^(١)) وفي الإنجيل البشارة بالفارقليط ، والمراد محمد ﷺ . وروى البيهقي عن الحاكم عن الأعمى عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حرب عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « مكتوب في الإنجيل ؛ لافظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزى بالسينة مثلها بل يعفو ويصفح » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا فيض البجلي ، حدثنا سلام بن مسكين عن مقاتل بن حيان قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم : « جد في أمري واسمع وأطع با ابن الطاهرة البكر البتول^(٢) ، أنا خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين ، فإياي فاعبد ، فبين لأهل سوران بالسريانية ، بلغ من بين يديك أي أنا الحق القائم الذي لا أزول ، صدقوا بالنبي الأعمى العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة - وهي التاج ، والنملين ، والمراوة - وهي القضيب ، الجعد الرأس الصلت الجبين ، المقرون الحاجبين ، الأنجل العينين ، الأهدب الأشفار ، الأدعج العينين ، الأفتى الأنف الواضح الخدين ، الكث اللحية ، عرقه في وجهه كاللؤلؤ ، ريح المسك ينضح منه كأن عنقه إبريق فضة ، وكان الذهب يجرى في تراقيه . له شعرات من لبتة إلى سرتة تجرى كالقضيب ، ليس في بطنه شعر غيره ، شئن الكف والقدم ، إذا جاء مع الناس غمرهم ، وإذا مشى كأنما ينقلع من الصخر ويتحدر من صلب ، ذو النسل القليل » - وكأنه أراد الذكور من صلبه - هكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق يعقوب بن سفيان .

وروى البيهقي عن عثمان بن الحكم بن رافع بن سنان ، حدثني بعض عمومتي وآبائي : أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية ، حتى جاء الله بالإسلام وبقيت عندهم . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذكروها له وأتوه بها ، مكتوب فيها : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب ، هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان ، ليبلون أطرافهم ويوترون على أوساطهم ، ويخوضون البحور إلى أعدائهم ، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما هلكوا بالطوفان ، وفي عاد ما هلكوا بالريح ، وفي ثمود ما هلكوا بالصيحة : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب . ثم ذكر قصة أخرى قال فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأت عليه فيها .

(١) من الآية : ٦ من سورة الصف .

(٢) البتول من النساء : العذراء المنقطعة من الأزواج ، وقيل المنقطعة إلى الله عن الدنيا .

وذكرنا عند قوله تعالى في سورة الأعراف : (الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ^(١)) - قصة هشام بن العاص الأموي ، حين بعثه الصديق في سرية إلى هرقل يدعو إلى الله عز وجل . فذكر أنه أخرج لهم صور الأنبياء في رُقعة من آدم إلى محمد ، صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين - على النعت والشكل الذي كانوا عليه . ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله ﷺ قام قائماً إكراماً له ، ثم جلس وجعل ينظر إليها ويتأملها . قال فقلنا له : من أين لك هذه الصورة ؟ فقال : إن آدم سأل ربه أن يرهبه جميع الأنبياء من ولده ، فأزل عليه صورهم ، فكانت في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين ، فدفعها إلى دانيال . ثم قال : أما والله إن نفسي قد طابت بالخروج من ملكي ، وأني كنت عبداً لأشركم ملكة حتى أموت ، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا . فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا ، قال : فيكي أبو بكر وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ، ثم قال : أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد عندهم . رواه الحاكم بطوله ، فليكتب هاهنا من التفسير . ورواه البيهقي في دلائل النبوة .

وقال الأموي : حدثنا عبد الله بن زياد عن ابن إسحاق ، قال وحدثني يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عن جده عمرو بن أمية قال : قدمت بريق من عند الجاشي أعطانيهم فقالوا لي : يا عمرو لو رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن نخبرنا ، فمر أبو بكر فقلت أهو هذا ؟ قالوا - لا ، فمر عمر فقلت أهو هذا ؟ قالوا - لا ، فدخلنا الدار فمر رسول الله ﷺ فنادوني : يا عمرو ، هذا رسول الله ﷺ ، فنظرت فإذا هو من غير أن يخبرهم به أحد ، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم . وقد تقدم إنذار سبأ لقومه وبشارته لهم بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعر أسلفناه في ترجمته فأغنى عن إعادته ، وتقدم قول الخبرين من اليهود لتبع اليماني حين حاصر أهل المدينة : إنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان ، فرجع عنها ونظم شعراً يتضمن السلام على النبي ﷺ .

قصة سيف بن ذي يزن الحميري وبشارته بالنبي الأمامي

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب [هواتف الجان] : حدثنا علي بن حرب ، حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم ، حدثنا عمرو بن بكر - هو ابن بكار القعني - عن أحمد بن القاسم عن محمد بن السائب السكابي ، عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس ، قال : لما ظهر سيف بن ذي يزن - قال ابن المنذر واسمه النعمان بن قيس - على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين ، أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه ، وتذكر ما كان من حسن بلائه ، وأناه فيمن أناه وفود

قرش ، فيهم عبد الطالب بن هاشم ، وأمير بن عبد شمس أبي عبد الله ، وعبد الله بن جدعان ، وخويلد ابن أسد - في أناس من وجوه قرش ، فقدموا عليه صنعاء ، فإذا هو في رأس غمدان الذي ذكره أمية ابن أبي الصلت في قوله :

واشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً
في رأس غمدان داراً منك محلالاً

فدخل عليه الآذن ، فأخبره بمكانهم فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام ، فقال له : إن كنت ممن يتكلم بين يدي فقد أذنا لك ، فقال له عبد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنتك منبتاً طابت أرومته ، وعذيت جرتومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ؛ في أكرم موطن وأطيب معدن ، فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي تخضب به البلاد ، ورأس العرب الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي بلجأ إليه العباد ، وسلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يحمد من هم سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجتك من كشف الكرب الذي قد فدحنا ، وفد التهنئة لا وفد المرزبة . قال : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم . قال ابن أختنا ؟ قال نعم ، قال ادن فأدناه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحباً وأهلاً ، وناقاً ورحلاً ، ومستنخاً سهلاً ، وملكاً ربحاً^(١) ، يعطى عطاء جزلاً . قد سمع الملك مقاتلتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقتم ، والخباء إذا ظعنتم . ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود ، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه لهم انتباهة ، فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال : يا عبد المطلب ! إنى مفض إليك من سر على ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه فأطاعتك طليعه ، فليكن عندك مطوباً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره ؛ إنى أجد في الكتاب المسكون والعلم الخزون الذي اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا - خيراً عظيماً وخطراً جسيماً ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة . فقال عبد المطلب : أيها الملك مثلك سرّ وبرّ^(٢) ، فما هو فداؤك أهل الوبر زمرأً بعد زمر ؟ قال إذا ولد بهتامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة - كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة . قال عبد المطلب : أبيت اللعن - لقد أبت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبته الملك وإجلاله وإعظامه - لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سرورا . قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذي يولد فيه ، أو قد ولد . واسمه محمد ؛ يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه . ولدناه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ؛ يعز بهم أوليائه ، وينذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض . يكسر الأوثان ويحمد النيران ، يعبد

(١) الربحل : الكثير العطاء والعظيم الشأن من الناس . (٢) يقال رجل بر يسر : أى ير ويسر

الرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله . فقال عبد المطلب : أيها الملك ! عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ؛ فهذا نجارى ، فهل الملك سار لى بإفصاح ؟ فقد أوضح لى بعض الإيضاح . فقال ابن ذى يزن : والبيت ذى الحجب والعلامات على النقب - إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب ، نخر عبد المطلب ساجداً ، فقال : ارفع رأسك ، تلج صدرك وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك ؟ فقال : أيها الملك ! كان لى ابن وكتت به معجباً وعليه رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه . قال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بأبنك ، واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ؛ فإنى لست آمن أن تدخل لهم النفاضة من أن تكون لىكم الرياسة ، فيطلبون له الفوائل ، وينصبون له الحبال ، فهم فاعلون أو أبناؤهم . ولولا أنى أعلم أن الموت محتاحى قبل مبعثه - لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ؛ فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق : أن بيثرب استحكام أسره ، وأهل نصرته وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات ، واحذر عليه العاهات ، لأعلنت على حداثة سنه أسره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك .

قال : ثم أمر لىكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة إماء ، وبمائة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوء عنبراً ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحول فأتنى ، فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ؛ فإنه لى نقاد ، ولكن ليغبطنى بما ببقى لى ولعقبى من بعدى ذكره ونخره وشرفه ، فإذا قيل له متى ذلك ؟ قال : سيعلم ولو بعد حين . قال : وفى ذلك يقول أمية بن عبد شمس :

جلبنا النصح تحقبة المطايا	على أكار أجمال ونوق
مقلقة مراتعها تعالى	إلى صنعاء من فـج عميق ^(١)
تؤم بنا ابن ذى يزن وتغرى	بذات بطونها ذم الطريق
وترعى من نخائله بروقا	مواصلة الوميض إلى بروق
فلمـا واصلت صنعاء حلت	بدار الملك والحسب العريق

وهذا رواه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل ، من طريق عمرو بن بكير بن بكار القعنبي . ثم قال أبو نعيم : أخبرت عن أبى الحسن على بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عنبر بن عبد العزيز

(١) هذا الشعر فى الأصول ، ولم يذكر فى الدلائل ولا فى غيره من المراجع .

ابن السفر بن عقير بن زرعة بن سيف بن ذى يزن ، حدثني أبي أبو يزن إبراهيم ، حدثنا عمي أحمد ابن محمد أبو رجاء - به ، حدثنا عمي محمد بن عبد العزيز ، حدثني عبد العزيز بن عقير عن أبيه عن زرعة ابن سيف بن ذى يزن الحميري قال : لما ظهر جدى سيف بن ذى يزن على الحبشة ، وذكره بطوله .

وقال أبو بكر الخرائطى : حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القلوسى ، حدثنا العلاء بن الفضل ابن أبي سوية ، أخبرني أبي عن أبيه عبد الملك بن أبي سوية عن جده أبي سوية عن أبيه خليفة ، قال : سألت محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة بن خثعم بن سعد فقلت : كيف سماك أبوك محمداً ؟ فقال : سألت أبي عما سألتني عنه ، فقال : خرجت رابع أربعة من بنى تميم أنا منهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم ، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد ، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن - ونحن يزيد ابن جفنة ملك غسان . فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات ، فتحدثنا فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : إن هذه لغة ماهى بلغة هذه البلاد ، فقلنا : نعم نحن قوم من مضر ، قال من أى المضريين ؟ قلنا من خندف ، قال : أما إنه سيبعث وشيكاً نبي خاتم النبیین ، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا . فقلنا له ما اسمه ؟ قال : اسمه محمد . قال فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسماه محمداً - يعنى أن كل واحد منهم طمع فى أن يكون هذا النبى المبشر به ولده .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عبد الله بن أبي سعد ، حدثنا حازم بن عقال بن الزهر ابن حبيب بن المنذر بن أبي الحصين بن السمومل بن عاديا ، حدثني جابر بن جدان بن جميع بن عثمان ابن سماك بن الحصين بن السمومل بن عاديا ، قال : لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر - الوفاة ، اجتمع إليه قومه من غسان ، فقالوا : إنه قد حضرك من أمر الله ماترى ، وكنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فتأبى ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين ، وليس لك ولد غير مالك ، فقال : إن يهلك هالك ترك مثل مالك ، إن الذى يخرج النار من الوثيمة^(١) - قادر أن يجعل لمالك نسلًا ورجالا بسلا ، وكل إلى الموت . ثم أقبل على مالك وقال : أى بنى ! المنية ولا الدنية ، العقاب ولا العتاب ، التجلد ولا التلدد^(٢) ، القبر خير من الفقر ، إنه من قل ذل ، ومن كر فر ، من كرم الكرم ، الدفع عن الحریم . والدهر يومان : فيوم لك ويوم عليك ؛ فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطبر ، وكلاهما سينحسر ، ليس يثبت منهما الملك المتوج ، ولا اللثيم الملعوج^(٣) ، سلم ليومك حياك ربك ، ثم أنشأ يقول :

(١) الوثيمة : الحجارة ، يريد ما يكون من شرر إذا قدحت الحجارة بالزند .

(٢) تلدد : تلفت يمينا وشمالا ونحير متبلدا . (٣) أى الأحمق .

شهدت السبايا يوم آل محرق
فلم أر ذا ملك من الناس واحداً
فعلّ الذي أردى ثموداً وجرحهما
تقر بهم من آل عمرو بن عامر
فإن لم تك الأيام أبلين جدتي
فإن لنا رباً علا فوق عرشه
ألم يأت قومي أن الله دعوة
إذا بعث المبعوث من آل غالب
هنالك فابنوا نصره ببلاكم
وأدرك أمرى صيحة الله في الحجر
ولا سوقة إلا إلى الموت والقبر
سيعقب لي نسلاً على آخر الدهر
عيون لدى الداعي إلى طلب الوتر
وشيبين رأسى والمشيب مع العمر
علما بما يأتى من الخير والشر
يفوز بها أهل السعادة والبر؟
بمكة فيما بين مكة والحجر
بني عامر إن السعادة في النصر

قال : ثم قضى من ساعته

باب في هواتف الجان

وهو ما ألقته الجان على ألسنة الكهان ، ومسموعاً من الأوثان

[وقد تقدم كلام شق وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن ، في البشارة بوجود رسول الله ﷺ : رسول ذكّى ، يأتى إليه الوحي من قبل العلى . وسيأتى في المولد قول سطيح لعبد المسيح : إذ كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة ، وجاء صاحب المراهة - يعنى بذلك رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه مفصلاً]^(١) .

وقال البخارى : حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي ، حدثني ابن وهب ، حدثني عمرو - هو محمد بن زيد أن سالماً حدثه عن عبد الله بن عمر قال : ماسمعت عمر يقول لشيء قط : إنى لأظنه كذا - إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مر به رجل جميل ، فقال لقد أخطأ ظنى - أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم - على الرجل ، فدعى به فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كما يوم أستقبل به رجل مسلم . قال فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ، قال : كنت كاهنهم في الجاهلية ، قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا في السوق يوماً جاءتنى أعرف فيها الفرع . فقالت :

ألم تر الجن وإبلاسها^(٢) وبأسها من بعد إنكاسها؟^(٣)

ولحوقها بالقلاص وأحلاسها^(٤)

(١) ما بين القوسين غير مثبت في بعض النسخ . (٢) لإبلاسها : انكسارها وحزنها وتجيها ، والإبلاس : الحيرة والسكون من الخوف والحزن (٣) أى ضعفها وذلها وإطرافها . (٤) الحلس : ما ولي ظهر البعير والدابة من كساء رقيق تحت الرجل ، والبرذعة ، والسرّج . والقلاص - جمع قلووس : وهي الناقة الشابة .

قال عمر : صدق . بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ - لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه - يقول : يا جليح^(١) ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا أنت فوثب القوم ، فقلت : لأبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى : يا جليح أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله ، فقامت فما نشبنا أن قيل هذا نبي . تفرد به البخارى .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأزدي - ويقال السدوسي - من أهل السراة من جبال البلقاء له صحبة ووفادة . قال أبو حاتم وابن منده : روى عنه سعيد بن جبير ، وأبو جعفر محمد بن علي ، وقال البخارى له صحبة . وهكذا ذكره في أسماء الصحابة أحمد بن روح البرزعي الحافظ ، والدارقطني وغيرهما . وقال الحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى : سواد بن قارب بالتخفيف . وقال عثمان الوقاصى عن محمد بن كعب القرظى : كان من أشرف أهل اليمن ، ذكره أبو نعيم في الدلائل . وقد روى حديثه من وجوه آخر مطولة باليسط من رواية البخارى .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني من لا أتهم ، عن عبد الله بن كعب مولى عثمان بن عفان ، أنه حدث أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول الله ﷺ ، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد يريد عمر بن الخطاب . فلما نظر إليه عمر قال : إن الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً في الجاهلية - فسلم عليه الرجل ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال فهل كنت كاهناً في الجاهلية ؟ فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين ! لقد خلت في واستقباتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيك منذ وليت ما وليت . فقال عمر : اللهم غفراً ، قد كنا في الجاهلية على شر من هذا ؛ نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام . قال نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهناً في الجاهلية . قال فأخبرني ما جاء به صاحبك ؟ قال جاءني قبل الإسلام بشهر أو شيعه^(٢) فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسهما ، وإياسها من ديتها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها .

قال ابن إسحاق : هذا الكلام سجع وليس بشعر . [قال عبد الله بن كعب] : فقال عمر عند ذلك يحدث الناس : والله إنى لعندوثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، فذبحنا نتظر قسمه أن يقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ماسمعت صوتاً قط أشد منه ، وذلك قبل الإسلام بشهر أو شيعه يقول : يا ذريح^(٣) ، أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول لا إله إلا الله . قال ابن هشام : ويقال رجل يصيح ، بلسان فصيح ، يقول لا إله إلا الله . قال وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

(١) قال شارح البخارى معناه : الوقع المكافح بالعداوة . قيل يحتمل أن يكون نادى رجلاً بعينه ، أو أراد من كان بتلك الصفة . (٢) أى دونه بقليل ، وشيع كل شيء ما هو له تبع . (٣) آل ذريح : بطن مشهور عند العرب .

عجبت للجن وإبلاسها وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي ، حدثنا علي بن منصور الأنباري عن محمد بن عبد الرحمن الواقصي عن محمد بن كعب القرظي ، قال : بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم جالس ، إذ مر به رجل ، فقيل : يا أمير المؤمنين أنعرف هذا المار ؟ قال ومن هذا ؟ قالوا هذا سواد بن قارب ، الذي أناه رثيه بظهور رسول الله ﷺ . قال فأرسل إليه عمر ، فقال له : أنت سواد ابن قارب ؟ قال نعم . قال فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ قال فغضب ، وقال ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين ، فقال عمر يا سبحان الله ! ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، فأخبرني ما أنباك ربك بظهور رسول الله ﷺ ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ؛ بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، إذ أتاني رثي فضر بني برجله ، وقال قم يا سواد بن قارب ، واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب ، يدعو إلى الله وإلى عبادته . ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها وشدها العيس بأفتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كأذناها

قال : قلت دعني أنام فإني أمسيت ناعساً . قال : فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضر بني برجله ، وقال قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي ، واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتخييارها وشدها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روايبها وأحجارها

قال : قلت دعني أنام ؛ فإني أمسيت ناعساً ، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضر بني برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي ، واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته . ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما خير الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم واسم بعينيك إلى رأسها

قال : ففقت وقلت : قد امتحن الله قلبي ، فرحلت ناقتي ثم أتيت المدينة - يعني مكة - فإذا رسول الله ﷺ في أصحابه ، قد نوت فقلت : اسمع مقالتي يا رسول الله ، قال هات . فأنشأت أقول :

أنا نبي نجي بعد هده وورقة
ثلاث ليال قوله كل ليلة
فشمريت عن ذبلي الإزار ووسطت
فأشهد أن الله لا شيء غيره
وأنت أدنى المرسلين وسيلة
فرنا بما يأتيك ياخير من مشى
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعه
ولم يك فيما قد تلوت بكاذب
أناك رسول من لؤي بن غالب
بي الذعاب الوجفاء غير السباب
وأنت مأمون على كل غالب
إلى الله يا بن الأكرمين الأطايب
وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
سواك بمن عن سواد بن قارب

قال ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً ، حتى رؤى الفرح في وجوههم . قال فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه ، وقال قد كنت أشتحي أن أسمع هذا الحديث منك ، فهل يأتيك رثيك اليوم؟ قال : أما منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله من الجن . ثم قال عمر : كنا يوماً في حى من قریش يقال لهم آل ذريح ، وقد ذبحوا مجلاهم والجزار بما لجه ، إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل - ولا نرى شيئاً - قال : يا آل ذريح ! أمر نجيح ، صأح بصيح ، بلسان فصيح ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وهذا منقطع من هذا الوجه ، ويشهد له رواية البخارى . وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل ، هو عمر بن الخطاب ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتابه الذى جمعه فى هواتف الجان : حدثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدب ، حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، حدثنا سعيد بن عبيد الله الوصابى عن أبيه عن أبى جعفر محمد بن على ، قال : دخل سواد بن قارب السدوسى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : نشدتك بالله يا سواد بن قارب ، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً؟ فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتنى به ، قال سبحان الله يا سواد ! ما كنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، والله يا سواد لقد بلغنى عنك حديث إنه لعجيب من العجب ، قال إى والله يا أمير المؤمنين ! إنه لعجب من العجب . قال فحدثني ، قال : كنت كاهناً فى الجاهلية ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذا أنا نبي نجي فضربنى برجله . ثم قال يا سواد اسمع أقل لك ، قلت هات ، قال :

عجبت للجن وأنجاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى
ورحلها العيس بأحلاسها
مامؤمنوها مثل أرجاسها

فارحل إلى الصفوة من هاشم واسم بعينيك إلى رأسها
قال فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً ، فلما كانت الليلة الثانية أناني فضر بني برجله ، ثم قال لي : قم
ياسواد بن قارب ، اسمع أقل لك ، قلت هات . قال :

عجبت للجن وتطلابها وشدها العيس بأفتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس المقادير كأذئابها

قال : فحرك قوله مني شيئاً ونمت ، فلما كانت الليلة الثالثة أناني فضر بني برجله ، ثم قال ياسواد بن
قارب ! أتعقل أم لا تعقل ؟ قلت وما ذاك ؟ قال ظهر بمكة نبي يدعو إلى عبادة ربه فالحق به ، اسمع أقل
لك . قلت هات ، قال :

عجبت للجن وتنفارها ورحلها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روايها وأحجارها

قال : فعلت أن الله قد أراد بي خيراً فقامت إلى ردة لي ففتقتها ولبستها ووضعت رجلي في غرر
ركاب الناقة ، وأقبلت حتى انتهيت إلى النبي ﷺ فعرض على الإسلام فأسمت ، وأخبرته الخبر فقال :
« إذا اجتمعت المسلمون فأخبرهم » ، فلما اجتمع المسلمون قلت فقلت :

أتاني نجبي بعد هده وورقة
ثلاث ليال قوله كل ليلة
فشمريت عن ذبلي الإزار ووسط
وأعلم أن الله لارب غيره
وأنت أدنى المرسلين وسيلة
فرنا بما يأتيك ياخير مرسل
ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
أناك رسول من لؤي بن غالب
بي الدعلب الوجفاء غير السباب^(١)
وأنت مأمون على كل غائب
إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
وإن كان فيما جئت شيب الذوائب^(٢)

قال فسر المسلمون بذلك ، فقال عمر : هل تحس اليوم منها بشيء ؟ قال أما إذا علمني الله القرآن فلا .
وقد رواه محمد بن السائب الكلابي عن أبيه عن عمر بن حفص ، قال : لما ورد سواد بن قارب على عمر
قال : ياسواد بن قارب ! ما بقي من كهانتك ؟ فغضب وقال : ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً
من العرب بمثل هذا ، فلما رأى مافي وجهه من الغضب ، قال : انظر سواد ! للذي كنا عليه قبل اليوم
من الشرك أعظم . ثم قال : ياسواد ، حدثني حديثاً كنت أشتهى أسمعه منك ، قال نعم . بينا أنا في إبل

(١) الدعلب بالكسر : الناقة السريعة (٢) الذوائب : جمع ذؤابة : وهي الناصبة .

لى بالسراة لىلا وأنا نأئم ، وكان لى نجىى من الجن ، أتانى فضربنى برجله فقال لى قم ياسواد بن قارب ، فقد ظهر بتهامة نبى يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فذكر القصة كما تقدم ، وزاد فى آخر الشعر :

وكن لى شفىعاً يوم لا ذو قرابة سواك بمن عن سواد بن قارب^(١)

فقال رسول الله ﷺ : « سر فى قومك وقل هذا الشعر فىهم » .

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربى

عن عباد بن عبد الصمد عن سعيد بن جبىر قال : أخبرنى سواد بن قارب الأزدى ، قال : كنت نأئماً على جبل من جبال السراة ، فأتانى آت فضربنى برجله - وذكر القصة أيضاً .

ورواه أيضاً من طريق محمد بن البراء عن أبى بكر بن عىاش عن أبى إسحاق عن البراء ، قال :

قال سواد بن قارب : كنت نازلاً بالهند فجاءنى رثىى ذات لىلة فذكر القصة . وقال بعد إنشاد الشعر الأخرى : فضحك رسول الله صلى الله علیه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : « أفلحت ياسواد » .

وقال أبو نعیم فى كتاب [دلائل النبوة] : حدثنا عبد الله بن محمد بن جمفر ، حدثنا عبد الرحمن

ابن الحسن ، حدثنا على بن حرب ، حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب عن أبىه عن عبد الله العمانى ، قال : كان منا رجل يقال له مازن بن العضوب ، يسدن صنماً بقرىة يقال لها « سمايا » من عمان ،

وكانت تعظمه بنو الصامت وبنو حطامة ومهرة - وهم أخوال مازن . وأمه زىنب بنت عبد الله بن ربىعة بن حوىص أحد بنى نمران ، قال مازن : فعترنا يوماً عند الصنم عتيرة - وهى الذبىحة^(٢) - فسمعت

صوتاً من الصنم بقول : يامارن ! اسمع تسر ، ظهر خىر و بطن شر ، بعث نبى من مضر ، بدين الله الأكبر ، فذع نحىتاً من حجر ، تسلم من حر سقر . قال ففرزعت لذلك فرعاً شديداً . ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى ،

فسمعت صوتاً من الصنم بقول : أقبل إلى أقبل ، تسمع مالا تجهل ، هذا نبى مرسل ، جاء بحق منزل ، فأمن به كى تعدل ، عن حر نار تشعل ، وقودها الجنادل . قال مازن : فقلت إن هذا لعجب ، وإن هذا

نخىر يراد بى . وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت ما نخبر وراك ؟ فقال ظهر رجل يقال له أحمد ، يقول لمن أتاه : أجببوا داعى الله ، فقلت : هذا نبأ ما سمعت ، فثرت إلى الصنم فكسرتة جذاذاً ، وركبت راحلتى حتى قدمت على رسول الله ﷺ فشرح الله صدرى للإسلام فأسلمت ، وقات :

كسرت بأجرا جذاذاً وكان لنا رباً نطىف به ضلاً بتضلال

فالهاشمى هداانا من ضلالتنا ولم يكن دىنه منى على بال

ياراكباً بلغن عمراً وإخوتها إنى لمن قال ربى بأجرا قالى

یعنى بعمر و الصامت ، وإخوتها - حطامة . فقلت بارسل الله ! إنى امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك

(١) روى : بمن قتيلا عن سواد بن قارب . وهذا البيت يذكره النحوىون شاهداً على جر خبر « لا » النافىة بالباء

الزائدة على قلة . (٢) شاة كانت تذبح فى رجب . أو ذبىحة تذبح للأصنام فىصب دمه على رأسها .

من النساء ، وشرب الخمر ، وألحت علينا السنون ، فأذهبنا الأموال ، وأهزأت السراري ، وليس لي ولد ، فادعوا الله أن يذهب عني ما أجد ويأتينا بالحيا ، ويهب لي ولداً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرمان الحلال والإثم وبالعهرة عفة ، وآتته بالحيا وهب له ولداً » . قال فأذهب الله عني ما أجد ، وأخصبت عمان ، وتزوجت أربع حرائر ، وحفظت شطر القرآن ، ووهب لي حيان بن مازن ، وأنشأ يقول :

إليك رسول الله خبت مطيتي	تجوب الفيافي من عمان إلى العرج
لنشفع لي ياخير من وطىء الحصى	فيفغر لي ربي فأرجع بالفالج
إلى معشر خالفت في الله دينهم	فلا رأيهم رأيت ولا شرهم شرحتي
وكنت امرأة بالخمر والههر مولعاً	شبابي حتى آذن الجسم بالنهيج
فبدلني بالخمر خوفاً وخشية	وبالعهر إحصاناً فخصن لي فرجي
فأصبحت هي في الجهاد ونييتي	فله ماصومي والله ما حجي

قال : فلما أتيت قومي أنبوني وشموني ، وأمروا شاعراً لهم فهجاني ، فقلت إن رددت عليه فيما أجهو نفسي . فرحلت عنهم فأتتني منهم زلفة عظيمة وكنت القيم بأمرهم ، فقالوا يا ابن عم ! عبنا عليك امرأة وكرهنا ذلك ، فإن آيت ذلك فارجع رقم بأمرنا وشأنك وما ندين به . فرجمت معهم وقلت :

لبغضكم عندنا سر مذاقته	وبغضنا عندكم يا قومنا ابن
لا يظن الدهر إن بثت معائبكم	وكلكم حين يثنى علينا فظن
شاعرنا منعم عنكم وشاعركم	في حديثنا مبلغ في شتمنا لسن
مافي القلوب عليكم - فاعلموا - وغر	وفي قلوبكم البغضاء والإحن

قال مازن : فهداهم الله بعد إلى الإسلام جميعاً .

وروى الحافظ أبو نعيم من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله قال : إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول صلى الله عليه وسلم : أن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن ، فجاء في صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم ، فقالت له : لم لا تنزل إلينا فتحدثنا ونحدثك ؟ وتخبّرنا ونخبرك ؟ فقال لها : إنه قد بعث نبي بمكة ، حرم الزنا ومنع منا القرار .

وقال الواقدي : حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن الزهري عن علي بن الحسين . قال : إن أول خبر قدم المدينة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن امرأة تدعى « فاطمة » ، كان لها تابع ، فجاءها ذات يوم ، فقام على الجدار ، فقالت : ألا تنزل ؟ فقال لا - إنه قد بعث الرسول الذي حرم الزنا .

وأرسله بعض التابعين أيضاً وسماه بان لوزان ، وذكر أنه كان قد غاب عنها مدة ، ثم لما قدم عاتبته فقال : إني جئت الرسول فسمته يحرم الزنا ، فعليك السلام .

وقال الواقدي : حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : قال عثمان بن عفان : خرجنا في غير إلى الشام - قبل أن يبعث رسول الله ﷺ ، فلما كنا بأفواه الشام - وبها كاهنة - فتعرضتنا ، فقالت : أناني صاحبي فوقف على بابي ، فقلت ألا تدخل ؟ فقال لاسبيل إلى ذلك ، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق ، ثم انصرفت فرجعت إلى مكة ، فوجدت رسول الله ﷺ قد خرج بمكة يدعو إلى الله عز وجل .

وقال الواقدي : حدثني محمد بن عبد الله الزهرى ، قال : كان الوحي يسمع ، فلما كان الإسلام منعوا . وكانت امرأة من بني أسد يقال لها « سعيرة » ، لها تابع من الجن ، فلما رأى الوحي لا يستطيع ، أنهاها فدخل في صدرها فضج في صدرها فذهب عقلها ، فجعل يقول من صدرها : وضع العناق ، ومنع الرفاق ، وجاء أمر لا يطاق ، وأحمد حرم الزنا .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى - بمصر - حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان عن حدثه ، عن مرداس بن قيس السدوسي قال : حضرت النبي ﷺ - وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه - فقلت : يا رسول الله ! قد كان عندنا في ذلك شيء ! أخبرك أن جارية منا يقال لها « الخلصة » لم يعلم عليها إلا خيراً ، إذ جاءتنا فقالت : يامعشر دوس ! العجب العجب لما أصابني ، هل علمتم إلا خيراً ؟ قلنا وما ذلك ؟ قالت إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة ووجدت كبس^(١) الرجل مع المرأة ، فقد خشيت أن أكون قد حبلت ، حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاماً أغضف^(٢) له أذنان كأذني الكلب ، فسكث فينا حتى إنه ليلعب مع الغلمان ، إذ وثب وثبة وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول : ياويلة ياويلة ، ياعولة ياعولة ، ياويل غنم ، ياويل فهم ، من قابس النار . الخليل والله وراء العقبة ، فيهن فتيان حسان نجبة . قال فركبنا وأخذنا للأداة ، وقلنا يا ويلك ما ترى ؟ فقال [هل] من جارية طامث ؟ فقلنا ومن لنا بها ؟ فقال شيخ منا : هي والله عندي عفيفة الأم ، فقلنا فمجلها . فأتى بالجارية وطلع الجبل ، وقال للجارية : اطرحي ثوبك واخرجي في وجوههم ، وقال للقوم اتبعوا أثرها ، وقال لرجل منا يقال له أحمد بن حابس : يا أحمد بن حابس ! عليك أول فارس ، فحمل أحمد فطعن أول فارس فصرعه وانهمزوا فغنمناهم . قال فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه « ذا الخلصة » . وكان لا يقول لنا شيئاً إلا كان كما يقول ، حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله ،

(١) الكبس : طم الحفرة بالتراب ، والكابوس يكنى به عن البضع ، وكبس الرجل المرأة : فعل بها مرة .

(٢) الغضف - محرمة : استرخاء في الأذن .

قال لنا يوماً : يامعشر دوس ! نزلت بنو الحارث بن كعب ، فركبنا ، فقال لنا : أكدسوا الخليل كدساً ، أحشوا القوم رمساً ، أنفوم غدية ، واشربوا الخمر عشية . قال فلقيناهم فهزمونا وغلبونا ، فرجعنا إليه فقلنا ما حالك ؟ وما الذي صنعت بنا ؟ فنظرنا إليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه ، وانبرم غضباناً حتى كاد أن ينفطر ، وقام فركبنا واغتفرنا هذه له ، ومكثنا بعد ذلك حيناً . ثم دعانا فقال : هل لكم في غزوة تهب لكم عزاً ؟ وتجعل لكم حرزاً ؟ و يكون في أيديكم كنزاً ؟ فقلنا ما أحوجنا إلى ذلك ! فقال اركبوا فركبنا ، فقلنا ماتقول ؟ فقال بنو الحارث بن مسالمة ، ثم قال قفوا فوقفنا . ثم قال عليكم بفهم ، ثم قال ليس لكم فيهم دم ، عليكم بمضرم أرباب خيل ونعم ، ثم قال - لا ، رهط دريد ابن الصمة ، قليل العدد وفي الذمة ، ثم قال - لا ، ولكن عليكم بكمب بن ربيعة ، وأسكنوها ضيعة عاصم بن صعصعة ، فليكن بهم الوقية . قال : فلقيناهم فهزمونا وفضحونا ، فرجعنا وقلنا : ويالك ماذا تصنع بنا ؟ قال ما أدري ، كذبتني الذي كان يصدقني . أسجنوني في بيتي ثلاثاً ثم اثتوني ، ففعلنا به ذلك ثم أتيناها بعد ثالثة ، ففتحنها عنه فإذا هو كأنه حجرة نار ، فقال : يامعشر دوس ! حرست السماء وخرج خير الأنبياء . قلنا أين ؟ قال بمكة وأنا ميت فادفونوني في رأس جبل ، فإني سوف أضطرم ناراً ، وإن تركتموني كنت عليكم عاراً ، فإذا رأيتم اضطرامي وتلهي فاقذفوني بثلاثة أحجار ، ثم قولوا مع كل حجر : باسمك اللهم فإني أهدى وأطفي . قال : وإنه مات فاشتعل ناراً ، ففعلنا به ما أمر ، وقد قذفناه بثلاثة أحجار نقول مع كل حجر : باسمك اللهم ، نحمد وطني . وأقمنا حتى قدم علينا الحاج ، فأخبرونا بمعمتك يا رسول الله . غريب جداً .

وروى الواقدي عن أبيه عن ابن أبي ذئب عن مسلم بن جندب عن النضر بن سفيان الهذلي عن أبيه ، قال : خرجنا في غير لنا إلى الشام ، فلما كنا بين الزرقا ومعان قد عرسنا من الليل ، فإذا بفارس يقول - وهو بين السماء والأرض : أيها النيام ! هبوا فليس هذا بحين رقاد ؛ قد خرج أحمد فطردت الجن كل مطرد ، ففزعنا ونحن رفقة حزورة ، كلهم قد سمع بهذا ، فرجعنا إلى أهلنا فإذا هم يذكرون اختلافاً بمكة بين قريش ، في نبي قد خرج فيهم من بني عبد المطلب اسمه أحمد . ذكره أبو نعيم . وقال الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوي - بمصر - حدثنا عمارة بن زيد ، حدثني عبد الله بن العلاء ، حدثني يحيى بن عروة عن أبيه : أن نفرأ من قريش ؛ منهم ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبد الله بن جحش بن رثاب ، وعثمان بن الحويرث - كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه ، قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً ، كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ، ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه ، فدخلوا عليه في الليل فأروه مكبواً على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيقاً ، فأخذوه فردوه

إلى حاله ، فانساب الثالثة ، فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموه ذلك فقال عثمان بن الحويرث : ماله قد أكثر التنكس ؟ إن هذا لأمر قد حدث ، وذلك في الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل عثمان يقول :

أيا صنم العيد الذي صف حوله	صناديد وفد من بعيد ومن قرب
تنكست مغلوباً فما ذاك قل لنا	أذاك سفيه أم تنكست للعقب ؟
فإن كان من ذنب أنينا فإننا	نبوء بإقرار ونلوى عن الذنب
وإن كنت مغلوباً وتنكست صاغراً	فما أنت في الأوثان بالسيد الرب

قال فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله ، فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول :

تردى لمولود أنارت بنوره	جميع فجاج الأرض في الشرق والغرب
وخرت له الأوثان طراً وأرعدت	قلوب ملوك الأرض طراً من الرعب
ونار جميع الفرس باخت وأظلمت	وقد بات شاه الفرس في أعظم الكرب
وصدت عن السكهان بالغيب جنبها	فلا مخبر عنهم بحق ولا كذب
فيالقى ارجعوا عن ضلالكم	وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

قال : فلما سمعوا ذلك خلصوا نجياً ، فقال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض ، فقالوا أجل ، فقال لهم ورقة بن نوفل : تعلمون والله ما قومكم على دين ، ولقد أخطأوا الحججة وتركوا دين إبراهيم ، ما حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ؟ ولا يذبح ولا يضرب ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين . قال فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفة دين إبراهيم عليه السلام . فأما ورقة ابن نوفل فتنصر وقرأ الكتب حتى علم علماً . وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس ، ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب في الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة ، فلقى بها راهباً عالماً فأخبره بالذي يطلب ، فقال له الراهب : إنك لتطلب ديناً ما تجد من يملك عليه ، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفة فلما قال له ذلك ، رجع يريد مكة ففارت عليه نخم فقتلوه . وأما عبد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ ، ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة ، فلما صار بها تنصر وفارق الإسلام فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً وتقدم في ترجمة زيد بن عمرو بن نفيل له شاهد .

وقد قال الخرائطي : حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح أبو بكر الوراق ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز ، حدثني محمد بن عبد العزيز عن الزهري عن عبد الرحمن

ابن أنس السلمى عن العباس بن مرداس : أنه كان يمر في لقاح له نصف النهار ، إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب ، عليه ثياب بياض مثل اللبن ، فقال : يا عباس بن مرداس ! ألم تر أن السماء قد كفت أحراسها ، وأن الحرب تجرعت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذى نزل بالبر والتقوى ، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء ، صاحب الناقة القصواء ؟ قال فرجعت مرعوباً قد راغنى مارأيت وسمعت ، حتى جئت وثناً لنا يدعى الضَّمار ، وكنا نعبده ونكلم من جوفه ، فكُنست ماحوله ثم تمسحت به وقبلته ، فإذا صَاح من جوفه يقول :

قل للقبائل من سليم كلها هلك الضَّمار وفاز أهل المسجد
هلك الضَّمار وكان يعبد مدة قبل الصلاة مع النبي محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قریش مهتد

قال فخرجت مرعوباً حتى أتيت قومي ، فقصصت عليهم القصة ، وأخبرتهم الخبر ، وخرجت في ثلاثمائة من قومي بنى حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة ، فدخلنا المسجد . فلما رآني رسول الله ﷺ قال لى : « يا عباس كيف كان إسلامك » ؟ فقصصت عليه القصة . قال فسر بذلك وأسأمت أنا وقومي . ورواه الخافظ أبو نعيم في الدلائل من حديث أبي بكر بن أبي عاصم عن عمرو ابن عثمان به . ثم رواه أيضاً من طريق الأصمعي ، حدثني الوصافي عن منصور بن المعتمر عن قبيصة بن عمرو بن إسحاق الخزاعي عن العباس بن مرداس السلمى ، قال : أول إسلامي أن مرداساً أبى لما حضرته الوفاة ، أوصانى بصنم له يقال له « ضَمَار^(١) » ، فجعلته في بيت وجعلت آتية كل يوم مرة ، فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم سمعت صوتاً مرسلاً في جوف الليل راغنى ، فوثبت إلى ضمار مستغيثاً ، وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول :

قل للقبيلة من سليم كلها هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
أودى ضمَارٍ وكان يعبد مرة قبل الكتاب ، إلى النبي محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قریش مهتد

قال فكتمته الناس ، فلما رجع الناس من الأحزاب ، بينا أنا في إبلٍ بطرف العقيق من ذات عرق راقداً ، سمعت صوتاً ، وإذا برجل على جناح نعامة وهو يقول : النور الذى وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء ، في ديار إخوان بنى العنقاء ، فأجابه هاتف من شماله وهو يقول :

بشر الجفن وإبلاسها أن وضعت المطى أحلاسها

(١) ضمار - كجذام ورفاقس ، وهذا البناء لا يكون إلا في أسماء المؤنث وهو مبنى على الكسر .

قال فوثبت مذعوراً ، وعلت أن محمداً مرسل ، فركبت فرسى واحتثت السير حتى اتهمت إليه
فبايعته ، ثم انصرفت إلى ضمار فأحرقته بالنار ، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأشدته شعراً أقول فيه :

لعمرك ! إنى يوم أجعل جاهلاً	ضماراً لرب العالمين مشاركا
وزكى رسول الله والأوس حوله	أولئك أنصار له مأولثكا
كتارك سهل الأرض والحزن يبتغى	ليسلك في وعث الأمور المسالكا
فأمنت بالله الذى أنا عبده	وخالفت من أمسى يريد المهالكا
ووجهت وجهى نحو مكة قاصداً	أبايع نبي الأكرمين المباركا
نبي أانا بعد عيسى بناطق	من الحق فيه الفصل فيه كذاك
أمين على القرآن أول شافع	وأول مبهوث يجيب الملاثكا
تلا فى عرى الإسلام بعد انتقاضها	فأحكمها حتى أقام المناسكا
عنيتك ياخير البرية كلها	توسط فى الفرعين والمجدمالكا
وأنت المصطفى من قریش إذا سميت	على ضميرها تبقى القرون المباركا
إذا انتسب الحيان كعب ومالك	وجدناك محضاً والنساء العواركا

قال الخرائطى : وحدثنا عبد الله بن محمد البلوى بمصر ، حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنا إسحاق بن بشر
وسلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق ، حدثنى شيخ من الأنصار يقال له عبد الله بن محمود من آل محمد
ابن مسلمة ، قال : بلغنى أن رجالا من خثعم كانوا يقولون إن مما دعانا إلى الإسلام ، أنا كنا قوماً نعبد
الأوثان ، فبينما نحن ذات يوم عند وثن لنا ، إذ أقبل نفر يتقاضون إليه ، يرجون الفرج من عنده لشيء
شجر بينهم ، إذ هتف بهم هاتف يقول :

يأيها الناس ذو الأجسام	من بين أشياخ إلى غلام
ما أتم وطائش الأحلام	ومسند الحكم إلى الأصنام
أكلكم فى حيرة نيام	أم لانرون ما الذى أمامى
من ساطع يجلودجى الظلام	قد لاح للناظر من تهام
ذاك نبي سيد الأنام	قد جاء بعد الكفر بالإسلام
أكرمه الرحمن من إمام	ومن رسول صادق الكلام
أعدل ذى حكم من الأحكام	يأمر بالصلاة والصيام

والبر والصلوات للأرحام ويزجر الناس عن الآثام
والرجس والأوثان والحرام من هاشم في ذروة السنام
مستعلناً في البلاد الحرام

قال فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه ، وآتينا النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمنا .

وقال الخرائطي : حدثنا عبد الله البلوي ، حدثنا عمارة ، حدثني عبيد الله بن العلاء ، حدثنا محمد بن
عكبر عن سعيد بن جبير : أن رجلاً من بني تميم يقال له رافع بن عمير - وكان أهدى الناس للطريق
وأسراهم لبليل ، وأهمهم على هول ، وكانت العرب تسميه لذلك دُعموص^(١) العرب لهدايته وجرأته
على السير - فذكر عن بدء إسلامه قال : إني لأسير برمل عاج ذات ليلة ، إذ غلبني النوم ، فنزات
عن راحلتي وأتختها ، وتوسدت ذراعها ونمت ، وقد تعوذت قبل نومي فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادي
من الجن من أن أوذى أو أهاج ، فرأيت في منامى رجلاً شاباً يرصد ناقتي ويبيده حربته يريد أن يضعها
في نحرها ، فانتهبت لذلك فرعاً ، فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً ، فقلت هذا حلم . ثم عدت ففوت
فأريت في منامى مثل رؤياي الأولى ، فانتهبت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً ، وإذا ناقتي ترعد . ثم غفوت
فأريت مثل ذلك فانتهبت ، فأريت ناقتي تضطرب ، والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيت في المنام
بيده حربته ، ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول :

يامالك بن مهلهل بن دثار	مهلا فدى لك مئزرى وإزارى
عن ناقة الإنسى لا تعرض لها	واختر بها ماشئت من أثوارى
ولقد بدا لى منك مالم احتسب	ألا رعيت قرابتي وذمارى ؟
تسمو إليه بحربة مسمومة	تباً لفعلك يا أبا الغفار
لولا الحياء وأن أهلك جيرة	لعلت ما كشفت من أخبارى

قال فأجابه الشاب وهو يقول :

أردت أن تعلقو وتحفض ذكرنا	في غير مزرية أبا العيزار ؟
ما كان فيهم سيد فيما مضى	إن الخيار هو بنو الأخيار
فاقصد لقصدك يامعكبر إنما	كان الجـير مهلهل بن دثار

قال فبينما هما يتنازعان ، إذ طلعت ثلاثة أنوار من الوحش ، فقال الشيخ للفتى : قم يا ابن أخت نخذ
أيها شئت فداء لنافقة جارى الإنسى ، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف . ثم التفت إلى الشيخ فقال

(١) الدعموص : الدخال في الأمور الزوار للعلوك ، ويقال : هود عيمص هذا الأمر - أى عالم به .

يا هذا ! إذا نزلت وادياً من الأودية نخفت هو له فقل : أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ، ولا تعذب بأحد من الجن ، فقد بطل أسرها ، قال : فقلت له ومن محمد هذا ؟ قال نبي عربي لا شرق ولا غربى ، بعث يوم الاثنين . قلت وأين مسكنه ؟ قال يثرب ذات النخل . قال فركبت راحلتى حين برق لى الصبح ووجدت السير حتى تقحمت المدينة ، فرآنى رسول الله ﷺ فخذنى بجدى قبل أن أذكر له منه شيئاً ، ودعانى إلى الإسلام فأسلمت . قال سعيد بن جبير : وكنا نرى أنه هو الذى أنزل الله فيه : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً^(١)) . وروى الخرائطى من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة عن داود بن الحسين عن عكرمة عن ابن عباس عن على ، قال : إذا كنت بواد تخاف السبع ، فقل : أعوذ بدانيال والجب ، من شر الأسد . وروى البلوى عن عمارة بن زيد عن إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق : حدثنى يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبىه عن ابن عباس - قصة قتال على الجن بالبئر ذات العلم التى بالجحفة ، حين بعثه رسول الله ﷺ يستقى لهم الماء ، فأرادوا منه وقطعوا الدلو ، فنزل إليهم . وهى قصة مطولة منسكرة جداً ، والله أعلم .

وقال الخرائطى : حدثنى أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقى وغيره : حدثنا سليمان ابن بنت شرحبيل الدمشقى ، حدثنا عبد القدوس بن الحجاج ، حدثنا خالد بن سعيد عن الشعبي عن رجل قال : كنت فى مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يتذاكرون على فضائل القرآن ؛ فقال بعضهم خواتيم سورة النحل ، وقال بعضهم سورة يس ، وقال على فأين أنتم عن فضيلة آية الكرسمى ؟ أما إنها سبعون كلمة فى كل كلمة بركة ، قال : وفى القوم عمرو بن معدى كرب لا يحير جواباً ، فقال أين أنتم عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال عمر : حدثنا يابا ثور . قال : بينا أنا فى الجاهلية إذ جهدى الجوع فأفحمت فرسى فى البرية ، فما أصبت إلا بيض النعام ، فبينما أنا أسير إذا أنا بشيخ عربي فى خيمة ، وإلى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعه غنيمات له ، فقلت له استأسر ثكلتك أمك ، فرفع رأسه إلى وقال : يافتى ! إن أردت قرى فازل ، وإن أردت معونة أعناك . فقلت له استأسر فقال :

عرضنا عليك النزل منا تكرمًا فلم ترعوى جهلا كفعل الأشأم

وجئت بهتان وزور ودون ما تمنيته بالبيض حز الغلاصم^(٢)

قال : ووئب إلى وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكأنى مثلت تحته . ثم قال أفتلك أم أخلى عنك ؟ قلت : بل خل عنى ، قال نخلى عنى . ثم إن نفسى جاذبتنى بالعودة ، فقلت استأسر ثكلتك أمك ، فقال :

ببسم الله والرحمن فرزنا هنالك والرحيم به قهرنا
وما تغنى جلادة ذى حفاظ إذا يوم لمركة برزنا

ثم وثب لى وثبة كأنى مثلت تحته ، فقال أفتلك أم أخلى عنك ؟ قال : قلت بل خل عنى . نخلى
عنى فانطلقت غير بعيد ، ثم قلت فى نفسى : يا عمرو ! أيقهرك هذا الشيخ ؟ والله للموت خير لك من
الحياة ، فرجعت إليه فقلت له استأسر ثكلك أمك ، فوثب إلى وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن
الرحيم ، فكأنى مثلت تحته ، فقال أفتلك أم أخلى عنك ؟ قلت بل خل عنى . فقال هيهات ، يا جارية
أنتينى بالمدينة ، فأنته بالمدينة فجز ناصبتى . وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزت ناصبته استعبده ،
فكنت معه أخدمه مدة . ثم إنه قال : يا عمرو ! أريد أن تركب معى البرية وليس بى منك وجل ؛ فإنى
ببسم الله الرحمن الرحيم لوائق . قال فسرنا حتى أتينا واديا أشبا^(١) مهولا مغولا ، فنادى بأعلى صوته :
بسم الله الرحمن الرحيم ، فلم يبق طير فى وكره إلا طار . ثم أعاد القول فلم يبق سبع فى مريضه إلا هرب ،
ثم أعاد الصوت فإذا نحن بمجشى قد خرج عابنا من الوادى كالنخلة السحوق^(٢) ، فقال لى يا عمرو ! إذا رأيتنا
قد آخذنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم . قال فلما رأيتهما قد آخذنا ، قلت غلبه صاحبى
باللات والعزى ، فلم يصنع الشيخ شيئا ، فرجع إلى وقال : قد علمت أنك خالفت قولى ، قلت أجل ولست
بعائد ، فقال إذا رأيتنا قد آخذنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم ، فقلت أجل . فلما رأيتهما قد
آخذنا ، قلت غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم فاتسكأ عليه الشيخ فبعجه بسيفه فاشتق بطنه ، فاستخرج
منه شيئا كهيئة القنديل الأسود ، ثم قال : يا عمرو ! هذا غشه وغله .

ثم قال : أتدرى من تلك الجارية ؟ قلت لا ، قال : تلك الفارعة بنت السليل الجرهمى من خيار
الجن . وهؤلاء أهلها بنو عمها ، يفزونى منهم كل عام رجل ، ينصرنى الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم .
ثم قال : قد رأيت ما كان منى إلى الحبشى ، وقد غلب على الجوع فائتنى بشيء آكله ، فأخمت بفرسى
البرية فما أصبت إلا بيض النعام ، فأنته به فوجدته نائما ، وإذا تحت رأسه شيء كهيئة الخشبة ، فاستلته
فإذا هو سيف عرضه شبر فى سبعة أشبار ، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين ، فاستوى
على قفا ظهره وهو يقول : قاتلك الله ما أغدرك يا غدار ! قال عمر : ثم ماذا صنعت ؟ قلت فلم أزل
أضربه بسيفى حتى قطعته إربا إربا . قال فوجم لذلك ثم أنشأ يقول :

بالقدر نلت أبا الإسلام عن كشب ما إن سمعت كذا فى سالف العرب
والعجم تأنف مما جئته كرمًا تبأ لما جئته فى السيد الأرب

(١) أى به أشجار منخلطة ملتفة ، يقال : أشب الشجر كفرح : التف . (٢) أى الطويلة .

إني لأعجب أنى نلت قتلته أم كيف جازاك عند الذنب لم تنب ؟
 قرم عفا عنك صرات وقد علقت بالجسم منك يدها موضع العطب
 لو كنت آخذ في الإسلام ما فعلوا في الجاهلية أهل الشرك والصلب
 إذا لفانك من عدلى مشطبة تدعو لذائقها بالويل والحرب

قال : ثم ما كان من حال الجارية ؟ قلت : ثم إني أتيت الجارية ، فلما رأني قالت ما فعل الشيخ ؟
 قلت قتله الحبشى ، فقالت كذبت بل قتلته أنت بغدرك . ثم أنشأت تقول :

يا عين جودى للفارس المغوار ثم جودى بواكفات غزار
 لا تملى البكاء إذ خانك الد هر بواف حقيقة صبار
 وتقى وذى وقار وحلم وعديل الفخار يوم الفخار
 لهف نفسى على بقائك عمرو أسلمتلك الأعمار للأقذار
 ولعمري لو لم تره بغدر رمت ليثا كصارم بتار

قال : فأحفظنى قولها ، فاستللت سيفى ودخلت الخيمة لأقتلها فلم أر فى الخيمة أحداً ، فاستقت للماشية
 وجئت إلى أهلى ، وهذا أثر عجيب والظاهر أن الشيخ كان من الجان ، وكان ممن أسلم وتعلم القرآن ،
 وفيما تعلمه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وكان يتعوذ بها .

وقال الخرائطى : حدثنا عبدالله بن محمد البلوى ، حدثنا عمارة بن زيد ، قال حدثنى عبد الله بن العلاء
 عن هشام بن عروة عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة
 ابن نوفل ، يذكران أنهما أتيا النجاشى بعد رجوع أبرهة من مكة ، قالوا : فلما دخلنا عليه قال لنا :
 أصدقائى أيها القرشيان ! هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه ، فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه إبل
 كثيرة ؟ قلنا نعم . قال فهل لسكبا علم به ما فعل ؟ قلنا تزوج امرأة يقال لها آمنة بنت وهب ، تركها حاملا
 وخرج . قال فهل تعاملان ولد أم لا ؟ قال ورقة بن نوفل : أخبرك أيها الملك ! أنى ليلة قد بت عند وثن
 لنا كنا نطيف به ونعبده ، إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول :

ولد النبى فذلت الأملاك ونأى الضلال وأدبر الإشرار

ثم انتكس الصنم على وجهه . فقال زيد بن عمرو بن نفيل : عندى كخبه أيها الملك . قال هات ،
 قال : أنا فى مثل هذه الليلة التى ذكر فيها حديثه ، خرجت من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة ،
 حتى أتيت جبل أبى قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابى ؛ إذ رأيت رجلا نزل من السماء له جناحان
 أخضران ، فوقف على أبى قبيس ، ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان ، وبطلت الأوثان ، ولد

الأمين . ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب ، فرأيته قد جلل ماتحت السماء ، وسطع نور كاد أن يخطف بصري ، وهالني مارأيت . وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة ، فسطم له نور أشرفت له تهامة ، وقال : ذكت الأرض وأدت ربيعها ، وأوماً إلى الأصنام التي كانت على الكعبة فسقطت كلها .

قال النجاشي : ويحك ! أخبر كما عما أصابني ؛ إني لناثم في الليلة التي ذكرتها في قبة وقت خلوتي ، إذ خرج على من الأرض عنق ورأس ، وهو يقول : حل الويل بأصحاب الغيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل ، هلك الأشرم ، المعتدى الجرم . وولد النبي الأُمي ، المسكي الحرمي . من أجا به سعد ، ومن أباه عتد . ثم دخل الأرض فغاب ، فذهبت أصييح فلم أطق الكلام ، ورمت القيام فلم أطق القيام ، فصرت القبة بيدي ، فسمع بذلك أهلي فجأوني ، فقلت احجبوا عني الحبشة فحجبوهم عني ، ثم أطلق عن لساني ورجلي .

وسأني إن شاء الله تعالى في قصة المولد ، رؤيا كسرى في سقوط أربع عشرة شرفة من إيوانه وحمود نيرانه ، ورؤيا موبذانه . وتفسير سطيح لذلك على يدي عبد المسيح ^(١) .

وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه في ترجمة الحارث بن هانيء بن المدلج بن المقداد بن زَمَل بن عمرو العذري عن أبيه عن جده عن أبيه عن زمل بن عمرو العذري قال : كان لبني عذرة صنم يقال له « صمام » . وكانوا يعظمونه ، وكان في بني هند بن حرام بن ضبه بن عبد بن كثير بن عذرة ، وكان سادنه رجلاً يقال له طارق ، وكانوا يعترفون ^(٢) عنده ، فلما ظهر رسول الله ﷺ سمعنا صوتاً يقول : يا بني هند بن حرام ! ظهر الحق وأودى صمام ، ودفع الشرك الإسلام . قال ففرعنا لذلك وهالنا ، فكنتنا أياماً . ثم سمعنا صوتاً وهو يقول : ياطارق ياطارق ، بعث النبي الصادق ، بوحى ناطق ، صدع صادع بأرض تهامة ؛ لناصريه السلامة ، ولخاذه الندامة ، هذا الوداع مني إلى يوم القيامة . قال زَمَل فوق الصنم لوجهه . قال فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبي ﷺ مع نفر من قومي ، وأنشدته شعراً قلته :

إليك رسول الله أعلمت نصها وكلفتها حزناً وغوراً من الرمل
لأنصر خير الناس نصراً مؤزرأ وأعمد حبلاً من حبالك في حبلي
وأشهد أن الله لا شيء غيره أدين به ما أنقلت قدمي نعلي

قال فأسلمت وبايعته . وأخبرناه بما سمعنا فقال : « ذاك من كلام الجن » . ثم قال : « يامعشر

(١) قد مضت هذه القصة في ميلاده صلى الله عليه وسلم ، من هذا الجزء . (٢) أي يذبحون .

العرب ، إني رسول الله إليكم وإلى الأنعام كافة ، أدعونكم إلى عبادة الله وحده ، وأني رسوله وعبده ، وأن تحجوا البيت وتصوموا شهراً من اثني عشر شهراً - وهو شهر رمضان ، فمن أجابني فله الجنة نزلاً ، ومن عصاني كانت النار له منقلبا . قال فأسلمنا وعقد لنا لواء ، وكتب لنا كتاباً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله لزمل بن عمرو ومن أسلم معه خاصة ؛ إني بعثته إلى قومه عامداً ، فمن أسلم ففي حزب الله ورسوله ، ومن أبي فله أمان شهرين . شهد علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري . ثم قال ابن عساکر : غريب جداً .

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه : حدثني محمد بن سعيد - يعني عمه - قال : قال محمد بن المنكدر : إنه ذكر لي عن ابن عباس قال : هتف هاتف من الجن على أبي قبيس فقال :

قبح الله رأيكم آل فهر	ما أدق المقول والأفهام
حين تعصى لمن يعيب عليها	دين آباؤها الحماة الكرام
حالف الجن جن بصرى عليكم	ورجال النخيل والآطام
يوشك الخيل أن تردها تهادى	تقتل القوم في حرام بهام
هل كريم منكم له نفس حر	ماجد الوالدين والأعمام
ضارب ضربة تكون نكالا	ورواحاً من كربة واغتمام

قال ابن عباس : فأصبح هذا الشعر حديثاً لأهل مكة يتناشدونه بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا شيطان يكلم الناس في الأوثان يقال له مسعر ، والله مخزبه » . فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول :

نحن قتلنا في ثلاث مسعرا	إذ سفه الجن وسن المنكرا
قنعتهم سيفاً حساماً مشهرا	بشتمه نبينا المطهرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا عفريت من الجن اسمه سمج ، آمن بي سميته عبد الله ، أخبرني أنه في طلبه ثلاثة أيام » ، فقال عليّ : جزاه الله خيراً يارسول الله .

وقد روى الحافظ أبو نعيم في الدلائل قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي حرب الصفار ، حدثنا عباس بن الفرج الرياشي ، حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت عن أبيه ، عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب ، عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حضرموت في حاجة قبل الهجرة ، حتى إذا كنت في بعض الطريق ساعة من الليل - سمعت هاتفاً يقول :

أبا عمرو تناوبني السهود وراح النوم وامتنع الهجود
لذكر عصابة سلفوا وبادوا وكل الخلق قصرهم يبيد
تولوا واردين إلى المنايا حياضاً ليس منهلها الورود
مضوا لسبيلهم وبقيت خلفاً وحيداً ليس يسعفني وحيد
سدى لأستطيع علاج أمر إذا ما علاج الطفل الوليد
فلاياً ما بقيت إلى أناس وقد باتت بمهلكها ثمود
وعاد والقرون بذى شعوب سواء كلهم لأم حصيد

قال ثم صاح به آخر: يا خرب^(١) ذهب بك العجب؛ إن العجب كل العجب، بين زهرة ويثرب.
قال: وما ذلك يا شاحب^(٢)؟ قال نبي السلام، بعث بخير الكلام إلى جميع الأنام، فاخرج من البلد
الحرام إلى نخيل وآطام. قال: ما هذا النبي المرسل والكتاب المنزل، والأُمى المفضل؟ قال: رجل
من ولد لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. قال: هيئات! فات عن هذا سنى،
وذهب عنه زمنى، لقد رأيتني والنضر بن كنانة نرمى غرضاً واحداً، ونشرب حلباً بارداً، ولقد خرجت
به من دوحه في غداة شبة^(٣)، وطلع مع الشمس وغرب معها، يروى ما يسمع ويثبت ما يبصر. وأئن كان
كان هذا من ولده؛ لقد سل سيف وذهب الخوف، ودحض الزنا، وهلك الربا. قال: فأخبرني ما يكون؟
قال: ذهبت الضراء والبؤس والجماعة، والشدة والشجاعة، إلا بقية في خزاعة. وذهبت الضراء والبؤس
والخلق المنفوس، إلا بقية من الخرج والأوس. وذهبت الخيلاء والفخر، والنميمة والفدر، إلا بقية
في بنى بكر - يعنى ابن هوازن. وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم، إلا بقية في خثعم. قال أخبرني
ما يكون؟ قال إذا غلبت البرة، وكظمت الحرة، فاخرج من بلاد الهجرة. وإذا كف السلام.
وقطعت الأرحام، فاخرج من البلد الحرام. قال أخبرني ما يكون؟ قال: لولا أذن تسمع، وعين تلمع،
لأخبرتكم بما تفرع، ثم قال:

لامنام هـداته بنيم يا ابن غوط ولا صباح أنانا

قال ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبل، فذهب الفجر فذهبت لأنظر فإذا عَظاية^(٤) وثمان
ميتان. قال فما علمت أن رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث. ثم رواه عن محمد بن
جعفر عن إبراهيم بن علي عن النضر بن سلمة عن حسان بن عباد بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام
عن شهر عن ابن عباس عن سعد بن عباد، قال: لما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة

(١) الخرب: الطويل اللحم (٢) شجب لونه: تغير من هزال أو جوع. (٣) أى باردة.

(٤) العظاية: دوية كسام أبرص.

خرجت إلى حضرموت ابهض الحاج ، قال : ففضيت حاجتي ثم أقبلت ، حتى إذا كنت ببهض الطريق نمت ، ففرغت من الليل بصائح يقول :

أبا عمرو تناوبني السهود وراح النوم وانقطع الهجود

وذكر مثله بطوله .

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا إبراهيم بن علي ، حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا أبو غزيرة محمد بن موسى ، عن العطف بن خالد الوصابي عن خالد بن سميد عن أبيه قال : سمعت تيمم الداري يقول : كنت بالشام حين بعث النبي ﷺ ، فخرجت لبعض حاجتي فأدركني الليل ، فقلت أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة . قال : فلما أخذت مضجعي إذا أنا بمناد ينادي - لأراه - عذبا لله ؛ فإن الجن لا تجير أحداً على الله ، فقلت : أيم الله ما تقول ؟ فقال قد خرج رسول الأميين ، رسول الله وصلينا خلفه بالحجون ، فأسلمنا واتبعناه ، وذهب كيد الجن ورميت بالشهب . فانطلق إلى محمد رسول رب العالمين فأسلم . قال تميم : فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب ، فسأت راهباً وأخبرته الخبر ، فقال الراهب : قد صدقوك ؛ يخرج من الحرم ومهاجره الحرم ، وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه . قال تميم : فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت .

وقال حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن يزيد الهذلي ، عن عبد الله بن ساعدة الهذلي عن أبيه قال : كنا عند صنمنا « سواع » ، وقد جلبنا إليه غنا لنا ، مائتي شاة قد أصابها جرب ، فأدنيناهما منه لنطلب بركته ، فسمعت منادياً من جوف الصنم ينادي : قد ذهب كيد الجن ، ورمينا بالشهب لنبي اسمه أحمد . قال : فقلت غويت والله ، فصدفت وجه غنمي منجسداً إلى أهلي ، فرأيت رجلاً فخبني بظهور النبي ﷺ . ذكره أبو نعيم هكذا معلقاً . ثم قال : حدثنا عمر بن محمد بن جعفر ، حدثنا إبراهيم بن السفدي حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا محمد بن مسلمة الخزومي ، حدثنا يحيى بن سايان عن حكيم بن عطاء الظفري - من بني سليم من ولد راشد بن عبد ربه - عن أبيه عن جده عن راشد بن عبد ربه ، قال : كان الصنم الذي يقال له « سواع » بالمعلاة ، من رهط تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم ، فأرسلت بنو ظفر راشد ابن عبد ربه بهدية من سليم إلى سواع ، قال راشد : فأقيمت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع ، فإذا صارخ بصرخ من جوفه : العجب كل العجب ، من خروج نبي من بني عبد المطلب ، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام ، وحرست السماء ورمينا بالشهب ، العجب كل العجب . ثم هتف صنم آخر من جوفه : ترك الضمار وكان يعبد ، خرج النبي أحمد ، صلى الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام ، والبر والصلات للأرحام . ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول :

إن الذي ورث النبوة والهدى بعد ابن صريم من قر يش مهتد

نبي أنى يخبر بما سبق وبما يكون اليوم حقاً أو غد
قال راشد : فألفيت سواغاً مع الفجر وتعلبان يلحسان ماحوله ، ويأكلان ما يهدى له ، ثم بعوجان
عليه ببولها ، فمعد ذلك يقول راشد بن عبد ربه :

أربُّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلَّ من بآلت عليه الثعالب

وذلك عند مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به ، فخرج راشد
حتى أتى النبي ﷺ المدينة ومعه كلب له ، واسم راشد يومئذ ظالم ، واسم كلبه راشد ، فقال النبي
صلى الله عليه وسلم : « ما اسمك ؟ » قال ظالم . قال : « فما اسم كلبك ؟ » قال راشد ، قال : « اسمك
راشد ، واسم كلبك ظالم » . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، وبايع النبي ﷺ وأقام بمكة معه .
ثم طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم : قطيعة بوهاط^(١) - ووصفها له - فأقطعه رسول الله
ﷺ بالمعلاة من وهاط شأو الفرس ، ورميته ثلاث مرات بحجر ، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل
فيها وقال له : « فرغها في أعلا القطيعة ولا تمنع الناس فضلها » - ففعل ، فجعل الماء معيناً يجري إلى اليوم
ففرس عليها النخل . ويقال إن وهاط كلها تشرب منه ، فسمها الناس ماء الرسول ﷺ . وأهل وهاط
يفتسلون بها ، وبلغت رمية راشد الركب الذى يقال له ركب الحجر ، وغدا راشد على سواع فكسره .
وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا علي بن إبراهيم الخزازى الأهوازى ، حدثنا أبو محمد
عبد الله بن داود بن دهاث بن إسماعيل بن مسرع بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ ؛ حدثنا
أبى عن أبيه دهاث عن أبيه إسماعيل ، أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر ، أن أباه ياسر
حدثه عن عمرو بن مرة الجهنى ، أنه كان يحدث قال : خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية ،
فرايت في المنام - وأنا بمكة - نوراً ساطعاً من السكبة ، حتى أضاء في جبل يثرب وأشعر جهينة ، فسمعت
صوتاً في النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء . ثم أضاء إضاءة
أخرى حتى نظرت إلى قصور الخيرة وأبيض المدائن ، فسمعت صوتاً في النور وهو يقول : ظهر الإسلام
وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً ، فقلت لقومي : والله ليحدثن في هذا الحى من قريش
حدث ، وأخبرتهم بما رأيت . فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلاً يقال له أحمد قد بعث ،
فأنتبهت فأخبرته بما رأيت ، فقال : « يا عمرو بن مرة ! إنى لم أرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام ،
وأمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر من اثني عشر
شهرأ - وهو شهر رمضان ، فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار ، فأمن يا عمرو بن مرة يؤمنك
الله من نار جهنم » . فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، آمنت بكل ما جئت به من حلال

(١) الوهط : المسكن المظلم من الأرض المستوى ، ينبت فيه العضاء والسمر والطلع ، والجم وهاط وأوهاط .

وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام ، ثم انشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به ، وكان لنا صنم وكان
أبي سادناً له ، فقمتم إليه فكسرتة ، ثم لحقت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أقول :

شهدت بأن الله حق وأنى لآلهة الأبحار أول تارك
فشمرت عن ساقى إزار مهاجر إليك أدب الغور بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً رسول ملوك الناس فوق الحبائك

فقال النبي ﷺ : « مرحباً بك يا عمرو بن مرة » ، فقلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى ! ابعث بي
إلى قومي ، لعل الله أن يمن بي عليهم كما من بك على ؛ فبعثني إليهم وقال : « عليك بالقول السديد
ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً » . فأتيت قومي فقلت لهم : يا بني رفاعة ثم يا بني جهينة ،
إني رسول من رسول الله إليكم ، أدعوكم إلى الجنة ، وأحذركم النار ، وأمركم بحقن الدماء ، وصلة الأرحام
وعبادة الله ، ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان - شهر من اثني عشر شهراً ؛ فمن
أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . يا معشر جهينة ، إن الله - وله الحمد - جعلكم خيار من أتم
منه ، ورفض إليكم في جاهلييتكم ما حبيب إلى غيركم من الرفث - لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين ،
ويخلف الرجل على امرأة أبيه - والترات في الشهر الحرام فأجيبوا هذا النبي المرسل صلى الله عليه وسلم
من بنى لؤى بن غالب ، تفالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة سارعوا سارعوا في ذلك - يكون لكم
فضيلة عند الله . فأجابوا إلا رجلاً منهم قام فقال : يا عمرو بن مرة ! أمر الله عليك عيشك ، أتأمرنا
أن نرفض آلهتنا ، ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا ، إلى ما يدعوه هذا القرشي من أهل تهامة ؟ لا ولا
مرحباً ولا كرامة ، ثم أنشأ يقول :

إن ابن مرة قد أتى بمقالة ليست مقالة من يريد صلاحاً
إني لأحسب قوله وفعاله يوماً وإن طال الزمان رباحاً
أنسفه الأشياخ من قد مضى من رام ذلك لأصاب فلاحاً

فقال عمرو بن مرة : الكاذب مني ومنك أمر الله عيشه ، وأبكم لسانه ، وأكمه بصره . قال عمرو
ابن مرة : والله ما مات حتى سقط فوه ، وكان لا يجد طعام الطعام ، وعمى وخرس . وخرج عمرو بن مرة
ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي ﷺ ، فرحب بهم وحياهم ، وكتب لهم كتاباً هذه نسخته :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله على لسان رسول الله ؛ بكتاب صادق ، وحق ناطق ،
مع عمرو بن مرة الجهني - لجهينة بن زيد ، إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ،
ترعون نباته وتشربون صافيه ؛ على أن تقرؤوا بالخمس ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وفي التبعة والصرية

شأنان إن اجتمعتا ، وإن تفرقتا فشاها شاة . ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة » . وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضى الله عنهم . وذلك حين يقول عمرو بن مرة :

ألم تر أن الله أظهر دينه	وبين برهان القرآن لعامر
كتاب من الرحمن نور لجمعنا	وأحلافنا في كل باد وحاضر
إلى خير من يمشى على الأرض كلها	وأفضلها عند اعتكار الصرائر
أطعنا رسول الله لما تقطعت	بطون الأعدى بالظبي والخواطر
فذهن قبيل قد بنى المجد حولنا	إذا اجتلبت في الحرب هام الأكابر
بنو الحرب نفرها بأيد طويلة	وببيض تلالا في أكف المغاور
ترى حوله الأنصار تحمى أميرهم	بسمر العوالى والصفاح البواتر
إذا الحرب دارت عند كل عزيمة	ودارت رحاها بالليوث الهواصر
تبلّج منه اللون وازداد وجهه	كمثل ضياء البدر بين الزواهر

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه : حدثنا عبد الله ، حدثنا أبو عبد الله ، حدثنا المجالد بن سعيد والأجلح عن الشعبي ، حدثنى شيخ من جهينة قال : مرض منا رجل مرضاً شديداً فثقل حتى حفرنا له قبره وهياًنا أمره ، فأغنى عليه ثم فتح عينيه وأفاق ، فقال أحفرتم لى ؟ قالوا نعم ، قال : فما فعل الفصل - وهو ابن عم له - قلنا صالح مر آنفاً يسأل عنك ، قال أما إنه يوشك أن يجعل فى حفرتى ، إنه أنانى آت حين أغنى على فقال : أبك هبل ؟ أما ترى حفرتك تنتمل^(١) ، وأملك قد كادت تشكل ؟ رأيتك إن حولناها عنك بالحول ، ثم ملأناها بالجنود ، وقذفنا فيها الفصل ، الذى مضى فأجزأك ، وظن أن لن يفعل . أنتشكر لربك وتصل ، وتدع دين من أشرك وضل ؟ قال : قلت نعم . قال قم قد برئت . قال فبرئ الرجل ، ومات الفصل فجعل فى حفرته . قال الجهينى : فرأيت الجهينى بعد ذلك يصلى ويسب الأوثان ويقع فيها .

وقال الأموى : حدثنا عبد الله قال : بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مجلس يتحدثون عن الجن ، فقال خريم بن فاتك الأسدى : ألا أحدثك كيف كان إسلامى ؟ قال بلى ، قال إني يوماً فى طلب ذود^(١) لى أنا منها على أثر تنصب وتصعد ، حتى إذا كنت بأبرق العراق أنخت راحلتى ، وقلت أعوذ بعظيم هذه البلدة ، أعوذ برئيس هذا الوادى ، فإذا بهاتف يهتف بى :

ويحك ، عذ بالله ذى الجلال والمجد والعلية والإفضال
ثم اتل آيات من الأنفال ووحده الله ولا تبالى

(١) أى يستخرج ترابها (٢) الذود من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر ، إلا يكون مالا من الإناث .

قال فذعرت ذعراً شديداً ثم رجعت إلى نفسي فقلت :

يا أيها الهاتف ماتقول أرشد عندك أم تضليل ؟

* بَيْنَ - هَذَاكَ اللَّهُ - مَا الْحَوِيلَ *

قال فقال : هذا رسول الله ذو الخيرات بيثرب يدعو إلى النجاة

يأمر بالبر وبالصلاة ويزع الناس عن الهنات

قال قلت له : والله لأأبرح حتى آتية وأومن به ، فنصبت رجلي في غرير راحتي وقلت :

أرشدني أرشدني هديتنا لاجعت ماعشت ولا عريتنا

ولا برحت سيداً مقيتا لا تؤثر الخير الذي أتيتا

* على جميع الجن ما بقيتا *

صاحبك الله وأدى رحلكا وعظم الأجر وعافا نفسك

فقال : آمن به أفلج ربي حقكا وانصره نصرأ عزيزاً نصركا

قال : قلت من أنت عافاك الله ، حتى أخبره إذا قدمت عليه ؟ فقال أنا ملك بن ملك ، وأنا نقيبته

على جن نصيبين . وكفيت إبلك حتى أضهما إلى أهلك إن شاء الله قال فخرجت حتى أتيت المدينة

يوم الجمعة والناس أرسل إلى المسجد ، والنبي ﷺ على المنبر كأنه البدر يخطب الناس ، فقلت أنيخ على

باب المسجد حتى يصلي ، وأدخل عليه فأسلم ، وأخبره عن إسلامي ، فلما أنحت خرج إلى أبو ذر فقال :

مرحباً وأهلاً وسهلاً ، قد بلغنا إسلامك ، فادخل فصل ، ففعلت . ثم جئت رسول الله ﷺ فأخبرني

بإسلامي فقلت الحمد لله ، قال : « أما إن صاحبك قد وفي لك وهو أهل ذلك ، وأدى إبلك إلى أهلك » .

وقد رواه الطبراني في ترجمة خريم بن فاتك من معجمه الكبير قائلا : حدثنا الحسين بن إسحاق

اليسيري ، حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي ، حدثنا عبد الله بن موسى الإسكندري ، حدثنا محمد بن إسحاق

عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين !

ألا أخبرك كيف كان بدء إسلامي ؟ قال : بلى ! فذكره ، غير أنه قال : فخرج إلى أبو بكر الصديق فقال :

ادخل فقد بلغنا إسلامك ، فقلت لا أحسن الطهور فعماني ، فدخلت المسجد فرأيت رسول الله ﷺ

كأنه البدر وهو يقول : « مامن مسلم توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى صلاة يحفظها ويعمها إلا دخل الجنة » .

فقال لي عمر : لتأتيني على هذا بينة أو لأنك نكنا بك ، فشهد لي شيخ قریش عثمان بن عفان فأجاز شهادته .

ثم رواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن تيم عن محمد بن خليفة عن محمد بن الحسن عن أبيه

قال : قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك : حدثني بحديث يعجبني ، فذكر مثل السياق الأول سواء .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشي الدمشقي ،

حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل ، حدثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن عبد الله بن الديلمي قال : أتى رجل ابن عباس فقال : بلغنا أنك تذكر سطيحاً تزعم أن الله خلقه ، ولم يخلق من بني آدم شيئاً يشبهه ؟ قال قال نعم ، إن الله خلق سطيحاً الفسافي لهما على وضهم^(١) ، ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة والكفان . وكان يطوى من رجليه إلى ترقوته كما بطوى الثوب ، ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه ، فلما أراد الخروج إلى مكة حمل على وضمة فأتى به مكة ، فخرج إليه أربعة من قريش : عبد شمس ، وهاشم - ابنا عبد مناف بن قصي ، والأحوص بن فهر ، وعقيل بن أبي وقاص ، فأتهموا إلى غير نسبهم ، وقالوا نحن أناس من جمح أتيناك ، بلغنا قدومك ، فرأينا أن إتياننا إياك حق لك واجب علينا . وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية ، وصدمة^(٢) ردينية ، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا ، أهل يراها سطيح أم لا . فقال : يا عقيل ناولني يدك ، فناوله يده فقال : يا عقيل والعالم الخفية ، والغافر الخطية ، والذمة الوفية ، والكعبة المبنية - إنك للجبأى بالهدية ، الصفيحة الهندية ، والصدمة الردينية . قالوا صدقت ياسطيح . فقال : والآتي بالفرح ، وقوس قرح ، وسائر الفرح ، واللطم المنبطح ، والفخل والرطب والبلح - إن الغراب حيث مرّ سفح ، فأخبر أن القوم ليسوا من جمح ، وأن نسبهم من قريش ذى البطح . قالوا صدقت ياسطيح ، نحن أهل البيت الحرام ، أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك . فأخبرنا عما يكون في زماننا هذا ، وما يكون بعده ، فلعلم أن يكون عندك في ذلك علم ، قال : الآن صدقتم ، خذوا مني ومن إلهام الله إياي .

أنتم يامعشر العرب في زمان الهرم ، سواء بصائركم وبصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشو من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم ، فيكسرون الصنم ، ويبلغون الردم ، ويقتلون العجم ، ويطلبون الغنم قالوا ياسطيح فمن يكون أولئك ؟ فقال لهم : والبيت ذى الأركان ، والأمن والسكان لينشأن من عقبكم ولدان يكسرون الأوثان ، وينكرون عبادة الشيطان ، ويوحدون الرحمن ، وينشرون دين الديان ، بشرفون البنيان ، ويستفتون الفتيان . قالوا ياسطيح من نسل من يكون أولئك ؟ قال : وأشرف الأشراف ، والمفضى للأشراف ، والمزعزع الأحقاف ، والمضمف الأضعاف ، لينشؤون الآلاف من عبد شمس وعبد مناف ، نشوءاً فيه اختلاف . قالوا ياسطيح مما تخبرنا من العلم بأسرهم ! ومن أي بلد يخرج أولئك ؟ فقال : والباقي الأبد ، والبالغ الأمد ، ليخرجن من ذا البلد ، فتى يهدى إلى الرشد ، يرفض يغوث والغند ، يبرأ من عبادة الضدد ، يعبد رباً انفراداً ، ثم يتوفاه الله محموداً ، من الأرض مفقوداً ، وفي السماء مشهوداً .

(١) الوضم : كل ما يوقى به اللحم من الأرض ؛ من خشب وحصير ونحوها .

(٢) الصدمة : القناة تنبت المستوية كذلك . والصفيحة : السيف العريض .

ثم بلى أمره الصديق إذا قضى صدق ، في رد الحقوق لاخرق ولا نزق . ثم بلى أمره الخفيف ، مجرب غطريف ، ويترك قول العنيف ، قد ضاف المضيف ، وأحكم التحنيف . ثم بلى أمره داعياً لأمره مجرباً ، فتنجتم له جمعاً وعصبا ، فيقتلونه نعمة عليه وغضبا ، فيؤخذ الشيخ فيذبح إرباً ، فيقوم به رجال خطبا . ثم بلى أمره الناصر ، يخاطب الرأي برأى المناكر ، يظهر في الأرض العساكر . ثم بلى بعده ابنه يأخذ جمعه ويقل حمده ، ويأخذ المال ويأكل وحده ، ويكثر المال بعقبه من بعده ، ثم بلى من بعده عدة ملوك ، لاشك الدم فيهم مسفوك ، ثم بعدهم الصعلوك يطويهم كطى الدرثوك . ثم بلى من بعده عظيم يقصى الحق ويدنى مصر ، يفتتح الأرض افتتاحاً منكراً ، ثم بلى قصير القامة ، يظهره علامة يموت موتاً وسلامة . ثم بلى قليلاً باكر ، يترك الملك باثر ، بلى أخوه بسنته سابر ، يختص بالأموال والمنابر . ثم بلى من بعده أهوج ، صاحب دنيا ونعيم مخلج ، يتشاوره معاشره وذووه ، ينهضون إليه يخلمونه ، بأخذ الملك ويقتلونه . ثم بلى أمره من بعده الساج ، يترك الملك محلاً ضائع ، بنوه في ملكه كالشوه جامع . عند ذلك يطمع في الملك كل عريان ، وبلى أمره اللهفان ، يرضى نزاراً جمع حيطان ، إذا التقيابدمشق جمان ، بين بنيان وبنان ، يصنف اليمن يومئذ صنفان : صنف المشورة وصنف الخذول . لا ترى إلا حياء محلول ، وأسيراً مغلول ، بين القراب والخيلول . عند ذلك تحرب المنازل ، وتسلب الأرامل وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل ، وتطلب الخلافة وائل ، فتغضب نزار ، فتدنى العبيد والأشرار ، وتقصى الأمثال والأخبار ، وتغلو الأسعار في صفر الأصفار . يقتل كل حياً منه ، ثم يسرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار ، تصدله الأنهار ويهزمهم أول النهار ، تظهر الأخبار ، فلا ينفعمهم نوم ولا قرار ، حتى يدخل مصرأً من الأمصار ، فيدركه القضاء والأقدار . ثم يجيء الرماة ، تلف مشاة ، تقتل الكماة وأسر الحماة ، وتهلك الغواة ، هنالك يدرك في أعلى المياه . ثم يبور الدين ، وتقلب الأمور ، وتكفر الزبور ، وتقطع الجسور ، فلا يقلت إلا من كان في جزائر البحور ، ثم تبور الحبوب ، وتظهر الأعراب ، ليس فيهم معيب على أهل الفسوق والريب ، في زمان عصيد ، لو كان للقوم حيا ، وما تفى المنى . قالوا ثم ماذا يسطيح ؟ قال ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطن ، يذهب الله على رأسه الفتن . وهذا أثر غريب كتباه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم . وقد تقدم قصة شق وسطيح مع ربيعة ابن نصر ملك اليمن ، وكيف بشر بوجود رسول الله ﷺ ، وكذلك تقدم قصة سطيح مع ابن أخته عبد المسيح ، حين أرسله ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النبران ، ورؤيا الموبدان . وذلك ليلة مولد الذي نسخ بشر يعته سائر الأديان .

تم الجزء الثاني من البداية والنهاية . ويليه الجزء الثالث إن شاء الله وأوله : باب كيفية بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهرس الجزء الثاني
من « البداية والنهاية » لابن كثير

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
قصة زكريا ويحيى عليهما السلام	٥٠	باب ذكر جماعة من بني إسرائيل بعد موسى	٣
اختلاف الروايات في موت زكريا	٥٦	قصة حزقييل	٣
بيان سبب قتل يحيى عليه السلام	٥٨	« اليسع »	٥
قصة عيسى بن مريم عليه السلام	٦٠	فصل عن « ابن جرير » في شمويل بن بالي	٥
فضائل مريم	٦٢	قصة سيدنا داود عليه السلام ، وما كان في أيامه ، فضائله ، شمائله ، دلائل نبوته	١٠
شيء من فضل السيدة خديجة وعائشة وآسية	٦٥	ذكر كيفية حياته ، وكيفية وفاته	١٨
امرأة فرعون		قصة سليمان بن داود عليهما السلام .	١٩
ذكر ميلاد عيسى عليه السلام	٦٨	سليمان والنملة ٢١ - المدهد وبلقيس	٢٠
باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد	٧٦	سليمان والخيل ٢٨ - حكم سليمان ودارد	٢٦
والرد على النصارى من القرآن		في الحرث ٢٩ - سليمان والريح والطير -	٨٢
ذكر منشأ عيسى ومرباه في صغره وصباه	٨٢	تسخير الجن لسليمان ، نساء سليمان وعددهن	٣٠
وبيان بدء الوحي إليه		ذكر وفاة سليمان ، ومدته ملكه وحياته	٣٢
بيان نزول السككب الأربعة	٨٥	ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل ممن لا يعلم وقت زمانهم - منهم شعيا بن أمصيا	٣٥
الكلام على شجرة طوبى ، ويتصل به	٨٦	ومنهم إرميا بن حلقيا	٣٦
الكلام على آيات عيسى ومعجزاته		ذكرى خراب بيت المقدس	٣٦
ذكر خبر المائدة	٩٤	تسليط الله بختنصر على بني إسرائيل	٤١
فصل في حكم ومواظب مأثورة عنه	٩٥	ذكر شيء من خبر دانيال عليه السلام	٤٣
عليه السلام		ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها	٤٥
ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وكذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب	١٠٠	واجتماع بني إسرائيل بعد تفرقهم	
ذكر صفة عيسى وشمائله وفضائله	١٠٦	قصة العزيز وذكور موته الأولى وحياته	٤٦
فصل في اختلاف أصحاب المسيح بعد رفعه	١١١	فصل في الاختلاف في العزيز ووقته	٤٩
بيان بناء بيت لحم والقمامة	١١١		

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
قصص وأحاديث من البخارى عن بنى إسرائيل	١٥٤	كتاب من أخبار الماضين من بنى إسرائيل	١١٢
قصة الملكين التائبين الواردة في مسند الإمام أحمد ، وأحاديث البخارى	١٥٧	وغيرهم إلى زمن الفترة - سوى أيام العرب	١١٢
فصل في بيان أن أخبار بنى إسرائيل كثيرة	١٦٢	خبر ذى القرنين في القرآن الكريم	١١٢
ذكر تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم	١٦٢	بيان طلب ذى القرنين عين الحياة	١١٧
حكم لمس الجنب للتوراة	١٦٤	ذكر أمتى بأجوج ومأجوج وصفتهم وما	١١٩
الأناجيل الأربعة	١٦٥	ورد من أخبارهم ١٢١ - وصفة السد	١١٩
كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين	١٦٧	قصة أصحاب الكهف	١٢٣
ذكر أخبار العرب	١٧١	قصة الرجلين : المؤمن والكافر من قوله تعالى (واضرب لهم مثلاً رجلين)	١٢٨
قصة سبأ	١٧٤	قصة أصحاب الجنة من قوله تعالى (إنا بنو ناهم كما بلونا أصحاب الجنة)	١٣١
فصل في خروج سبأ من اليمن	١٧٧	قصة أصحاب إيالة ، الذين اعتدوا في السبت	١٣٢
قصة ربيعة بن نصر بن أبى حارثة	١٧٨	قصة لقمان من قوله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة)	١٣٥
قصة تبع بن كرب تبارز أسعد ملك اليمن مع أهل المدينة	١٨٠	قصة أصحاب الأخدود	١٤٢
وثوب نخعيعة ذى شنتر على ملك اليمن	١٨٤	بان بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بنى إسرائيل	١٤٥
ذكر خروج الملك باليمن من حمير وصيرورته إلى الحبشة والسودان	١٨٥	قصة جريج أحد عباد بنى إسرائيل	١٤٧
خروج أبرهة الأشرم على أرباط واقتالها واستقلال الأشرم بملك اليمن	١٨٦	قصة برصيصا	١٥٠
ذكر سبب قصة أبرهة بالغيل مكة وإهلاكه بالطير الأبابيل	١٨٧	قصة الثلاثة الذين آووا إلى الغار فانطبق عليهم	١٥١
ذكر خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذى يزن الحميرى	١٩٤	قصة الثلاثة : الأعمى والأبرص والأقرع	١٥٢
ذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن	١٩٧	حديث الذى استلف من صاحبه ألف دينار فأداها إليه بالقاءها فى البحر	١٥٣
قصة الساطرون صاحب الحضرة	١٩٩	قصة أخرى شبيهة بهذه القصة فى الصدق والأمانة	١٥٣
خبر ملوك الطوائف	٢٠١		

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
تجديد حفر زمزم على يدى عبد المطلب	٢٦٦	باب ذكر بنى إسماعيل وهم عرب الحجاز وما	٢٠٢
ذكر نذر عبد المطلب ذبح أحد ولده	٢٧٠	كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة	
تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنه بنت وهب الزهرية	٢٧١	قصة خزاعة ، وخبر عمرو بن لحي ، وعبادة الأصنام بأرض العرب	٢٠٤
كتاب سيرة الرسول عليه السلام	٢٧٤	باب جهل العرب	٢٠٨
باب ذكر نسبه الشريف	٢٧٤	خبر عدنان جد عرب الحجاز ، وهو الذى ينتهى إليه النسب الحمدي	٢١٢
باب مولد الرسول صلى الله عليه وسلم	٢٨٢	ذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان	٢١٧
صفة مولده الشريف عليه السلام	٢٨٥		
فصل فيما وقع من الآيات ليلة مولده	٢٨٩		
ذكر ارتجاس الإيوان وسقوط شرفاته وخمود النيران ، ورؤيا الموبدان	٢٩١	الكلام على قريش : نسباً واشتقاقاً وفضلاً	٢١٨
تعريف بسطريح الكاهن	٢٩٣	خبر قصي بن كلاب وارتجاعه ولاية البيت إلى قريش وانتزاعه ذلك من خزاعة	٢٢٤
تعريف بعبد المسيح بن عمرو الفسائي	٢٩٤	فصل في تخصيص قصي شأن حراسة قريش إلى ولده عبد الدار	٢٢٨
ذكر حواضنه ومراضعه عليه السلام	١٩٦		
رضاعه عليه السلام من حليمة السعدية وما ظهر من البركة والآيات	٢٩٦	ذكر رجل من الأحداث الواقعة في زمن الجاهلية	٢٣٠
فصل في وفاة أمه عليه السلام ، وزيارة قبرها وإخباره عن أبيه	٣٠٢	ذكر خالد بن سنان العبسي	٢٣٠
فصل في عناية جده عبد المطلب وعمه أبي طالب به عليه السلام	٣٠٥	ذكر حاتم الطائي أحد أجداد الجاهلية	٢٣١
فصل في خروجه ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام وقصته مع بحيرا الراهب	٣٠٧	ذكر شيء من أخبار عبد الله بن جردان	٢٣٧
قصة بحيرا الراهب — ومنشؤه عليه السلام وسرباه وكفالة الله له	٣١٠	ذكر امرئ القيس صاحب إحدى المعلقات	٢٣٨
فصل في شهوده عليه السلام حرب الفجار	٣١٢	ذكر شيء من أخبار أمية بن أبي الصلت	٢٤٠
» » » » حلف الفضول	٣١٥	بحيرا الراهب	٢٥٠
		ذكر قس بن ساعدة الإيادي	٢٥٠
		ذكر زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه	٢٥٨
		ذكر شيء مما وقع من الحوادث زمن الفترة	٢٦٥
		» بنيان الكعبة	
		» كعب بن لؤي	٢٦٥

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
فصل في إنذار يهود بالرسول وقصة إسلام سلمان الفارسي	٣٣٣	تزويجه بخديجة أم المؤمنين	٣١٨
ذكر أخبار غريبة في ذلك	٣٤٢	فصل فيما كان بين خديجة وابن عمها ورقة	٣٢٠
قصة عمرو بن مسرة الجهني	٣٤٥	ابن نوفل بشأنه صلى الله عليه وسلم	٣٢٢
قصة سيف بن ذي يزن الحميري وبشارته بالنبي الأُمي	٣٥٥	فصل في تجديد قریش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين	٣٢٩
باب في هواتف الجان	٣٥٩	فصل في الخمس	٣٣٠
الفهرست	٣٨٥	كتاب مبعث الرسول وذكر شيء من البشارات بذلك	



منطقة البحث الزراعي

شارع الشيخ القويضي رقم ٣٨ ب بالظاهر

Library of



Princeton University.

